المركزية التارينية

ر الموت إوران المراسلة

من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين ١٢٠٤ – ٨٦٩

> البكتوسا سحاق كما وضروس عبيد مدوس العصود السطى بكلية الآداب -- جامعة عين شسس

> > 197.

ك دارالمفارف بمصر

اهداءات ۲۰۰۳ أسرة أ.د/رمزي ذكيي القاسرة

ر مون او بازنط ب

من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين ١٢٠٤ – ١٢٠٤

الدكتورابسحاق كاوضروس عبيد مددس العصود البسطى

بكلية الآداب - جامعة عين شمس

194



verted by Till Collibilie - (110 statilps are applied by registered version)

فهرست

فهرست
مفد
تمهيد
الفصل الأول : قطيعة فوشيوس (عام ٨٦٩) ٢٠ — ٢٠
الفصل الثانى : الشقاق الديني الأكبربين روماو بيزنطة (١٠٥٤) ٢١ –٣٩
الفصل الثالث: بيزنطةوالبابوية وغرب أوربامن١٠٥٤ـــ١٠٩٥ ٤١ =٦٦
الفصل الرابع : بيزنطة والحركة الصليبية ٢٧ –١٢٤
الفصل الخامس : البابويةتبشر بحملة صليبيةضدبيزنظة(١١٠٧) ١٥٤–١٥٤
الفصل السادس : علاقات بيزنطة باللاتين في عهد يوحنا كومنين ١٧٦–١٧٦
(۱) مع الإمارات الصليبية ١٩٥ (٢) مع دويلات إيطاليا ١٦٥ (٣) مع البلاط الألماني ١٦٧ (٤) مع البابوية ١٧١
الفصل السابع : بيزنطة والحملة الصليبية الثانية ٢٠٦–٢٠٦
الفصل الثامن : بيزنطةوالإمارات الصليبية من١١٤٣ ـــ ١١٨٠ ٢٠٧ ــ ٢٣٥
الفصل التاسع: العلاقات السياسية بين بيزنطةوغرب أو ربا
من ۱۱۸۷ - ۲۳۷ ۲۳۲
الفصل العاشر : بيزنطة والبابوية من ١١٥٦ – ١١٨٠ ٢٧٨–٢٧٨
الفصل الحادى عشر: بيزنطة والصليبية الثالثة ٢٧٩ ــ ٢٩٦
الفصل الثانى عشر : مشروع صليبيةهنرى السادسضد بيزنطة ٢٩٧ـــ٢٠
الفصل الثالث عشر : الجوانب الكنسية فى الصليبية الرابعة التى انتهت بغزو القسطنطينية (١٢٠٤) . ٣٠٥–٣٥٢
الأصول المراجع :

بير هدي

هذا الكتاب يبحث في موضوع العلاقات بين روما وبيزنطة من وقت القطعية الدينية بين الجانبين على عهد البطريرك فوشيوس حتى الغزو اللاتيني القسطنطينية سنة ١٢٠٤. والفترة التي وقع عليها الاختيار (من ٨٦٩ – ١٢٠٤) شهدت أخطر الأحداث الكنسية والسياسية ، ومن بينها محاولات الغرب اللاتيني مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية في أكثر من مناسبة ، وذلك بتأييد البابوية . غير أن بينطة آنداك صمدت بفضل جهود الأباطرة الذين جلسوا على عرش قسطنطين العظيم ، إلى أن حانت فرصة الكنيسة الغربية لتنقض على بيزنطة وكنيسها المسكونية في عام ١٢٠٤.

والنظرية التي يعتمد عليها هذا الكتاب تتلخص في أن الغزو الصليبي لبيزنطة سنة ١٢٠٤ لم يكن وليد «إنحراف» أو «صلفة» كما يذهب الكثيرون، وإنما تتمة لمخطط ساهمت فيه البابوية بدور كبير. ولذا كان لزاماً على الكاتب الرجوع إلى جذور المشكلة من عام ٨٦٩، عام القطيعة الدينية بين روما القديمة وروما الجديدة، وذلك لتقصى الحقائق الكامنة وراء هذا الصراع الذي النهى بسقوط مدينة قنسطنطين العظيم سنة ١٢٠٤ في أيدى جنود البابا أنهست الثالث.

والله الموفق .

المؤلف

الفصل الأول

قطيعة فوشيوس

كان المجتمع البيزنطي مجتمعاً عقائدياً بطبيعة تكوينه ، ولهذا فلقد كان للعقيدة آثارها البالغة في كافة المجالات المتصلة بحياة الإمبراطورية ، ونجم عن ذلك أن قامت الكنيسة البيزنطية بدور خطير في تاريخ الإمبراطورية ، وكانت شخصية بطريرك أيا صوفيا لا تقل هيبة واحتراماً عن شخصية الإمبراطور ذاته . ولقد زاد من ثقل تلك الأهمية تلك الحقوق الطائلة المدى التي منحها مجمع القسطنطينية المسكوني (١) (٣٨١) لبطريرك بيزنطة ، ثم ماجاء من قرارات في مجمع خلقدونية (١) (٤٥١) لتعزيز كيان كرسي بيزنطة . واستناداً علىقرارات أي محمد الفتح العربي لأقاليم سوريا وفلسطين ومصر — في القرن السادس . وبعد الفتح العربي لأقاليم سوريا وفلسطين ومصر — في القرن السابع — وبعد أن استقلت بطريركيات أنطاكية وأورشليم والإسكندرية عن النفوذ البيزنطي ، أن استقلت بطريرك القسطنطينية الرأس الأوحد للكنيسة الأرثوذكسية الإمبراطورية ، وصار بمثابة البابا الفعلي في المشرق .

ولقد جرى التقليد في بيزنطة على أن يقوم البطريرك بمسح الإمبراطور الجديد بالزيت المقدس قبيل تتويجه، في حين تعهد الأباطرة بحماية الكنيسة وعدم المساس بمقدساتها وامتيازاتها المتعارف عليها . وكانت الكنيسة البيزنطية وافرة الثراء والكنوز ، ومورداً غنياً للحكومة تأخذ منه في وقت المحنة العسكرية . وكانت فوق ذلك صاحبة أثر عميق على خاصة الشعب وسواده . وعلى هذا الثقل المعنوى واستناداً إلى الثراء المادي كان بمقدور البطريرك أن يسدى عديد

Mansi, Vol. III, col. 560.

Ibid., Vol. VII, col. 428. (Y)

النعم إلى الإمبراطور لحظة التوافق ، غير أنه إذا ما دب الحلاف بين الطرفين ، كان فى وسع البطريرك أن يعرقل على حامل التاج الكثير من خططه ؛ بل إنه فى كثير من الأوقات كانت معارضة البطريرك سبباً فى خلع بعض الأباطرة عن العرش .

وإلى جانب طبقة القسيسين والأساقفة ورؤساء الأساقفة الذين كانوا يديرون شئون الكنيسة في أبروشياتهم في كافة أنحاء الإمبراطورية ، كانت هناك طبقة رجال الدين النساك ، الذين تمتعوا باحترام بالغ والذين اشتهروا بالتقوى ونقاوة القلب . ونظرت الجماهير إلى الرداء الديراني الأسود على أنه خير ضهان للعبور فوق قنطرة هذه الدنيا قبالة النعيم الأزلى . ولهذا فقد عمرت أقاليم الإمبراطورية بالأديرة ، في العاصمة وفي سوريا وفي العراق وفي فلسطين وفي شبه جزيرة سيناء وفي صحارى مصر وعلى جبل أولب في بيثينيا وفي كبادوكيا ثم على قمم آثوس . ومن تلك البيوت الصامتة المتأملة تخرج خيرة اللاهوتيين والساسة ، ووجد البعض منهم عرش البطريركية يرحب به زعيا لشعب

كان طبيعياً أن يقوم الخلاف في كثير من الأحايين بين الزعم الروحي وبين الإمبراطور: فالإمبراطور، بصفته خليفة لقسط طين العظيم، كان من حقه أن يرأس المجامع ويدير المجادلات ويناقش الهراطقة ويملي على آباء الكنيسة ما يراه صالحاً من قرارات. كما كان من حقه الأوتوقراطي والثيوقراطي تنفيذ قوانين المجامع الكنسية بحد السيف، مما خول له السلطة في سجن أو نني أو خلع أو إعدام «أعداء الله» والكنيسة. غير أن الأباطرة ما كانوا يجرؤون على اتخاذ قرا، — سياسياً كان أو دينياً — دون مشاورة البطريرك. وتشهد السجلات المعاصرة بأن بعض البطارقة قد صبوا لعنة الحرمان والقطع ضد أعتى الأباطرة وأشدهم بأساً، فلقد أصدر نيقولا قرار الحرمان ضد ليو السادس (١٨٨ — ١٩٢) وأمر الشعب أن يغفل كافة مراسيمه الإمبراطورية. كانت روما القديمة — وعلى رأسها خايفة بطرس الرسول — ترقب النفوذ

المتزايد لبطريركية بيزنطة في قلق شديد. ولقد أجج من نار الحقد في قلب البابوات ذاك القانون الثامن والعشرون لمجمع خلقدونية الذي منح بطريرك القسطنطينية «روما الجديدة» ما كان لأسقف روما «القديمة» من حقوق وامتيازات. ورغم المعارضة الشديدة التي أبداها البابا ليو الأول ضد هذا القرار الحلقيدوني، فإنه منذ عام ٨٨٥ تلقب أسقف بيزنطة بلقب «المسكوني» وصار مساوياً لأسقف روما في المرتبة الكنسية. وكان هذا هدماً صريحاً للنظرية البطرسية الرومانية التي أعطت لحلفاء بطرس «أمير رسل المسيح» الإمارة على الكنيسة العالمية (الصخرة).

حتى القرن الثانى عشر بز رجال الدين فى بيزنطة الإكليروس فى غرب أوربا اللاتينى فى العلوم اللاهوتية والفلسفية ، فبينا كانت اللغة اليونانية من المرونة والمقدرة لأن تعبر عن أدق المعانى المجردة والفوق طبيعية ، عجزت اللغة اللاتينية — بسبب جفافها وخشونها — عن مجاراة لسان البيزنطيين . ولهذا كان عسيراً على دارسى اللاهوت فى غرب أوربا أن يتابعوا أعماق ما تنطوى عليه كتابات اللاهوتيين البيزنطيين .

ولما ظهرت الهرطقات الشرقية، من أريوسية ونسطورية ومونوفيزيتية ويوطاخية نظر إليها أهل الغرب اللاتيني في شك وريبة ، ذلك لأنهم لم يدركوا كنهها لعجز أداة تعبيرهم .

ولقد عبر عن تلك الحيرة البابا جريجورى العظيم فى قوله بأن اللاتين وإن كانوا لا يملكون ما للبيزنطيين من مهارة لغوية وفلسفية ، إلا أنهم قد صانوا العقيدة المسيحية من الغيموض والإبهام والانحراف . وللدفاع عن كيانها ، أخذت كنيسة روما تدعو إلى الحفاظ على البساطة الأولى التى صاغها الآباء الأول للعقيدة ، وتزعم أن «صخرة» القديس بطرس هى رأس الكنائس المسئولة عن الوحدة المسيحية العالمية وعن التوافق اليقيني في مجال العقيدة والطقوس . غير أن هذا الزعم البابوى كان بدعة فى تاريخ الكنيسة ، ورد البيزنطيون هذه الحجة بإعلان بطلانها لأنها مغايرة لتقليد الآباء الطوباويين الذين أرسوا بناء

الكنيسة والذين وضعوا قانون الإيمان النيقي في عام ٣٢٥ « بوحي من الروح القدس » .

والحق أن الظروف السياسية التي حلت بالإمبراطورية الرومانية فى القرن الحامس والتي انتهت بسقوط روما في أيدى البرابرة الجرمان ، قد قضت على سلطان الإمبراطور في الغرب من ناحية ، بينا أخذ نفوذ أسقف روما في الزيادة من ناحية أخرى كنتيجة غير مباشرة لهذه الأحوال . فلقد غدت كنيسة روما ــ فى أعين قبائل الجرمان ــ النظام القديم الأوحد الذى قدر له الصمود والبقاء بعد سقوط الإمبراطورية في عام ٤٧٦. فقد اختفي الأمراء والأباطرة الرومان ، ولم يبق لروما سوى البابا وأساقفته . وفى غياب السلطان الإمبراطورى فى الغرب ، اضطلع أسقف روما بمهام القيادة كما فتح باب المفاوضات السياسية مع الزعماء الجرمان القادمين من كل صوب. وليس بمستغرب أن نظر المتبربرون إلى زعيم روما الديني وإلى مؤسساته الكنسية على أنها السلطة الشرعية الوحيدة الباقية من المجد الرومانى العتيد ، يؤيدها فى هذا المظهر القانون الروماني الرابض في أكناف الكنيسة والجلالة الإمبراطورية التي اتسم بها البابوات أنفسهم ، إذ بدا البابا في نظرهم منبع القانون الروماني والأوتوةراط الأوحد في الغرب . والنتيجة الحطيرة التي ترتبت على هذا هي أن البابوات في القول وبالفعل قد اضطلعوا بالمهام الحكومية للإمبراطور عدة قرون عندما قطعت جحافل القوط والهون سبل الاتصال بين روما وبيزنطة .

وجاءت الأسرة السورية (٧١٧ – ٨٠٢) لتوسع الهوة بين روما وبيزنطة ، إذ أشعل أفراد هذه الأسرة ناراً لا تهدأ في الأيقونات. فسر البابوات ورجالات الكنيسة الغربية حملات الأيسوريين ضد تبجيل الأيقونات والصور المقدسة على أنها هرطقة جديدة في سلسلة الانحرافات العقائدية داخل كنيسة بيزنطية . ولهذا فقد كتب البابا جريجوري الثاني (٧١٧ – ٧٣١) إلى الإمبراطور الأيسوري (السوري) ليو يهدده بالعقاب وفق السلطات التي فوضها إياه القديس بطرس ، كما أنه أعلن لليو أنه قد قطعه من جسد الكنيسة العالمية . واعل أهم بطرس ، كما أنه أعلن لليو أنه قد قطعه من جسد الكنيسة العالمية . واعل أهم

فقرة وردت فى خطاب البابا هذا تلك التى أكد فيها لمخاطبه أن الغرب اللاتينى بات يلتف حول خليفة بطرس الرسول ، وأن دول الغرب وضعت آمالها عليه . وأن جرؤ الإمبراطور على أن يقدم لتحطيم أيقونات القديس بطرس - كما ذكر فى رسالة له - فإن غرب أوربا سوف يهب قاطبة للانتقام منه . وقد بين البابا للإمبراطور البيزنطى أن لا سلطان له على غرب أوربا المسيحى ، وبأنه عاجز عن الاقتراب من مدينة روما (٣) .

ولما جاء البابا جريجورى الثالث (٧٣١-٧٤١) عقد مجلساً في مدينة روما أصدر فيه قراراً بحرمان أعداء الأيقونات ومحطميها (٤) ولقد قرر ليو معاقبة البابا لموقفه هذا ، ونهج في ذلك المهج البيزنطى التقليدي ، إذ أرسل أسطولا قويناً للقبض على جريجورى الثالث . غير أن عاصفة حطمت الأسطول وهو إذ في البحر الأدرياتي . وعلى هذا فقد أصدر الإمبراطور أمراً بجبي الضرائب من صقلية وكلابريا ثم صادر دخول البابوية من الضرائب المستحقة لها في جوبي إيطاليا . هذا إلى جانب أن قام ليو بسلخ كلابريا وصقلية وأقاليم الايريا ومقدونيا وثيساليا وآنحايا وداخيا وموثيزيا وداردونيا و پرايقالس من النبعية لبطريركية روما وضمها إلى نفوذ بطريرك بيزنطة ، مما كان له بالغ الأثر في تدهور العلاقات بين الطرفين فيا تلى من تاريخ .

على أن الحدث الأفدح الذى استشاط له البيزنطيون غضباً هو تتويج شارلمان ، زعيم الفرنجة ، إمبراطوراً رومانياً فى كنيسة القديس بطرس بروما على يد البابا ليو الثالث فى بهاية صلاة قداس عيد الميلاد لعام ٨٠٠ م . والذى حدث أن أحرز ليو الثالث تاجاً وعباءة أرجوانية وألبس شارلمان هذه الأوسمة الامراطورية ، بين هتاف المصلين :

"Carolo augusto, a Deo coronato magno et pacifico imperatori Romanorum, Vita et victoria" (*)

Patrologia Latina, Vol. LXXXIX, cols. 520 - 21; Mansi, Vol' XII, (γ) cols. 959-74.

L. Duchesne, Liber Pontificalis, Vol I, p. 416. ()

Annales Regi Francorum (cd. Pertz), in SS. R.G. SC., p. 112.

وما من شك فى أن البابا والزعيم المتبربر كانا يعلمان علم اليقين أن الإمبراطورية الرومانية كانت قائمة – وفى صلابة – على ضفاف البسفور ، بحكومتها المركزية و بمجلس شيوخها و بجيوشها الإمبراطورية الجرارة . وعلى هذا فلم تكن هنالك كينونة شرعية ولا سند واقعى ليبرر هذا الاغتصاب الصارخ للتاج الرومانى من أصحابه الشرعيين ، خلفاء قسطنطين العظيم والجالسين على عرش الإمبراطورية فى مدينة القسطنطينية .

حقيقة أن العاصمة البيزنطية قد شهدت فى تلك الفترة مؤامرة نسائية قامت بها إيرينى الوصية على العرش ضد ابنها القاصر قنسطنطين بأن سملت عينيه وأودعته السجن ثم انفردت بالحكم ، غير أن لتلك الحادثة سوابق مماثلة فى تاريخ بيزنطة ، ولم تكن — على أية حال — لتبرر اغتصاب الحقوق الشرعية للإمبراطورية والإمبراطور لصالح زعيم جرمانى من قبائل الفرنجة . والتبرير الكلاسيكى لفعلة ليو الثالث وحليفه شارلمان قد ورد فى رسالة موجهة من الإمبراطور «الغربي» لويس الثانى إلى الإمبراطور البيزنطى بازل الأول فى عام ١٨٧١ . جاء فى هذه الرسالة أن حاكم بيزنطة ليس إمبراطوراً رومانياً ، لأنه يونانى كما أن البابا لم يتوجه ، ولن يتوجه لهذا السبب ، ولأن اليونان يتبعون قانون الإيمان المغلوط والضال ، كما أن «الأمير البيزنطى » عاجز عن الدفاع عن روما .

وهكذا فإن عوامل الخلاف والشقاق على المستويات العقائدية والسياسية كانت جد وفيرة بين روما القديمة وروما الجديدة ، بين الغرب اللاتيني والشرق اليوناني ، وبين البابا الروماني والبطريرك البيزنطي . ولقد بدأ الصدام الفعلي بين الطرفين عندما وجدت روما فرصة سائحة للتدخل في شئون الكنيسة البيزنطية وذلك وقت النزاع الشخصي بين البطريرك إجناشيوس ومنافسه القوى فوشيوس في النصف الثاني من القرن التاسع .

فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧) ، قامت الإمبراطورة الأم ثيودورة - بطلة إعادة عبادة الأيقونات - بتعيين إجناشيوس

بطريركاً لبيزنطة . وكان إجناشيوس – رغم تقواه – منظرفاً لا يعرف الهوادة مع خصومه ، ولهذا فبمجرد أن تولى مهام منصبه قام بحرمان معارضيه ثم طردهم من مناصبهم الأسقفية (١) . وكان إجناشيوس ضحل الثقافة الكلاسيكية والفلسفية ، كما أنه كان يشير إلى علوم القدامي على أنها من « دنس الأمور» (٧). وفي ذلك الحين كان بيت فوشيوس – الأستاذ في جامعة القسطنطينية – الصالون الفكري الذائع الصيت ، والذي كان يرتاده محبو الكلاسيكية وفلسفتها . وكان أمراً طبيعياً أن أخذ فوشيوس ومريدوه من جماعة الراديكاليين في التعريض « بجهل » إجناشيوس وأتباعه .

كان فوشيوس صديقاً مقرباً للقيصر بارداس عم الإمبراطور ميخائيل الثالث. وكان بارداس هذا على خلاف شديد مع الإمبراطورة الأم ثيودورة، وبالتالى فقد كان كارهاً لإجناشيوس حايف الإمبراطورة ولوزيرها القوى النفوذ ثيوكتستوس . وفي عام ٨٥٦ اغتال بارداس ذلك الوزير ففقدت ثيودورة الكثير من سلطانها في البلاط . والحق أن بارداس كان رجلا خليعاً ، فبعد أن طلق زوجته بات يعاشر أرملة ابنه في غير كمان . ولجلا فإن البطريرك إجناشيوس قد حرمه من شركة التناول على مشهد من جميع المصلين في أيا صوفيا .

وفى عام ١٥٥ وجه بارداس بهمة الخيانة العظمى إلى إجناشيوس لأنه قد آوى شخصاً يدعى جيبيون ، الذى كان يدعى الأحقية فى العرش . وأمام هذا قرر الإمبراطور ميخائيل الثالث بتوجيه من عمه بارداس نفى إجناشيوس إلى تيريبنثوس بعد أن اضطر لتوقيع إقرار بالتنازل عن منصبه البطريركي . وفى نفس الوقت نجح بارداس فى إجبار ثيودورة على اعتزال حياة القصر والتوارى فى أحد الأدبرة .

اختير فوشيوس ليشغل الكرسي البطريركي لبيزنطة بعد ذلك. وقد رغب

Nicetas the Psphlagonian, 'Vita Ignatii'; in P.G., Vol. CV, col. 512. (1)

Mansi, Vol. XVI, col. 6. (y)

فى مجاملة البابوية فأرسل سفارة للبابا نقولا الأول يبلغه أن إجناشيوس قله اعتزل منصبه طواعية وبأنه قله انتخب وفق القانون لتبوأ مهام البطريركية بدلا منه . غير أن البابا وجد فى هذا الموقف فرصة طيبة لمحاولة التدخل فى الشئون الداخلية لكنيسة بيزنطة ، فكتب رسالة إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث مبدياً دهشته لخلع إجناشيوس دون علم البابوية ، مضيفاً بأنه مرسل مندوبيه للتحقيق فى الأمر عن كثب، « وبعدهاسوف نوجه أوامرنا الرسولية للفصل فى الأمر حتى تتمكن كنيستكم ، المضطربة قلقاً وإقلاقا ، من أن تبرأ من الشغب » . واختم البابا رسالته طالباً من الإمبراطور أن يعيد للبابوية حقها ونصابها فى إلليريا وكلابريا وصقلية (^) .

وبالفعل حضر مندوبو البابا إلى القسطنطينية وعقدوا مجلساً في عام ١٦١، حيث اضطر إجناشيوس أن يظهر أمامهم . غير أن البطريرك إلمخلوع صرخ في وجه الرسل الرومان بأن لا حق لهم ولا سلطان في استجوابه (١). عاد مندوبو البابا وأطلعوا سيدهم على الموقف عير أن نقولا الأول لم يكن راضياً عن النتائج التي توصل إليها سفراؤه . وقد زاد من حنقه أنه تلقي رسالة خشنة العبارة من الإمبراطور ميخائيل الثالث . ولهذا فقد أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي يعلمه بأنه غير قانع بقرارات مجلس ١٦١ ، موجها التقريع لميخائيل بسبب « وقاحة اللفظ وقبيح العبارة » في رسالته . وراح البابا يقول : « لعله البيزنطيون تباعاً قد لطخوا أنفسهم بعار الهرطقة » . وفي ختام كلامه هاجم البيزنطيون تباعاً قد لطخوا أنفسهم بعار الهرطقة » . وفي ختام كلامه هاجم نيقولا الإمبراطور لوصفه اللغة اللاتينية على أنها « لسان البرابرة » ، مستنكراً عليه أن يحمل لقب « إمبراطور الرومان » (١٠) من ناحية ، ومن ناحية أخرى عليه أن يحمل لقب « إمبراطور الرومان » (١٠) من ناحية ، ومن ناحية أخرى أكد النظرية البطرسية من جديد ، معطياً حق الكرازة لروما والإسكندرية

Ep. VI, in M.G.H. S.S., Vol. VI, pp. 443 - 49. (A)

Nicetas the Paphlagonian, op. cit., cols. 517-19. (9)

M.G.H. SS., Vol. VI, p. 459.

وأنطاكية [حيث كان بطرس الرسول وتلميذه مرقص الانجيلي أساقفة] ، في حين أوضح أن القسطنطينية ليس لها سند رسولي ألبتة ، وعلى هذا وجب عليها الإذعان للبابا ، خليفة أمير الرسل ، الذي أعطيت له سلطات الربط والحل على الأرض وفي السماء ، وعلى كافة أعضاء الكنيسة العالمية (١١).

والواقع أن رسالة الإمبراطور ميخائيل الثالث الخشنة العبارة لم تكن العامل الأساسي وراء غضب البابا نيقولا الأول ، بل كانت هناك أسباب أخرى . فغي تلك الفترة تأججت غيرة البابوية وحقدها بسبب النجاح الهائل الذي أحرزته البعثات التبشيرية الييزنطية في بلغاريا تؤيدها فى ذلك القوات العسكرية الإمبراطورية . وتفصيل ذلك أن الأمير المورافي راستزلاف عقد حلفاً عسكريًّا مع بيزنطة ضد البلغار في عام ٨٦٢ . وتكملة لهذا التحالف توجه المبشران الشهيران الأخوان قنسطنطين وميثوديوس إلى مورافيا حيث رحب بهما الأمير ، ومن ثم أخذا في التبشير بين هذه الشعوب بالديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي . وفي نفس الوقت كانت روما تضع مخططاً للتبشير بالمسيخية على المذهب اللاتيني بين تلك الشعوب السلافية . ولهذا فقد أيد البابا نيقولا الأول الملك الألماني لويس في حربه ضد الأمير راستزلاف المورافي حليف بيزنطة ، ووعد لويس بالصلاة من أجل معركته ، آملا أن يتم على يده أيضاً نشر الكاثوليكية بين شعوب البلغار . غير أن آمال البابا لم تتحقق ، إذ غزت الجيوش البيزنطية مملكة البلغار ، وأذعن ملكها بورس لقبول شروط الصلح ووافق على اعتناق الأرثوذ كسية هو وشعبه . وكان موقف بورس هذا طعنة لحليفه لويس الألماني وخيبة أمل كبيرة للبابوية .

كانت المسألة البلغارية إذن عاملا أساسياً من عوامل غضب البابا نيقولا الأول ضد الإمبراطور ميخائيل الثالث وضد البطريرك فوشيوس الذى كان الموجه الفعلى للأمور السياسية في ذلك الوقت، والذى أرسل القديسين قنسطنطين وميثوديوس لنشر الأرثوذ كسية في بلغاريا.

ويعتقد المؤرخون أن الرسالة التي رد بها ميخائيل الثالث على البابا كانت في واقع الأمر من وضع البطريرك فوشيوس ذاته (١٢). جاء في هذه الرسالة أن البابا يقولا الأول قد كان جاحداً للفضل الكريم الذي أبداه الإمبراطور والبطريرك المسكوني عندما سمحا لإجناشيوس المخلوع بالظهور في مجلس أمام مندوبي البابا . كما أنه ليس من شأن روما أن تحشر أنفها في أمور الكنيسة الأرثوذكسية التويمة . ومضت الرسالة تقول إن البابا قد أخطأ الفهم عندما أرسل مندوبيه لحاكمة إجناشيوس ، لأنه لم يطلب منه ذلك ، وإنما ما قصد إليه الإمبراطور بالفعل في كتابه المبكر هو أن يرسل البابا سفراءه للمشاركة في مجلس غايته إدانة هرطقة تحطيم الأيقونات التي كان لها بقايا من الأنصار لا في بيزنظة فحسب وإنما أيضاً في غرب أوربا اللاتيني . أما فيا يتصل بادعاءات البابا في وبطلانه . ولم ينس ميخائيل الثالث في ذيل خطابه الحام أن يصم اللاتينية وبطلانه . ولم ينس ميخائيل الثالث في ذيل خطابه الحام أن يصم اللاتينية بأنها «لسان البرابرة» .

وفي أثناء ذلك حدثت تطورات هامة في موقف بورس ملك البلغار ، إذ راح يطلب من بيزنطة السماح له بتعيين بطريرك بلغارى لمملكته . غير أن فوشيوس استنكر على هذا الأمير جرأته في هذا الطلب . فما كان من بورس إلا أنه فتح باب المفاوضات مع البابا طالباً منه الإذن بتعيين بطريرك بلغارى لمملكة البلغار (أغسطس ٨٦٦) . سارع البابا نيقولا الأول فأوفد أسقفين ، بولس من بوبيلونيا وفورموزوس من بورتو ، للتبشير بين ظهراني هذا الجنس (١٣٠). ثم كتب رسالة إلى الملك بورس عدد له فيها الأغلاط الطقوسية والعقائدية داخل الكنيسة البيزنطية ، مؤكداً له أن بيزنطة لم تشرف بأصل رسولى لأسقفيتها ، وعلى هذا فليس من حقها أن تتلقب بلقب والبطريركية » .

See J. Hergenröther, Photius, Patriarch von Konstantinopel (3 Vols., (17) Regensburg, 1887 - 89), Vol I, p. 553; also. F. Dvornik, The Photian Schism, Cambridge, 1948, p. 109.

L. Duchesne (ed.) Liber Pontificalis, Vol. 11, p. 184.

ولقد طار الحان البلغارى فرحاً ونشوة وهو يقرأ الرسالة البابوية خاصة وأن البابا قد كشف له أن بطريرك بيزنطة « المتعجرف » لم يكن سوى أسقفاً عادياً لا يحقله التزين بلقب بطريرك وعليه فقد أمر بورس كافة المبشرين البيزنطيين بالرحيل فوراً عن أراضى ملكه ، ثم أحل مكانهم أصدقاءه الجدد الوافدين من روما .

وعاد المبشرون البيزنطيون ليعلنوا لبطريركهم فوشيوس أن اللاتين قد دنسوا العقيدة في بلغاريا ، وبأنهم يبشرون بتعاليم المانوية وقد حرموا على القسيسين الزواج ، وأدهى من هذا كله فقد زيفوا قانون الإيمان النيتي بأن أضافوا إليه أن « الروح القدس ينبثق أيضاً من الابن » . وفي نفس الوقت أعلن المبشرون اللاتين لشعب البلغار أن كنيسة بيزنطة منبع للهرطقة وأن رجال الدين فيها جلهم من الحصيان . وغلت المشاعر .

أمسك فوشيوس بقلمه وكتب مقالا بعنوان (١٤) المافة الحراف قانون الإيمان عند اللاتين بسبب إضافة الساقون الإيمان عند اللاتين بسبب إضافة الحرافا الورح القدس المنبثق من الإبن أيضاً » ، معلناً أن في هذه الإضافة انحرافا عما اتفتى عليه آباء الكنيسة الأولى في الحامع المسكونية ، ومنافاة لنص الكتاب المقدس . وأوضح البطريرك أن مثل هذه الإضافة « البدعة » تؤدى إلى الخلط بين طبيعتى الآب والابن ، مما يبعث من جديد هرطقة أصحاب الطبيعة الواحدة التي قد أدينت في مجمع مسكوني سابق (١٥٠) .

وكان اللاتين يبررون تلك الإضافة بالاستشهاد بالعبادة التي وردت على لسان المسيح وهو يخاطب تلاميذه قائلا «إن الروح انبثقت بواسطتي من الآب ». والنص اللاتيني لهذه العبارة — أوضح فوشيوس — ترجمة خاطئة للنص الأصلى الوارد باللغة اليونانية . ولما كانت اللاتينية لغة عاجزة فإن الأصل اليوناني لعبارة قد ترجم في اللسان اللاتيني إلى Spiritus de me accipiet .

Ibid. (10)

Patrologia Graeca, Vol. CII, cols. 283 seq. (12)

وهنا يسخر فوشيوس من العقلية اللاتينية التي فات عليها أن تترجم النص اليونانى ترجمة صحيحة إلى de mco بدلا من de me ، لأن الفرق بين الاثنتين جد خطير ، فالأولى تعنى «الروح القدس المنبثق بواسطتى من الآب » بينا تعنى الثانية «الروح القدس المنبثق منى » وراح البطويرك البيزنطى يقول إن صغار التلاميذ لا شك يدركون الفرق بين العبارتين (١٦).

ومضى فوشيوس فى كتابته فانتقد القديسين أو غسطينوس وامبروز لأنهما كانا يعلمان انبثاق الروح القدس من الابن وانتقد رجال الدين اللاتين لتسليمهم لما قاله القديسان رغم تعارض هذا مع ما ورد فى الإنجيل على لسان بولس الرسول: « ولكن إن بشرناكم نحن أو ملاك من السهاء بغير ما بشرناكم فليكن اناثها » (١٧).

والحق أن قانون الإيمان المتفق عليه فى مجمع نيقيا المسكوني فى عام ٣٢٥ قد نص فى بساطة على الآتى : «فى الحقيقة أؤمن بالروح القدس » . ولما عقد مجمع القسطنطينية المسكوني فى عام ٣٨١ لإدانة بدعة ماسيدونيوس ، اتفى الآباء المؤتمرون على توضيح النص السابق فصار كالآتى : «فى الحقيقة أؤمن بالروح القدس المنبثق من الأب » .

وفى القرن الثامن ظهرت الإضافة « والمنبثق من الابن أيضاً » ، ومصدر هذه البدعة إسبانيا ، ثم تحمست لها الكنيسة الفرنجية بوجه خاص . غير أن البابا ليو الثالث (فى أوائل القرن التاسع) لعترض فى حزم على هذه الإضافة « Filioque » ، ولكى يؤكد تمسكه بنص قانون الإيمان المتفق عليه فى جمع القسطنطينية السابق أمر بأن ينقش هذا النص فى صيغته الأصلية باليونانية واللاتينية على لوحات فضية فى كنيسة القديس بطرس بروما ،

وأهم من هذا كله أن البطريرك فوشيوس قد كتب في عام ٨٦٠ إلى البابا

Ibid., col. 300. (17)

Gal, I. 8. (1Y)

نيقولا الأول يبلغه باختياره لكرسى بيزنطة ، معلناً «قانون إيمانه» – كما جرت العادة من قديم عند تبادل الرسائل فى مثل هذه المناسبات – وكان قانون الإيمان لفوشيوس – بطبيعة الحال – ينص على « انبثاق الاروح القدس من الأب » [فقط] (١٨) . ولقد رد البابا على كتاب فوشيوس فى رسالة بتاريخ مارس ٨٦٨ مارس ٨٦٨ يعلن فيها البابا أن « إيمان فوشيوس أرثوذ كسى وقويم » (١٩) .

من هذا يتضح أنه بيما تميزت كنيسة بيزنطة بالثبات على قانون الإيمان المتفق عليه منذ عام ٣٨١ ، والذى وافقت عليه روما ، فإن الأخيرة كانت تصر على إضافة الس Filioque . وواقع الأمر أن نمو كنيسة بيزنطة وازدياد نفوذها وهيبتها كانا مبعث حقد كبير لدى البابوية . والغريب أن البابا نيقولا الأول الذى امتدح «أرثوذكسية فوشيوس وعلمه وقوامة إيمانه » سرعان ما كتب إلى صديقه الكاردينال هنكمار يهاجم مدينة القسطنطينية وبطريركها لتلقيبه نفسه بلقب «المسكوني» (٢٠٠).

وما من شك في أن كنيسة روما قد وجدت في شخص فوشيوس متحدياً جباراً لادعاءاتها في الزعامة والإمارة على الحواس الخمس للكنيسة العالمية . والحق أن فوشيوس قد قوض النظرية البطرسية : إذ بين للعالم انحراف قانون الإيمان في الغرب، وجرد روما من الإمارة ، لأن بطرس كانأيضاً أسقفاً لمدينة إنظاكية قبل أن يذهب إلى روما ، ولأنه في إنطاكية ظهرت لفظة «مسيحي» لأول مرة . هذا كما أن أو رشليم لها من السند القدسي ما يبرر لها المطالبة بالزعامة العالمية لأن فيها قد ولد المسيح فات ثم صعد في اليوم الثالث . أما عن «الصخرة» التي شيد عليها المسيح «كنيسته» ، فهذه لم تكن شخصية بطرس الذي لا يتوافق سلوكه قبل و بعد الصلب مع صفات الصخرة . وإنما الصخرة ، وأما أوضح فوشيوس ، هي «إيمان» بطرس الذي لا يمكن تمييزه

Patrologia Graeca, Vol. CII, col. 589.

M.G.H. SS., Vol. VI, p. 440.

M.G.H.SS., Vol. VI, p. 605 - The letter is dated 23 October, 867. (Y.)

عن «إيمان » إخوته الرسل الباقين . ولقد نعت فوشيوس مزاعم روما فى إمارة الكنيسة على أنها امتداد للروح الوثنية القديمة الراسخة هناك . وعلى هذا فإن فوشيوس عندما كتب إلى بورس ملك البلغار يرده إلى صوابه ، فقد تعمد أن يدرج بطريركية القسطنطينية فى المرتبة قبل بطريركية روما ، وذلك فى مجال حديثه عن قصة المجالس المسكونية السبعة (٢١) .

وفى ٢٤ سبتمبر ٨٦٧ ، اغتال بازل المقدوني سيده الإمبراطور ميخائيل الثالث وجلس على عرش بيزنطة . وتبع هذا الانقلاب أن أعيد إجناشيوس إلى كرسي البطريركية بعد أن خلع فوشيوس عنه . ولقد تلقت روما هذا النبأ بارتياح شديد . وعندما عقد إجناشيوس مجلساً في القسطنطينية في • أكتوبر ١٩٨٨ ، سارع البابا هادريان الثاني • خليفة نيقولا الأول ، فأرسل مندوبيه ليضموا صوتهم إلى صوت إجناشيوس عند إدانة البطريرك المخلوع فوشيوس . وكان هادريان قد عقد مجلساً سابقاً في روما حيث لعن فوشيوس وتعاليه والمهرطقة » ووصفه بالعجرفة « ودنس الفم» والتجديف (٢٢٠) . و يحدثنا نيكيتاس البفلاجوني - كاتب حياة إجناشيوس - أن السفراء البابويين الذين شاركوا في مؤتمر إجناشيوس قد وقعوا قرار الحرمان ضد فوشيوس « بمداد من دم المسيح » (٢٢).

على أنه يجب أن ندرك أن المجلس الذى قد دعا إليه إجناشيوس لم يصدر قرار الحرمان ضد فوشيوس بسبب هجومه على كنيسة روما ، وإنما بسبب دوره فى خلع إجناشيوس ولأنه كان من أنصار القيصر بارداس من العهد «البائد». ومع أن فوشيوس قد عزل من منصبه ، إلا أن تعاليمه قد بقيت .

وجدير بالملاحظة أن إجناشيوس ذاته راح يجادل مع روما بنفس الحجج

P.G., Vol. CII, cols. 623 seq. (71)

Mansi, Vol. XVI, col. 123. (YY)

Nicetas the Paphlagoniau, op. cit., col. 545.

التى ابتكرها خصمه . ذلك أن إجناشيوس قد أعلن في مجلسه هذا الرفض التام لادعاءات روما في الإمارة على الكنيسة العالمية ، وأكد أن البطارقة الحمسة (لروما وبيزنطة والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم) متساوون في الرتبة الكنيسة دون تمييز على الإطلاق . وشهدت الجلسة الختامية لمجلس إجناشيوس حدثاً خطيراً ، إذ وصلت إلى القسطنطينية في ذلك الوقت سفارة بلغارية فسمح لأعضاءها بحضور هذه الجلسة . وفيها قضى الإمبراطور بازل الأول والبطريرك إجناشيوس أن بلغاريا ملك للامبراطورية البيزنظية . وهنا وقف المندوب البابوي وأبرز من جيبه خطاباً من البابا هادريان الثاني يحذر فيه إجناشيوس من «التآمر اليوناني» ضد روما في بلغاريا ، غير أن البظريرك أهمل كلام المندوب ورفض قراءة خطاب البابا البابا ، غير أن البظريرك

وبعد قليل أمر بورس ملك الباغار رجال الدين اللاتين بأن يغادروا بلاده ، وأحل محلهم القساوسة البيزنطيون . فكان هذا الموقف مدعاة لغضب البابا الجديد يوحنا الثامن (٨٧٢ – ٨٨٨) ، الذى أرسل كتاباً إلى بورس يتوعده فيه ويهدد بعقاب إجناشيوس ولعنه وخامه «هذا الشخص الذى أعدناه إلى منصبه بفضل عطفنا الرسولي » . كما كتب البابا إلى دوباجوى الأمير الكرواتى رسالة يؤكد له فيها أن إجناشيوس وكافة رؤساء الأساقفة الذين عينهم فى بلغاريا « انفصاليون » ومنحرفون (٢٥) .

توفى إجناشيوس فى ٢٨ أكتوبر ٨٧٧ ، وعندها أعاد الإمبراطور بازل الأول البطريرك المخلوع فوشيوس إلى عرش أيا صوفيا مرة أخرى . ويعتقد بعض الباحثين أن بازل كان قد أجرى صلحاً بين فوشيوس وإجناشيوس ، وأن الأول كان قد مارس مهام البطريركية قبل وفاة إجناشيوس ببضعة شهور (٢٦) ،

Liber Pontificalis, Vol. II, p. 185.

M.G.H. SS., Vol. VI, p. 278. (Yo)

See F. Dvornik, op. cit., p. 178. (Y7)

كان انتصار فوشيوس وبعث حرج للبابوية ، ففتح يوحنا الثامن باب المفاوضات مع دنا «البيزاطى العنيد» يساومه فيها بأن يعترف بشرعية انتخابه للبطريركية مقابل تسليم بلغاريا لروما . وبعد قليل بدأت المصادر المسئولة في روما تتحدث عن فوشيوس «التي الورع » ، كما امتدحت فيه الحكمة والرصانة والقدسية . وكتب يوحنا الثامن إلى أتباع إجناشيوس يأمرهم « بالعودة إلى الأب الورع فوشيوس » ، وإلا فإنه مصدر ضدهم قرار الحرمان (٢٧) .

عقد فوشيوس مجلساً في القسطنطينية في ٨٧٩ - ٨٨٠ الله شارك فيه مندو بو البابا ومندو بون عن بطريركيات الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم . ووقف المندوب البابوي الأسقف بولس من أنكونا ، فلعن المجلس الذي كان إجناشيوس قد عقده عام ٨٦٩ وأعلن إلغاء قراراته . ثم راح بولس يعلن قرار الحرمان ضد ومن تسول له نفسه الانفصال عن أو العصيان ضد السيد الكبير والبطريرك المسكرني المقدس فوشيوس المرام . ولهذا المجلس أهمية فريدة في نوعها ، ففيه أجبر الرسل البابويون على الاستماع - دون معارضة - لنص قانون الإيمان النيقو - قنسطنطيني ، والذي كان - بطبيعة الحال - خالياً من الإضافة « على الانتجاب المريرك كسائر البطارقة الأربعة الآخرين ، وبن ثم فليس له سلطان ألبتة على الكنيسة العالمية ، أنا الأربعة الآخرين ، وبن ثم فليس له سلطان ألبتة على الكنيسة العالمية ، أنا الأربعة المسريرك حديد لكنيسة وعليه فليس هناك ما يبرر أخذ موافة ته عند اختيار بطريرك جديد لكنيسة القسط طينية .

ولما علم البابا يوحنا الثامن بهذه القرارات أرسل مندوبه الحاص مار ينوس (الذي أصبح بابا فيا بعد من ٨٨٠ – ٨٨٤) إلى القسطنطينية ليطالب بإلغاء تلك القرارات، غير أن الإمبراطوربازل الأول والبطريرك فوشيوس أمراً بالقبض على المندوب البابوي وإيداعه السمجن!

والقد كان الاعتقاد حتى وقت قريب أن قطيعة ثانية حلت بين فوشيوس

Liber Pontificalis, Vol. II, p. 187. (YY)

Mansi, Vol. XVII A - XVIII A, col. 507. (YA)

وروما فى عام ٨٧٩ – ٨٨٠ ، إلا أن جماعة من الباحثين وعلى رأسهم Amann و Dvornik و Grumel يطالبون بأن هذا لم يحدث (٢٩) .

حقيقة أن العلاقات بين بيزنطة وروما لم تنقطع تماماً أثناء اضطلاع فوشيوس للمرة الثانية بمنصب البطريركية ، على أنه لا بد من مراعاة أن تلك العلاقات كانت من النوع العرضى المتقطع والتي كان يشوبها الكثير من المرارة، الأمر الذي يدعونا إلى القول أن شيئاً أشبه بالقطعية الفعلية كان قائماً بين الطرفين . ويؤيد هذا القول ما نسوقه هنا من الأدلة التاريخية .

عندما عام البابا يوحنا الثامن بقرارات مجلس ٨٧٩ – ٨٨٠ وقف أمام المصلين في كنيسة القديس بطرس بروما وهو يمسك بالإنجيل ، فلعن فوشيوس ولعن سائر الذين لا يشاركونه في الموافقة على هذه اللعنة (٣٠٠).

لم يكن البابا يوحنا الثامن الوحيد الذي لعن فوشيوس ، وإنما تبعه في هذا كافة البابوات الذين خلفوه وهم : مارينوس الأول (٨٨٢ – ٨٨٨) ، هذا كافة البابوات الذين خلفوه وهم : مارينوس الأول (٨٨٠ – ٨٨٨) ، هادريان الثالث (٨٨٠ – ٨٨٨) ، ستيفن الخامس (٨٢٠ مايو ٨٩٠ – ٦ يونيو فورموزوس (٨٩١ – ٨٩٨) ، بونيفاس السادس (٣٢ مايو ٨٩٠ – ٦ يونيو أكتوبر ٨٩٨) ، ستيفن السادس (٨٩٠ – ٨٩٧) ، رومانوس (أغسطس ٨٩٧ – أكتوبر ٨٩٧) ، ثيودور الثاني (٨٩٧ – ٨٩٧) ، يوحنا التاسع (٨٩٨ – ٨٩٨) . هؤلاء جميعاً أعتبروا فوشيوس مجرد علماني «لعين » (٣١٠).

وقد كان موقف البابوية هذا مشجعاً لأقلام كتاب غرب أوربا اللاتينى في نهاية القرن التاسع وأوائل العاشر لأن تتطاول على البيزنطيين بالسب والقذع بوجه عام وعلى فوشيوس بوجه خاص. ومن بين الذين تعرضوا لفوشياس

E. Amann, Photius, in Dict. de Théol. Cathol. (1935), Vol. XII, cols. 1536- (79) 1604; F. Dvornik, op. cit., loc. cit.; V. Grumel, "Y'cut -il un second Schisme de Photius"? in Revue des Sciences Phil. et Théol. (1933), Vol. XII.

Mansi, Vol. XVI, cols. 447 - 49. (7.)

Ibid., col. 475. (٣١) روما و بيزنطة

أودو أسقف بوقية (٣٢) ع إينياس أسقف باريس (٣٣) ، راترامنوس مقدم دير كوربيه (٣٤) ، ثم الراهب أرشمبرتوس (٣٥) . وصف إينياس أسقف باريس الكنيسة البيزنطية على أنها مصدر الهرطقة والتجديف ، كما أنه نعت بطارقة أيا صوفيا على أنهم هراطةة وأصحاب « ألسنة أفعوانية » (٣٦) .

أما مقدم دير كوربيه فقد أعلن أن البيزنطيين قد جدفوا بالمسيح بإنكارهم انبثاق الروح القدس من الابن. وقد زعم الكاتب اللاتيني أن القديس آثاناسيوس بطل نيقيا الشهير قد قال بانبثاق الروح القدس من الابن، لكنه قد جانب الحق والصواب في قوله هذا (۲۷). وراح الراهب ارشمبرتوس يلعن اليونانيين على أنهم من جنس الحيوان ، مسيحيون بالاسم فقط ، ولكنهم على خلق قصيء (۲۸).

قال البعض إن البابا فورموزوس (٨٩١ – ٨٩٦) قام بمحاولات لمصالحة كنيسة بيزنطة وبأنه قد أظهر روحاً من التسامح تجاه بطارقها . ولكن هذا القول مردود ، لأن فورموزوس قد كتب رسالة إلى صديقه فولكو أسقف مدينة ريمز يطلب منه فيها الصلاة من أجل كنيسته الأم (روما) في صراعها الذي لن مهدأ ضد الكنيسة البيزنطية « المنحرفة المهرطقة » (٣٩٠) .

Odo's work had been lost. (TY)

Aeneas de Paris, loc. cit : (77)

Ratramnus de Corbie, loc. cit. (YV)

Erchembertus, loc. cit. (YA)

Flodoradi 'Historia Remensis Ecclesiae, lib. IV, in M.G.H. SS., vol. XIII, (74) p. 559.

Aencas de Paris, 'Liber adversus Graecos', in P.L., vol. GXXI, cols. 719 (٣٣) Seq.

Ratramnus de Côrbie, Contra Graecorum Opposita Romanam Ecclesiam (72)
Infamantium', in P.L., Vol. CXXI, cols. 225 - 346.

Erchemberti Cassinensis Monachi, 'Historia Longobardorum,' in P.L., vol. (7 °) CXXIX, cols. 782 Seq.

ولعل أهم وثيقة دامغة تثبت نظرية العداء المستر تجاه بيزنطة وبطريركها المسكوني فوشيوس ما ورد في قرارات بجلس Trosley الذي دعا إلى عقده المسكوني فوشيوس الماقفة ريمز بناءاً على أوامر البابا سيرجيوس الثالث (٩٠٤ – Hérivée ريمز بناءاً على أوامر البابا سيرجيوس الثالث (٩١٤ أعال المجلس بأن الكرسي البابوي قد أحاط المؤتمرين علما بأن تعاليم فوشيوس «الدنسة » ضد الروح القدس لا زالت متفشية في المشرق ، وعليه فإنه يتحتم على الآباء اللاتين أن يخرجوا من بطون الكتاب المقدس «سهاماً حادة ليسحقوا بها رأس الأفعي » (١٠٠).

هذا الرجل - فوشيوس - الذي استمطره الغرب اللاتيني اللعنات بتوجيه من البابوية الحاقدة ، أدرجه البيزنطيون في عداد القديسين . وظلت سيرته مبعث إلهام وقوة للأجيال التي تليه ، وباتت تعاليمه وأقواله ضد كنيسة روما والنظرية البطرسية وضد انحراف قانون الإيمان في الغرب هادياً لسائر البطارقة الذين أتوا من بعده . يحدثنا يوحنا ، كاتب سيرة القديس يوسف صاحب الألحان الكنسية ، أن فوشيوس كان أعلم رجال عصره ، وأنه بقوة شخصيته وخفة ظله قد سحر أفئدة العالم أجمع (اع) . و وضع آريثاس من قيسارية ، وهو من تلامذة فوشيوس ، سيده البطريرك المسكرني في النعيم الخالد بجوار وهو من تلامذة فوشيوس ، سيده البطريرك المسكرني في النعيم الخالد بجوار القديس يوحنا كرايزوستوم « صاحب الفم الذهبي » (٢٤). أما البطريرك نيقولا مستيكوس فرأى في فوشيوس « رجل الله الحسن الأحسن . . سيدي وأبي في الروح القدس » (٢٤).

Mansi, Vol. XVII A — XVIII A, cols. 263 - 308. (4 ·)

John the Deacon, 'S. Josephi Hymnographi Vita,' in P.G., Vol. CV, cols. (& 1)
908 Seq.

Epitaphius' in Euthymium Patr., republished by M. Jugie, in Patr. Orient., ($\xi \gamma$) vol. XVI, p. 498.

In Nicholas Mysticus' letter to the Emir of Crete, in P.G., Vol. CXI, cols. (& T) 35 - 38.

هذا وقد ظهر اسم فوشيوس فى السنكساريا (سير القديسين) فى كنيسة بيزنطة فى نهاية القرن العاشر ، ويرجح أن قرار خلع القداسة عليه قد تم فى عهد بطريركية سيزينيوس (٩٩٦ – ٩٩٨) (٤٤).

M. Jugie, "La Culte de Photius dans l'Eglisc Byzantine," in Revue de l'Orient (¿ §) Chrétien (1922 - 23), 3rd ser. III, pp. 109 seq.

الفصل الثاني الأكبر بين روما وبيزنطة الشقاق الديني الأكبر بين روما وبيزنطة (١٠٥٤)

كان القرن الذى أعقب قطيعة فوشيوس من أمجد صفحات الدولة البيزنطية الذ جلس على عرشها جماعة من أمهر القواد العسكريين من أفراد الأسرة المقدونية الذين أصلحوا نظم الإدارة الوقوضوا ملك البلغار، ثم استرجعوا ما كان لبيزنطة من نفوذ وهيبة فى جنوبى إيطاليا . وجنبا إلى جنب مع هذه الانتصارات العسكرية بدأت الحركة التبشيرية الأرثوذكسية فى روسيا تحرز ثمارها . وأينها حلت فيالق الإمبراطورية ، نشرت كنيسة أياصوفيا ألويتها ونظمها الكنسية وفق التراث المسكوني القويم .

غير أننا لا نكاد نجد شيئاً في الحوليات عن العلاقات بين البطارقة العشرة والبابوات الواحد والعشرين من معاصريهم في تلك الفترة الطويلة. ومرد ذلك أن الكتاب البيزنطيين في القرن العاشر أيقنوا أن غرب أو ربا قد ضل الطريق فانسلخ متوارياً يوم أن أصبح للبابا خليلة شريرة ويوم أن أمسى الفاتيكان بيت سوء يشرب فيه البابا (يوحنا الثاني عشر) الحمر في صحبة الشيطان في ليلة عيد الميلاد!

وفى نفس الوقت دب الحلاف بين أوتو العظيم « الإمبراطور الجرمانو – رومانى المقدس » وبين نقفور فوكاس وخليفته يوحنا زيمسكس . وفى عام ٩٧٤ اغتال البابا الحامس فرانكو البابا الشرعى بنيدكت السادس ، ولما طرده الملك الألمانى أوتو الثانى ، لجأ إلى القسطنطينية حيث رحب بهزيمسكس . ; وهكذا فإن بيزفطة لم تعترف بالبابوات الشرعيين بنيدكت السابع (٩٧٤–٩٨٣)

ويوحنا الرابع عشر (٩٨٣ ــ ٩٨٤) اللَّذين اختارهما الملك الألمانى .

مات أوتو الثانى وهو لا يزال فى الحادية والعشرين من عمره ، تاركاً على العرش طفلا لا يتجاوز الثالثة هو أوتو الثالث . واتبع هذا سياسة أبيه فعين برونو ابن عمه للبابوية (جريجورى الخامس / ٩٩٦ – ٩٩٩) ثم جربرت (سلفستر الثانى / ٩٩٤ – ٩٠٤) . وحمل الملك الألمانى الشاب لقب إمبراطور الرومان Romanorum Imperator ، كما كان يوقع رسائله إلى أهل روما بصفته « خادم يسوع المسيح » (Servus Icsu Christi) وهو نفس الأسلوب الذى ابتدعه القديسان بطرس وبولس . وفي نفس الوقت كان أوتو الثالث يحتقر البيزنطيين ويذكر على حامل التاج التلقب بلقب إمبراطور الرومان . وفي عام ١٠٠٧ توفي أوتو الثالث دون أن يترك وريثاً للعرش . وفي عام ١٠٠٧ اختار النبلاء الدوق هنرى الثاني ملكاً على الألمان ، وقام البابا بتتويجه إمبراطوراً . وجاء بعد هنرى الأمير البرجندى كونراد الثانى وقام البابا بتتويجه إمبراطوراً . وجاء بعد هنرى الأمير البرجندى كونراد الثانى .

فرض هنرى الثالث نفوذاً كاملا على مدينة روما . وحدث أن نشب نزاع على عرش البابوية بين ثلاثة مرشحين ، فطردهم هنرى جميعاً وعين البابا كلمنت الثانى (١٠٤٧ – ١٠٤٧) ، الذى منح الملك الألمانى لقب Patricius وبذا صارله حق تعيين البابوات .

كانت بيزنطة فى تلك الفترة تسيطر على جنوبي إيطاليا الذى كان يشمل الإمارتين اللومبارديتين سالرنو وكاپوا — بينيڤنتو، والمدن التجارية جايتا ونابلي وآمالني . كذلك كان لها الإشراف على كلابريا وأبوليا . غير أن نفوذ بيزنطة تعرض لأشد اللطمات بداية من عام ١٠١١ . فني ذلك العام تمرد القائد الأبولي ميلو ضد الحكم البيزنطي مستعينا في ثورته بالفرسان المرتزقة من النورمان الذين كانوا وقتها يحجون إلى وليهم القديس ميخائيل على جبل جارجانو . ومع أن السلطات البيزنطية قد نجحت في قمع ثورة ميلو ،

إلا أن الفرسان النورمان قرروا الإقامة فى جنوب إيطاليا ، وأرسلوا إلى ذويهم (فى نورمانديا) • فحضروا واستقروا هم أيضاً هناك . ومن عام ١٠٤٠ فصاعداً راح أبناء تانكرد دى هوت ڤيل فى تقويض نفوذ بيزنطة فى الجنوب الإيطالى بشكل مذهل وسريع ، مما أزعج السلطات الحاكمة فى القسطنطينية .

ولم تكن ممتلكات بيزنطة وحدها فريسة للنورمان في جنوب إيطاليا ، إذ وجه هؤلاء ضرباتهم أيضاً ضد الإمارات البابوية هناك .

في عام ١٠٤٨ اختار الإمبراطور الألماني هنرى الثالث البابا ليو التاسع لعرش القديس بطرس وليو هذا كان أسقفاً لمدينة تول في إقليم اللورين الملدرسة الأولى للإصلاح الكنسي . أحضر ليو معه إلى روما أشهر زعماء الإصلاح من أمثال فردريك اللوريني ، وأودو من تول ، وهيو الأبيض من ريمرونت ، ثم همبرت من سلقا _ كانديدا .

وقد كان أثر هذا الحزب الإصلاحي عميقاً للغاية ، مما جعل المؤرخ Fliche يتحدث عن « الإصلاح اللوريني » وكأنه النواة الأولى لنقطة التحرل في تاريخ الكنيسة اللاتينية (١).

كان الهم الأول والأخير لجماعة ليو تحرير البابوية من قبضة الملوك الألمان الله الله الألمان منذ أيام شارلمان كانوا يحركونها كيفما شاءوا . وما من شك أن الدين منذ أيام شارلمان كانوا يحركونها كيفما شاءوا . وما من شك أن المسوم الإمبراطوري الذي جاء في عام ٨٩٨ ، و « الامتياز » الذي حصل عليه أوتو العظيم – كل هذا قد ثبت من نفوذ الإمبراطور على البابا . يلاحظ أيضاً أن النبلاء الرومان كان لهم نفوذ كبير على البابوية . وهكذا فإن أيضاً أن النبلاء الرومان كان لهم وزن يذكر في القرنين التاسع والعاشر . ولما جاء هنري الثالث أثبت لمعاصريه أنه أشد العامانيين استغلالا السلطانه ولما جاء هنري الثالث أثبت لمعاصريه أنه أشد العامانيين استغلالا السلطانه

A. Fliche, et Martin, Histoire de l'Eglise. Paris, 1948, Vol. I, pp. 113 - 128, and II, pp. 173 - 204.

القيصر - بابوى ، ولكته رغم هذا قد خسر المعركة ؛ لأنه هو الذى جاء بليو التاسع وحزبه من اللورين إلى روما ؛ وسرعان ما انقلب هؤلاء المصلحون ضد الملك الألماني بهدف تحرير الكنيسة من السيطرة العلمانية .

نقطة أخرى أخذ المصلحون على عاتقهم إنفاذها ؛ هى تحقيق وحدة الكنيسة العالمية تحت إمرة خليفة بطرس «سيد الرسل» . وكان هذا داعياً لأن تبدى المدرسة الجديدة رأيها منذ وقت مبكر فى كنيسة بيزنطة . رأى ليو وأتباعه أن كنيسة بيزنطة قد أذنبت فأخرجت سلسلة من الهرطقات والبدع الالا أن الجرم الأكبر فى نظر هذا الحزب كان إصرار بيزنطة على عدم الاعتراف بإمرة البابا على «الصخرة» .

وعلى أهذا فإن الدلائل باتت تشير إلى صدام بين اللاتين والأرثوذ كس ، وقد كان .

فى تلك الأثناء كان النورمان فى جنوبى إيطاليا قد زحفوا على ممتلكات البابوية ، بعد أن أجهزوا على أراضى الدولة البيزنطية هناك . وهنا قرر البابا ليو التاسع عقد محالفة مع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع مونوما خوس (١٠٤٩ – ١٠٥٥) لمحاربة النورمان . وتم التحالف بين الطرفين بعد أن توسط القائد اللومباردى آرجيروس بين البابا والإمبراطور من أجل محاربة النورمان .

كان بطريرك بيزنطة فى تلك الفترة ميخائيل كريورلايوس ، الذى شغل قبل ذلك منصباً سياسيًّا هامًّا وأصبح من أبرز رجال البلاط الإمبراطورى . فى عام ١٠٤٠ كان كريلاريوس طرفاً فى مؤامرة لإطاحة الإمبراطور ميخائيل الرابع عن العرش . غير أن المؤامرة فشات ، وعندها قرر الإمبراطور معاقبة كريولاريوس بإجباره على دخول سلك الرهبنة . ولكن كريلاريوس وقف فى وجه الإمبراطور رافضاً الإذعان . وعندما انتحر شقيقه طرأ على حياته تغير كبر ، إذ قصد بنفسه إلى أحد الأديرة

وانخرط فى سلك الرهبانية . وفى عام ١٠٤٣ استولى قسطنطين التاسع مونوماخوس على الحكم ، ولما كان صديقاً لكريولاريوس فقد اختاره لكرسى البطريركية خلفاً للبطريرك المتوفى الكسيوس .

كان كريولاريوس معارضاً للتحالف بين بيزنطة والبابوية الذرأى بثاقب نظره أن هذا قد يعطى روما فرصة للتدخل فى شئون الكنيسة الشرقية . كذلك كان البطريرك مرتاباً فى موقف ارجيروس القائد اللومباردى الذى وكلت اليه مهمة الإشراف على جيش بيزنطة فى جنوبى إيطاليا ، ومن أجل هذا فقد أصدر قراراً بالحرمان ضده .

بدأ الخلاف بين كنيستى روما وبيزنطة بعد أن علم كريولاريوس أن النورمان قد منعوا اليونانيين فى جنوبى إيطاليا من ممارسة طقوسهم الدينية وذلك بموافقة كنيسة روما . وردًّا على هذا الموقف فقد أمر كريولاريوس الكنائس اللاتينية فى القسطنطينية باتباع الشعائر اليونانية ، وعند رفضها أمر بإغلاقها (نهاية عام ١٠٥٣) .

ولما علم البابا ليو التاسع بغلق الكنائس اللاتينية فى بيزنطة أرسل للإمبراطور يهم كريولاريوس « بالوقاحة » و بتحدى قانون الله ، كما شبه سلوكه بموقف « الفريسيين والكتبة الذين يوصدون ملكوت السماوات فى وجه البشر» (٢) . وقد اتهم الكاردينال همبرت من سلقًا — كانديدا السلطات البطريركية بأنها دبرت فتنة عند غلق الكنائس اللاتينية وأنها أمرت بأن « يداس خبز التناول المقدس » اللاتيني تحت الأقدام (٣) .

وهكذا تجدد العداء الدفين بين الكنيستين في صورة أكثر عنفاً مما سبق . حث كريولاريوس صديقه ليو من أوخريدا رئيس أساقفة الكنيسة البلغارية على أن يكتب رسالة إلى يوحنا أسقف مدينة ترانى « في أبوليا » ليسلمها إلى

P.L., Vol. CXLIII, cols. 758 - 64.

⁽٢)

البابا وسائر أساقفة الفرنجة (٤). تبدأ رسالة ليو بتوضيح أن الكنيسة اللاتينية باستخدامها « الحبر الغير مختمر » في التناول تبقى في شركة مع اليهود الذين يفعلون نفس الشيء وفق القوانين الموسوية . وأوضح الكاتب أن الحبر الذي تناول منه المسيح هو وحواريوه في العشاء الأخير مخمر (آرتوس) ، أما الخبر الغير مختمر فلا حياة فيه ، أصم كالحجر . وراح يقول إن شركة التناول بالخبز الغير المختمر تمثل الميلاد الجديد : شركة الغبطة والعهد الجديد في نعمة جسد المسيح . مختمر تمثل الميلاد الجديد : شركة الغبطة والعهد الجديد في نعمة جسد المسيح . أم تم يمضى الكاتب مستنكراً على اللاين صيام السبت : « ألم تطالعوا مافعله الملك داود ، عندما كان معوزاً وخاوى البطن ، هو ومن كانوا معه . . ألم يدخل المعبد على الكاهن الأكبر آبي آثار فأكل من خبر التناول هو وصحبه رغم مخالفة ذلك المقانون ، قائلا لمعارضيه « القد جعل السبت لابن الإنسان يدخل المبت نفسه» . لا ابن الإنسان السبت ، وهكذا فإن ابن الإنسان سيد على يوم السبت نفسه» . يان رجال الدين الملاتين حكب ليو – يماثلون الفهد لأن جلده لا هو بالأبيض ولا بالأسود . وعلى هذا فاللاتين يظلون معلقين بين طرفي نقيض ، بالأبيض ولا بالأسود . وعلى هذا فاللاتين يظلون معلقين بين طرفي نقيض ، فهم ليسوا يهوداً ولا هم بمسيحين (٥) . ثم يمضى رئيس الأساقفة البيزنطى فهاجم اللاتين لأنهم يأكلون المنخنقة ولأنهم يحرمون على القساوسة الزواج .

وصل خطاب ليو هذا إلى إيطاليا في وقت حرج من عام ١٠٥٣، ا إذ أن جيوش بيزنطة والجيش البابوى قد لقيت هزيمة فادحة على يد النورمان . وفي موقعة Civitate (يونية ١٠٥٣) وقع البابا ليو التاسع أسيراً في يد النورمان ، فحملوه إلى مدينة بينيڤنتو ، غير أنهم سمحوا له بإدارة شئون الكنيسة من هناك ، إذ كان النورمان أنفسهم أعضاءاً متحمسين للكنيسة اللاتينية . ولهذا سمح النورمان للسكرتير البابوى ــ همبرت من سلقاً كانديدا ــ بأن يلحق بسيده عندما يشاء . وأثناء رحلته من روما إلى بينيڤنتو ، عرج همبرت على مدينة تراني ، وهناك سلمه الأسقف البيزنطي

Ibid., cols. 929 - 32. ()

Ibid., col. 931. (•)

يوحنا رسالة ليو رئيس أساقفة بلغاريا السالفة الذكر.

لم يكن همبرت ضالعاً في اللغة اليونانية ولكنه قام بعمل ترجمة سريعة للرسالة ، ولأنه كان كارهاً لبيزنطة وكنيسها ، ضخم من عبارات الهجوم على كنيسة روما الواردة في الرسالة . وعندما وصل إلى بينيشنتو قدم الرسالة وترجمتها إلى سيده ليو التاسع ، الذي كان يشغل وقت أسره في تعلم اللغة اليونانية ، غير أنه من المشكوك فيه أن البابا كان على دراية كاملة باليونانية ترجمة همبرت (٢) .

ثار ليو التاسع غاضباً عندما قرأ هذه الرسالة الهجومية الواردة من رئيس الأساقفة البيزنطى ، فأمر همبرت بأن يكتب رسالتين ، إحداهما موجهة في لهجة غير مهذبة إلى « الأسقفين كريولاريوس وليو من أوخريدا (٢٠)» ، والثانية لم ينص فيها على الشخص المرسلة إليه (٨) . وأهم ما ورد في هاتين الرسالتين ،أن كنيسة روما لم تلطخ طوال تاريخها بالهرطقة لأن « المسيح ذاته قد صلى من أجل بطرس ليثبت إيمانه » ، أما الكنيسة اليونانية فقد كانت منبعاً للتجديف ، فهى التى أخرجت آريوس ونسطور ويوطاخيوس وغيرهم . وراح البابا يقول إن كرسى روما هو الذي تصدى لتلك البدع فسحقها ونظف العقيدة من الانحرافات المشرقية . وقد أصر البابا في كتابه على إبراز إمارة روما على سائر الكنائس والبطريركيات الأخرى مسبقاً الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم على كنيسة القسطنطينية ، طالباً خضوعها جميعاً لخليفة القديس بطرس ، أمير الرسل (٩) .

ثم ذكر البابا في رسالته أن كنيسة روما هي التي قضت على هرطقة تعطيم الأيقونات ، وأنها انتصرت لإجناشيوس ضد فوشيوس . واختتم ليو التاسع كلامه بمهاجمة الكنيسة البيزنطية بطريق غير مباشر : إذ ألمح

S. Runciman, The Eastern Schism, London, 1955, p. 42. (1)
P.L., Vol. CXLIII, cols. 744 - 69. (1)
Ibid. (1)
Ibid. (1)

(11)

بأنه لا يميل إلى تصديق الإشاعة القائلة بأن الكثيرين من رجال الدين البيزنطيين من الحصيان .

وقد كتب البابا أيضاً رسالة إلى بطرس بطريرك أنطاكية آملا فى كسب تأييده ضد كريولاريوس . ولهذا فإن ليو التاسع أخذ يتملق البطريرك الأنطاكى ، ممتدحاً حصافته وعلمه ، ومذكراً إياه بأن بطرس الرسول كان أول أسقف لمدينة أنطاكية ، وعلى هذا طالبه البابا بالولاء لخلفاء بطرس الرسول فى روما . وتوحى هذه الرسالة بأن البابا أراد أن يجند بطرس الأنطاكى ضد بطريرك بيزنطة فى هذا الصراع (١١) .

وفى تلك المرحلة من الصراع وصل رسول من القسطنطينية يحمل رسالتين ، الأولى من توقيع الإمبراطور مونوه الحوس وموجهة إلى البابا يطلب منه فيها تقوية أواصر الحلف السياسي بينهما في الحرب ضد النورمان. أما الثانية فهي من كريولاريوس ، ويطلب فيها من البابا العمل من أجل وحدة الكنيسة ، واعداً بإدراج اسم البابا في « أنحاء الإمبراطورية » بشرط أن يدرج اسمه أولا في كنيسة روما . غير أن كريولاريوس خاطب البابا على أنه « الأخ ليو » بدلا من التسمية التقليدية « الأب الطوباوي » ، كما وقع الرسالة بصفته « البطريرك المسكوني » (١١) .

وقد قام الكرادلة القائمون بخدمة البابا بترجمة كلمة «أنحاء الإمبراطورية » الواردة في رسالة البطريرك البيزنطي إلى «أنحاء العالم أجمع ». ولهذا فقد غضب البابا غضباً شديداً إذ فسر هذا على أنه زعم لكريولاريوس في اتخاذ صفة «العالمية » ، كما أنه لم يقبل أن يخاطب «كأخ » بدلا من «أب طوباوي » . وقد ساهم الكاردينال همبرت من سلقا – كانديدا في تهويل الأمر في نظر البابا ، مما أدى إلى تدهور العلاقات بين الطرفين . والملاحظ أن كريولاريوس في رسالته هذه قد كان يخطب مودة البابا ، ولم

Ibid., cols. 769-73. (1.)

P.G., Vol. CXX, cols. 781 - 96.

يقصد للإساءة إليه، ولكن الكراهية الشديدة التي كانيضمرها أعضاء الكيوريا لكنيسة بيزنطة جعلت البابا يتشدد في موقفه ، وقد زاد الأمور تعقيداً أن ساءت صحة البابا إلى حد اضطره لأن يترك تدبير شئون الكنيسة إلى صديقه المقرب الكاردينال همبرت الذي كان ذا طبع نارى ولا يقبل الهوادة ، هذا إلى جانب احتقاره الشديد لكل ما هو بيزنطى وشرقي .

وعلى هذا فإن همبرت كتب رسالتين باسم البابا ، الأولى موجهة إلى الإمبراطور مونوماخوس والثانية موجهة إلى كريولاريوس .

وقد تناول الكاردينال الفرنجى فى رسالته الأولى شخص البطريرك البيرنطى بأقذع الشتائم والاتهامات ، متهما إياه بالتحرش باستقلال بطريركيتى أنطاكية والإسكندوية ، مهدداً باتخاذ البابا قرارات تأديبية ضده (١٢) . وجاءت الرسالة الثانية لتوبخ كريولاريوس لاتخاذه لقب « مسكونى » ، كما ألقت شكاً على قانونية انتخابه بطريركاً . وفى نفس الوقت اتهم بانتهاك حقوق بطريركيتي الإسكندرية وأنطاكية (١٣) .

قرر همبرت السفر بنفسه إلى القسطنطينية – على رأس بعثة بابوية – ليسلم الرسالتين بيده . وكان فى رفقته فردريك اللورينى ، المستشار البابوى ، وبطرس رئيس أساقفة آمالنى . عرج هؤلاء فى طريقهم على القائد اللومباردى ارجيروس الذى – بسبب العداء الشخصى بينه وبين البطريرك – نصحهم بتجاهل الأخير والتشاور مباشرة مع الإمبراطور مونوماخوس .

قبل أن نتابع مجرى الأحداث التى أدت إلى الشقاق الفعلى بين الطرفين، يجب دراسة رد الكاردينال همبرت على رسالة ليو من أوخريدا دراسة تحليلية لأنها تكشف عن مشاعره ونواياه تجاه الكنيسة البيزنطية (١٤٠). يتهم الكاردينال كنيسة بيزنطة بالهرطقة والإمعان في الضلال، « وإنه لمن العجرفة أن يطلق

P.L., Vol. CXLIII, cois., 777 - 81. (17)

Ibid., cols. 773 - 77. (18)

P.L., Vol. CXLIII, cols. 929 - 74, under the title "Humbertus Silvae" (18)
Candidae adversus Grecorum Calumniae".

المراطقة ألسنتهم ضد الكنيسة الفرنجية الوقورة وضد البابا الطوباوى » . إن هجوم اليونان ضد الخبر الحالى من الخميرة — قال الكاردينال نه تجديد المهرطفة المانوية القائلة بأن الجماد له روح ، وأن كلمة (آرتوس) الواردة في العهد الجديد تشير إلى الخبر الحالى من الحميرة والمختمر على حد سواء . وعندما يقدم الكاتب على تفنيد قول اليونان الأنما يشبه ملكرت السموات احميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع» (١٠٠) يرد عليهم بالنص الإنجيلي «إذا نقوا منكم الحميرة العتيقة لكي تكوفرا عجيناً جديداً كما أنتم فطير . إذا لنعيد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والحبث بل بفطير الإنجلاص والحق » (١٦٠) .

وعلى هذا فعلى البيزنطيين أن يحتفظوا « بخبزهم العفن » لأنهم يحولون الحق افسنتينا ويلقون البر إلى الأرض » يقول السيد الرب (١٧٠).

أما عن دفاعه عن صيام أيام السبت فهو يقرل بأن هذا اليوم يوم فرح عند اليهود ولكنه يوم حزن عند أتباع المسيح ، ولهذا وجب صيامه مشاركة لذكرى دفنه في القبر . ورداً على عبارة رئيس أساقفة بلغاريا التي شبه فيها اللاتين بالفهد المخطط الجلد ، فإن الكاردينال الفرنجي اللذي شبه فيها اللاتين بالفهد المخطط الجلد ، فإن الكاردينال الفرنجي اللذي لم تكن تخفي عليه بذاءة القدامي ، فقد كتب يقول « تمخض الجبل فرلد فأراً » (١٨) و يختم همبرت كلامه بنص من نبوءة أشعيا ، وجهه إلى أهل بيزنطة : « ويل للقائلين للشرخيراً وللخير شراً الجاعلين الظلام نوراً والنور ظلاماً ، الجاعلين المرحلواً والحلومراً » (١٩٠) .

وصل همبرت ورفاقه إلى القسطنطينية ، ودخلوا على البطريرك كريرلاريوس اللهي لم يحسن استقبالهم . وعلى هذا فقد ألتى الكاردينال بخطاب البابا إلى

Matthew, XIII, 33.	(10)
Clorin, V.8	(١٦)
Amos, V. 4 - 150.	(17)
Horatius Flaccus, De Arte Poet., A.P. 139.	(14.)
Isaiah, V. 20.	(19)

البطريرك ؛ وتركه هو وصحبه دون تحية لكريولاريوس .

كان كريولاريوس محيطاً بواقع الأمور في إيطاليا ، ولما كان البابا أسيراً في يد النورمان عن فإن البطريرك رفض الاعتراف بهمبرت وزملاءه مندوبين بابويين . وعزز من موقفه هذا أن وردت أخبار بعد بضعة أيام عن وفاة البابا ليو التاسع (١٩ أبريل ١٠٥٤) . ولا شك في أن هذا قد أضعف من موقف همبرت عوبدا تبرير كريولاريوس لتشدده معه أمراً مقيولا في نظر شعب القسطنطينية (٢٠) .

فى تلك الأثناء وقع صدام بين همبرت وأحد رهبان دير ستوديوم واسمه نيكيتاس ، الذى هاجم الشعائر اللاتينية خاصة صيام أيام السبت واستخدام الخبز الخالى من الخميرة، ومنع القسيسن من الزواج .. إلخ (٢١)

وبعد أن قرأ همبرت ترجمة لاتينية لما كتبه نيكيتاس راح يهاجم الكاتب في عنف ووقاحة ، إذ أنه أعلن أن هذا الراهب « لا ينحدر من أحدالأديرة وإنما من بيت دعارة » (٢٢)، وبأنه «حشرة ثعبانية متسخة» وبأن هجومه ضد الكنيسة الرومانية يهبط به إلى مستوى « الكلاب المسعورة » ، فله ولأنباعه « جهنم وبئس المصير » . وهنا يعرج همبرت في هجومه على البطريرك كريولاريوس وعلى صديقه رئيس أساقفة بلغاريا ليجرحهما . شم يمضى ليهاجم الشعائر البيزنطية ؛ قائلا بأن إضافة الماء إلى خمر التناول المقدس الذي اعتاده البيرنطيون — يجعل خمر التناول دنساً كريه الرائحة « يزكم الأنوف مثلما كانت الرائحة المتفجرة من بطن آريوس اللعن » (٢٣) .

See L. Bréhier, Le Schisme Oriental du XIe Siècle, Paris, 1899, p. 13; also (Y •)
R. Mayne, east and West in 1054', in The Cambridge Historical Journal,
Vol. XI. (1953 - 55), p. 145.

Nicetas of Staudium, "Libellus Contra Latinos', in P.L., Vol., CXLIII, () cols. 973 - 84.

Humbertus Silvae Candidae. 'Contra Nicetam', in P.L., Vol. (YY) CXLIII, cols. 983 - 98..

Ibid., Col. 993. (YT)

ويختتم همبرت كلامه قائلا بأن كنيسة بيزنطة قد تعرضت منذ البداية للفساد والفسق والهرطقة والانحراف على يد آريوس وماسيدونيوس ونسطور ويوطاخيوس وغيرهم ، وأيضاً «على يدك يا نيكيتاس - أيها التعس الحقير - وعلى يد هؤلاء الذين يشاركونك الرأى فيما تقول والعقيدة فيما تنادى به» (٢٤) . كان الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس يرى ضرورة تهدئة غضب الكاردينال همبرت ورفاقه ، إذ كان مهتماً في الدرجة الأولى بتقوية أواصر حلفه السياسي مع البابوية ضد قوة النورمان .

ولهذا فقد أجبر الراهب نيكيتاس على الحضور والاعتذار لهمبرت وصحبه " ثم أعلن تراجعه عما كتبه ضد الكنيسة اللاتينية . كان موقف مرزوماخوس مشجعاً للكاردينال المتعجرف لأنه يمضى فى غيه وفى تحدى رجال الدين فى القسطنطينية فبدأ يتحدث عن مرضوع انبثاق الروح القدس من الابن أيضاً " مما أدى إلى هياج الرأى العام فى العاصمة ضد السفراء اللاتين وضد الإمبراطور ذاته . ورغم كل هذه الاستفزازات بتى البطريرك كريولاريوس محافظاً على هدوءه وترك المندوبين اللاتين يتخبطون .

غير أن همبرت ، بعد أن يئس من استفزاز كريولاريوس ، قرر الإقدام على أمر خطير . فقصد في يوم السبت ١٦ يوليو ١٠٥٤ إلى كنيسة أياصوفيا، ومعه رفيقاه . ودخل اللاتين إلى المذبح المقدس ووضعوا عليه قراراً بلعنة وحرمان البطريرك كريولاريوس ، ورئيس أساقفة بلغاريا ، ثم ميخائيل قسطنطين المستشار البطريركي . وخرج الثلاثة من الكنيسة وهم ينفضون الغبار من أقدامهم ، وذلك على مشهد من جمهور المصلين .

التقط أحد الشهامسة هذه الوثيقة وأسرع وراء السفراء البابويين يتوسل إليهم استردادها ، دون جدوى ، فرى بها إلى عرض الطريق . وسرعان ما وقعت تلك الوثيقة فى أيدى كريولاريوس فأمر بعمل ترجمة يونانية لها ، وصعق بطريرك أياصوفيا لما ورد فها :

Ibid.

تبدأ الوثيقة بذكر أسماء همبرت وبطرس من آمالني وفردريك اللوريبي على أنهم رسل البابا الشرعيون والأبناء المخلصون لكنيسة روما وبابويتها ، رأس الكنائس ورقيب قوامة الإيمان في العالم أجمع .

وتمضى الرثيقة لتهم كريولاريوس بعدم استحقاق منصب البطريركية « بسبب سلوكه الوقح وتعاليه المغلوطة التي أدت إلى ظهور آراء مهرطقة من قبيل السيمونية والخصى وإعادة عماد اللاتين والسماح للقسيسيين بالزواج وتعميد النساء وهن في وقت الحيض ، وتحريف القوانين الموسوية ، وحدف عبارة « الروح القدس منبثق من الابن أيضاً » من قانون الإيمان، ثم استخدام الخبز المختمر في التناول المقدس » . وتلى ذلك الشكوى من قيام كريولاريوس بإغلاق الكنائس اللاتينية في القسطنطينية ومن عجرفته وتلقيب نفسه بلقب « مسكوني » . وبعد ذلك تصب الوثيقة اللعنة والحرمان على كريولاريوس وليو من أوخريدا والمستشار البطريركي ، مدمغة عقيدتهم بالهرطقة مثلهم في هذا مثل الأريوسيين والمانويين وسائر البدع الأخرى (٢٥) .

لا زالت جماعة المؤرخين تعتقد الله وقتنا هذا أن هذا القرار بالحرمان قد انصب فقط على كريولاريوس وحزبه . ولكن يجب ملاحظة أن الوثيقة في أكثر من مكان تتعرض بالطعن واللعن للكنيسة البيزنطية ككل، ذلك لأن الشعائر المتبعة فيها قد وصمت في مجموعها بالمانوية . وأهم من هذا أن الإيمان « بانبثاق الروح القدس من الآب [فقط] » قد نعت بالتجديف . ولما كان هذا النص وتلك الشعائر ليست من ابتكار كريولاريوس ورفاقه ، وإنما هي أركان أساسية في تاريخ الأرثوذكسية صاحبة المجالس المسكونية السبعة ، فإن وثيقة الحرمان لا شك قد طعنت الكنيسة الشرقية ككل ، لا مجرد شخص البطريرك وحزبه .

أسرع البطريرك ومعه ترجمة يونانية للوثيقة ليعرض الأمر على الإمبراطور مونوماخوس ، غير أن الأخير لم يصدق عينيه وهو يقرأ النص ، فقد أكرم وفادة المندوبين البابويين حتى لحظة رحيلهم عن العاصمة . والواقع أن الإمبراطور كان يساوره شك في هذه الترجمة ، ولهذا فقد أرسل مندوباً إمبراطورياً ليلحق بهمبرت وصحبه ويحصل منهم على نسخة أصلية للقرار . ولحق ليلحق بهمبرت وصحبه ويحصل على بغيته ، فعاد وسلمها إلى سيده ، ووجد الإمبراطور أن الترجمة التي قدمها كريولاريوس مظابقة تماماً لما جاء في النص اللاتيني . أرسل الإمبراطور رسولا ثانياً يطلب من المندوبين البابويين العودة إلى القسطنطينية وتوضيح موقفهم أمام المجلس ، ولكن همبرت لم يعر هذا الكلام التفاتاً ، واستمر ورفاقه في طريقهم إلى الغرب .

فى أثناء ذلك دبر أتباع كريولاريوس مظاهرات صاخبة ضد اللاتين وضد سياسة اللين التى اتبعها الإمبراطور معهم . وخاف مونوماخوس فأصدر أمراً بإحراق الوثيقة اللاتينية وأمر بالقبض على أقارب إرجيروس وعلى الدين ساعدوا اللاتين فى الترجمة من اللاتينية إلى اليونانية . وفى على الدين ساعدوا اللاتين فى الترجمة من اللاتينية إلى اليونانية . وفى على كلمة كريولاريوس :

ر إن عدو البشرية يقظ . فلم يكتف بأن أوقع بشراكه الإنسان في سقطته الأولى وإنما دأب على تعريضه للهلاك والضلال آلاف المرات قبل مجيء الكلمة . وبعد هذا بذر الهرطقة تلو الأخرى لينال من صلب الإيمان . غير أن الله قد شاء لتلك الفتن أن تزهق ، واستراح الناس ظننا أن العدو لن يعود لإدخال خطاة آخرين في التجربة . ولكن نفراً من أبناء الظلام – هم في الواقع من الغرب – حلوا في مدينتنا بقصد إفساد العقيدة الأرثرذكسية . ومضوا في ضلالهم وبغيهم فوضعوا على مذبح الكنيسة الكبرى نصوص الحرمان ضد شخصنا وضد كافة الأرثوذكسيين، لأننا لا نحلق لحانا ، ولأننا نتقبل شركة التناول من قسيسين متزوجين ،

ولأننا لا نقول بانبثاق الروح القدس من الإبن .

إن الكاب المقدس يطالب رجل الدين بإطلاق لحيته ، ولقد أقر يجلس آنسيرا ومجلس تروللو زواج القساوسة ، أما انبثاق الروح القدس من الابن فهذا عصف صارخ بتعاليم وتراث المجالس المسكونية .

لقد تردى أهل الغرب في هرطقة ماسيدونيوس بأن أعطوا الصفات الخاصة بالابن الكافة أقانيم الثائرث. على هذا المنوال من الفظاظة والتجديف بات هؤلاء المستهرون يشيعون الضلال في العاصمة. لقد قدموا على الإمبراطور زاعمين بأنهم رسل البابا ، ولكنهم في حقيقة الأمر عملاء لأرجيروس

ويقيناً منا أن ضلال هذه الطغمة وفسادها لا بد وأن يسحق ، فقد كتبنا إلى الإمبراطور ، الذى بادر فأرسل رسولا ليلحق بهم . ولكنهم مضوا فى طريقهم لا يبالون . وعليه فقد أوفد إلينا الإمبراطور الراهب ستيفن ، أمين خزائن الكنيسة الكبرى ؛ ويوحنا الماغيستروس ؛ وقسطنطين قنصل الفلاسفة ليسلموا إلينا رسالة تبين الحطوات التى يجب الخاذها ضد الذين كتبوا تلك الوثيقة وضد الذين شاركوهم فى المؤامرة ، وكذا أوامر بأن نصدر ضدهم قرار اللعنة وبأن نشعل وثيقتهم بالنار . ولقد سجلت اللعنة عليهم فى الميغاسكريتون فى حضور رسل الإمبراطور وأعيد تسجيلها يوم الأحد الرابع والعشرين من الشهر عندما تليت نصوص قرارات المجلس المسكوني الحامس . واحتفظ بوثيقة اللعن هذه فى أرشيفات الشارتوفيلاكس لتبقى دليلا دامغاً على حرمانهم أبد الآبدين . ولقد شارك فى صب اللعنة عليهم سائر رؤساء الأساقفة والأساقفة الحاضرون فى الرابع والعشرين من يوليو السابق الذكر ، وهم : ليو من أثينا ، ميخائيل من سيليا ، نيقولا من إبوهاينا ، ديمتريوس من كاريا وآخرون » (٢١).

V. Grumel, Le Patriarcat Byzantin. Les Regestrs des Actes de (7 1)

Patriarcat de Constantinople. Paris, 1947 Vol. I, p. 7.

هذا وهناك مصدر آخر يلتي ضوءاً على هذا الشقاق بين بيزنطة وروما نجده في المكاتبات التي تمت بين كريولاريوس وبطرس بطريرك أنطاكية. ففي إحدى الرسائل التي بعث مها كريولاريوس إلى بطرس نطالع أنه كان قد كتب مبكراً إلى البابا ليو التاسع يلفت نظره إلى الأخطاء التي تفشت في كنيسة الفرنجة والتي تهدد كيان قانون الإيمان . غير أن أرجيروس قبض على حامل الرسالة واستولى علما وما كان معها من هدايا إمبراطورية مقدمة إلى البابا . ثم قام أرجيروس بتزييف رسالة باسم البابا وأرسلها رداً على خطاب كريولاريوس مع ثلاثة سفراء مزيفين . ولقد وصل إلى علم كريولاريوس أن البطريرك الأنطاكي يذكر اسم البابا في صلوات القُدَّاس ، كما أن بطارقة الإسكندرية وأورشليم يفعلون نفس الشيء غير أن كريولاريوس لم يصدق هذا القول الأنه الأيخني على أحد أن اسم البابوات قد أسقط من كنائس الشرق تماماً منذ عصر فيجيليوس الذي رفض المشاركة في المجلس المسكوني السادس (٢٧) . كما عبر كر يولاريوس عن غضبه الشديد لأنه قد علم أن بطريركي أورشليم والإسكندرية قد سمحا بشركة التناول للاتين ، وبأنهما قد قاما في بعض المناسبات باستخدام خبر غير مختمر في شركة التناول ، وطلب من بطرس تقصي الأمر بدقة .

هذا وقد تلتى كريولاريوس نسخة من خطاب بطرس إلى رئيس أساقفة . جرادو ، الذى هاجم فيه بطرس الخبز الغير مختمر . ولكن كريولاريوس لم يكن مقتنعاً بما ورد فى الحطاب ، لأن كاتبه لم يعدد بقية الانحرافات فى الكنيسة اللاتينية ، وعلى هذا فهر يذكر بها صديقه بطرس كالآتى : استخدام الخبز الغير مختمر فى التناول ، أكل المنخنقة ، حلق اللحى ، أكل اللحوم فى أيام الأربعاء ، والبيض واللبن فى أيام الجمعة ، صيام أيام السبت ،

In fact, probably since 1012, in the reign of the Patriarch Sergius II (YY) (1001 - 1019). See M. Jugie, Le Schisme Byzantin, Paris, 1941, p. 266; V. Grumel, op. cit., p. 241.

إضافة عبارة «الروح القدس منبثق من الابن » إلى قانون، الإيمان ، تبتل ربجال الدين من القسيسين ، زواج أخين من أختين ، مشاركة القساوسة في أعمال الحرب ، العماد بغطسة واحدة في المعمودية بدلا من ثلاث ، عدم الاعتراف بجريجوري اللاهوتي وبازل ويوحنا كرايزوستوم ضمن القديسن

ويسأل الكاتب بعد ذلك : « هل يمكن إذن اعتبار هؤلاء الناس أرثوذ كسيين ؟ » – إن ألتن يفعل هذا – اختتم كريولاريوس رسالته – يصبح شريكاً لهم في الإثم (٢٨).

من الواضح أن هذه الرسالة قد كتبت قبل أن يقوم الكاردينال همبرت بفعلته في كنيسة أياصوفيا ، إذ لا نجد إشارة فيها إلى هذا الحادث ، كما أن رد بطرس الأنطاكي أيضاً يخلو من مجرد الإشارة إليه . ولكن يجب أن نلاحظ أن القصة التي نسجها كريولاريوس عن القائد اللومباردي أرجيروس تجانب الصواب في بعض تفصيلاتها ، وإن كان لا يمكن إنكار أن همبرت ورفاقه قد عرجوا عليه قبل سفرهم من الغرب إلى القسطنطينية ، وعلى الرغم من المودة ومشاعر الأخوة التي يبديها كريولاريوس في رسالته إلى بطرس الأنطاكي الا أنه لم يخف غضبه الشديد من بطرس لأنه يذكر اسم البابا في صلاة القداس ، مثله في ذلك مثل بطارقة الإسكندرية وأورشليم . ويلاحظ أيضاً أن كريولاريوس كان يرغب في التأكد من تضامن كراسي أنطاكية وأورشليم والإسكندرية معه في شقاقه الأكبر ضد روما والبابوية .

هنالك رسالة أخرى موجهة من كريولاريوس إلى بطرس الأنطاكي. في نهاية يوليو ١٠٥٤ ، جاء فيها وصف كامل لمسلك الكاردينال همبرت ورفاقه في كنيسة أياصوفيا . ثم يحذر الكاتب مخاطبه من حيل روما ويهيب به أن يشد العزم لحماية الأرثوذكسية من زيغ الهراطقة اللاتين. (٢٩١)

P.G., Vol. CXX, cols. 781 - 96.

⁽ ۲۸)

P.G., Vol. CXX, col. 793; V. Grumel, op. cit., p. 9.

⁽۲4)

وقد أرسل كريولاريوس برسائل مماثلة إلى كل من بطريركي الإسكندرية وأو رشليم.

ورد في بعض المصادر^{(٣٠}) أن ميخائيل كريرلاريوس قد عقد مجلساً أدان فيه البابا ليو التاسع ثم أسقط اسمه من الذكر في صلاة القداس. ويؤرخ الكاتب المعاصر Phrantzes هذا المجلس بالسنة الحامسة والستين من البداية الثانية ، بينما يضعه Anonymous of Allatius في السنة ٢٥٥٢ من البداية الثانية . والبداية الثانية المشار إلها هنا هي أول سبتمبر عام ١٠٥٧ ، ويوافق هذا التاريخ وجود بطريرك أنطاكية الجديد – تيودوسيوس – في القسطنطينية ، كما أوضح المؤرخ المعاصر Job the Jesite . والواقع أن تيودوسيوس الأنطاكي كان بالفعل حاضراً في القسطنطينية في هذا العام حيث شهد الانقلاب الذي أطاح بالإمبراطور ميخائيل السادس عن العرش. ويضيف نفس المصدر أن رثيس أساقفة بلغاريا وقبرص كانا أيضاً

موجودين هناك وشاركا في المجمع المسكوني المشار إليه .

وإن كانت هذه الروايات غير صحيحة في قولها بأن كريولاريوس أسقط اسم البابا من الكنيسة البيزنطية ؛ لأن هذا كان بالفعل متبعاً حتى قبل تولى كريولاريوس منصب البطريركية ، إلا أنه من المحتمل أن كريولاريوس قد عقد مجلساً في عام ١٠٥٧ وأشرك فيه بطريرك أنطاكية الجديد وآخرين من الزعماء الدينيين الذين تصادف وجودهم هناك فىذلك الوقت ، بقصد تجديد إدانة عمل الكاردينال همرت ورفاقه من ناحية ، ولكسب تأييد إخوانه الشرقيين له في صراعه ضد اليابوية من ناحية أخرى .

كان للشقاق الديني بين بيزنطة وروما في عام ١٠٥٤ دلالات ثم

Job the Jesite; George the Metochite; Phrantzes; Anonymous of Allatius: (* .) Respectively: Hist. Dogm., I, 13, III, 70; Annales, in C.S.H.B. (ed. Bekker), Bonn, 1879; De Concessione, 614.

آثار بالغة الخطورة بين الشرق والغرب. ذلك لأن قرار الحرمان الذى وضعه همبرت ورفاقه على مذبح أياصوفيا لم يكن موجهاً ضد شخص البطريرك كريولاريوس وإنما في حقيقة الأمر ضد الكنيسة البيزنطية على إطلاقها. ولهذا فقد رأى آباء أياصوفيا في هذا المسلك من جانب اللاتين تحدياً صارخاً للإمبراطورية البيزنطية [الرومانية] ولكنيستها المسكونية . وجاءت تفاصيل القرار « الهمبرتى » لتؤكد الهوة السحيقة بين الأرثوذكس واللاتين في عال العقيدة والشعائر الدينية .

أما في غرب أوربا اللاتيني فإن عاملين هاهين قد زادا من الكراهية لبيزنطة وكنيستها: أولا — جاءت حركة الإصلاح البابوى والكنسي لتبشر الرأى العام في أوروبا بعالمية الكنيسة الروهانية وبالسلطان المطلق للبابا على سائر الكنائس: ثانياً — لاقت شخصية الكاردينال همرت إعجاباً متزايداً في الغرب ، وعلى هذا فإن العنف الذي أبداه في هجومه على الكنيسة الشرقية قوبل بالرضي ، وفسر المعاصرون فعلته في القسطنطينية — في القول وبالفعل — على أنها انتصار ساحق للكنيسة الفرنجية على الهراطقة المشرقيين ، ويتضح هذا من أن همبرت قد ظل حتى وفاته في عام ١٠٦١ أبرز عضو ويتضح هذا من أن همبرت قد ظل حتى وفاته في عام ١٠٦١ أبرز عضو أضبح أحد مرافقيه إلى القسطنطينية في بعثة ١٠٥٤ — وهو فردريك إذ أصبح أحد مرافقيه إلى القسطنطينية في بعثة ١٠٥٨ — وهو فردريك اللوريني — بابا باسم ستيفن التاسع (١٠٥٧ — ١٠٥٨) . وأهم من هذا أن أقرب الأصدقاء إليه كان هلدبراند الذي أصبح فيا بعد البابا جريجوري السابع والذي نادي بأن كنيسة بيزنطة « المنشقة » تمثل خطراً جسيماً على كيان المسيحية أكثر من خطر الوثنية ذاتها .

هذا ولكى نتفهم طبيعة العلاقات بين روما وبيزنطة فيما تلى من تاريخ لا بد من أن نتعرض لدراسة الإصلاح الهلد براندى لكنيسة روما ثم علاقات بيزنطة بالنورمان . وهذه هي مهمة الفصل التالى .



الفصل الثالث

بيزنطة والبابوية وغرب أوروبا

من ١٠٩٥ إلى ١٠٩٥

أصبحت العلاقات بين بيزنطة وغرب أوربا بعد شقاق ١٠٥٤ عرضية ومليئة بالكراهية والحقد المتبادلين ، فني عام ١٠٥٦/١٠٥٥ كان ليبرت أسقف كامبريا في طريقه إلى الحج في بيت المقدس ، ولكن السلطات الإمبراطورية البيزنطية لم تسمح له بعبور حدود الإمبراطورية ، وأمرت بترحيله إلى قبرص (۱) . ويروى أحد كتاب الحوليات الألمان أنه في عام ١٠٥٦ قامت السلطات البيزنطية بطرد ٢٠٠٠ لاتينيا من بيت المقدس (٢) . وفي نفس العام كتب فكتور الثاني إلى الإمبراطورة تيودورة (٣) . يشكو إليها من تعنت موظفيها في ابتزاز الأموال والضرائب من الحجاج الغربيين الوافدين من تعنت موظفيها في ابتزاز الأموال والضرائب معترفاً بهذا بتأييد البابوية الكامل مع زعماء النورمان في جنوبي إيطاليا ، معترفاً بهذا بتأييد البابوية الكامل لمشروعات النورمان ضد الممتاكات البيزنطية في الجنوب الإيطالي . وفي عام ١٠٦٧ في عاطلين العاشر باب المفاوضات عام ١٠٦٢ فتح الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر باب المفاوضات مع آجنس الوصية على العرش الألماني في محاولة ثنائية لتأييد كادالوس أسقف بارما بابا منافساً للبابا الشرعي إسكندر الثاني (١٠٦١ - ١٠٧٣) ، غير أن

^{&#}x27;Vita Lietberti;' XXXV, in D'Achéry, Spicilegium, IX, pp. 705-12.

^{&#}x27;Miracula Sancti Wolframni Senonensis'; in Acta Sanctorum Sancti Benedicti, (Y) ser. III, pt. 1, pp. 381 - 82.

P. Riant, Inventaire Critique des Lettres Historiques des croisades, Archives () de l'Orient Latin, Vol. I, Paris, 1881, ep. xvii.

P.L., Vol. CXLIX, cols. 961 - 62. ()

المحاولة لم تنجح وذلك بسبب قوة نفوذ إسكندر الثانى وحزبه . وفي عام ١٠٧٧ أرسل البابا إسكندر الثانى سفارة إلى القسطنطينية لتهنئة الإمبراطور البيزنطى الجديد ميخائيل السابع باعتلائه العرش ، ولمحاولة إحباط التحالف بين بيزنطة وألمانيا ضد البابوية . وكان بطرس أسقف أناجني على رأس هذه السفارة ، ولما وصل إلى العاصمة البيزنطية طرق موضوع « وحدة الكنيسة » غير أن بطريرك بيزنطة ، يوحنا اكزفيلينوس ، وميخائيل بسللوس كاتم السر الإمبراطوري ، تدخلا في المفاوضات وقررا غلق باب المناقشة في هذا الموضوع لأجل غير مسمى (٥) .

فى عام ١٠٧٣ توفى البابا إسكندر الثانى = وكان واضحاً للجميع أن خايفته على العرش البابوى هو هلدبراند ، الذى كان أقوى شخصية فى مجلس الكيوريا منذ خمسة وعشرين عاماً . ولقد تظاهرت جماهير الشعب فى روما بمجرد دفن جثان البابا الراحل هاتفة باسم هلدبراند عالياً فى الساء ، وبالفعل اختير هلدبراند وأعطى لقب البابا جريجورى السابع (١٠٧٥-١٠٨٥). والصورة التى يعطيها لنا معاصروه عن أحواله الفيزيقية تقول بأنه كان قصير التامة قميح المنظر ، غير أن الشرر كان يتوقد فى عينيه بداهة وذكاءاً . كما يذكرون مقدرته الفائقة فى السيطرة على كافة سامعيه عند المحادثة .

ولما كانت تعاليم هلدبراند وفلسفته الإصلاحية ونظريته في المنصب البابوى قد أوجدت تغييراً جدرياً في تفسير السلطان البابوى، ولما كانت هذه الفلسفة أيضاً قد فرضت موقفاً معيناً تجاه بيزنطة وكنيستها ، فإن المبادئ الهلديراندية تستحق الدراسة التحليلية . كان هلدبراند يخطط للسيطرة على الملدبراندية تستحق الدراسة التحليلية . كان هلدبراند يخطط للسيطرة على كافة كنائس العالم المسيحى ، شرقيه وغربيه ، وأيضاً على سائر الحكام

Bruno of Segni, 'Vita S. Petri Ananiensis,' in Acta Sanctorum Bollandiana, (o)
Antwerp - Paris - Rome - Brussels, 1643 - (in progress), 3 August,
p. 230; S. Salaville, Jean Xiphilin,' in Vacant et Mangenot, Dictionnaire
de Théologie Catholique, Vol. XV, 2, cols. 3618 - 20.

العلمانيين . وهذا الزعم كان في الواقع تطويراً لما كتبه الكاردينال هبرت من سلقا — كانديدا تحت عنوان Analogia ، مبيناً فيه علاقة الروح بالجسد بقصد إبراز أولوية الروح وتفضيلها على الجسد (١) . ولقد استخدم هادبراند هذا المفهوم «الهمبرق» كأساس لنظرية ثيوقراطية بحتة لم يكن هدفها إحراز توافق منسجم بين السلطتين الروحية والزمنية وإنما تركيز السلطان جميعه في المجالين الروحي والزمني في يد البابا وحده . وتنطق مكاتبات هلدبراند للوك غرب أوربا بإصراره على قصر هذه الحقوق على البابوية : فعندما طرد الماك الفرنسي فيايب الأول الأسقف جاى من أبروشية بوقيه ، كتب هلدبراند إلى رئيس أساقفة وأساقفة فرنسا يعلمهم بأن هذا الملك الذي لطخ حياته بسلوك شائن الايحق له البقاء على العرش . وعلى هذا فقد أمر رجال الدين الفرنسيين كافة بالتمرد ضد ملكهم «الطاغية» ، واعداً إياهم بأنه مقدم على خلع « الشيطان » من على كرسي الملك (٧) وكتب هلدبراند إلى سقاين الثاني ملك الذيرك يأمره بأن يحكم ملكه طبقاً لقانون الله ، مذكرا إياه بأن البابا — بوصفه ممثلا لدعلي أن يوم الدينونة لافرق بين فقير وأمير(٨) .

وعندما تمكن سليان ملك المجر من استعادة عرشه بمعونة الملك الألماني هنرى الرابع ، في مقابل الاعتراف بالأخير سيداً إقطاعيناً عليه ، أرسل إليه هلدبراند يذكره أن الحجر تتبع السيادة البابوية لا الملكية الألمانية . ثم هدده بالعزل عن العرش إن كان عاجزاً عن القيام بمستوليات الملك كما يجدر به (٩) .

غير أن هلدبراند لم يكن قانعاً بفرض نفوذه على ملوك غرب أوروبا وإنما هدف إلى بسط سلطانه أيضاً على أمراء الشرق المسيحي الأرثوذكسي .

Ibid., II, 13, pp. 144 - 46.

M.G., Libelli de Lite, I, p. 225. (7)

Registrum (ed Caspar), II, 5, p. 132. (7)

Ibid., II, 51, p. 193. (A)

فقد كتب إلى ديمتريوس أمير كييف الروسية يطلب منه الخضوع للقديس بطرس وخليفته وينصحه بأن يحسن استقبال المندوبين البابويين الموفدين إلى بلاطه وأن يقبل مايقترحونه عليه دون جدال (١٠٠).

وإن كان هذا موقف هلدبراند تجاه الحكام العلمانيين ، فإن سياسته تجاه رجال الدين كانت أشد تزمتاً وعنتاً . ولم يكن هذا البابا العنيد يعرف الهوادة في أحكامه ، فعندما عارضه بعض كبار الأساقفة ، عقد عجلساً في عام ١٠٧٥ وفيه أوقف الأسقفين وليم من بافيا وكونيبرت من تورينو ؛ كما حرم وخلع كلا من دينس من بياتسنزا وليمار من برما . كما هدد ملك فرنسا بلعنة الحرمان ؛ وصدرت الأوامر إلى مستشارى الملك الألماني ، هنرى الرابع ، بالمثول بين يدى البابا في الحال . كذلك أصدر البابا قراراً يحرم على رجال الدين من مختلف الرتب تقبل إقطاع ديني من البابا قراراً يحرم على رجال الدين من مختلف الرتب تقبل إقطاع ديني من العلمانيين ، كائناً مهما كانوا ، ذكوراً كانوا أو إناثاً (١١٠) . وفي نفس العام أصدر البابا المراسيم الشهيره باسم Dictatus Papae التي بلور فيها العام أصدر البابا المراسيم الشهيره باسم Dictatus Papae التي بلور فيها مزاعم كنيسة روما ، بل وأدخل عليها الشيء الكثير . وأهم ما ورد فيها الآتي :

- (۱) أن الله وحده هو مؤسس كنيسة روما
- (٢) وأن بابا روما هو وحده الذي يلقب بلقب «عالمي »
 - (٣) وأن للبابا وحده حق تعيين وخلع الأساقفة
- (٤) وأن مندوب البابا ــ حتى ولوكان برتبة كنسية صغيرة ــ له الحق في إصدار الأمر إلى من هم أعلى منه مرتبة في الكنيسة.
- (٥) وأن من يحرمه البابا ، وجب على كافة الناس هجرانه والثورة ضده
 - (٦) وأن للبابا فقط حق سن القوانين الجديدة

الك الكتاب (١٠) الكتاف الكتاب (١٠) الكتاف ا

- (٧) وأن للبابا فقط حق استعمال العلامات والنياشين الإمبراطورية
 - (٨) وأن الأمراء والملوك يجب أن يقبلوا قدم البابا
 - (٩) وأن للبابا أيضاً حق خلع الملوك والأباطرة
- (١٠) وأن للبابا أن يحكم بين الناس ، ولا يحق لمخلوق في الأرض أن يحاكم البابا لأن هذا حق الله وحده
- (١١) وأنه لايجرؤ إنسان ما على أن يدين شخصاً يلجأ إلى حمانة الياما
- (۱۲) وأن كنيسة روما لم تضل طريقها ، وبأنها لن تضله على مدى السنين
- (١٣) وأن للبابا الحق فى إعفاء الرعايا من الخضوع لشخص شرير(١٢) .

كان طبيعيناً أن يحتدم النزاع بين هلدبراند والملك الألماني هنرى الرابع بسبب هذه المزاعم البابوية . وقد تدهورت العلاقات بين الطرفين إلى حد أن عقد هنرى مجمعاً في مدينة Worms في ٤٢ أيناير ١٠٧٦ ، حيث وقع الأساقفة المؤتمرون قراراً بخلع جريجورى السابع من عرش البابوية « لأنه لايجدر بالكنيسة أن تبتى على ذئب ليحكمها (١٣٠) . ورداً على هذا فقد عقد البابا مجلساً (١٤ – ٢٢ فبراير ١٠٧٦) وفيه أعلن حرمان وخلع هنرى الرابع بالصورة التالية :

« سيدى الطوباوى بطرس أمير الرسل ، أمل إلينا – أتوسل اليك – آذانك المقدسة ، واصغ إلى أنا خادمك الذي أرضعته منذ

Ibid., II, 55 A., pp. 202 - 7; Monumenta Gregoriana (ed. P. Jaffé), Berlin, (17) 1865, pp. 174 - 6. See Appendix.

Many churchmen and lay jurists refuted Hildebrand's teachings; such as: (۱۳)
Sigebert of Gembloux, Apologia contra eos qui calumniantur missas
conjugatorum sacerdotum, in Libelli de Lite, II, pp. 436 - 48; Petrus
Creassus, Defensio Heinrici IV Regis, in Libelli de Lite, I, pp. 432 Seq.,
Lanfranc of Canterbury, in P.L., Vol. CL, cols. 548 - 49.

المهد ، والذي حفظت عليه حتى اليوم من كيد إبليس ، الذي مافتى يمقنى وسيظل بسبب ولائى لك . إنى أشهدك أنت وسيدتى والدة الإله وأخوك بولس الرسول من بين سائر القديسين على أننى دفعت إلى عرش كنيسة روما رغم إرادتى " وعلى أننى ما كنت لحظة أسعى إليه بالعنف ، فإنه أبتى لضعف بشريتى أن أمضى طيلة العمر حاجاً فى رحاب الأرض المقدسة على أن أسعى وراء زيف دنيوى . ويقينى أنك بفضلك ونعمتك على وبرضاك وكلت إلى حكم شعبك المسيحى " أحكمه فيطيعنى " ويضع لى ، فإنى وكيلك فى السلطان الذى وهبه الله إياك لتربط وتحل في السياء والأرض . على ثقل هذا الإيمان " وحفاظاً على شرف وسلام كنيستك ، وبسم الله الكريم " الأب والابن والروح القدس ، أخلع هنرى الملك ، ابن هنرى الإمبراطور ، الذى ثار ضد كنيستك عن حكم دولة الألمان وعن إيطاليا . وأعنى كافة المسيحيين من عهد الولاء له — وهأنذا ألقيه فى أغلال اللعنة ؛ وما دمت ظهيرى فلأقيدنه حتى يستبين البشر أنك أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أقام ابن الإله الحي كنيسته ، وأن أبوال الجحيم لن تقوى عليها هذه الصخرة أقام ابن الإله الحي كنيسته ، وأن أبوال الجحيم لن تقوى عليها هذه الصخرة أقام ابن الإله الحي كنيسته ، وأن أبوال الجحيم لن تقوى عليها هذه الم

وبهذه الصيحة الهلدبراندية وبإذلال هنرى الرابع عند قلعة كانوسا أصبح السلطان البابوى فى قمة مجده . وغدت تلك السابقة التاريخية سنداً خلفاء هلدبراند يرتكزون على ثقلها فى تبرير مزاعمهم البابوية فى الحل والربط . ولم يقتصر الأمر على هذا الحد وإنما راح الحزب البابوى يؤكدون أن الكنيسة مثلها مثل الجسد البشرى ، ولذا فليس لها سوى رأس واحد ، وأنه من البشاعة تصور كيان برأسن . واستغل هؤلاء ماورد فى « هبة قسطنطين » المزيفة فى إعلان أن للبابا الملك على الغرب وأيضاً إمارة الشرق . كما ادعى البابا تمثيل الله على الأرض بصفته كاهنه الأعظم ، ولهذا صار شخصه فوق القانون .

كانت هذه النظرتة البابوية تمثل تهديداً مباشراً لبيزنطة فى ناحيتين: فقد جاءت تلك المزاعم الهلدبراندية لتبتلع ما كان للامبراطور البيزنطى من حقوق ومزايا برصفه الخليفة الشرعى لقنسطنطين العظيم . ثانياً : كان مطلب البابوية فى السيطرة الكاملة على جسد الكنيسة العالمية يشكل تهديداً لبطريركية بيزنطة التى كانت فى نظر روما كنيسة منشقة ومنحرفة ، بل ورأى بعض البابوات فيها تهديداً لكيان المسيحية أخطر من الوثنية ذاتها .

وجدير بالملاحظة أن النظرية البابوية خصت أقلية كاثوليكية متمثلة فى البابا والكيوريا باحتكار صواب العقيدة. أما الشرق الأرثوذكسي بسجله الطائل من أثمة وعمد فى العقيدة والإيمان القويم، فقد استثنوا من دائرة « العقيدة النقية » . وهناك رسالة من البابا هلد براند إلى صديقه هيو ، مقدم دير كلوني ، تناول فيها الكنيسة البيزنطية باللوم والتقريع واتهمها باتباع مسلك الشيطان بانفصالها عن «عقيدة روما الكاثوليكية » وبتمزيقها جسد الكنيسة العالمية الواحدة (١٥٠) .

ولهذا ليس بمستغرب أن رسمت الأميرة المؤرخة آنا كومنينا صورة قاتمة للبابا جريجورى السابع ، لايختلف فيها عن أى « متبربر » آخر . فهو يدأب على تحقيق مكاسب دنيوية ويحنث بالعهد وأيضاً يسير إلى الحرب، يدأب على تحقيق مكاسب دنيوية ويحنث بالعهد وأيضاً يسير إلى الحرب، وهو رجل سلام وخادم لسيد السلام » كما أنه قد أفسدته الرشوة مثله في هذا مثل سائر الحكام العلمانيين . وتضيف الكاتبة أن أنوثتها وحياءها يمنعانها من أن تتعرض لفظاظة مسلك البابا وخشونته المتبربرة . ثم تمضى لتسخر من زعم اللاتين أن البابا وأس العالم أجمع ، مبينة بأنه عنلما نقل قنسطنطين العظيم عاصمته من روما إلى القسطنطينية « ملكة المدائن » انتقل قنسطنطين العظيم عاصمته من روما إلى القسطنطينية « ملكة المدائن » انتقل أيضاً مجلس السيناتو والجهاز الإدارى معهما وحق الأولوية والإمارة الدينية في العالم أجمع . ولا يفوت الأميرة أن أن تذكرنا بقرارات مجمع خلقدونية التي رفعت أسقف بيزنطة إلى أعلى المراتب الكنسية (٢١) .

P. Jaffé, Monumenta Gregoriana II, 49, p.p. 163 - 64.

Anha Comnena, Alexiad, (cd. B. Leib), 3 Vols., Paris, 1937 - 45, I, xiii, (17)
1, p. 47, III, x, pp. 132 - 33.

فى نفس الوقت الذى كانت فيه مدرسة الإصلاح البابوى ,تتوعد بيزنطة بسوء المصير بسبب انشقاق كنيستها ، تعرضت آسيا الصغرى لخطر داهم على يد الأتراك السلاجقة . فنى عام ١٠٧١ هجمت جيوش السلطان الب أرسلان على جيوش الإمبراطور رومانوس الرابع دايوجينيس فى مانزكرت (ملاذكرد) وهزمتها هزيمة ساحقة ، كما وقع الإمبراطور أسيراً فى يد السلطان . طلب الب أرسلان من أسيره أن يدفع جزية سنوية كبيرة ، وأن يعترف له بحق امتلاك مانزكرت وأرغش وأن يعيد له الرها وأنطاكية . وبعد أن وافتي الإمبراطور على هذه الشروط أطلق السلطان سراحه . غير أن الحرب التي نشبت بين رومانوس دايوجينيس وبين ميخائيل السابع غير أن الحرب التي نشبت بين رومانوس دايوجينيس وبين ميخائيل السابع دوكاس (١٠٧١ – ١٠٧٨) الذي اغتصب التاج أثناء أسر الأول ، شجعت السلاجقة ، على التوسع غرباً وجنوباً على حساب الإمبراطورية البيزنطية . وهكذا فإنه في عام ١٠٧٧ استولى الأتراك السلاجقة على الأراضي البيزنطية الواقعة شرق كمادوكيا ١٠٧٠

ومن الجانب الغربي استفحل خطر النورمان بعد أن استولوا على أراضى جنوب إيطاليا . فني ١٦ أبريل ١٠٧١ استولى الزعيم النورماندى رويرت جويسكارد على مدينة بارى آخر معقل هام للبيزنطيين في الجنوب الايطالي (١٨) .

لما رأت البابوية أن النورمان قوة فتية متهورة لا تستطيع بيزنطة مقاومة تفوقهم المتزايد ، ولما كان النورمان أعضاءاً غيورين في الكنيسة اللاتينية ، سارعت إلى عقد حلف وطيد معهم واعترفت بكيانهم الحديد مقابل اعترافهم بالبابا سيداً إقطاعياً لهم . وهذا ماتم بالفعل في مجلس آمالني (١٠٥٩) بين البابا نيقولا الثاني وبين روبرت جويسكارد .

بعد أن استولى جويسكارد على الممتلكات البيزنطية في جنوبي إيطاليا

See C. Cahen; La Première Pénétration Turque en Asie - Mineure; in

Byzantion, XVIII (1948), pp. 5 - 67.

O. Delarc, Les Normands en Italie, Paris, 1883, p. 455.

راح يخطط للهجوم على بيزنطة ذاتها وليس من المستبعد أنه كان يطمع. في الاستيلاء على عرش الإمبراطورية (١٩٦). وفي عام ١٠٦٦ كانت قد راجت إشاعة في القسطنطينية أن جويسكارد كان يعد العدة للهجوم على. العاصمة وكان هذا مبعث قلق شديد لدى السلطات البيزنطية (٢٠٠). ولهذا فإن الإمبراطور ميخائيل السابع عندما فتح باب المفاوضت مع البابا جريجورى السابع طلب منه المساعدة ضد الأتراك السلاحقه وكذلك رجاه. أن يمنع جويسكارد من الهجوم على بيزنطة (٢١).

وجد البابا جريجورى السابع فى طلب ميخائيل السابع هذا فرصة نادرة. لمحاولة فرض سلطان روما من جديد على الكنيسة الييزنطية المنشقة ؛ لأن وحدة الكنيسة العالمية تحت إمرة البابا كانت الهدف الأساسى من حركة الإصلاح الهلدبراندى . وعلى هذا فقد كتب البابا إلى الإمبراطور فى ويوليو ١٠٧٣ يدعوه إلى بذل قصارى الجهد لتوحيد الكنائس كما كانت الحال فى القديم (٢٢) . وبعد ذلك أرسل البابا كتاباً دورياً موجهاً إلى «سائر المسيحيين » فى غرب أوروبا يدعوهم للتطوع فى حملة لمساعدة أهالى القسطنطينية «ضد هجمات العدو المتبربر ومن سيوف الغزاة القساة» (٢٣). وفى نفس العام أرسل البابا خطاباً ثانياً يحث فيه أهالى الغرب اللاتينى وفى نفس العام أرسل البابا خطاباً ثانياً يحث فيه أهالى الغرب اللاتينى غير أنه هذه المرة أعلن أنه سيقوم ذاته بقيادة الحملة «لينقذ المسيحيين» في الشرق وإنقاذ إخوانهم المسيحيين الذين يهددهم العدو» . غير أنه هذه المرة أعلن أنه سيقوم ذاته بقيادة الحملة «لينقذ المسيحيين» في الشرق (٢٤) . وكان البابا يهدف من وراء قيادة الحملة بنفسه إلى أن

A. Buchon, Nouvelles Recherches Historiques Sur la Principauté Française (14) de Morée, 2 Vols., Paris, 1843 - 44, Vol. II, p. 360.

J. Zonaras, Annalium, XVIII, ix p. 254. (Y.)

L. Duchesne, Liber Pontificalis, Vol. I, cols. 74 - 75. (71)

Ibid., P.L., Vol. GLXXXVIII, col. 519.

Ibid., col. 100. (YT)

Ibid., col 153. (۲٤) روما و بيزنطة

يعقد مجلساً كنسياً في مدينة القسطنطينية يقرر فيه إعادة «الكنيسة الضالة » إلى رحاب القديس بطرس الرسول .

غيرأن انقلاباً سياسياً «حدث في بيزنطة في عام١٠٧٨ ، وخلع ميخائيل السابع وحل نقفور الثالث بوتانياتس مكانه على العرش . وأمام هذا أصدر البابا جريجوري السابع قراراً بالحرمان ضد بوتانياتس هذا في نوفبر البابا جريجوري السابع قراراً بالحرمان ضد بوتانياتس هذا في نوفبر النورماندي ، الذي كان يعد حملته للهجوم على بيزنطة ، أن يعمل على النورماندي ، الذي كان يعد حملته للهجوم على بيزنطة ، أن يعمل على إعادة ميخائيل السابع إلى العرش · وجدير بالاهتمام هنا أن نلاحظ أنه في 1 يونيو ١٠٨٠ عقد تحالف وثيق بين البابا وبين جويسكارد ، وأقسم الأخير يمين الولاء لكنيسة روما وللكرسي الرسولي « وأيضاً لك يا سيدي جريحوري البابا المسكوني » ، (٢٦٠) كما تعهد الأمير النورماندي أن يدفع قيمة جريحوري البابا المسكوني » ، (٢٢٠) كما تعهد الأمير النورماندي أن يدفع قيمة مالية سنوية للكرسي البابوي عن الأراضي التي يملكها والتي سوف يملكها مستقبلا بصفته « رجل القديس بطرس » . ويعني هذا أن جويسكارد أصبح فصلا للبابا وفق التقاليد الإقطاعية · وفي مقابل ذلك أقطع البابا فصله هذا بالأراضي التي قد آلت إليه في عهد البابوين السابقين نيقولا الثاني وإسكندر الثاني ؛ كما بارك مهمة جويسكارد في العمل من أجل الثاني وإسكندر الثاني ؛ كما بارك مهمة جويسكارد في العمل من أجل شرف عرش القديس بطرس الرسول (٢٧) .

ف هذه الآونة ظهر بيزنظى يدعى ركتور فى مدينة سالرنو ، وقدم نفسه على أنه الإمبراطور المخلوع ميخائيل السابع ، زاعماً بأنه قد هرب من سجنه فى دير ستوديون (٢٨) . وقد توهم جويسكارد أن وجود هذا الرجل معه سرف يسهل له مهمة غزو بيزنطة ، ظنتًا منه أن أتباع ميخائيل السابع

Mansi, Vol. XX, p. 808. (Yo)

P. Jaffé, Monumenta Gregoriana, p. 126.

Ibid., P. 427. (YY)

Anka Comnena, Alexiad, I, xii, 1, p. 44. (YA)

سوف يهبون لمناصرته على المختصب بوتانياتس. ولما علم البابا جريجورى السابع بوصول ميخائيل السابع «المزعوم» تكتب في ٢٥ يوليو ١٠٨٠ إلى أساقفة أبوليا وكلابريا يحبّهم على تأييد حملة جويسكارد ضد القسطنطينية تما خولهم الحق في منح الغفران لكافة الجند الذين يشاركون في هذه الحملة . وأكد البابا للأساقفة أن انتصار جويسكارد على بيزنطة هو أيضاً انتصار لكنيسة روما . وعلى هذا يمكن القول بأن هذه الحملة اتخذت طابع الحرب المقدسة (٢٩) .

غير أن انقلاباً حدث فى القدطنطينية فى عام ١٠٨١ وتمكن الكسيوس. كومنين ، بمعونة البطريرك كوزماس وبتأييد عائلة دوكاس، من أن يصل. إلى عرش الإمبراطورية (٣٠٠). فما كان من البابا جريجورى السابع إلا أنه سارع فأصدر قراراً بالحرمان ضد الكسيوس كومنين (٣١).

لم يكن الإمبراطور الجديد قد اتخذ الاحتياطات الكافية لحجابهة العدوان. النورماندى ، ولذا فقد لجأ إلى سلاح الدبلوماسية للمناورة ضد جويسكارد وسيده البابا جريجورى السابع . كان الإمبراطور الألما في هنرى الرابع في ذلك الوقت قد فاق من هزائمه المتكررة ومن الإذلال الذي ألحقه به البابا جريجورى السابع عند قلعة كانوسا ، وفي ١٠٨١ قاد هنرى حملة وهجم على إيطاليا ؛ وفي مايو من نفس العام وصل إلى مدينة روما . لم يكن هنرى على وفاق مع روبرت جويسكارد ، كما أنه أراد أن يحطم التحالف الذي تم بينه وبين عدوه اللدود جريجورى السابع . غير أن هنرى كان يعانى من ضائقة مالية ؛ وكان الكسيوس كومنين يعلم بذلك . ولهذا فقد أرسل الإمبراطور البيزنطى سفارة لتقابل هنرى الرابع في إيطاليا لفتح باب المفاوضات معه . واستجاب هنرى لموقف الكسيوس فأرسل بعثة يرأسها المفاوضات معه . واستجاب هنرى لموقف الكسيوس فأرسل بعثة يرأسها

P. Jaffé, op. cit., p. 435.

⁽۲۹)

Alexiad, II, xii, 6, pp. 100 - 101.

⁽٣٠)

Mansi, Vol. XX, col. 508.

⁽٣١)

الكونت بيركهارد إلى القسطنطينية وحيث اتفق الطرفان على عقد محالفة ثنائية ضد النورمان والبابا، وأوفد الكسيوس من أجل هذا سفارة جديدة يرأسها قسطنطين كيوروسفاكتيس إلى هنرى الرابع (٣٢١).

ويبدو أن تلك السفارة قد وصلت إلى إيطاليا بينا كان هنرى يحاصر مدينة روما (يونيو ١٠٨١). هذا وتطالعنا الأويرة المؤرخة آناكومنينا بتفاصيل عن الهدايا التي حملها سفراء والدها إلى الإمبراطور الألماني : مدينة ضعة ذهب ؛ ١٠٠ قطعة من الحرائر ؛ كما وعد الكسيوس أن يدفع لهنرى الرابع ٢١٦,٠٠٠ قطعة ذهب أخرى بعد قيامه بحملة ضد النورمان في أبوليا . كذلك فوض الكسيوس سفراءه في مناقشة عرض زواج بين العائلتين الإمبراطو, ريتن (٣٣) .

كان موقف الكسيوس كومنين هذا رد فعل طبيعى لمواجهة العدوان البابوى – النو رماندى . وأهم من ذلك أن السلطات البيزنطية قد أمرت بغلق جميع الكنائس اللاتينية في القسطنطينية .

وفى نفس الوقت أخذ الإمبراطو البيزنطى يتقرب إلى جمهورية البندقية التي رأت في هجوم النورمان على شواطئ الليريا وده رازو تهديداً مباشراً لمصالحها في الإدرياتيك . وعرض الكسيوس على دوج البندقية امتيازات تجارية هائلة في الإمبراطورية مقابل تأييد أسطوله لبيزنطة في صراعها ضد جويسكارد (٣٤) .

كان جويسكارد قد أرسل ابنه بوهمند على رأس بضع كتائب ليحتل آفلونا وكانينا وهايريكو . وفي مايو ١٠٨١ لحق جويسكارد بابنه في آفلونا وتقدما منها للزحف على جزيرة كورفو . وتم استيلاء النورمان على كورفو ، وتقدموا منها صوب دورازو ، عاصمة إقليم الليريا ، والتي

Alexiad, III, x, 2 - 6, pp. 133 - 35. (TT)

Ibid. (rr)

Ibid., IV, ii, 2, p. 146. (r)

كانت بمثابة المفتاح الرئيسي صوب الغرب في نظر البيزنطيين . بدأت الحوب بين الطرفين أمام دورازو في ١٨ أكتوبر١٠٨٢، وألحق النورمان هزيمة ساحقة بجيوش بيزنطة ، وسقط خبرة الضباط من حول الكسيوس كرمنين (٣٥) .

هرب الكسيوس إلى مدينة سالونكا ، وأرسل من هناك إلى شقيقه إسحق وإلى أمه و زوجته يطلب النجدة والمعونة المالية . فجمعت الأم والزوجة كل ما كانتا تملكان من ثروة فأرسلتاها إلى دار السك الإمبراطورية و آملتين بهذا أن تكونا مثلا يحتذى لدى خيرة القوم» (٢٦١) . أما السيباستوكراتور إسحق فقد دعا مجلس القسطنطينية الكنسى للاجتماع وأوضح لأثمة الكنيسة هناك أن قانون الكنيسة يبيح تحويل كنوز الكنائس الذهبية والفضية وأيقوناتها إلى عملات بغية استخد مها لسلام وأمن الإمبراطورية ولفدية الأسرى من المحاربين ودارت في المجلس مناقشات حادة ، وفي نهاية الأمر تمكن إسحق كومنين من استالة البطريرك يوستراتوس (١٠٨١ – ١٠٨٤) ورفاقه ، فوافق المجلس على إرسال خزائن الكنائس إلى دار السك الإمبراطوري (٣٧) .

استطاع الكسيوس بهذا المال الوافد من العاصمة أن يستخدم عدداً وافراً من الجند من منطقة سالونكا ، غير أن حلول فصل الشتاء حال دون استمرار القتال بين الطرفين . وفي خلال ذلك أرسل الإمبراطور سفارة إلى هنرى الرابع لترجوه بأن يقود حملة ضد أبوليا ليجبر جويسكارد على سحب بعض من جنوده إلى الجبهة الجديدة في الجنوب الإيطالي (٣٨) .

تجدد القتال بين الطرفين فى شتاء ١٠٨٢ ، وفى ٢١ فبراير سقطت دورازو فى يد النورمان ؛ وصار الطريق إلى القسطنطينية مفترحاً أمام القاهر النورماندى (٣٩).

Ibid, IV, iv, 7, p. 161.
 (٣٥)

 Ibid., IV, viii, 1, p. 10.
 (٣٦)

 Ibid, V,ii,3, P. 11. V. Crumel, La Patriarcat Byzantin, 11, p. 33.
 (٢٧)

 Ibid., V, iii, 1, p.p. 13 - 14.
 (٣٨)

 Geoffroi Malaterra, Historia Sicula, in Muratori, R.I. SS., vol. V, p. 241.,
 (٣٩)

Alexiad, V, i., 2, p. 7. (5.)

باتت الإمبراطورية البيزنطية عاجزة تماماً تحت وطأة الغزو النورمانى ، وأصيب الحند والعامة برعب شديد . وبانهيار الروح المعنوية على هذه الشاكلة بدأ الكثير من الضباط البيزنطيين في الهروب من معسكرهم والانضام إلى جويسكارد (٢٠٠) .

وفى تلك اللحظة الحرجة أتت دبلوماسية الكسيوس كومنين أكلها به فقد تواترت الآنباء من إيطاليا عن قيام تمرد في مملكة جويسكارد ، كما أن هنرى الرابع كان قد بدأ في حصار البابا جريجورى السابع داخل ملينة روما . تلتى جويسكارد رسالة عاجلة من البابا المحاصر يذكره فيها بأن ماحققه من انتصارات إنماكان من حصاد نعم القديس بطرس وكنيسة روما عليه به ورجاه أن يسرع لينقذه من أيدى « الطاغية » هنرى الرابع (١٠٠٠) . وتقول بعض المصادر المعاصرة بأن جريجورى السابع عرض التاج الإمبراطورى الروماني على حليفه جويسكارد في تلك اللحظة الحاسمة من الصراع بين البابوية والإمبراطور الجرماني (٢٠٠٠) .

ترك جويسكارد ابنه بوهمند على رأس جيشه وأسرع عائداً إلى إيطاليا في أبريل ١٠٨٢ ليخمد ثورة المتمردين ولينقذ البابا من أيدى هنرى الرابع وبعد رحيل جويسكارد هاجم بوهمند جيوش الكسيوس وهزمها مرتين في يوانينا وارتا (٤٣) . غير أن الكسيوس لجأ إلى حيلة بارعة إذ ألبس أحد قواده الزى الإمبراطورى وسيره على رأس جيش كبير قبالة معسكر بوهمند، بينها تنكر الإمبراطور في زى جندى عادى وتسلل مع فريق من أعوانه من الوجهة الحلفية لمعسكر النورمان . تقدم بوهمند ورجاله نحو الجيش الإمبراطورى ، الذى أخذ يتقهقر إلى الوراء عن عمد • وعندما بعد بوهمند الإمبراطورى ، الذى أخذ يتقهقر إلى الوراء عن عمد • وعندما بعد بوهمند

(٤٠)

Alexiad, V, i, 4, p. 9; V. iv, 1, p. 17.

P. Jasté, op. cit., 5225. (£1)

William of Apulia, Gesta Roberti Wiscardi, in M.G.H.SS., Vol. IX, I, IV, 31 - 32, p. 280.

Alexiad, V. iv, 4, p. 19; Malaterra, III, 39.

ورجاله عن معسكرهم مسافة كافية ، انقض الكسيوس وأتباعه على معسكر النورمان في لاريسا واستولوا على كل من مؤنهم وعتادهم الحربي ؛ وبهذا انقلب ميزان القوى واضطر بوهمند — لنقص عتاده — إلى أن يتقهقر إلى مدينة كاستوريا (٤٤). وجد بوهمند نفسه في موقف حرج للغاية ، فإلى جانب نقص المؤن في معسكره لم يجد مالاكافيا لدفع رواتب الجند ومؤخراتهم . ولما بدأ الجند في التذمر اندس بينهم عملاء الكسيوس كومنين يشجعونهم على على الثورة ويعرضون عليهم العطايا والمنح الوفيرة . وهنا اضطر بوهمند لأن يعود إلى إيطاليا ليحصل على المال ، تاركا اثنين من رجاله لقيادة الحملة : برين من كستوريا وبطرس من بولوبس (٤٠) . هجم الكسيوس على كاستوريا واستولى عليها بمعونة بعض الخونة من جند النورمان ، وعليه فقد قرر برين العودة إلى إيطاليا بعد أن أقسم أمام الكسيوس ألا يحمل سلاحاً ضده العودة إلى إيطاليا بعد أن أقسم أمام الكسيوس ألا يحمل سلاحاً ضده في المسقبل (٢٠). وفي صيف ١٠٨٣ هجم الأسطولان البيزنطي والبندقي على مدينة دورازو وتم الاستيلاء عليها من يد النورمان .

غير أن روبرت جويسكارد كان لايعرف معنى الهزيمة . وقد بلغت سطوته من المكانة إلى حد أن مجرد ظهوره فى جنوبي إيطاليا أخرس كل المتمردين . وبعدها زحف شهالا لينقذ البابا جريجورى السابع من أنياب الإمبراطور الجرماني . هجم جويسكارد على روما وأعمل رجاله سيوفهم فى رقاب أهلها الذين انضموا إلى هنرى الرابع ، كما أشعل النار فى كثير من أحيائها فحولها إلى كومات من الرماد . ثم انقض على كتائب هنرى الرابع وأجبرها على التقهقر . ولما رأى هنرى أنه لن يقوى على محاربة جويسكارد وأجبرها عنى التقهقر . ولما وأسرع عائداً إلى ألمانيا (١٤٧) .

جن جنون جويسكارد - الذي أذل إمبراطور الغرب - حين علم بفشل

Alexiad, V, v, 7, p. 26; V, vi, I, p. 28.	٤))
---	----	---

Bernold, Chronicon, ad. an. 1084, in M.G. H. SS., Vol. V, p. 441. (5V)

ابنه بوهمند فی حربه ضد إمبراطور الشرق . وفی أكتوبر ۱۰۸۶ أبحر اازعيم النورماندی ومعه أبناؤه الأربعة (بوهمند وروجر وروبرت وجای) فی أسطول النورمانی قوامه ۱۰۰ سفینة حربیة للقضاء علی بیزنطة . وبینا كان الأسطول النورمانی راسیاً قی میناء كاسیوبی (فی جزیرة كورفو) ، هجمت علیه سفن البندقیة وأغرقت عدداً كبیراً من قطعه (۱۰۸) . غیر أن جویسكارد لم یستسلم للهزیمة : اذ نجده هو وأولاده الأربعة كل علی رأس خمس سفن حربیة — وهی محموع ما تبقی للدیهم من أسطولم الكبیر — یقومون بجهد خارق؛ إذ هجموا فی عناد علی أسطول البندقیة وألحقوا به هزیمة نكراء . وهكذا سقطت جزیرة كورفو من جدید فی ید الزعیم النورماندی (۱۹۹۱) . و بات مصیر بیزنطة مهدداً مرة أخری . غیر أن القدر لعب دوره فی هذه اللحظة الحاسمة؛ بیزنطة مهدداً مرة أخری . غیر أن القدر لعب دوره فی هذه اللحظة الحاسمة؛ إذ انتشر و باء الطاعون فی معسكر النورمان ، وهلك كثیر من الجند والقادة . ومرض بوهمند مرضاً شدیداً ، فنقل إلی إیطالیا للعلاج . أما جویسكارد فقد أصیب بالمرض عند مدینة آثر ومات فی ۱۷ یولیو ۱۰۸۰ بین بدی ز وجته سجلجیتا والدة ر وجر (۱۰۰) .

يقص أحد كاتبى الحوليات فى القرن الثانى عشر أن جويسكارد كان. يخطط لتتويج ابنه بوهمند إمبراطوراً على بيزنطة ، وبأنه هو نفسه كان يطمع فى تكوين إمبراطورية شاسعة فى الشرق الإسلامى (٥١).

اختنی بموت جویسکارد شبح رهیب أقض مضاجع السلطات البیزنطیة فیل بین ۱۰۸۱ ، ۱۰۸۵ . وانشغل أبناء الزعیم الراحل فی تقسیم أملاکه

Alexiad, VI, v, 5, p. 52. (£A)

Lupus Protospatarius, 'Chronicon'in M.G.H.SS., Vol. V, p. 61; Alexiad, (§4) V1, v, 7, p. 53.

William of Apulia, pp. 296 - 97; Anonymi Barensis Chronicon, in Muratori, (• •) R. I. SS., Vol. v, p. 154; Alexiad, VI, vi, 3, p. 56; William of Malmesbury, De Gestis Regum Anglorum (ed. W. Stubbs), London, 1887 - ■ II, pp. 321 - 22.

Richardus Pictavensis, Chronica, in M.G.H.SS., Vol. XXVI, p. 79. (01)

وفي النزاع حول الحكم ؛ واندلعت بذلك حرب أهلية في جنوبي إيطاليا . ولهذا تأجل الله حين ، مشروع غزو القسطنطينية . غير أن جويسكارد هو الذي لفت أنظار أبناءه إلى الشرق الدافئ ، المليء بالكنوز والمغامرة والسلطان . وما من شك في أن الغزو النورماندي للأراضي البيزنطية ، بتأييد من البابوية اقد هدد بانهيار كيان بيزنطة الما ترك مرارة قاسية في نفوس البيزنطيين وضاعف من كراهيتهم للاتين وللغرب اللاتيني . وكانت تلك الأحداث أيضاً برهاناً جديداً على عداوة كنسية روما للإمبراطورية البيزنطية ، كما أنها هي التي أوحت إلى آنا كومنينا لتمسك بيراعها وتخط صورة كريهة للبابا جريجوري السابع ولمزاعمه (٢٥).

وما إن فاقت الإ مبراطورية من كابوس جويسكارد حتى ابتليت بغزو عنصر متبر برآخر من قبائل البشنق (Petchenegs) فيا بين ١٠٩١، ١٠٨٦. والبشنق من أصل تركى ، وقد تمكنوا من غزو المنطقة الواقعة بين البلقان والدانوب. وفي عام ١٠٩٠ عقدوا حلفاً مع السلاجقة الأتراك في آسيا الصغرى ضد بيزنطة (٥٠٠). وفي أثناء تلك الفترة الرهيبة من تاريخ بيزنطة التي الكسيوس كومنين بالكونت روبرت الأول من فلاندرز ، الذي كان عائداً إلى غرب أوربا من الأرض المقدسة في الشام عند مدينة بيرويا في عام ١٠٨٧. وتزعم آنا كومنينا أن الكونت أقسم يمين الولاء والطاعة لوالدها الإمبراطور. ولئن كان هذا القول مبالغاً فيه ، إلا أن هناك حقيقة ثابتة وهي أن روبرت الأول وعد بإرسال خمسمائة فارس لمساعدة الإمبراطور ضد أعداءه في أن .

والواقع أن الكسيوس كومنين كان قد هزم عدة مرات على يد قبائل البشنق وهلك أثناء هذا الصراع المرير خيرة رجاله المحاربين . ولما تحققت

Alexiaid, I, x, 12, PP. 50 - 51.

⁽ o Y)

Alexiad, VIII, iii, 5, p. 153. See V. Vasilievsky, Byzantium and the Petchenegs, in the Journal of the Russian Ministry of Public Instruction, Vol. CLXIV (1872), pp. 279 seq.

Alexiad, VIII, vi, 1, p. 105.

(00)

السلطات الإمبراطورية من أن هؤلاء البرابرة يخططون لمهاجمة العاصمة ذاتها ، فقد لجأت إلى الغرب اللاتيني بقصد الاستعانة بجند مرتزقة للخدمة في جيرشها ، خاصة من مناطق إيطاليا . وكان الكسيوس يعلم تماماً أن السلطة الرحيدة التي يمكنها أن تعاونه في هذا الأمر هي كنيسة روما . وهذا هو التفسير الوحيد للتغير الذي طرأ في العلاقات بين بيزنطة والبابوية في ذلك الحين . وكانت الظروف في روما مواتية لهذا التقارب .

فنى عام ١٠٨٨ انتخب الأسقف أودو من لاجيرى بابا باسم أوربان الثانى . وكان هذا دبلوه اسينًا حصيفاً ، وكان من رأيه أن المسألة البيزنطية قد عوجت فى شيء من الخطأ (٥٥) . كان موقف البابا الجديد مشجعاً لألكسيوس لأن يفتح باب المفاوضات معه من أجل طلب جند مرتزقة . وفي مقابل ذلك أبدى استعداداً لمناقشة موضوع وحدة الكنائس ؛ ولهذا فقد صغط على بطريرك القسطنطينية نيقولا جراماتيكوس (١٩٨٤ – ١١١١) وطلب منه الكتابة إلى البابا الجديد فى روح من المودة . وكان البطريرك مدركاً للمخاطر التى تتهدد الإمبراطورية على حدودها . وانا كتب إلى بازل الأشقف البيزنطى فى كلابريا يطلب منه التوجه إلى المقر البابوى وفتح باب المفاوضات فى موضوع وحدة الكنائس . كذلك أرسل البطريرك رسالة بنفس المعنى إلى رومانوس الأسقف البيزنطى فى روزيانا (٥٠٠).

استجاب أوربان الثانى لهذه المبادأة من جانب الكسيوس كومنين ، فعقد مجلساً فى مانى فى عام ١٠٨٩ ؛ وفيه رفع قرار الحرمان (الذى أصدره جريجورى السابع) عن الإمبراطور البيزنطى . ثم أرسل الكاردينال رينيه ونيةولا مقدم دير جروتافراتا الإغريقو اليطالى بخطاب العفو إلى القسطنطينية وليطلب من الكسيوس إعادة فتح الكنائس اللاتينية المغلقة فى العاصمة السياح لها بممارسة شعائرها الغربية .

S. Runciman, The Eastern Schism, p. 61.

V. Grunel, op. cit., 11, pp. 45 - 46. (93)

لبى الكسيوس مطلب البابا فآعاد فتح الكنائس اللاتينية وفى سبتمبر ١٠٨٩ جمع مجلساً فى القسطنطينية لمناقشة موضوع وخدة الكنائس مع البطريرك والمسئولين عن الكنيسة البيزنطية . وكان من بين الحاضرين بطريرك أنطاكية وثمانية عشرة من رؤساء الأساقفة وعدد آخر من كبار وجال الدين، وترأس الكسيوس جلسات المجلس . ثم طرح الموضوع للمناقشة .

كان البابا أوربان الثانى قد طلب إدراج اسمه فى كنيسة بيزنطة ، محتجيًّا بأن خذف اسم البابوات من الـ (أنافوراً) قد تم دون موافقة المجالس الكنسية . ولذا فقد تساءل الكسيوس أمام المجلس المنعقد عما إذا كانت هناك وثائق في كنيسة بيزنطة تشير إلى انفصال كنيسة روما عن كنيسة القسطنطينية ، وإذا كان هناك مايدل على ذلك ، فهل هذا سبب عدم إدراج أسماء البابوات . ورد رجال الدين الحاضرون بأن ليس هناك وثائق يهذا المعنى صراحة ، وإنما هنالك مسائل تتصل بقوانين الكنيسة ويجب الفصل فيها قبل كل شيء. وهنا اقترح الإمبراطور إدراج اسم أوربان الثانى على أن تؤجل مناقشة المسائل المختلف عليها بين الكنيستين بعض الحين . وفي تلك المرحلة من المناقشة حاول بعض رجال الدين طرح موضوع « الانحرافات » في العقيدة اللاتينية للمناقشة ثم الإدانة . غير أن الكسيوس رفض ذلك، واقترح على المؤتمرين إتخاذ القرار التالى : يطلب من البابا أن يرسل إلى كنيسة بيزنطة « إعلان إيمانه » (سوستاتيكي) وإذا جاء هذا الإعلان متوافقاً مع العقيدة القويمة ، وإذ اما اعترف بالمجالس المسكونية ، وإذا ما أدان الانحرافات والهرطقات التي تصدى لها آباء الكنيسة الأولى ، فإن اسمه يجب أن يدرج في الـ «أنافورا » تمشياً مع قانون « المحبة الأخوية » . أما المسائل المتنازع عليها فإنها تترك لحين مناقشتها فى حضور البابا أو مندوبيه في مهلة لاتتجاوز ١٨ شهراً من تاريخ إدراج اسم البابا . كذلك وجب على بطريركي الإسكندرية وأورشليم قبول هذا القرار (٥٧). كذلك أصر الكسيوس على أن يكتب البطريرك جراماتيكرس إلى االبابا الوربان الثانى. وعليه فقد كتب البطريرك إلى البابا في سبتمبر ١٠٨٩ يعلمه بوصول رسالته و باغتباطه محلولها . على أنه أشار إلى جهود بعض الأفراد الذين وشوا به في المقام البابوى وصوروه لديه على أنه كاره للكنيسة اللاتينية وعقيدتها وطقوسها . و راح البطريرك يؤكد أنه طالما سمحت روما للكنائس البيزنطية في إيطاليا بممارسة شعائرها الدينية في حرية تامة ، فإنه لن يتعرض للكنائس اللاتينية في بيزنطة ، لأنه من جانبه « يسعى نحو السلام من عمق القلب ، ولوكان الوئام بين الكنيستين يتطلب روحه لبذلها راضياً » . ثم أوضح جرماتيكوس للبابا أنه كان يحسن به أن يرسل خطاباً له عند توليه عرش البابوية ومعه إعلان إيمانه — كما جرت العادة — خطاباً له عند توليه عرش البابوية ومعه إعلان إيمانه — كما جرت العادة — «حتى يتم الاتحاد بالروح بين الذين انفصلوا في الجسد » . واختتم الكاتب رسالته بأنه موفد إلى المقام البابوى بازل من تراني ورومانوس من روزانو : الأول للنظر في إعادته إلى المروشيته الشرعية : والثاني للتظلم من مسلك بعض اللاتين في دائرة أسقفيته (١٠٥٠).

والواقع أن الفقرة الأخيرة في هذه الرسالة لها أهمية بالغة ؛ لأن بازل ورومانوس كانا قد أبلغا جرماتيكوس بتعسف السياسة التي اتخدها أوربان الثانى نحو الكنائس البيزنطية في إيطاليا ، وبإصراره على الاستيلاء على إقليم تسالونيكا وضمه لبطريركية روما . وكان هذان الأسقفان يتمنيان علانية أن يؤيد الكسيوس كومنين البابا المنافي لأوربان وهو جيبرت . ولكن الكسيوس كان قد أدرك بثاقب بصره أن جيبرت يمثل الجواد الخاسر ، وكاني بثقله على حزب أوربان الثاني . كما أن جيبرت كان قد أغضب رجال الدين البيزنطيين في إيطاليا عندما أعلن في مجلس عقده في روما بأن زواج القسيسين خطيئة كبرى (٥٩) .

V. Grund, op. cit., p. 49.

P. Jaffé, Regesta, I, p. 652.

ولكى نتفهم موقف رجال الدين فى بيزنطة تجاه أوربان الثانى يجب إلقاء الضوء على رسالة كتبها البطريرك جراماتيكوس إلى سمعان بطريرك أورشليم فى عام ١٠٨٩، وفيها حديث عن كنيسة روما. تناول الكاتب العبارة المضافة إلى قانون الإيمان فى الغرب (الروح القدس المنبئق من الإبن أيضاً) واستخدام خبز غير مختمر فى شركة التناول ، وادعاءات البابوية فى الإمارة على الكنسية بالهجوم الشديد. ثم راح يحث سمعان على محاربة هذه الإنجرافات وفقاً لما يصدره إليه بصفته البطريرك الإمبراطورى «المسكوني» (٢٠)

هذا وهناك وثيقة أخرى اكتشفها العالم باقلوف وهى رسالة موجهة من أحد بطارقة بيزنطة إلى بطريرك أورشليم ، ولكنها لاتحمل تاريخاً ولا توقيعاً . وكل ما قاله باقلوف عنها هى أنها وثيقة هامة صادرة من القسطنطينية وموجهة إلى أورشليم ، وفيها هجوم شديد على انحرافات عقيدة اللاتين ، وطقوسهم ، وعلى مزاعم البابوية فى الإمارة على كنائس العالم أجمع (٢١٠) .

على أن الأبحاث التى قام بها المؤرخ ف. جروميل قد أوضيحت بأن هذه الرسالة صدرت عن البطريرك نيقولاس جراماتيكوس إلى سمعان بطريرك أورشليم . ولعل أهم ما ورد في هذه الرسالة الفقرة التالية :

«حقيقة أنه فى قديم الزمن كان ينظر إلى البابا على أنه «أول » إخوته البظارقة الآخرين • وذلك عندما كان يؤمن بنفس العقدة القويمة . ولكنه الآن وقد احتضن عقيدة «غريبة» عن عقيدتنا ، فكيف السبيل. للاعتراف به «أولا» علينا ؟ إن « الرأس » مطالب بتمثيل الإيمان القويم ؛ لا العنف والطغيان » (٦٢) .

V. Grnmel, op. cit., p. 50. (1.)

A. Pavlov, Kiticheskie opty po istorii drcvnejchej greko-russkoj protiv latinjam, Saint - Petersbourg, 1878, pp. 45, 158 - 169.

V. Grumel, Jerusalem entre Rome et Byzance, une lettre incomme du Patriarche de Constantinople Nicholas III à son collègue de Jerusalem (vers 1089), in Echos d'Orinet, XXXVIII, (1939), pp. 104 - 117.

ثم يمضى الكاتب ليؤكد بأن الكنيسة الشرقية لاتقر استخدام الخبز الغير مختمر في شركة التناول ، وبأنها لن تغض النظر عن بدعة «انبثاق الروح القدس من الابن » . وفي نهاية الرسالة نجد جراماتيكوس يهيب بسمعان لأن يقف موقف حزم للدفاع عن الأرثوذكسية حتى ولو كلفه هذا بذل النفس ، كي يتميز الأخيار عن «هؤلاء الذين أعماهم زخرف الدنيا ومتاع هذا العالم فألقوا بأرواحهم في فلك الضلال ، مسلمين أنفسهم بهذا إلى إبليس »(٦٣) .

وهنالك أيضاً في هذه الرسالة مايوحي بأن بطريرك أورشليم كان قد أبدى شيئاً من الحيرة تجاه بعض المسائل الخاصة بالطقوس اللاتينية ، فأرسل إلى بطريرك القسطنطينية يطلب النصح في هذا الأمر . وواقع الأمر أن بطريركية أورشليم أبدت شيئاً من التسامح فيا يتصل بالخبز المستخدم في شركة التناول ، وذلك لأن ببت المقدس كان يستقبل على الدوام أفواجاً من الحجاج اللاتين الذين يستخدمون الخبز الغير مختمر في التناول . وهذا من الحجاج اللاتين الذين يستخدمون الخبز الغير مختمر في التناول . وهذا الموقف كان قد أغضب ميخائيل كريولاريوس من قبل في عام ١٠٥٤ ، ثم جاء جراماتيكوس ليعبر أيضاً عن عدم رضاءه عن هذا التسامح مع اللاتين من جانب أورشليم .

أما النقطة التي أثارها جراماتيكوس في الحديث عن «طغيان» أوربان الثانى ، فلها مايبررها من وجهة نظره . ذلك لأنه كان قد تلتى رسالة من بازل الأسقف البيزنطي في ريجيو بإيطاليا يشكو فيها من أنه رغم تعيينه أسقفاً على أبروشيته منذ إحدى عشرعاماً على يد بطريرك بيزنطة ، إلا أن أوربان الثانى قد أمره بالخضوع للبابوية إن أراد الاحتفاظ بمنصبه ، وعندما رفض هذا المطلب خلعه البابا وعين مكانه أسقفاً من الفرنجة . كذلك فرض أوربان الثانى نفس الشروط على أسقفيتي سنت سيفيران وروزيانو اللتين كانتا تحت حكم بطريركية القسطنطينية .

(٦٣)

وهكذا فإن الاعتقاد السائد بين المؤرخين بأن أوربان الثانى كان متساعاً مع كنيسة بيزنطة ، اعتقاد خاطئ ويجب تصحيحه . ذلك لأن أوربان كان أول البابوات الذين تعسفوا — كما سبق أن بينا — مع رجال الدين البيزنطيبن في جنوب إيطاليا ، كما أنه كان من أنصار إجبار اليونانيين على اتباع الطتموس اللاتينية في كنائسهم . ومن هنا جاءت غضبة البطريرك غير اتباع الطتموس اللاتينية في كنائسهم . ومن هنا جاءت غضبة البطريرك نيتمولاس الثالث جراماتيكوس ، فكتب إلى سمعان من بطريرك أورشليم يطلب منه المسائدة والمؤازرة دفاعاً عن الأرثوذكسية . ولم يكن غريباً بعد هذا أن أمسك سمعان بقامه وكتب مقالة هاجم فيها اللاتين لاستخدامهم الخبز الغير مختمر في شركة التناول .

تشير الوثائق السابقة الذكر إلى عدة حقائق بالغة الأهمية نوجزها في ايلى: أولا: كان الدافع الأساسي وراء التقارب الذي تم بين الكسيوس كومنين والبابا أوربان الثاني دافعاً سياسيا بحتاً ،أملته حاجة الإمبراطورية إلى جند مرتزقة من إيطاليا . ثانياً : لم تكن كنيسة بيزنطة تساند الإمبراطور في مناقشاته الودية مع البابوية : ثالثاً : كان هناك تيار معاد لأوربان الثاني في المجلس الذي عقده الكسيوس كومنين لبحث موضوع وحدة الكنائس وتجلي بوجه خاص في إصرار بعض رجال الدين على مناقشة وإدانة الانحرافات العقائلية والطقوسية لدى اللاتين . رابعاً : أن مراسلات جراماتيكوس إلى أوربان البابا تجاه الكنائس البيزنطية في إيطاليا . خامساً : إن ما ورد في خطاب البابا تجاه الكنائس البيزنطية في إيطاليا . خامساً : إن ما ورد في خطاب جراماتيكوس إلى سمعان الأورشليمي تعبير صادق عن مشاعر كنيسته أيا صوفيا تجاه كنيسة روما .

غير أن الكسيوس كومنين كان فى حاجة ملحة إلى جند مرتزقة من غرب أوربا . ولاشك فى أنه قد أيقن وجود هوة سحيقة تفصل بين الكنيستين، ولهذا فإنه قد أوصى إلى بعض المخلصين من أتباعه بأن يكتبوا فى موضوع وحدة الكنيسة وأن يقللوا من شأن الخلافات العقائدية والطقوسية القائمة بين

الطرفين . وخير من يمثل هذه الفئة ثيوفيلاكت رئيس أساقفة بلغاريا الذى كان مقرباً إلى بلاط آل كومنين .

كتب ثيوفيلاكت مقالا بعنوان «حديث عن أخطاء اللاتين » ووجهه إلى نيقولا أحد شهامسة كنيسة أيا صوفيا الذي أصبح فيا بعد أسقفا في مليسوڤا . تناول الكاتب معاصريه بسخرية شديدة لأنهم إذا ما اختلفوا في الجدل راحوا يستمطرون بعضهم البعض بالأناثيا وبوصات الهرطقة . ويتباكي رئيس الأساقفة هنا على ضياع التسامح والحبة اللتين هما ميزة الأرثوذكسية الحقيقية . ثم يعدد _ في سخرية بالغة _ أخطاء اللاتين : من حلق الذقون إلى ارتداء الخواتم الذهبية والأردية الحريرية ؛ واستخدام الخبز الغير عتمر في التناول ؛ وصيام أيام السبت ؛ وتبتل القسيسين ؛ وأكل المنخفة . ويمضى الكاتب فيقول إن جل هذه الأمور اختلاف تافه ولايستحق حتى عبرد عناء البحث ، لأن الكنيسة لن تفيد كثيراً من محاولة تصحيحها . غير أن ثيوفيلاكت أوضح بأن الخلاف الوحيد الذي أخطأ فيه اللاتين هو إضافة لفظة « ومن الابن » عند الكلام عن انبئاق الروح القدس في قانون الإيمان .

ويعلل الكاتب هذا الخطأ عند اللاتين بفقر وخشونة لغتهم اللاتينية . كما تصدى الكاتب للنظرية البطرسية في هجوم شديد : «إن مثل هذا الكلام الذي نسمعه من البابوات على أنهم خلفاء بطرس الرسول وهم يشيحون في وجوهنا بمفتاح الفردوس إهانة بالغة للرسول ذاته (٦٤) .

من هذا يتضح أنه حتى بين القلة الراغبة فى التفاهم مع كنيسة روما ، لم يكن هنالك فرد واحد يقبل إضافة « ومن الابن » إلى قانون الإيمان أو يرتضى بالمزاعم البابوية والنظرية البطرسية . وأغلب الظن أن أوربان الثانى لم يجرؤ على إرسال « إعلان إيمانه » إلى بيزنطة لأن هذا كان سيتضمن بالطبع مسألة « ومن الابن » .

ويما يلفت النظر هذا أن أحد المقربين إلى أوربان الثانى وهو القديس أساقفة كنتر برى كتب مقالا يعدد فيه أخطاء البيزنطيين في العقيدة فهاجم استخدام كنيسة بيزنطة خبزاً مختمراً في شركة التناول مستشهداً بنصوص من الإنجيل . ثم راح يتهم البيزنطيين بالانحواف العقيدى لأن إصرارهم على عدم انبياق الروح القدس من الاين يجعل الابن في مرتبة أقل من الأب هما يهدد ركناً أساسياً من أركان الإيمان في الثالوث المقدس الواحد (٢٥٠). وعلى هذا فإن الشرق والغرب كاذا على خلاف شديد في أموربالغة الخطورة . وما من شك في أن الكسيوس كومنين كان يدرك استحالة المصالحة بين الطرفين ، ولكن حاجته الملحة إلى جند مرتزقة من الغرب جعلته يتملق الطرفين ، ولكن حاجته الملحة إلى جند مرتزقة من الغرب جعلته يتملق

البابا أوربان الثانى ومن ثم أخذ ينشد له أغنية الوحدة الكنسية .
غير أن الموقف تغير تماماً فى عام ١٠٩١ ، فنى ٢٩ إبريل من هذا
العام هجمت جيوش الكسيوس ومن وراثها حلفاء بيزنطة من قبائل
بولوڤتزيس على جماعات البشنق على ضفتى نهر ليبرنيون وعملت
سيوف الحلفاء فى رقاب البشنق . ويقال إنه فى تلك المعركة الرهيبة
ذبحت أمة عن بكرة أبيها ، إذ من بعدها لم تقم لحماعة البشنق قائمة
بين سائر شعوب الأرض وبهذه القسوة الوحشية تخاص الكسيوس كومنين
من البشنق بصفة قاطعة (٢٦) .

وفي عام ١٠٩٢ توفي السلطان السلجوق ملك شاه . وبموته بدأت الحرب الأهلية في إمبراطوريته ، وشهدت آسيا الصغرى طرفاً هامنًا من هذا الصراع . وكانت هذه فرصة الكسيوس كومنين ليسترد الأراضي التي استولى عليها السلاجقة من قبل . وبالفعل تم له استرداد أبولونياد وسينريق . كما أن بعض الجند السلجوقيين عرضوا أنفسهم للخدمة في جيش بيزنطة ، هروباً من الأمراء الذين دخلوا في سلسلة من النزاعات

St. Anselm of Canterbury, De Sacramentorum Diversitate, ead Walerannum (70) Episcopum', in P.L., Vol. CLVIII, cols. 517 seq., Idem, 'Dogmatica, De Processione S. Spiritus'; ibid., cols. 291. seq.

الشخصية العنيفة (٦٧).

وبهذا يمكن القول أنه في عام ١٠٩٢ لم يكن هنالك خطر ألبتة يهدد حدود بيزنطة من الشرق ولا من الغرب . حقيقة أن الأمير السلجوق زاخاس صاحب سميرنا كان يغير بين الحين والأخر على أراضي بيزنطة ، ولكنه لم يكن يمثل خطراً حقيقيًّا على حدود الإمبراطورية الشرقية . وفي عام ١٠٩٤ كان الكسيوس كومنين . يعد حدلة للهجوم على الأمير زاخاس

وهنا جاءته أنباء مزعجة من غرب أوربا : إن جحافلا من أهل الغرب اللاتيني كانوا في طريقهم زاحفين نحو الشرق . لقد بدأت الحركة الصليبية .

الفصل الرابع بيزنطة والحركة الصليبية.

بدأت الدراسة العلمية للحركة الصليبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكان الألمان أول الرواد ممثلين في فون سيبل (١) ، وكوجلر (٢) ، وهاجنمير (٣) ، وروهركت (٤) ، واردمان (٥) . وفي فرنسا ظهر الكونت ريان (٢) و زملاؤه في ال (Revue de l'Orient Latin) في مجموعة ال (Académie des Inscriptions et Belles Lettres) ال (وبرييه (١) ، وجروسيه (١١) . وفي المدرستين الإنجليزية والأمريكية ظهرت كتابات ستيفنسون (١١) ، وموزر و (١٢) ، ورانسيان (١٣) ؛ ثم مطبوعات ستون وبولدوين (١٤) التي ساهم فيها كتاب أجانب .

H. Von Sybel, Geschichte des ersten Kreuzzuges, Leipzig, 1881.	(1)
B. Kügler, Geschichte der Kreuzzuge, Berlin, 1891.	(۲)
H. Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren (1088 - 1100), nsbruck, 1902.	
R. Rohricht, Geschichte des ersten Kreuzzuges, Innsbruck, 1901.	())
C. Erdmann, Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens, Stuttgart, 193.	5. (•)
P. Riant, Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades, Archide l'Orient Latin, Vol. I, Paris, 1881.	ives (7)
Recueil des Historiens des Croisades, Paris, 1841 - 1905.	(v)·
F. Chalandon, Histoire de la Première Croisade, Paris, 1925.	(٨)
L. Bréhier, L'Eglise et l'Orient au Moyen Age : Les Croisades, Paris,	1928.(4)
R. Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusales	m, (1+)
3, Vols., Paris, 1934 - 36.	

(11)

(11)

(17)

(11)

W. Stevenson, The crusaders in the East, Cambridge, 1907.

D. Munro The Kingdom of the Crusaders, New York, 1936.

S .Runciman, A. History of the Crusades, 3 Vols., Cambridge, 1951-54.

K. Setton and Baldwin, A History of the Crusades, Philadelphia, 1955-62.

وقد اهتم اردمان بالصليبية على أنها حرب مقدسة وشاركه في هذا الرأئ برييه . أما الكاتب كالمت فقد رأى في حملات الحجاج المسلحة في القرن الحادى عشر نوعا من الصليبيات (١٥٠) . ويعتقد الكاتب هاتم أن الصليبية من عمل وإعداد دير كلوني « العقل المدبر للحركة الصليبية (١٠٠) » ؛ فقد كان أوربان الثاني وباسكال الثاني ويوجين الثالث من أبناء ديركلوني . أما فايرش ، وفيللي ، وجروسيه ، وشالاندون ، فقد نادوا بأن الصليبية من تدبير البابوية (١٧٠) .

ولقد اعتقد الكثيرون أن جهود الأسرة المقدونية (البيزنطية) في استرداد آسيا الصغرى وسوريا ضرب من الصليبيات ؛ فظن رينيه جروسيه أن صيحة نقفور فوكاس وهو يخطب للجماهير في الهيدروم « إن انتصارنا انتصار لله على أبناء هاجر» لاتختلف عن صيحة أوربان الثاني (Deus Vult) في مؤتمر كليرمونت (100 ا 100)).

كذلك فسر البعض حرب الاسترداد فى إسبانيا على أنها حركة صليبية ، ورأوا فى شخص فردناند الأول ملك قشتالة (١٠٣٥ – ١٠٦٥) فارساً . صليبياً .

وطبق هؤلاء نفس النظرية على الغزو النورماندى بحزيرة صقلية من. أيدى العرب .

ويرى السير ستيفن رانسيان فى الصليبية لا أعنف المغامرات المسيحية وآخر غزوات المتبربرين ... حقيقة محورية فى تاريخ العصور الوسطى ... قصة الجدل للعالم أجمع (١٩)

J. Calmette, Le Monde Féodal; Vol. IV of the Collection Clie, Introduction () aux Etudes Historiques, p. 382.

A. Hatem, Les Poèmes Epiques des Croisades, Paris, 1992, p. 72. () 7)

See Bibliography.

R. Grousset, op. cit., pp. 10 - 11. (1A)

S. Runciman, op. cit, Preface, p. KI.

وهكذا فإن الآراء والنظريات جد وفيرة عند الجديث عن الحركة الصليبية. غير أنه يتحتم علينا أن نحاول تحديد مفهوم الصليبية دون أن نتأثر بنظرية معينة وذلك حتى نخلص بأيديواوجية موضوعية لها:

الصليبية في ظاهرها حملات حربية لها ميزتان تعارفت جمامة المؤرخين عليهما : غفران كنسي ، ثم شارة صليب قماشي أحمر يتزين بها المحاربون . ولا يمكن أن ننكر أن هذه الحركة قد ورثت بعض السمات عن الحروب المقدسة ، غير أنها كانت شيئاً جديداً تماما : فهي أول حركة جماعية لغرب أوربا اللاتيني تتسلح وتزحف نحو الشرق تحت إشراف وقيادة كنيسة روما . هذه الحركة لم تكن موجهة ضد الإسلام فحسب وإنما ضد مجتمعات مسيحية غير مرغوب فيها من وجهة النظر البابوية . وما إن قامت هذه الحركة إلى حيز الوجود الفعلي حتى حمل لواءها البارونات الإقطاعيون = والفرسان المفلسون واليائسون من الدهماء — كل يبغى من وراءها قصداً ذاتياً . كما كانت البابوية تعقد آمالا عراضاً من وراء الصليبيات في إرجاع الكنائس الشرقية إلى السلطان الروماني ؛ فعندما أعلن أوربان الثاني بداية الحركة في كليرمونت (١٠٩٥) = بات مفهوماً لدى الحميع أن البابا قد اضطلع في كليرمونت (١٠٩٥) = بات مفهوماً لدى الحميع أن البابا قد اضطلع القائد الأعلى ، فتضاءل بذلك شأن الإمبراطور الحرماني وكيان الإمبراطور المرماني وكيان الإمبراطور المهبراطور المهبراطي .

هذا ولا يمكن أن توفى أيديولوجية الصليبية حقها دون أن تدرس عقلية الذين شاركوا فيها ومواقفهم واتجاهاتهم وثقافتهم والظروف التي دفعت بهم إلى الإنخراط فيها سواء كانوا من العلمانيين العوام أو الكهنوت أو الأمراء.

لماذا انضم الفرد العادى إلى الصليبية ، وماذا كانت فكرته عنها ، وهل

كان يعلم قبالتها . وكيف سلك عندما جابه شعوباً لم يسمع عن وجودها من قبل ، وكيف كان رد فعله حينذاك ؟

إن كلمة «صليبية» ليس لها مرادف في اللغة اللاتينية ، فنادراً ما نصادف في الأصول لفظة Crucesignati ، إذ يشير إليها المعاصرون على أنها و Via Sepulcri Domini (۲۲) أأو Hierosolimitanum (۲۰) ومرد ذلك أن جل كتاب هذه الحوليات كانوا من رجال الكهنوت من أنهم يستخدمون ما ألف أمن ألفاظ لدى جماعة حجاج القرن الحادى عشر في الإشارة إلى الصليبيات . وإذا فحصنا العقود التي أمضاها هؤلاء الذين حملوا الصليب عشية قيام الحملات وجدنا ما ورد بها غاصاً بعبارات وصي لحظة رحيله إلى « أورشليم » يتصرف وينطق وكأنه واحد من المحجاج (۲۲) م

اغيراً أن كتاب الحوليات يخلطون هذه العبارات الروحية بأخرى علمانية والعكس صحيح ، إذ نجدهم يقولون ::

Via Dei, expeditio Dei; Sancta via; and iter sanctum. ولكن هؤلاء « الحجاج » ما إن ارتطموا في مسيرتهم بالعقبات الطبيعية أو البشرية

Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum (ed. L. Bréhier (7 *) as Histoire Anonyme de la Première croisade), Paris, 1924, pp.20, 52.

Baudri of Dol, Historia Hicrosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. IV, p. 730. (YI)

Guibert of Nogent: 'Gesta Dei per Francos,' in R.H.C.Occ; Vol. IV, (YY) p. 243.

Cartulaire de l'Abbaye de Saint-Père de Chartres, (ed. R. Guéard), Paris, '(Y Y)
1840, p. 268; Cartulaire de l'Abbaye de Saint - Victor de Marseilles,
(ed. B. Guéard, Marion et Delisle), Paris, 1857, p. 167. Respectively:
peregrinandi desiderio correptus", "peregrinacionis gratia".

حتى صاروا يتلقبون بـ « المحاربين » أو بـ « جيش الله » . وهنا تمتزح السمات الدينية بالمفاهيم العسكرية ويصبح الصليبيون « حجاجاً مدجيجين بالسلاح » ؛ فهم على ذلك :

milites Christi; athletae Christi; Fideles Christi; coadjutores Dei; gens sancta.

وللصليبية ميزة أخرى هامة، فهى « إرادة الله » التى أعلنها أو ربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت فصارت « صيحة المعركة » للمحاربين . وعلى هذا فقد فهم هؤلاء « الحجاج » المسلحون أن الله ذاته هو الذى استنفرهم للقتال حتى أو رشليم (٢٤) . و يؤكد فوشيه دى شارترز أن المسيح ذاته قد أمر أروبان الثانى بأن يبشر بالصليبية فى كليرمونت (٢٥) . وكان الفرسان يؤمنون ، وفى ثقل ، بهذه الرسالة .

كان لشارة الصليب مدلولها الخاص فى أذهان الذين حملوه ، إذ آمنوا بأنه يجلب لهم الحماية من مغبة الشرور وأهوال الطريق . وأصدق الأدلة على هذا الاعتقاد المثل الذى ضربه بوهمند الزعيم النورماندى : فعندما علم بوصول جمحافل من الصليبيين إلى جنوبي إيطاليا وهم فى طريقهم إلى أورشايم ، سأل عن الشارة التي يرتدونها ، فلما أعلم بمدلولها قرر الانضام للحركة فورا ، بل ومزق معطفه إلى شرائط على شاكلة الصلبان ووزعها على رجاله المقربين (٢٦٠). ويذكرنا إكهارد من أورا بقصة « رؤية » قسطنطين العظيم (بعلامة الصليب التي تراها ساطعة أمامك في السهاء تنتصر) ليدلل على القيمة التي كان يكنها « الحجاج » لهذه العلامة (٢٧) . ولم تكن الشارة في حد ذاتها بكافية لتحقيق « الحجاج » لهذه العلامة (٢٧) .

Robert the Monk, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. 111, (7 !) p. 723: "Hoc enim non fuit humanum opus, sed divinum;" Baudri of Dol, op. cit., p. 9.; Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, (cd. Le Prevost & L. Delisle), 5 Vols., Paris, 1838 - 55, I, 9, iii, p. 469.

Foucher de chartres; Gesta Francorum Hierusalem Peregrinantium; in (7 °) R.H.C.OCC., Vol. III, p. 324: "Christus autem imperat".

Anonymi, p. 18.

Ekkehard of Aura; Chronicon Universale, in M.G.H.SS., Vol. VI, p. 213. (YV)

(٣0)

الغرض المنشود منها ، وبحدثنا جيبرت من نوجنت كيف أن رجال الكهنوت أمروا برفع صليب خشبي وقت معركة إنطاكية الحاسمة (٢٨) .

وهناك رسالة من قسس Lucca يصورون فيها المندوب البابوى أدهيار — حاملا الصليب والحربة « المقدسة » على رأس رجال الدين المشاركين في الحملة (٢٩٠).

وتتفق جميع الحوليات المعاصرة على أن هدف الصليبية أورشليم ، أم الكنائس (٣٠).

غير أن الذين حملوا الصليب ما كانوا يحاربون من أجل أورشليم الأرضية فحسب وإنما أيضاً من أجل أورشليم السمائية (٢٢). وكان « القبر المقدس » للمسيح هو غاية كل صليبي (٣٣) ، فبعد أن قام الصليبيون بمذابح وحشية عقب الاستيلاء على بيت المقدس ، يمموا وأيديهم مخضبة بالدماء شطر القبر «وعيونهم تسيل دمعا » .

والصليبي – مهما كان سلوكه – كان يؤمن أن الله في صفه ، بل إنه يحارب معه في الميدان ، ونجد أدهيار يستفز المقاتلين قبل المعركة بقوله : Jam cnim hodie pro vobis pugnabit Deus (٣٤) . ويحدثنا جيبرت من نوجنت بأن الملوك لم يشتركوا في الصليبية الأولى لأن الله ذاته كان قائدها (٣٠) .

Guibert, p. 205.	(۲۸)
Hagenmeyer, p. 167.	(۲۹)
Guibert, p.23: "Has o beata captione civitas,	(٣٠)
Hinc promerens ut imperare debeas	
Ad teque regna christiana contrahas."	
Gilon, De Via Hicrosolymitana', in R.H.COCC., Vol, v, p. 798. Anonymi, p. 18.	(٣٢) (٣٣)
Albert of Aix, Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundation	e (Y1)
et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae, in R.H.C. Occ.	,
Vol. IV, p. 350.	

Guibert, pp. 123, 250.

وللصليبية — كما فسرها المعاصرون — مظهر فوق طبيعى ؛ فقد أبرقت عولدها عدة ظواهر غريبة : فنى حولية القديس اندرو نجد أن حركات سائية أشارت إلى هذا الحدث الحطير (٣٦) ، ونجد نفس الشيء في حولية بوهيميا (٣٧). وهكذا فإن تحركات النجوم وسقوط الشهب والنيازك كانت كلها تشير إلى الاتجاه نحو الأرض المقدسة . وفي عام ١٠٩٤ تنبأ المنجم جزلبرت ، أسقف دييزييه ، بأن جموعاً من غرب أوربا سوف تهاجر عنها (٣٨) .

هذه الظواهر الطبيعية قد لقيت من يفسرها فى قالب دينى بحت فى مجتمع القرن الحادى عشر الذى كان يألف الرؤى والتجلى وحدوث أمور خارقة للعقل ؛ والحوليات الصليبية غاصة بهذه المعانى ؛ فلقد ظهر القديس بطرس للطرس بارتيلميو ، وتجلى الله للصليبين يرشدهم فى الاستيلاء على عدة معاقل (٣٩). كما ظهر القديس مرقص لأحد « الحجاج » ينبؤه بأن المسيح وحوارييه فى انتظار الفرنجة عند أنطاكية (٤٠).

ومع أن كل الحوليات دون استثناء قد بالغت فى وصف العنصر الغيبى إلا أن أكثرها وضوحاً فى هذا الصعيد حواية راعوند من اجوى ، الذى أطنب فى وصف أحداث اكتشاف « الحربة المقدسة » فى أنطاكية والدور الذى لعبته فى انتصار الصليبيين حينداك . ولم يقتصر الأمر على هذا ، فنى وقت المجاعة يرسل الله القوت للصليبين ، كما أنه يسخر الطبيعة من أجل حدمهم (١٤). من قبيل ذلك أن الله يرسل مطراً غزيراً لينعش الفرنجة وليعكر على معسكر العلمو(٤١) .

Chronicle of St. Andrew', in M.G.H. SS, Vol. VII, p. 545.

Cosma Pragensis, Chronicae Bohemorum', in M.G. H.SS., Vol. IX, p. 103.

Orderic Vitatlis, p. 462.

Raymond of Aguilers, Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem, in R.H.C. Occ., Vol. III, pp. 257, 269 - 70.

Narratio Floriacensis, in R.H.C. Occ., Vol. V, p. 357.

(1)

Raymond of Aguilers, p. 261.

(2)

Raymond of Aguilers, p. 261.

كذلك نص على أن « القديسين المحاربين » هبطوا من السماء ليعاونوا الفرنجة فى القتال ، وعلى رأس هؤلاء القديسون ديمتريوس وميركيريوس وجرجس (٤٣).

وللصايبية مظهر آخر: فقد بشر بها أوربان الثانى على أنها « الحروج » الجديد إلى كنعان . ومن ثم فقد اعتبر الصليبيون أنفسهم « شعباً مختاراً » ، قادهم الله نحو القبر المقدس بأورشليم مثلما فعل مع العبرانيين فى « العهد القديم » (أعن) . وعندما هزم الصليبيون عللوا ذلك بأنهم لا بد وقد « أغضبوا الله » مثلما كان يتعلل العبرانيون من قبل (٥٤) . كما شبه الصليب الذى حملوه « بقوس العهد » العبراني (٢٤) .

والصليبيون ورثة العبرانيين ، وعلى هذا ما وعده الله لبني إسرائيل جدده (للاتين (٢٠) .

ومثلما دار العبرانيون حول جيريكوسبع مرات ، قام الصليبيون بتنظيم موكبهم حول أورشليم سبع مرات أيضا (١٤٨). كما شبه الصليبيون أدهيار ، مندوب البابا ، بموسى ، فهو يدبر أمور الحسلة ويشرع لهم مثلما فعل النبى موسى مع بنى إسرائيل (٤٩). وحتى جيوفرى من كالارد ، كاتب سيرة البابا أوربان الثاني - شبه سيده بقائد بنى إسرائيل (٢٠٠).

1862), p. 93.

Anonymi, p. 145; Chanson d'Antioche Provençale et la Grande Conquista (& T) de Ultramar, (ed. G. Paris), 11, p. 165. (11) Robert the Monk, p. 747. (20) Orderic Vitalis, p. 574 (11) Foucher, p. 446. (£ V) Foucher, p. 554. (£ h) Guibert, p. 226. (٤٩) Robert the Monk, p. 731, Baudri, p. 16; Orderic, p. 469. Vita B. Gaufridi, (in the Mémeire de la Société des Sciences de la Creuse, (01)

وحتى داود النبى صاحب المزامير ــ قد تغنى فى أشعاره بالصليبين (٥١) . والصليبية ــ عند أصحابها ــ أداة الله يستخدمها فى تحقيق نبوءة أشعياء :

« إن الجزائر تنتظرنى وسفن ترشيش فى الأول لتأتى ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم لاسم الرب إلهك وقدوس إسرائيل لأنه قد عدك » (٢٠) .

وعندما تم للفرنجة الاستيلاء على أورشليم راحوا ينشدون : هذا هو اليوم الذى صنعه الرب ، فلنفرح ونتهلل فيه » (٥٣٠ . ولما اختير جودفرى دى بويون « ملكاً » على أورشليم • كان هذا على طراز ملك داود (٤٠٠ .

وصلوات الصليبين تجديد لتضرعات العبرانيين:

« استمع یا رب ... لا تحجب وجهك عنى . لا تخیب بسخط عبدك . قد كنت عرنى . فلا ترفضنى ولا تتركنى یا إله خلاصى » (٥٠٠).

غير أن للصليبية أيضاً اشتقاقها الإنجيلي : فقد طلب أوربان الثانى من جمهوره فى كليرمونت الاقتداء بسيرة المسيح عندما قال :

« من أحب أباً أو أمثًا أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى . ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى » (٥٦) .

إن حمل الصليب اقتداء لسيرة المسيح الذي حمل صليبه راضياً من أجل الفداء (٥٠) . وقد نادى أدهيار بأن الصليبية « رسالة » سداها التضحية ولحمتها الاستشهاد (٥٨) .

Foucher, p. 320. (01) Robert, p. 882. (Isaiah, 60: 10) (01) Raymond, p. 300. (Psalm 117, 24). (07) Orderic, p. 612. (01) Raymond, p. 248, (Psalm 43:26); Robert, p. 828, (Psalm 27:9). (00) Robert, p. 730, (Luke, 14: 27; Matthew, 10: 38). (01) Foucher p. 328; Ekkehard, Hierosolymita', in R. H.C. Occ., Vol. V, (° V) p. 159; Robert, p. 728. Chanson d'Antioche, I, p. 113. (o A) ولما كانت الصليبية من خلق البابوية ، فإن أى انتصار تحرزه انتصار لكنيسة روما (٥٩) ، كما أن رسالة الصليبيين نشر لواء الكاثوليكية أينها حلوا (٢٠٠) . والصليبيون على هذاد يجددون الأعمال البطولية لشارلمان وأبناءه ، الذين حطموا الوثنية بحد السيف ونشروا الكاثوليكية وراء الراين .

والوثائق المعاصرة تؤيد هذه النظرية عنفد طلب أوربان الثانى من الصليبين « أن يحطموا الوثنية ويرفعوا من مجد كنيستهم الأم - كنيسة روما» (٢١). وفي رأى البابا أن العقيدة المسيحية الصحيحة في هذا العالم هي عقيدة « كنيسة الفرنجة » . ولهذا لم يكن غريبا أن جاءت رسالة قادة الصليبية الأولى من أنطاكية إلى أوربان الثاني تؤكد هذا المعنى :

« لقد هزمنا الترك والكفار ، ولكنا لم نستطع تحطيم إثم الهراطقة من يونانيين وأرمن وسوريين ويعقوبيين . ولهذا فنحن نطلب من قداستكم __ يا أبانا _ حيث إنكم الأب والرأس ، أن تحضروا إلى إمارة وليكم بطرس لأنكم خليفته ؛ وستجدنا لك أبناء مطيعين . . .

وبإذنك وبأمرك سوف ننقض على هؤلاء الهراطقة جميعاً فندمرهم ونستأصل شأفتهم (٦٢).

وإذا ما فحصنا المسميات التي أشار بها الصليبيون إلى «العدو» من المثالث وغيرهم نجدها كالآتي : «المجاهد به المثالث وغيرهم نجدها كالآتي : «الجنس الوثني الشرير» ؛ «الترك ويلى هذه الألفاظ نعوت من قبيل : «الجنس الوثني الشرير» ؛ «الترك المدنسون للمقدسات» ؛ «الجنس الممقوت لدى الله » «أعداء الله وأعداؤنا» ؛ والترك فوق هذا أتباع للشيطان، عنصر دني ، خدم لإبليس، وأتباع للمسيخ الجدال (٢٣٠).

Ibid. (oq)

Robert, p. 758; Letter of the Crusade leaders addressed to the Pope, at (\(\cdot \cdot \))

Lattakiah , in 1099, in Hagenmeyer, op. cit., p. 171.

Robert, loc. cit. (71)

H. Hagenmeyer, op. cit., p. 164.

Robert, p. 776; Foucher, p. 324; Orderic, p. 495. (77)

على أنه يجب أن نلاحظ أن هذه العبارات والنعوت بعينها قد استخدمها الصليبيون ضد اليونان واليهود والهراطقة والمسلمين (٢٤).

ومن سمات الضليبية أيضاً وضوح فكرة الانتقام: فلقد. طلب أوربان الثانى من الصليبيين أن «يذبحوا» أعداء المسيحية. كما ظهر الله لبطرس الراهب - قائد الحملة الشعبية الأولى - وطلب منه استنفار المسيحيين لأن «alassent vengier».

وكان أدهيمار – المندوب البابوى – يخاطب الفرسان في الحملة بنفس الروح (٦٦٠).

ولقد لبى الصليبيون النداء البابوى عندما استولو على أورشليم فى عام المورد التى المامورة التى تعطيها لنا المصادر الفرنجية والعربية عن المذابح التى تمت هناك بشعة للغاية وتنطق بحب الانتقام . ويحدثنا رايموند من آجوى أنه عندما ترجع صباح اليوم التالى للغزو اللاتيني لأورشليم لزيارة منطقة معبد سليان كان عليه أن يبحث لقدميه عن ممر وسط جثث ودماء وصلت حتى ركبتيه (١٧٠) . ويروى فوشيه دى شارترز بأنه حتى الأطفال لم ينجوا من هذه المذبحة . ويمضى ليقول بأن النساء ، وإن كن قد نجون من الأذى الخلق ، إلا أنهن قد تعرضن للطعن في بطيهن بحراب الصليبيين . (١٨٠) ويقدم لنا ألبرت من إكس صورة بشعة أخرى : إذ نزع الصليبيون الغلمان الصغار من صدور أمهاتهم وعلقوهم على أسوار البيوت بحرابهم (٢١٠) . كما حرق

Orderic p. 495. (71)

Chanson d'Antioche, I, p. 6.

Ibid. (٦٦)

Raymond, p. 300, cf., Anonymi, pp. 204 - 206; Letter of Diambert of (\(\chi\nu\)). Pisa, in in Hagenmeyer, p. 171; Abu'l Feda, Moslem Annals' in R.H.C. Or., Vol. I, p.p. 198 - 99. Sir Steven Runciman, op. cit., I, p. 287, comments saying that "this was a bloodthirsty proof of christian fanaticism".

Foucher, pp. 349 - 50.

Albert, p. 479, (14)

اللاتين جثث الموتى بحثاً عن الذهب والحواهر المدفونة مع أصحابها المتوفين (۷۰). ويصف روبرت الراهب كيف أن رفاقه قطعوا رؤوس الضحايا من أهالى. أورشليم وجروها من خلفهم إلى معسكرهم ليحصوا عددها. (۷۱) كما أرسل. تانكرد – القائد النورماندى – سبعين رأساً إلى آدهيار للتدليل على بطولته الصليبية (۷۲). وأمر أدهيار بأن تكدس هذه الرؤوس المجتزة بجوار أسوار أنطاكية ليدخل الرعب على قلوب أهليها (۷۳). وأغلب الظن أن الصليبين قد أقدموا وقتها على أكل لحوم البشر (۷۱).

هنالك مصدر آخر يعيننا على تفهم مسلك الصليبيين ، كما يلتى أضراءاً على ثقافاتهم وعاداتهم وآراءهم الدينية ، مما يعطينا صورة صادقة عن أحوال المجتمع الغربي في القرن الحادى عشر . وهذا المصدر يتمثل في الأناشيد والأغانى التي كانت جماعة الصليبيين ترددها أثناء مسيرها نحو الشرق . ولقد كتب ج . بارس بأن الصليبية ما كانت لتقوم لولا ظهور «أنشودة رولاند» (٧٠) . ومع أن هذا القول مبالغ فيه ، إلا أنه له دلالته . والواقع أن الفترة مابين ١١٥٠، ١١٥٠ قد شهدت ظهور عدد وافر من الملاحم والواقع أن الفترة مابين ٢٠٥٠، المقدسة والصليبية . ويرجح أن جل كتاب التي هيأت الجو الملائم للحرب المقدسة والصليبية . ويرجح أن جل كتاب المشروعه الصليبي خيال كتاب الملاحم والأغاني الحربية قبل و بعد كليرمونت (٧٧). عشروعه الصليبي خيال كتاب الملاحم والأغاني الحربية قبل و بعد كليرمونت (٧٧). وأنشودة رولاند هي المثل الصادق لروح الحرب الصليبية ، وكانت بمثابة

Foucher, p. 359.	(٧٠)
Robert, p. 788; Anonyani, p. 96; Guibert, p. 181.	(VI)
Radulph of Caen; Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione	(٧٢)
Hierosolymitana", in R.H.C. Occ., Vol. III, p. 644.	
Guibert, p. 242.	(٧٣)
Albert, p. 450; cf. Orderic, p. 582; Radulph, p. 675.	(٧٤)
G. Paris, in Romania, Vol. XXXI, (1902), p. 410.	(vo)
A. Hatem, Les Poèmes Epiques des Croisades, Genése, Historicité,	(٧٦)
Localisation, Paris, 1932, 32.	
1 bid.	(٧٧)

« الاستنفار » للحرب التي بشر بها البابا ودير كلونى (٧٨). ويمكن تقسيم الأشعار التي عالجت موضوع « الحروب المقدسة » إلى فئتين أساسيتين: الأعمال البطولية للسارلمان ؛ ثم الأعمال البطولية لجارن. وتضم الأولى ما يلى:

. Chanson de Roland, Fierbras, Gui do Bourgogne, Aspremont;
Chanson de Guillaume, Couronnement de : أما الثانية فتشمل
Louis, Covenant Vivien, Aliscans, La Mort Aymeri de Narbonne.
Charroi de Nimes

وهذه الأشعار جميعاً تصور شارلمان وفرسانه أبطالا وشهداء فى حرب صليبية لا نهاية لها ضد السراكنة . ولعل أهم المعانى التى وردت فى هذه الملاحم : وجرد الله فى صف رجاله المحاربين ؛ مشاركة القديسين الفرسان . فى هذه الحرب ؛ مع إبراز قيمة الأيقونات المقدسة فى الحفاظ على المحاربين من الهلاك . كل هذا بغية رفع شأن المسيحية الكاثوليكية فى العالم ، وتمجيد الكليل الشهادة .

وهناك إصرار فى هذه الملاحم على ضرورة مساندة الله وقديسيه لهؤلاء «الصليبيين»: فنجد البابا يخاطب القديس بطرس قائلا بأنه إن لم يساند رجال الكنيسة الرومانية فى الحرب، فإن البابسا مسوف يحجم عن إقامة صلاة القداس فى كنيسة القديس بطرس (٧٩).

ويمثل رولاند روح الفروسية الفرنسية للقرن الحادى عشر؛ فهو ليس برجل عادى وإنما هر أشبه ما يكون برمز لفكرة سائدة فى عصره. أما شارلمان فهو إمبراطور الله الذى وكلت إليه مهمة إعلاء شأن كنيسة وعقيدة الفرنجة. ويقوم وليم البارون بدور رجل الإمبراطور وفصله الأمين المتفانى فى خدمة سيده الإقطاعى.

H. Grégoire; La Chanson de Roland et Byzance, in Byzantion, XIV (VA) (1939), p. 301. See P. Boissonade, Du Nouveau sur la chanson de Roland, Paris, 1923, pp. 276 seq.

Couronnement de Louis, (ed. E. Langlois), Les Classiques Français du (va). Moyen Age, 22, Paris, 1920, p. 34.

وواقع الأمر أن هذه الملاحم جميعاً كانت بمثابة الصحافة ودور الإذاعة للجتمع القرنين الحادى والثانى عشر .

كانت الإمبراطورية البيزنطية تعانى الأمرين من ضربات جيرانها؛ السلاجقة الأتراك والبشانقة فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر. ولقد بلغت المحنة ذروتها فيا بين ١٠٩٠ و ١٠٩١ ، ولها فإن الإمبراطور الكسيوس كومنينوس (١٠٨١ – ١١١٨) فتح باب المفاوضات مع البابا أوربان الثانى يطلب منه المسائدة بإرسال جند مرتزقة من إيطاليا اساعدة بيزنطة ضد أعداءها على الحدود الشرقية والغربية. والشابت أن بيزنطة كانت تستخدم منذ فترة مبكرة الجند المرتزقة الوافدين من غرب أوربا اللاتينى: من نورمان وفرنجة وإنجليز، وهؤلاء كانوا يخدمون الإمبراطوررية جنباً إلى جنب مع المرتزقة من ترك وبشائقة وروس.

غير أنه في عام ١٠٩٠ تمكن القائد البيزنطي قسطنطين دالاسينوس من أن يهزم الأمير السلجوق زاخاس ويضطره إلى الفرار إلى سميرنا (١٠٠). ولما تمرد الأميران الصربيان بودن وبولكان ضد بيزنطة، وجه إليهما الإمبراطور القائد يوحنا دوكاس ، الذي أوقع بهما هزيمة نكراء في عام ١٠٩١ (١٠١). وفي ٢٩ أبريل لعام ١٠٩١ ، وعلى ضفاف نهر Leburnion انقضت الجيوش الإمبراطورية ، تساندها قبائل البولوفيتزي المتبربرة ، على جماعات البشنق وأبيدت هذه الجماعات عن آخرها في مذبحة رهيبة . ولقد روع البولوفتزي من هول هذه المجزرة البشرية إلى حد أنهم لاذوا بالفرار بعد النصر ، من هول أن يحل بهم المصير دون أن يطالبوا بيزنطة بنصيبهم من الأغنام ، خشية أن يحل بهم المصير الأنكد الذي وقع بالبشانقة أمام عيونهم (٨٢).

هذه الحقائق تقطع في يقين أن مجنة بيزنطة قد انتهت في أبريل المادة على الإطلاق بعد ذلك المادة على الإطلاق بعد ذلك

Alexiad, VII, viii, 10, p. 116.

Ibid., VII, viii, 9, p. 116. (A1)

Ibid., VIII, v, 8, p. 143.

بأربعة أعوام (١٠٩٥) لأن تلجأ السلطات الإمبراطورية البيزنطية إلى البابوية لطلب العون .

ورغم هذا فقد دأبت جماعة المؤرخين على المبالغة في تصوير حالة. اليأس والْفزع السائدتين في بيزنطة في عام ١٠٩٥ . وهذا خطأ يستوجب التصحيح . فالمعــروف أن سفراء الكسيوس في غرب أوربا الذين كانوا يستأجرون جنداً مرتزقة علما جرت العادة من قديم، قد قصدوا إلى مؤتمر Piacenza الذي عقده اليابا أوربان الثاني من أول مارس و١٠٩٥ حتى سابعه . ولعل الأمر الذي دعا الكثيرين إلى المغالاة في أهمية هذا الحدث. ما كتبه الكاردينال Bernold في «حوليته» بأن اليابا أوربان الثاني «قد عقد هذا المؤتمر ليحث المؤمنين المشاركين فيه على المسارعة لتقديم العون لألكسيوس كومنين ضد الكفار (٨٣) » . على أنه يجب ملاحظة أن هذا الكاتب ذاته قد أكد في «حوليته» بأن هذا الحجلس قد تم انعقاده «من أجل اتخاذ إجراءات ضد الانفصاليين وضد أعوانهم » ؛ وهو يقصد بالطبع « ضد البابا المنافس جيبرت وحليفه الإمبراطور الألماني هنري الرابع (٨٤) ».. وهنالك شاهد آخر على أن المجلس كان مهتما في الدرجة الأولي بموضوع. الشقاق البابوي والانفصاليين ؛ وهو أوردوريك ڤيتالس (٨٥). وعليه فإن مجلس بياتسنزا هذا كان مهتما بالأمور المتصلة بتنظيم الكنيسة ووحدتها تحت رعاية البابا الشرعي وبإدانة السيمونية (شراء الرتب الكنسية بالمال). وكذا النظر في قضية طلاق براكسيدز ، زوجة الإمبراطور هنري الرابع الروسية الأصل ، بعد أن قصت على البابا فضائح زوجها (٨٦). أما طلب. العون لبيزنطة من المؤتمرين ، فإن واقع الأمور يؤكد أنه لم تكن هناك. حاجة قائمة من أجل ذلك بعد هزيمة زاخاس الأمير السلجوق وبعد مذبحة

روما و بيزنطة.

Bernold, Chronicon, in M.G.H.SS., Vol., V, p. 42. (AT)

Tbid. (At)

Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, I, 9, iii, p. 461. (Ac)

Mansi, op. cit., loc. cit. (AT)

البشانقة " ثم بعد أن توفي السلطان ملك شاه (١٠٩٢) وقامت حرب أهلية بين الأمراء السلاجقة خاصة في آسيا الصغرى. على أنه يمكن تفسير ما تم في بياتسنزا على الوجه الآتي : حدث أن نما إلى سمع سفراء الكسيوس الذين كانوا يتجولون في إيطاليا بحثاً عن جند مرتزقة نبأ انعقاد مجلس هام يحضره مندوبون من دول الغرب في مدينة بياتسنزا ؛ فأسرع هؤلاء السفراء لاستغلال هذه الفرصة ليطرحوا رغبتهم أمام المؤتمرين تسهيلا لمهمتهم في جمع عدد وافر من الجند المرتزقة للمخدمة في الجيوش البيزنطية . ويبدو أنهم قد بالغوا في عرض طلباتهم وفي تصوير أحوال الحدود الشرقية والغربية اللامبراطورية ، كسباً لعطف الأمراء والأساقفة الوافدين من عبر الألب . على أن هذا لم يكن متمشياً مع مطلب الكسيوس كومنين، ولم يخطر بباله . فإنا لا نجد من بين شاهدى العيان اللين كتبوا عن الصليبية الأولى واحداً يذكر شيئاً عن مطلب الكسيوس في الصيغة التي نادى بها الكثيرون من المحدثين. أما الذين كتبوا عن تلك الفترة في وقت متأخر، من شاكلة روبرت الراهب وجيبرت من نوجنت ، فإن هؤلاء فقط هم الذين بالغوا في تصوير أهمية بلحوء الكسيوس إلى البابا من أجل العون . ويجب معابلة ما كتبه هؤلاء المتأخرون في كثير من الحذر.

وفى صيف ١٠٩٥ رحل البابا أوربان الثانى عن إيطاليا قاصداً فرنسا ، موطنه الأصلى ، وهناك توقف عند بيوتات الديرانيين إخوانه من أتباع كلونى حيث ناقش خططه الكنسية مع أساتذته ورفاقه القداى . وقد توقف بوجه خاص عند مدينة Lepuy وعند St. Gilles حيث قابل كلا من أدهيار من سانت مارتيال ، أسقف الأولى ثم رايموند الرابع من سان جيل، كونت تولوز ، وكسب صداقتهما وعطفهما على مشروعاته (٨٧) . هفير وفى ١٨ نوفبر ١٠٩٥ انعقد المجلس فى كليرمونت بإقليم على على هشروعاته وفى ١٨ نوفبر ١٠٩٥ انعقد المجلس فى كليرمونت بإقليم

Alfred Richard, Histoire des Comtes de Poitou, Archives Departmentals (AY) de Poitiers), Vol. I (778 - 1204), pp. 407 - 16.

حيث حضر النبلاء والأعيان ووجهاء القوم من علمانيين وكهنوت. كذلك حضر إلى المؤتمر بعض رجال الدين الإسبان، وكان من بينهم دالماس أسقف كومبوستلا . استعرض البابا وأعوانه بعض المشاكل الكنسية أمام المجلس وأقر إدخال بعض النظم والإصلاحات فيها، ثم أعلنت بداية «هدنة الله» Turga Dei ؛ و «سلام الله» العمد فعرب أو ربا اللاتيني . ومن بين الثلاثة وثلاثين قانوناً التي أصدرها مجلس كليرمونت يهمنا القانون الثاني منها اللي عالج موضوع الصليبية (٨٨) . وهذا يمنح «غفراناً تامناً من الخطايا والدنوب لكل من يتعهد المسير إلى أو رشليم بغية تخليص كنيسة القبر المقدس من أيدي الكفار (٨٩)» .

هذا وقد ألتى البابا أوربان الثانى – أثناء انعقاد مؤتمر كليرمونت – خطاباً فى جمهور الكهنة والعلمانيين خارج قاعة المؤتمر (٢٧ نوفمبر ١٠٩٥)، غير أننا لا نملك النص الأصلى لما بشر به البابا فى ذلك الحين . ولا يمكن قبول ما ورد فى كتابات بودرى دى دول ؛ وروبرت الراهب ؛ وفوشيه دى شارتر ؛ وجيبرت دى نوجنت على حذافيره . وقد اعتقدت الكاتبة الأمريكية دى شارتر ؛ وجيبرت دى نوجنت على حذافيره . وقد اعتقدت الكاتبة الأمريكية على أنها صحيحة فى خطاب أوربان هذا (١٠٠) . على أنه ينبغى ملاحظة أن كلا من هؤلاء الكتاب يعكس وجهة نظره الشخصية فى كلام أوربان ؛ وهذا يشكل صعوبة فى محاولة الاستدلال على ما بشر به أوربان بالضبط . ويرى المؤرخ الفرنسي F. Chalandon أن هؤلاء الكتاب المعاصرين إنما يعكسون فى كتاباتهم الرأى السائد لدى معاصريهم عن الصليبية ؛ وهذا لا يمثل ما قاله البابا بالفعل ، أو ما كان يضمره لمشروعه الصليبي (١٩٠) .

Lambert of Arras; Canons of the Council of clermont', in Mansi, Vol. XX. (AA) Ibid., p. 816. (A4)

D. Munro; The Speech of Pope Urban II at Clermont', in American (9.) Historical Review, Vol. XI (New York, 1906).

F. Chalandon, Histoire de la Première Croisade jusqu'à l'Election de (4 1) Godefroi de Bouillon, Paris, 1935, p. 38.

على أية حال ، لعل الدراسة التحليلية والمقارنة لمسا ورد فى كتابات هؤلاء الأربعة تسهم فى إعطاء فكرة عامة عن خطاب البابا ومشروعه . فلا يمكن تصور أنهم قد اخترعوا كل ماأوردوه نسبة إلى البابا، إذا لابد من وجود بعض الحقائق بين سطور هذه الحوليات.

يتفق هؤلاء الكتاب على أن أوربان بدأ خطابه بحث مستمعيه من الإكليروس على السلوك الحسن وفق قانون الله حتى يكونوا باستحقاق رعاة للشعب ، و فأنتم ملح الأرض فإن فسد الملح فباذا يملح؟ ». ولما كانت جرائم الشرقد استشرت في المجتمع اللاتيني فإن البابا طلب من الجماهير الالتزام يقانون الكنيسة و بهدنة وسلام الله ، كما نصحهم باكتناز طاقاتهم الحربية للحملة الصليبية التي بشر بها البابا (ad quoddam aliud Dei negotium et vestrum) (٩٢). ولقد برر البابا قيام هذه الحركة بما أسماه الأحوال التعسة التي تردت فيها الكنائس الشرقية تحت نير الفرس [الأتراك] (٩٢) . ووجه التعاسة هنا هو الكنائس الشرقية إلى اسطبلات لحيولم (١٩٤) . أما كرسي الكرازة البطرسية في أنطاكية فقد بات يئن من شعائر الشعوذة التركية التي السماوات للرجس والحطر (٩٠) . وإن الترك بفعلهم هذا يعرضون مملكة السماوات للرجس والحطر (٩٠) . وأن الدم المهراق في المشرق ليستصرخ مسيحي غرب أور با ليهبوا لنجدة ثم ينكص عن الإغاثة (٩٨) .

ولم يكن أوربان الثانى هو الذى يبشر بالصليبية ، وإنما كانت الإرادة العلوية هي التي تستنفر المسيحيين لحمل شارة الصليب، والزحف نحو الشرق (٩٩).

Foucher, p. 323.	(97)
Robert the Monk, p. 727.	(٩٣)
Baudri, p. 13.	(41)
Ibid.	(٩0)
Foucher, p. 324.	(91)
Baudri, pp. 12 - 13.	(44)
Foucher, loc. cit.	(44)
Ibid.	(99)

على أن البابا هنا عرج على مسألة أخرى هامة مسهداً إيجاد حل معقول لجرائم الإقطاع من قتل وسرقة ونهب وذلك بأن طلب من فرسان غرب أو با استنفاد طاقاتهم العدوانية في مقاتلة الترك (١٠٠٠). ونجد البابا يعدد لجمهوره آفات المجتمع الغربي الإقطاعي فيوضح لهم أن رقعة الأرض لم تعد بكافية لاستيعابهم ؛ فاتحاً أمام المفلسين من البارونات والفرسان جنات خضر في الشرق الدافي لا يعدو ثمنها مغامرة صليبية (١٠١١). ونجد أصحاب الحوليات المعاصرين يؤكدون لنا أن «مجرى الأمس أضحوا اليوم جنداً للمسيح» (١٠١٠).

وعنصر الإلهام الذى ارتكزت عليه خطبة أوربان هو الضريح المقدس للمسيح في بيت المقدس، مدينة الله . إذ راح البابا يقص على الناس ملحمة أورشليم " محور العالم " أم الكنائس ، والجنة الأرضية ، التي شهدت الميلاد العجيب والرسالة الكبرى ثم طريق الآلام الفادى ؛ فالقيامة . إن هذه المدينة قد أمست في أغلال الأسر ، وعلى الرجال تخليصها من العبودية والهوان (١٠٣). وعلى هذا فمن يحمل صليبه يصبح جنديبًا للمسيح مع بقية جيشه من «خاصة الله » ومن « الشعب المختار » (١٠٤) .

وهنالك ميزات أخرى يجتنيها الصليبي : فإن آثامه تغفر لحظة مسيرته نحو المشرق ، وإذا قتل فهو شهيد تحتضنه ملكوت السهاوات (١٠٠). وأما اللذين يستولون على القدس فإن أمامهم أنهار من «جنات كنعان حيث يفيض العسل واللبن» (١٠٠١).

ومثلما فعل موسى عندما انطلق العبرانيون لقتال العمالقة ، رفع أوربان

 	 	700 4	per elaterated as a sent
			$(1\cdots)$
			(1.1)
			(1.1)
			(1.4)
			(118)
			(1.0)
			(1.7)
		para disease of a second secon	pane describer of a controlled to age

الثانى يديه نحو السهاء ابتهالا لله بأن ينصر « جنس الفرنجة » على الترك (١٠٧) ـ

* * *

ولقد التقط الكرسى البابوى الفرصة التى طلب فيها الإمبراطور البيزنطى. الكسيوس كومنين العون من الغرب فى عام ١٠٩١، وعمدت بعض الدوائر الكنسية المجهولة إلى تزييف خطاب ادعوا فيه بأنه موجه من إمبراطور بيزنطة للغرب المسيحى، بقصد إثارة حماس الفرسان اللاتين للحرب المقدسة فى الشرق. وفى هذه الرسالة المزيفة نجد الكسيوس يتضرع إلى الكونت روبرت الأول من فلاندرز ورجاله وسائر المؤمنين فى الغرب بأن يهبوا لنجدة إخوانهم المسحيين فى الشرق من العدو (١٠٨٠).

وجدير بالملاحظة أن لهجة الرسالة التي نحن بصددها لا يمكن أن تكون. قد صدرت على لسان الكسيوس أو سفراءه والأنه ليس بمعقول أن تنحط الكرامة البيزنطية وخاصة عند مخاطبة الفرنجة، إلى هذا الدرك من التوسل والاستجداء. وأهم من هذا أن الصورة الراردة في الحطاب عن مسلك الترك تجاه مسيحيي الشرق تنم عن خيال لاتيني خصيب لا يمت لواقع التاريخ بظل

Baudri, p. 15. (1.4)

The date of this letteri is controversial. P. Riant maintained that the Epis- () * A) tula had been fabricated at some time between June 1098, and July 1099. G. Paris placed it in 1090. H. Hagenmeyer contented that the document was prepared in 1088, at the instance of Alexius' envoys and the Count of Flanders. In the opinion of C. Kohler it was an excitatorium to the First crus ade. E. Jornanson argued that it had been prepared at the request of Bohemond, in Italy in 1105.

It should be pointed out that there is much in the *Epistula* which could not have been derived from an authentic letter. Moreover, the *Epistula* in the form that is known suggests that it was composed at the time the First crusade was being preached, and that it was intended to prepare the Westerners to conquer for themselves former Byzantine provinces and to lay hands on at least two of the Eastern patriarchates, let alone the relics and the treasures of gold at constantinople.

من الواقع (۱۰۹) ؛ ذلك لأن الوثائق المعاصرة التي سجلها المؤرخون الشرقيون من المسيحيين تتحدث في تفصيل عن التسامح العظيم الذي أبداه السلطان ملك شاه تجاه الرعايا المسيحيين في إمبراطوريته . ويكفي أن نشير هنا إلى شهادة متى من الرها الذي أوضح أن المسيحيين عند وفاة ملك شاه بكوا بكاء مريراً (۱۱۰).

هذا وتأتى الفقرة الحاصة بالأساقفة الشرقيين وما حل بهم على أيدى الترك لتؤكد بدورها زيف الوثيقة . وينسحب نفس الشيء على الماثني سفينة بيزنطية التي راحت الوثيقة تصف سقوطها في أيدى «العدو» (١١١) . على أن أهم ما ورد في الوثيقة المزيفة ما يلى : «حيث أن الحال على هذا القدر من البؤس والسوء، ولما كانت القسطنطينية قد باتت مهددة بالغز و التركي = فإنه خوفاً على آثار المدينة المقدسة وكنوزها من الوقوع في أيدى الكفار ، فليقبل أبناء الفرنجة لإنقاذ المدينة من السقوط ؛ ولتكون من نصيبهم هذه الكنوز الطائلة » .

ونجد في هذه الرسالة قائمة شاملة بالآثار المسيحية المقدسة من قبيل صليب الصلبوت ، السوط الذي ألهب به ظهر المسيح ، إكليل الشوك ، الحربة المقدسة ، المسامير التي سمر بها الجسد إلى الحشبة ، رداء الكتان الذي قمط به الجسد بعد الصلب ، السلال التي وضع بها ما تبقي من السمكتين والحمسة خبزات بعد إطعام الجموع الغفيرة ، خصلات من لحية المسيح ، لحية يوحنا المعدمان . . إلخ . هذه المقدسات باتت مهددة بخطر التدنيس ، وعلى الفرنجة أن يهبوا لإنقاذها . أما الكنوز من ذهب وفضة في الخزائن الإمبراطورية ، فهي أيضاً تنتظر اللاتين الشجعان ليأتوا لنقلها إلى الغرب قبل أن تصيبها يد الترك .

ولقد كان هذا المعنى الأخير الوارد الرسالة المزيفة عاملا هاميًّا من

H. Hagenmeyer, Epistulae et chartae, p. 130 " (1.4)

Matthew of Edessa, Chronique, (ed. Dalaurier), p. 203. (11.)

H. Hagenmeyer, loc. cit. (111)

عوامل إشعال إحماس غرب أوربا اللاتيني الحركة الصليبية ، فالذين كانوا حقيقة من أهل التي وجدوا أمامهم هذه المقدسات التي كان لها سحر خاص على عقلية حجاج القرن الحادي عشر . أما أولئك الفرسان والنبلاء والعامة الذين كانوا في ضائقة اقتصادية فقد باتت قصة الذهب والفضة تراود خيالهم وتسيل لعابهم . وفي ذلك العصر الذي كانت الكنيسة فيه هي كل شيء ، كان ما تنشره من معلومات يقبل على علاته على أنه فعلى وأصيل . والتفاصيل الواردة في هذه الوثيقة المزيفة لا شك في أنها قد ألهبت خيال . أهل غرب أوربا فازداد الحماس من أجل حمل الصليب (١١٢) .

بقيام الحركة الصليبية غدت الحرب أمراً مقدساً ومشروعاً عند كنيسة روما ، وحتى رجال الدين قد سمح لهم أيضاً بحمل السيوف والمقاتلة .

غير أن هذا كان بدعة لا تقرها كنيسة بيزنطة : فلقد أكد القديس بازل من قيسارية في كتاباته بأن الحرب _ أية حرب _ لا يمكن أن تكون أمراً مقدساً ، حتى ولو كان نشوبها يمثل ضرورة وحتمية (١١٣). والحق أن المسيحيين في الشرق قد فزعوا عندما شاهدوا بين أفواج الصليبيين أساقفة ورهبان وقسيسين مدججين بالسلاح . ولقد عبرت الأميرة آنا كومنينا عن مشاعر معاصريها عندما انتقدت في مرارة بالغة مسلك رجل الدين اللاتيني اللايني وسفك الدي ما إن يهي صلاة القداس حتى يمسك بسلاحه ليشارك في أعمال القتل وسفك الدماء (١١٤) . ونجد نفس المعاني فيا كتبه ثيو فيلاكت رئيس أساقفة بلغاريا عن مشاهداته لأفواج الصليبين وعن الأهوال التي ألحقوها _ كهنة كانوا أم علمانيين بالأراضي التي كانوا يعبر ونها أثناء رحلتهم (١١٥).

Ibid. (117)

St. Basil of Caesarea, Letter no. 188, in P.G., Vol. XXXII, col. 681. (117)

Alexiad, X, viii, 2, p. 218. (118)

Theophylact of Ochrida, Letter no. XI, in. P.G., Vol. CXXVI, (110) cols. 324-25.

كان أول منوصل إلى أسوارالقسطنطينية منالصليبيين جمهور من إيطاليا ، انضم إليهم والتر المفلس وجماعته .

وقد كانت هذه الحملة غير منظمة ولذا فقد أقدمت على الكثير من أعمال العنف والشغب . ولهذا فقد اضطر الصرب والبلغار إلى مهاجمتهم ، فقتل عدد كبير منهم . وعند مدينة نيش وجدوا حاكم المدينة في استقبالهم ، وقد رافقهم إلى أدريانوبل، ومنها واصلوا سيرهم حتى وصلوا العاصمة البيزنطية في ٢٠ يوليو ٢٩٠١م .

أصدر الإمبراطور الكسيوسي كومنينوس أوامره بالساح لهؤلاء الصليبيين بالبقاء عند القسطنطينية حتى تصل حملة بطرس الراهب ، كما أمر بتقديم الزاد لهم جميعاً (١) . وبعد عشرة أيام لحقت بهم حملة بطرس الراهب .

والمصدر الذي أفاض في وصف حملة بطرس هو ألبرت من إكس . تحرك الراهب ورجاله من مدينة كولون في أبريل ١٠٩٦، وعند نهاية يونيو من نفس العام وصلوا حدود الدولة البيزنطية . وفي مدينة مالا فللا (سملين)، علم الراهب بأن Gnuzh ، فصل كولومان ملك هنغاريا ، وكذا نيكيتاس حاكم بلغاريا قد قاما بمهاجمة والتر ورجاله .

ولذلك فقد عقد بطرس النية على الانتقام لوالتر ، فقام هو ورجاله بحصار مدينة سملين ثم استولوا عليها .

فر نيكيتاس حاكم المدينة ولحاً إلى مدينة نيش ، ومنها فتح باب المفاوضات مع الراهب . اتفق الطرفان على أن يقدم الراهب بعض الرهائن فى مقابل فتح الأسواق للصليبيين . غير أن بطرس ورجاله بعد أن أنهوا مدة إقامتهم بالمدينة قاموا بإشعال النيران فى طواحينها وبيوتها دون مبرر مقبول . وعليه فقد أمر نيكيتاس كتائب البشنق حالذين كانوا فى خدمة بيزنطية

بمهاجمة مؤخرة الحملة الصليبية ، ووقع الكثيرون منهم فى الأسر .

أرسل نيكيتاس رسلا إلى العاصمة ليبلغ الإمبراطور بسوء مسلك بطرس ورجاله = فأرسل الكسيوس سفراءه لمقابلة الراهب: تقابل السفراء مع الراهب على مقربة من مدينة صوفيا ، وهناك طلبوا منه باسم الإمبراطور ألا يطيل مقامه ورجاله فى بقعة واحدة على ثلاثة أيام . كما أعلموه بأن الأوامر قد صدرت لإعداد الأسواق اللازمة للحملة . وزيادة على هذا أبلغه السفراء أن الإمبراطور ، وإن كان قد علم بالضرر البالغ الذى ألحقه الصليبيون بنيكيتاس ومدينته ، إلا أنه قد قرر العفو عنهم . وعند مدينة أدريانوبل ظهر سفراء جدد من قبل الإمبراطور وطلبوا من الراهب أن المربراطور كان شديد الرغبة فى مقابلته (١١٧) .

وفى ٣٠ يوليو ٢٠٩٦م ظهر الراهب ورجاله أمام مدينة القسطنطينية ، وشمحت لهم السلطات بإقامة معسكراتهم خارج أسوار العاصمة . ولقد استقبل الإمبراطور زعيم الحملة بالحفاوة والترحاب ، غير أنه لم يخف. دهشته بأن يجد راهباً على رأس هذه الحملة .

أيقن الكسيوس أن جماعة الراهب لم تكن لتسطيع عجابهة الأتراك بمفردها ، ولهذا نصحهم بالانتظار حتى تصل الجماعات الصليبية الأخرى لينضموا إليها . غير أن هذا العطف من جانب الإمبراطور قوبل بالإساءة ؛ إذ سرعان ما انقض جيش الراهب على القرى المجاورة لمعسكرهم فنهبوها وحرقوا دورها وكنائسها .

وبسبب هذا المسلك الفظ اضطر الكسيوس إلى أن يأمرهم بعبور البوسفور إلى آسيا الصغرى (١١٨).

ويصف كل من را عونددى اجوى والكاتب المجهول الاسم «الأعمال الفرنجة» هذه المرحلة بقولهما: إن الكسيوس قد دبر نقل حملة بطرس الراهب

Ibid., p. 282. (۱۱۷)

Anonymous, p. 6. (IIA)

إلى آسيا الصغرى حتى يتمكن الأتراك من الفتك بكافة أفرادها (١١٩). غير أن هذا الزعم مردود ؟ لأن الإمبراطور كان قد نصح بطرس وجماعته بالبقاء حول العاصمة حتى وصول الجيوش الصليبية الأخرى . ومع أنه قد اضطر لنقلهم إلى آسيا الصغرى أمام فظاظة مسلكهم ، إلا أنه رغم هذا قد نصحهم بألا يبرحوا قلعة كيڤيتوت التي سمح لهم بالإقامة فيها في منجاة من ضربات السلاجقة . غير أن أحداً لم يكن على استعداد لقبول النصح الذ اختلف القواد في الرأى ، وراحت عصاباتهم في نهب القرى والمدن المجاورة ، ودارت رؤوسهم كبراً فتحركوا شرقاً بطريقة عشوائية حيث وقعوا في فنخ الأتراك فقضوا عليهم قضاء مبرما (١٢٠) .

ويؤكد هذا القول شهادة البرت من اكس إذ يوضح أن الإمبراطور أرسل سفارة إلى زعماء الصليبية الشعبية لتحذرهم من الزحف شرقاً ضد الأتراك، غير أنهم لم يعملوا بالنصح، وساروا حتى نيقيا واكسير يجوردون (١٢١). وعند بلدة دراكون هجم عليهم الأتراك وقضوا عليهم تماما. وبعد هذه الهزيمة الساحقة تقدم الأتراك حتى قلعة كثيتوت التي لجأ إليها الذين فروا من المذبحة ، ولم ينقذهم من سيوف الترك سوى الأسطول البيزنطى الذي كان قد أسرع بقيادة قسطنطين يوفوربينوس لحمية كثيتوت ومن لاذوا بداخلها .

ورغم كل هذا نجد كاتب « أعمال الفرنجة » يضع اللوم كله على « الإمبراطور اليونانى الحائن » (١٢٢٠) . ويكذب هذا القول شهادة البرت من اكس الذى يؤكد أن الكارثة التى حلت ببنى جلدته كان مردها سوء سلوكهم واختلاف قادتهم فى الرأى (١٢٣) .

Raymond, III, p. 240; Anonymous, p. 12.	(119)
Albert of Aix, I, xv, p. 284.	(14.)
Albert of Aix, loc. cit.	(171)
Anonymous, pp. 10 - 12.	(۱۲۲)
Albert, I, x, p. 36.	(144)

كان الأسقف أدهيار -- المندوب البابوى -- قد حدد نقطة تجمع الجيوش الصليبية المتعددة عند مدينة القسطنطينية . واقد علمت حملة بطرس الراهب الشعبية الإمبراطور البيزنطى وحكومته درساً هاما فى ضرورة اتخاذ احتياطات كافية وعاجلة لحماية القرى والمدن البيزنطية من الأفواج الصليبية الزاحفة من الغرب صوب العاصمة البيزنطية . ولهذا فقد أرسل الكسيوس سفراءه لمقابلة قادة الحملات الصليبية ولتسهيل مهمتهم فى الحصول على ما يلزمهم من طعام من الأسواق البيزنطية . على أنه فى نفس الوقت صدرت الأوامر إلى الكتائب الإمبراطورية بتعقب الصليبين عن بعد لحماية الأهالى فى حالة نهب أو اعتداء صليى .

كان أول من وصل إلى بيزنطة من قادة الحملات الصليبية المنظمة هيولى مين (Hugh le Maine) كونت قرماندوا وهو شقيق فيليب الأول ملك فرنسا . وكان هيو قد أبحر من إيطاليا بعد أن أرسل رسالة إلى الإمبراطور البيزنطى يعلمه فها بوصوله (١٢٤) .

كان القائد البيزنطى نيقولا مافروكاتا كالون على رأس أسطوله يراقب شواطئ بيزنطة ليمنع الصليبين الوافدين بحراً من التسلل خفية إلى الأراضى البيزنطية . ولما كان هيو شخصاً متعجرفاً وعبناً للتظاهر فقد أرسل سفارة قوامها أربعة وعشرون فارساً إلى حاكم مدينة دورازو لإعلان وصول السيد الكونت! غير أن عاصفة عبثت بسفن هيو مما اضطره للرسو في بقعة ما بين التقيد دورازو، حيث استقبله أحد خفر السواحل اللي اقتاده إلى مدينة دورازو.

ولقد قابله حاكم المدينة – يرحنا كومنينوس – مقابلة حسنة ، ولكنه احتجزه فى المدينة ثلاثة أيام إلى أن أرسل الإمبراطور سفيره بوترميتس لاصطحابه إلى العاصمة (١٢٥). ويرجح أن الكسيوس احتجز هذا الضيف الصليبي الهام

Alexiad, X, vii, 1, p. 213. (17 £)

Ibid., X, vii, 3, p. 214. (170)

كرهينة فى يديه ليساوم بها بقية القادة اللاتين الوافدين من الغرب (١٢٦) . ولكن الكسيوس أكرم وفادة الكونت الفرنسى وقدم له هبة ضخمة من المال ، وبعدها أقسم هيو يمين الولاء والطاعة (حسب التقاليد الإقطاعية الغربية) للإمبراطور البيزنطى ؛ وكان ذاك فى أكتو بر ١٠٩٦م (١٢٧) .

وفى نهاية عام ١٩٩٦م وصل جود فرى دى بويون على رأس جيش كبير إلى مدينة القسطنطينية . وكان جود فرى قد قابل سفراء الإمبراطور بمجرد دخول جيشه الأراضى البيز فطية " وقد عاونوه معاونة صادقة فى فتح الأسواق اللازمة للجند وخيولهم . وفى نفس الوقت طلب السفراء من القائد الصليبي أن ينبه على جنوده بعدم نهب المواطنين الآمنين فى القرى التى يعبرونها فى مسيرتهم . ولم تحدث اضطرابات فى المسافذ ما بين نيش وفيليبوبولس " غير أن أنباءاً وصلت إلى جود فرى عند المدينة الأخيرة تفيد بأن الإمبراطور قد احتجز هيو كونت قرماندوا رهينة فى يده . وعلى التو أرسل جود فرى سفارة إلى العاصمة تطلب من الكسيوس الإفراج عن سجينه النبيل . وعند مدينة سيلمبريا جاءت الأنباء تفيد بأن الكسيوس قد رفض الإفراج عن الكونت الفرنسي . وكان هذا مدعاة لأن يهجم جود فرى وفرسانه على المدينة فنهبوها (١٢٨) .

أرسل الكسيوس سفراءه إلى جودفرى يطلبون منه الكف عن أعمال السلب ضد المواطنين الآمنين . واستجاب جودفرى لهذا المطلب وواصل مسيرته حتى وصل العاصمة في ٢٣ ديسبر ١٠٩٦م (١٢٩) . وهنالك قابل الكونت هيو ثم استقبل مندوبي الكسيوس ، الذين وجهوا اله الدعوة لمقابلة الإمبراطور في قصره ؛ ولكن جودفرى رفض الدعوة (١٣٠).

ومن الجدير بالملاحظة أن المؤرخ المعاصر البرت من إكس يرسم لنا

Ibid., Foucher, p. 327.	(171)
Alexiad, X, vii, 3, p. 215.	(177)
Albert of Aix, pp. 304 - 5,	(۱۲۸)
Anonymous, p. 123.	(۲۹)
Albert, p. 305.	(14.)

صورة براقة لسيده جودفرى فى تلك المرحلة المبكرة من الصليبية الأولى ، فهو يؤكد فى حديثه أنه الرجل الأول والمسئول عن سلامة قادة الحملات المتعددة ، كما أنه يبرر سلب مدينة فيليبوبولس على أنه عمل انتقاى كان الغرض منه إجبار الإمبراطور اليونانى على إطلاق سراح الكونت هيو . وتنم نغمة البرت عن أنه كان يمهد لإعطاء سيده دور الزعم الأول للحركة الصليبية الأولى .

أقام جود فرى ورجاله خيامهم خارج أسوار القسطنطينية، وزودهم الإمبراطور بمستلزماتهم من مؤن وخلافه . ولما كان الكسيوس راغباً فى تجنب تجمع الحملات جميعاً حول أسوار القسطنطينية خوفاً من الجشع الصليبي ، فإنه أرسل الكونت هيو إلى خيمة جود فرى ليحاول إقناعه بقبول دعوة الإمبراطور إلى القصر، ولكن الدوق العنيد رفض الدعوة مرة أخرى فى تحد وكبرياء بالغين . وكانت النتيجة أن قلل الإمبراطور من كميات المؤمن المتدفقة من داخل العاصمة إلى معسكرات جود فرى ؛ مما حدى ببلدوين ، شقيق جود فرى ، إلى أن يهجم على المناطق المجاورة للمعسكر الصليبي حيث استولى عنوة على كل ما وجده فيها (١٣١). وهنا اضطر الكسيوس إلى إرسال المؤن كسابق العهد ، وقبل جود فرى أن ينقل معسكره إلى بيرا (١٣٧) .

وأغلب الظن أن جودفرى كان مصراً على البقاء عند العاصمة حتى وصول بوهمند قائد الحملة النورماندية العدو التقليدى لبيزنطة اليتمكنا سويبًا من إدخال الرعب فى قلب الإمبراطور والحصول منه على مطالبهم تحت التهديد . ولكن الكسيوس كان داهية عصره: فإنه أرسل كتا ثبه اتراقب الطريق الممتد من إرتبرا حتى فيليا ؛ بغية قطع سبل الاتصال بين جودفرى وبوهمند القادم هو وفرسانه من جنوب إيطاليا . وفى نفس الوقت أحاطت فرق بيزنطية أخرى بعسكرات جودفرى من بعد كاف (١٣٣) .

Ibid., p. 306. (171)

Ibid. (1YY)

Ibid. (177)

ظل جودفرى على عناده طيلة فصل الشتاء رافضاً كل دعوة يوجهها إليه الإمبراطور لمقابلته. وفي مارس ١٠٩٧ علم الكسيوس بأن بوهمند في طريقه إلى العاصمة ، ولهذا فتح باب المفاوضات من جديد مع جودفرى ، غير أن الأخير أعلن أنه لن يتفاوض مع بيزنطة إلى أن يصل زميله بوهمند (١٣٤). ولهذا قرر الكسيوس أن يتخذ موقفاً حاسما تجاه هذا الدوق العنيد ؛ فأرسل بعثة منتقاة من خيرة رجاله للترحيب ببوهمند وإظهار دلائل المودة والعطف نحوه وضباطه ، وفي نفس الوقت قطع المؤن عن معسكر جودفرى (١٣٥).

يقول المؤرخ اللاتيني البرت من اكس أن البيزنطيين تحرشوا ببني جلدته أثناء عودتهم من السوق ؛ بينها تؤكد آنا كومنينا أن جودفرى كان قد توهم أن الإمبراطور قد احتجز سفراءه داخل القصر ولهذا هاجم العاصمة . والواقع أن صداما حدث بين الفريقين ، وهجم الصليبيون على أسوار المدينة وأشعلوا النيران في بوابات قصر بلا شرناى واضطر البيزنظيون إلى التقهقر . ومع أن البرت يتحدث عن نصر لاتيني مظفر ، يؤيده في هذا كاتب « أعمال الفرنجة » المجهول ، ورغم إفاضة آنا كومنينا في وصف انتصار قوات والدها على الصليبيين ، إلا أن واقع الأمور يؤكد أن الصدام بين الطرفين لم يكن بالعنف الذي صوره هؤلاء الكتاب الثلاثة (١٣٦)

بعد وقوع تلك المناوشات ، أرسل الكسيوس كرنت فرماندوا لمحاولة استمالة جود فرى القبول المفاوضات ، ولكن الأخير رفض الدعوة فى عناد ووجه التوبيخ إلى الكونت الفرنسي على موقفه . وهنا أدرك الكسيوس أن دوق اللورين كان يضمر شرًّا للعاصمة ، فقرر إخضاعه بقوة السيف . وبالفعل نشبت معركة بين الطرفين ، وهزم فها جود فرى هزيمة كاملة .

وكان من نتيجة هذا الانتصار أن اضطر دوق اللورين إلى أداء يمين

Ibid. (ITI)

Alexiad, X, ix, 1-11 pp. 220-26.

Respectively: Albert, p. 308; Anonymous, pp. 14 - 18; cf. Alexiad, x, (177) ix, 10 - 11, p.p. 225 - 6.

الولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطى ؛ ثم نصحه الكسيوس بأن يعبر هو وجنوده البسفور إلى آسيا الصغرى (١٣٧٠).

غير أن الكسيوس كان دبلوماسياً عاقلا ، فلكى يزيل المرارة من نفس الدوق اللوريني أقام له مأدبة فاخرة وأجلسه إلى جماره على المائدة وقدم له هدايا ثمينة القيمة . وفي مقابل هذه الحفاوة الإمبراطورية تعهد جودفرى بأن يعيد للإمبراطورية البيزنطية كافة الأراضي التي كانت في حوزتها قبل الغزو التركى للإمبراطورية ذلك استقر جودفرى وجنده في معسكراتهم الجديدة في آسيا الصغرى عند بلكانم (١٣٨)

هذا ويظهر جودفرى دىبويون فىأساطير غرب أوربا اللاتينية المتأخرة على أنه « الفارس المسيحى الأمثل » ، البطل الذى لا ند له فى « ملحمة » الصايبيات . غير أن الدراسة الواعية للتاريخ تكشف عن خطل هذا الحكم : فجودفرى لم يكن حاكما صالحا فى بويون ، كما أن إدارته لمنطقة اللورين كانت تتصف بالتعنت . ولقد جمع جودفرى الأموال اللازمة لإعداد حملته الصليبية الضخمة عن طريق الابتزاز والتهديد والتشهير ببعض التجار ، وأيضاً بأن أطلق غوغاء الصليبين على بعض الموسرين ثم عرض وساطته لإنقاذهم من أيديهم إن هم دفعوا مبلغا معينا من المال إليه. وكان يلدوين شقيقه رجلا مفلسا ، فانضم إلى حملة أخيه بعد أن قرر المقامرة بطالعه فى الشرق الدافئ بحثاً عن إقطاع دسم ، لأنه لم يكن بعد ألعودة إلى غرب أوربا (١٣٩).

بعد رحيل جودفرى دى بويون إلى آسيا الصغرى بحين ، وصل بوهمند قائد الحملة الصليبية النورماندية إلى مدينة القسطنطينية . بعد وفاة والده روبرت جويسكارد (١٠٨٥) ، وبعد أن اعترف أفصال النورمان بر وجر خلفاً لأبيه على الحكم ، لم يعد هناك مجال يتسع لطموح بوهمند في جنوبي إيطاليا . ولما بدأ التبشير بالصليبية الأولى في غرب أوربا ، تلتى بوهمند أنباءها ببالغ السرور

Alexiad, loc. cit. (177)

Ibid. (17%)

See S. Runeiman, op. cit., p. 147.

والحماس . ولقد كان بوهمند وثيق العلاقة بالبابا أوربان الثانى شخصياً ؛ فنى صيف عام ١٠٨٩ قام البابا بزيارته فى جنوبى إيطاليا وفى أول أغسطس من نفس العام كانأوربان فى مدينة كابوا ووجه إليه بوهمند الدعوة لزيارة عاصمته بارى . ثم عقد البابا مجلساً فى مدينة ملفى فى سبتمبر ١٠٨٩ حيث وفد روجر وبوهمند وأدواق أبوليا وكلابريا (١٤٠٠). وهناك وجه بوهمند الدعوة مرة أخرى للبابا لزيارة مدينة بارى وللإشراف على نقل رفات القديس نقولا إلى ضريح لائق بمقامه ، وكذا لسنم رئيس أساقفتها الياس . ولقد قبل البابا الدعوة وأقام فى بارى حتى السابع من أكتوبر ١٠٨٩ (١٤١١). ويرجح أن بوهمند كان فى رفقة البابا فى زيارته لكل من ترانى وبرنديزى (١٤٢١).

وفى أغسطس ١٠٩٠ سافر بوهمند إلى تارانتو حيث أنفذ وصية والده بمنح بعض المخصصات لدير مونت كاسينو . وفى ٢٠ نوفمبر ١٠٩٢ كان بوهمند وتابعه وليم كونت أبوليا فى خدمة البابا عند زيارته لمدينة آنجلونا ؛ وفى ٢٤ نوفمبر كان البابا فى مدينة تارانتو ، تلبية لدعوة بوهمند (١٤٣٠) . وفى أغسطس ١٠٩٣ كان بوهمند فى رفقة البابا أروبان فى مونت كاسينو حيث طلب منه أن يكرس دير القديس بانزى (١٤٤٠) .

كان التبشير بالحملة الصليبية الأول الفرصة الذهبية لبوهمند ، التي عقد عليها آمالا عراضاً في المغامرة والغنم . ولقد كتب في هذا المجال وليم من مالمزبرى أن الصليبية الأولى كانت من فعل بوهمند ، وبأنه كان يقصد من وراءها تحقيق أطماعه في الإمبراطورية البيزنطية (١٤٥) . وتقص علينا آنا كومنينا أن بوهمند قد شارك في الحملة الصليبية من أجل مواصلة عدوان

Mansi, Vol. XX, cols. 721 - 28

P. Jaffè, Regesta, 5413

() ξ)

Ibid.

() ξ)

Mansi, Vol. XX, col. 684.

() ξ γ)

Ibid., cols. 643 - 44.

() ξ ξ)

William of Malmesbury, op. cit., p. 390 — This statement was taken for () to). granted by Sir Francis Palgrave (The History of Normandy and England, London, 1851-64, IV, pp. 509-14, 521-22) who claimed that the Greek envoys at Piacenza were disguised agents of Bohemond, that Bohemond was the Forger of the so-called "Epistula Spuria" of Alexius, and that Peter the Hermit was his tool.

والده ضد الإمبراطورية البيزنطية (١٤٦).

وطبقاً لرواية الكاتب المجهول « لأعمال الفرنجة » = فإن بوهمند علم بالصليبية فقط أثناء حصاره لمدينة ملنى (يوليو – أغسطس ١٠٩٦) ، حيث شاهد جموعا من الناس يحملون شارة الصليب ميميين شطر بيت المقدس ، فقرر على الفور قيادة حملة إلى الشرق (١٤٧) . وقد تبع بوهمند فى حملته خيرة ضباطه وأفصاله ؛ ومن بينهم تأنكرد ابن أخيه ؛ الأخوان ريتشارد وراينولف ابنا عم بوهمند ؛ روبرت كونستبل بوهمند ؛ بطرس أسقف آناجنى وغيرهم كثيرون من علمانيين وكنسيين (١٤٨) . ويؤكد المؤرخ المعاصر مالاترا أن الذين حملوا شارة الصليب مع بوهمند كانوا من خيرة الشباب « الذين كانوا يتظلعون إلى مغامرات عنيفة وجديدة ، كما هو طبيعى لمن هم مثلهم فى مقتبل العمر » (١٤٩) .

ويقدر البرت من إكس عدد جيش بوهمند بعشرة آلاف من الفرسان ، إلى جانب أعداد وافرة من المشاة، (۱۵۰۱). أما آنا كومنينا فقد أعطت رقمين غنتلفين عن حجم جيش بوهمند ، مما يقلل من قيمة دليلها في هذه المسألة الحسابية (۱۵۱۱). على أن المركز المرموق الذي تمتع به بوهمند بين أقرانه قواد الحملات الصليبية الآخرى ، مع أن هذا يرجع إلى قوة شخصيته وشجاعته التي فاقت كل وصف ، إلا أن هذا قد يدلل أيضاً على أنه كان على رأس قوة عددية يخشى بأسها.

عبر بوهمند ورجاله بحر الأدرياتيك فى صيف ١٠٩٦ (١٥٢). ورسى الأسطول النورماندى فى آڤلونا حيث وجد الجند مؤنا وفيرة فى انتظارهم. وقد كان بوهمند داهية من الطراز الأول ؛ فلكى يكسب حسن ظن الإمبراطور الكسيوس وبغية تبديد مخاوف السلطات البيزنطة من شخصه ونواياه أمر رجاله

Alexiad, X, xi, 7, pp. 233 - 34.	(131)
Anonymous, pp. 18 = 20.	(144)
Rodulp of Caen, p. 606.	(124)
Malaterra, op. cit., p. 599.	(149)
Albert, p. 312	(10.)
Alexiad, X, viii, 1, p. 215; cf., x, xi, 1, p. 230.	(101)
Ibid., X, viii, 2, p. 216.	(101)

آلا يوقعوا ضيراً بالأراضى الإمبراطورية « إذ أنها ملك لإخوان مسيحيين » (١٥٣). وزحف جند بوهمند من آ فلونا إلى كاستوريا ، حيث أمضوا عيد الميلاد ؛ ومنها يمموا شطر بيلاجونيا . غير أنهم في طريقهم هجموا على قرية تسكنها غالبية من المانويين ونهبوها (١٥٤) . وهنا تلخلت كتائب البشنق والترك الذين كانوا في خدمة الكسيوس وهاجموا النورمان على ضفاف نهر الفاردار . غير أن تانكرد تصدى لهم وهزمهم وأسر منهم عدداً كبيراً ؛ ولكن بوهمند أمره بأن يطلق سراحهم (١٥٥) .

وكان سكان المناطق البيزنطية التي عبرها النورمان في هلع زائد منهم ولم يصدقوا ما قيل لهم بأنهم «حجاج» (صليبيون)، وإنما ظنوا أنهم قد قدموا لتحطيم كيانهم وكيان إمبراطوريتهم مثلما فعل من قبل روبرت جويسكارد في عام ١٠٨١ (١٥٦).

جاء سفراء الكسيوس للترحيب بمقدم بوهمند ولتسهيل مهمة تزويد رجاله وخيولهم بما يلزمهم من مؤن . غير أن تانكرد لم يكن مرتاحاً لسياسة المودة المدعاة التي تظاهر بها عمه بوهمند أمام سفراء الإمبراطور . وكان يوهمند في واقع الأمر غاية في الدهاء والدبلوماسية ، فقد أضمر لنفسه مخططاً لم يطلع عليه أحداً ، وأخذ يتودد لألكسيوس كومنينوس وسفراءه . ولكن ابن أخيه تانكرد — يؤيده جمهور الفرسان النورمان — كان يفكر جاداً مند البداية في سلب ونهب كافة المدن البيزنطية التي تصادفه في طريقه ولكن بوهمند تدخل ومنعه من إنفاذ خطته (١٥٧) .

وعند مدينة روزا ترك بوهمند قيادة الحملة لتانكرد وأسرع إلى القسطنطينية ليقابل الإمبراطور الكسيوس . وما أن برح بوهمند المدينة حتى هجم تانكرد

Anonymous, pp. 20 - 22.	(104)
Ibid., p. 22.	`. *
Ibid.	(101)
	(100)
Ibid., p. 28.	(107)
Ibid., pp. 24 - 26.	(104)
	(\ 0 V).

ورجاله على البقاع المجاورة لها ينهبونها ويخربونها (١٥٨) .

رحب الإمبراطور الكسيوس كومنينوس بضيفه المرموق في حرارة وحفاوة . ورغم هذا فإن المطالع لروايات آنا كومنينا _ وهي شاهدة عيان _ يخلص بأن القائد النورماندي كان شديد الريبة في نوايا الإمبراطور تجاه شخصه : فعندما أرسل الكسيوس كمية من اللحوم إلى الجناح الذي نزل به بوهمند وطلب الأخير من خدمه أن يأكلوها وفي صباح اليوم التالى راح يستفسر في قلق واضح عن أحوالهم الصحية ١٩٠٩ . و بصفة عامة فإن بوهمند قد نجح في طمأنة بال الإمبراطور البيزنطي وطلب منه أن يحسن الظن به وأن ينسى ذكريات الماضي المريرة عن والده جويسكارد . وكان هذا كافياً لأن ينال بوهمند من الكسيوس هبة ضخمة من المال في مقابل أداء يمين الولاء والطاعة للإمبراطور (١٦٠٠) . وقد طلب بوهمند من الكسيوس أن يسبغ عليه منصب « كبير خدام الإمبراطورية » في أقاليمها الشرقية ؛ غير أن الإمبراطور ، الذي دهش لهذا المطلب ، رد عليه ردًا غامضاً .

أما النص الوارد في كتاب ال Gesta Francorum عن وعد الكسيوس بمنح أنطاكية لبوهمند ، فأغلب الظن أنه مدسوس بيد بوهمند على هذا الكتاب في عام ١١٠٤ عندما ساءت علاقاته مع بيزنطة ، وهو في طريق عودته إلى غرب أوربا ليبشر بصليبية ضد الكسيوس وبيزنطة . ولأهمية هذه الفقرة نورد النص الكامل لهذا الجزء من الكتاب :

Forsitan adhuc nostris majoribus sepe delusi erimus; ad ultimum quid facturi erunt? Dicent quoniam, necessitate compulsi, volentes nolentes humiliaverunt se ad nequissimi imperatoris voluntatem. Fortissimo autem viro Boamundo, quem valde timebat, quia sum sepe cum suo exercitu ejecerat de campo, dixit quoniam, si libenter ei juraet, XV dies eudni

Ibid., p. 28.	(۱ o n)
---------------	----------

Alexiad, X, xi, 4, p. 232. (109)

Ibid., X, xi, 5, pp. 232 - 33. (17.)

terre in extensione ab Antiochia retro daret et viii in latitudine; eique tali modo juravit ut, si ille fideliter teneret illud sacramentum, iste suum nunquam preteriret.

Tam fortes et tem duri milites, cur hoc fecerunt. Propteren igitur quia multi coacti erant necessitate (1711)

إن الفقرة التي تحتما خط هي الجزء المدسوس على النص للأسباب الآتية :

- إن بقية النص تتحدث عن قادة الصليبية جميعاً في صيغة الجمع ؛ بينا تختص الفقرة التي تحتها خط بشخص مفرد هو بوهمند .
- فى حين أن النص الذي فى صيغة الجموع يعدد الأضرار التى ألحقها
 بهم الكسيوس ؛ تنفرد فقرة بوهمند بامتيازات طائلة لشخص بوهمند .
- إنه من المعروف جيداً أن نقاشاً حاداً قد دار بين قادة الصليبية الأولى أثناء حصار مدينة أنطاكية وكذلك بعد الاستيلاء عليها . والغريب في الأمر أن كاتب اله Gesta لم يشر إطلاقاً إلى تلك المنحة « المزعومة » (أنطاكية) من الكسيوس إلى بوهمند .
- ولعل الحقيقة الأشد غرابة أن اله Gesia هي المصدر الرحيد الذي نعلم منه تفصيلا عن السفارة التي أوفد فيها هيو العظيم وبلدوين من هينولت إلى الكسيوس كومنينوس « للحضور لتسلم مدينة أنطاكية » من القادة الصليبيين (١٦٢) . وكان بوهمند ذاته من بين أعضاء المجلس ، ومن الواضح أنه قد وافق على إرسال هذه السفارة إلى الكسيوس . فإن كان صحيحاً ماتزعمه تلك الفقرة عن منحة الكسيرس له لم يكن من الممكن أن يوافق على إرسال هذه السفارة بتلك الرسالة للإمبراطور البيزنطي .

هذا وهناك صمت تام ، في صدد حديث ال Gesta عن هذه السفارة ، عن هبة الكسيوس لبوهمند - أنطاكية - مما يجعل هذه الفقرة غير

Anonymous, pp. 28 - 30. (171)

Anonymous, p. 160.

متوافقة مع واقع الأمر ، لأنه هنا كانت المناسبة الحتمية لذكر أمر هذه المنحة إن كان صحيحاً أنه كانت هناك منحة على الإطلاق .

• إن بوهمند لم يجرؤ فى أى من المناسبات ، حتى وقت أن وبخه أقرائه لهجومه على البيزنطيين فى اللاذقية ، أن يذكر صراحة أن الإمبراطور كان قد وعده بمدينة أنطاكية .

• إن الأمر قد يزداد وضوحاً إذا ما أشرنا إلى ال Hierosolymita التى كتبها اكبهارد من أورا . وطبقاً لبرهان المؤرخ هاجيناير – الذى أصبح مقبولا لدى الجميع – فإن ال Libellus الذى أطلع عليه اكبهارد فى مدينة أورشليم فى عام ١١٠٢ والذى اتخذه مرجعاً للمعلومات التى أوردها فى مؤلفه عن الصليبية الأولى هو ال Gesta Francorum (١١٣٠). وقد كتب اكبهارد عن نتائج المفاوضات التى دارت بين القادة اللاتين وبين الكسيوس ، ولكنه لم يذكر شيئاً عن تلك المنحة « السرية » من الإمبراطور لبوهمند . وترد عبارته فى هذا الصدد واضحة بمؤدى أن قادة الصليبية تعهدوا بإعادة الأراضى عبارته فى هذا الصدد واضحة بمؤدى أن قادة الصليبية تعهدوا بإعادة الأراضى

كان الجيش التالى القادم من أوربا بقيادة الكونت رايموند من سان جيل والقاصد البابوى الأسقف ادهيار . عبر هذا الجيش البروفنسالى دلماشيا فى مشقة زائدة بسبب وعورة المنطقة الطبيعية . وفى مدينة دورازو تلتى الكونت رسائل من الكسيوس ترحب بمقدمه وتفيض فى الحديث عن المودة (١٦٥) . غير أن جيش رايموند هاجم مدينة روزا وقام بنهبها دون مبرر واضح .

Ekkehard of Aura, Chronicon Universale, in M.G.M.SS., Vol. VI, p. 216. (174)
Raymond of Aguilers, p. 236. (170)

وعند مدينة رودستو تلتى الكونت رسالة من الإمبراطور يحثه فيها بالإسراع إلى القسطنطينية حيث كان بقية أقرانه من القادة الصليبيين فى انتظار وصوله لإبرام معاهدة مع بيزنطة ؛ ولهذا فقد ترك الكونت جيشه وأسرع إلى العاصمة حيث وصل فى ٢١ أبريل ١٠٩٧.

وأثناء وجود رايموند في القسطنطينية جاءته أنباء بأن الكتائب البيزنطية قد هاجمت جيشه عند مدينة رودستو وهزمته هزيمة ساحقة (١٦٦). ولعل هذا يفسر المرارة التي أبداها رايموند أول الأمر في علاقاته مع الكسيوس كومنينوس ؛ إذ أنه رفض في إصرار شديد أداء يمين الولاء والطاعة له مثلما فعل بقية أقرانه . ولما احتدم النقاش بين الكسيوس ورايموند ، استغل بوهمند الموقف وتدخل في النزاع وأعلن جهاراً أنه إن اصطدم رايموند بالإمبراطور ، فإنه شخصياً سوف يدافع عن « شرف وحياة الإمبراطور » (١٦٧) وفي النهاية وافتي رايموند أن يتعهد بالقسم على المحافظة على حياة وشرف الكسيوس (١٦٨).

أما عن تانكرد ، ابن أخ بوهمند ، فقد رفض أداء اليمين وانسل سراً هو و بعض فرسانه إلى آسيا الصغرى (١٢٩) .

وفى أوائل مايو ١٠٩٧ وصلت إلى القسطنطينية جيوش ستيفن من بلوا ، وروبرت من نورماندى ، وروبرت الثانى من فلاندرز ، ووافق هؤلاء القادة دون نزاع ، على أداء يمين الولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطى . ومن أجل هذا فقد بالغ الكسيوس فى إكرامهم وإسباغ شتى النعم والهدايا عليهم جميعاً .

وبعد مفاوضات طويلة أبرمت معاهدة بين قادة الحملة الصليبية الأولى وبين الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنينوس : وعد الإمبراطور أن يحمل

Ibid., pp. 237 - 38.		(177)
Anonymous, pp. 30 - 32.		(177)
Ibid.		(144)
Ibid., pp. 32 - 34.		(179)

الصليب ويقود اللاتين عبر آسيا الصغرى ، وأن يؤمن لهم مسالك عبورهم في الأراضى الإمبراطورية ، وأن يزودهم بفرقة من فرسانه لمساعدتهم ضد الأتراك . وفي مقابل هذا وعد الصليبيون أن يردوا للإمبراطور ، أو من يمثله ، الأراضى التي يستولون عليها والتي كانت ضمن ممتلكات بيزنطة قبل الغزو التركي . وقد أبرمت هذه المعاهدة الهامة في مايو ١٠٩٧ ؛ وتعرف ععاهدة القسطنطينية (١٧٩٠) .

هذا وتفيض ألكسياد (ملحمة آنا كومنينا في سيرة والدها العظيم الكسيوس كومنينوس) بأغرب القصص الحقيقي عن غلظة وسوء مسلك الصليبيين أثناء إقامتهم ضيوفاً في العاصمة البيزنطية . فلم يكف اللاتين عن الإلحاح – في جشع – طلباً للذهب والفضة من الإمبراطور . ولقد تزاحموا على القصور الإمبراطورية في غير كياسة وكانوا يروحون ويجيثون في ردهات القصور وأجنحها وقاعاتها الفاخرة في غير لياقة . ورغم هذا فقد قابل الكسيوس هذا السلوك « المتبربر » بابتسامته المعهودة ، ولم يشتط غضباً حتى حينا جلس أحد الفرسان الحمقي على العرش الإمبراطوري خاته متخذاً منه أريكة (١٧١) .

ولقد عبر عن فظاظة الصليبيين في أحسن أسلوب السير ستيفن وانسيان فقال :

« إن القسنطينية ، تلك المدينة الرحبة الأنيقة ، بكل ما فيها من ثروة ونشاط للأهلين من تجاو وحوفيين ، ومن نبلاء البلاط في أرديتهم الوسيمة ، ومن سيدات يرتدين فاخر الثياب ويتحلين بما يظهر مفاتنهن إأ؛ ومن ورائهن حاشية من الحصيان والعبيد ، قد أثارت في اللاتين شعوراً بالضيق وإحساساً عميقاً بالدونية ، فإنهم ما كانوا بفاهمين لغة البلاد

Ekkehard of Aura, op. cit., loc. cit. (14.)

Alexiad, X, ix, 5, p. 226; X,x, 6 - 7, pp. 229 - 30. (171)

ولا تقاليدها . وحتى الشعائر الكنسية بدت لهم بعيدة البعد كله عما عهدوه في كنائسهم » (١٧٢) .

ورغم العداء الشديد الذي يبدو في كتابات أصحاب الحوليات الصليبية ضد الإمبراطور الكسيوس كومنينوس وضد اليونانيين جميعاً ، إلا أن قلة ضميلة كان لديها شيء من الإنصاف والعرفان بالمعروف . ومن بين هؤلاء القلائل ستيفن كونت بلوا ، الذي تأثر بالغ التأثر بحاتمية الإمبراطور وشفقته على فقراء الحملة الصليبية ، وقد أتت هذه المعانى في الرسائل التي كان يرسلها ستيفن من معسكر القتال إلى زوجته أديلا . فقد كتب إليها من مدينة نيفيا يقول بأنه « لا يوجد على البسيطة كلها رجل على خلق وحاتمية الكسيوس كومنينوس ، الذي بدل في سخاء لنا جميعاً من أمير إلى فقير » (١٧٣) .

* * *

في ليلة ١٩ يونيو ١٠٩٧ بات واضحاً أن الحامية التركية لمدينة نيقيا لم تعد قادرة على الصمود أمام الحصار الذي ضربه الصليبيون وحليفهم الإمبراطور البيزنطي على المدينة ؛ ولهذا قرروا — بعد مفاوضات سرية — تسليم المدينة للإمبراطور مقابل تأمين الأهلين على أرواحهم . ولقد وافق الكسيوس على طلب الأتراك واحترام الاتفاق الذي أبرمه معهم . غير أن الصليبيين رأوا أن في مسلك الكسيوس خيانة لهم . وواقع الأمر أن الإمبراطور كان رجلا ذكياً ودبلوماسياً ، وكان يعلم أثر أدب معاملة عدو قوى قد انهزم . ولهذا فقد عامل الأسرى الأتراك في رفق بالغ . ولكن الصليبيين جنوا غضباً من موقف الكسيوس الذي فوت عليهم فرصة النهب والسلب وسفك دماء الأهلين ؛ ولهذا نجد الكاتب المجهول « لأعمال الفرنجة » يزعم وسفك دماء الأهلين ؛ ولهذا نجد الكاتب المجهول « لأعمال الفرنجة » يزعم

S. Runciman, op. cit., I, p. 170. (177)

بأن الكسيوس قد أحسن معاملة الأتراك ونجاهم من سيوف الفرنجة ليدخرهم للهجوم على الصليبيين فيما بعد (١٧٤) .

واقد وزع الكسيوس كل الغنائم التى جمعت من نيقيا على الصليبيين: فترك النجند ما غنم من مؤن ، وكان الفرسان أنصبتهم من ذهب وفضة ، وتلقى القادة مبالغ ضخمة من الذهب والهدايا التمينة . وبعدها دعا الإمبراطور قادة الحملة للاجتماع به فى معسكره فى مدينة بلكانم . كان بوهمند أول من لبى الدعوة «بهدف الحصول على المزيد من الذهب » ، كما تعرف ذلك جيداً الأميرة آنا كومنينا (١٧٠) كلاك، عاد بوهمند يتوسل للإمبراطور أن يعهد إليه بمنصب « رئيس خدام المشرق البيزنطى » ؛ ولكن طلبه قوبل بالرفض . أما عن تانكرد فقد رفض أداء يمين الولاء والطاعة للإمبراطور إلا إذا وهب إليه الإمبراطور خيمته مليئة إلى رأسها بالذهب . وعندما انبرى القائد البيزنطى جورج بالايولوغوس يوبخ تانكرد على « وقاحته » ، دار تانكرد على عقبيه لينقض عليه لمصارعته . وهنا وقف الإمبراطور ليفض هذا الصدام ، واضطر بوهمند إلى أن يوبخ ابن أخيه على مسمع من الجميع لسوء مسلكه . وفي نهاية الأمر وافق تانكرد على علم مسمع من الجميع لسوء مسلكه . وفي نهاية الأمر وافق تانكرد على أداء اليمين المطلوب (١٧١)

أما عن ستيفن من بلوا ورايموند من تولوز ، اللذان كانا قد ظلا في مدينة نيقيا لحراسها ، فقد قصدا بدورهما إلى بلكانم حيث قابلا الإمبراطور . ولم يصدق ستيفن عينيه عندما وجد أن نصيبه من الغنائم كان يقرب من من جبل من الذهب (١٧٧) .

Anonymous, p.p. 40 - 42. (174)

Alexiad, XI, iiii, 1, p. 16.

H. Hagenmeyer, p. 139; Alexiad, XI, iii, 1, p. 16.

Ibid. XI, iii, 2, p. 17. Radulph of Caen (pp. 619 - 20) gives the opposite (174) version of the story. F. Chalandon (p. 194) rejects Anna's story; Runciman(p. 182) believes that Tancred paid homage. I follow, here, the evidence of Runciman.

بعد الاستيلاء على نيقيا زحف الصليبيون على دوريلايوم حيث أوقعوا بالأتراك الهزيمة . وفي الطريق إلى أنطاكية بدأت المطامع الشخصية لدى القادة تبدو سافرة . فلقد عبر كل من تانكرد وبلدوين إلى كيليكيا حيث اشتبكا في مدينة طرسوس ، في حين أن الجيش الأساسي للحملة شق طريقه عبر الجبال الأرمينية الوعرة ماراً بقيصرية وماراش . ونجد تفصيلا للصدام الذي وقع بين تانكرد وبلدوين بعد انفصالهما عن أقرائهما في كتاب «أعمال الفرنجة» : عندما احتدم النزاع بين القائدين عرض بلدوين على غريمه أن ينقضا سوياً على طرسوس لاقتسام غنائمها فيا بينهما ولكنهما لم يتفقا (١٧٨) . وبعد هذا النزاع أدرك بلدوين أن كيليكيا لن تكفي لتحقيق أطماعه الخاصة في الشرق ؛ ولهذا اتجهت أنظاره نحو أرمينيا والأرمن . والواقع أن بلدوين كان قد وثق صداقته بأمير أرميني اسمه باجرات الذي كان في خدمة الكسيوس كومنينوس وقت حصار الصليبين باجرات الذي التحق باجرات هذا شقيقاً لكوج قازل أمير رابان وقيسون (١٧٩) للدينة نيقيا . وكان باجرات هذا شقيقاً لكوج قازل أمير رابان وقيسون (١٧٩) الأرمينية .

وكان الأرمن قد طلبوا المعونة من غرب أوربا اللاتيني لحمايتهم من الغزو التركى ؛ كما أن أسقفا أرمينيا كان قد أوفد إلى روما عندما علم الأرمن بمشروع البابا جريجورى السابع لقيادة حملة لحماية الشرق المسيحي (١٨٠٠).

وعلى هذا فإن بلدوين عند انفصاله عن الحملة الصليبية عند مدينة ماراش ، يمم شطر الفرات . ولقد رحبت الأرمن بمقدمه ترحيباً بالغاً ، وتشجع الأهلون فانقضوا على الحاميات التركية في مدمم وقتلوا أفرادها.

Anonymous, p. 58.

Matthew of Edessa, Chronique (ed. E. Dulaurier), Paris, 1858, pp. 201 - 2. (\ \ \ \ \ \)

P. Jaffé, Monumenta Gregoriana, II, pp. 423 - 24.

وفي تلك المرحلة انضم فير ونيكوروس الزعيان الأرمينيان إلى بلدوين . وفي شتاء ١٠٩٧ استولى بلدوين ورجاله على قلعتين هامتين في رافندل وتربسل = فأقطع صديقه باجرات بالأولى وعين فير حاكماً للثانية (١٨١) وأثناء إقامته في تربسل تلتى بلدوين رسالة من ثوروس أمير أذلسا الأرميني يطلب منه المساعدة ضد تهديدات كربوغة أمير الموصل . وكان ثوروس هذا موظفاً في خدمة الإمبراطورية البيزنطية ، كما أنه كان عضوا في الكنيسة البيزنطية . وعلى هذا فإن أذاسا كانت جزءاً من الممتلكات الإمبراطورية في إقليم الفرات . ولقد عرض ثوروس ، الذي كان كهلا غير منجب ، أن يتبنى بلدوين وأن يجعله وريئاً له في إمارة أذاسا (٨٢).

غير أن خطة ثوروس أزعجت الأخوين باجرات وفازل . وجاء فر ليشى بهما لدى سيده بلدوين زاعماً بأنهما على اتصال مريب بالأتراك . ولهذا قبض بلدوين على باجرات وأمر بتعليبه حتى يعترف بذنبه وبمؤامراته . وواقع الأمر أن باجرات لم يكن لديه ما يعترف به لأنه لم يكن على اتصال بالأتراك (١٨٣) . ولذا فقد آثر الهروب من طغيان بلدوين واختبأ في قلب الجبال .

فى العشرين من فبراير ١٠٩٨ دخل بلدوين مدينة أذاسا، حيث قابله ثوروس بالترحاب (١٨٤). وبعدها أقيمت المراسيم الحاصة التي بمؤداها أصبح بلدوين ابناً « متبنى » لثوروس (١٨٥) ويروى متى الأذاسى ، وهو مصدر موثرق بقوله فى هذا الصدد ، كيف أن بلدوين أخذ يتآمر سراً مع أهالى المدينة ضد ثوروس . وترجع كراهية الأهلين لحاكهم إلى أنه كان فى خدمة

Albert of Aix, pp. 350 - 51. (1A1)

Matthew of Edessa, pp. 218-20; Albert of Aix, p. 352; Foucher, p. 210. (IAY)

Matthew of Edessa, p. 221. (IAT)

H. Hagenmeyer, Chronologic, p. 129.

Albert of Aix, pp. 352 - 54. (1A0)

الإمبراطورية البيزنطية الكريهة لدى الأرمن وإلى أنه كان عضواً فى كنيسة القسطنطينية التي كانت على عداء دفين مع كنيسة أرمينيا .

هجم غوغاء أذاسا على سيدهم ، الذى سارع يطلب النجدة من «ابنه» بلدوين . غير أن القائد الصليبي نصح «أباه» بأن يسلم نفسه للشعب . وعندما طلب ثوروس بأن يسمح له وزوجه بأن ينصرفا في سلام إلى ممتلكات حميه في ميلتين ، رفض طلبه . ولما خطط الرجل الكهل للهروب من سجنه سراً قبض عليه ومزق إرباً . وعلى التو نودى بابنه المتبني — بلدوين — لأن يضطلع بحكم أذاسا (١٠٩٠ مارس ١٠٩٨) (١٠٩١) .

لما علم الصليبيون بنجاح بلدوين في الرها ، سارع الكثيرون منهم إلى بلاطه بحثاً عن المغامرة والثروة . وكان من بين الفرسان الذين توافدوا عليه في الإمارة الجديدة دروجو من نيزل ؛ راينولد من تول ؛ وجاستون من بيارن . وقد أكرم بلدوين وفادتهم وعينهم في أعلى مناصب الإمارة . على أن أهالي أرمينيا جزعوا من خطة الأمير الصليبي الذي استبعدهم من الوظائف الهامة ووضع مكانهم أفصاله من اللاتين . ولعل مما زاد في حنقهم ذلك الازدراء الذي كان يحمله ويبديه فرسان الفرنجة للأرمن عامة . ولما استشعر هؤلاء ذلك التعسف الصليبي ثاروا ضد بلدوين ؛ غير أنه قمع ثورتهم في وحشية بالغة (١٨٧) .

كانت سياسة بلدوين الصليبي إذن تحدياً صارحاً وخرقاً للمعاهدة التي كان زعماء الحملة جميعاً قد أبرموها مع الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين ؛ ذلك لأن الرها كانت ضمن ممتلكات بيزبطة قبل الغزو التركى ، فكانت بهذا من حق الإمبراطورية . هذا إلى جانب أن الغدر الذي عامل به بلدوين الأمير ثوروس كان لطمة للعاهل البيزنطى ، فتوروس كان

Matthew of Edessa, p. 221.

 $^{(1 \}lambda 1)$

Ibid., Albert of Aix, pp. 442 - 43.

موظفاً في خدمة الإمبراطور ، كما أنه كان عضواً في الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية .

على أن بلدوين لم يكن بالزعيم الصليبي الوحيد الذي رمى بمعاهدة المرب الحائط ؛ إذ كان مخطط بوهمند تجاه أنطاكية حلقة ثانية في سلسلة الغدر الصليبي بحقوق بيزنطة . ظهر القادة الصليبيون أمام أسوار أنطاكية في ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧ . وكان في رفقتهم البريميكيريوس تانيكيوس ، مندوب الإمبراطورية (١٨٨٠).

كانت أنطاكية ، العاصمة السورية ، الكرسي الأسقني القديم لأمير الرسل بطرس ؛ كما أنها كانت من أمنع القلاع التي وقعت في يد الأتراك . وكان حاكمها ياغي زيان يتوقع هجروماً مباشراً على أسوار مدينته من جانب الصليبيين ؛ غير أن المشاحنة التي وقعت بين بوهمند ورايموند من من سان جيل حالت دون هذا ، ولذلك فقد ضرب الصليبيون معسكراتهم خارج أسوار المدينة . وقرابة عيد الميلاد من نفس العام (١٠٩٧) كانت مؤن الصليبين قد نفذت ، وكانت القرى المجاورة خالية من الطعام ، وسرعان ما حلت المجاعة في المعسكر الصليبي . ويقال إن واحداً من كل سبعة منهم قد هلك جوعاً آنئد . أما ياغي زيان فكان آمناً برجاله وراء أسوار أنطاكية ؛ كما أنه كان قد زود رجاله بمؤن تكفيهم مدة طويلة أشوار أنطاكية ؛ كما أنه كان قد زود رجاله بمؤن تكفيهم مدة طويلة قلوب الجند والقادة ، فبدأ البعض في التسلل سراً والهروب ؛ وكان من تعقيهما وقبض عليهما ثم أعادهما ذليلين إلى المعسكر (١٠٩١) . غير أن تانكرد بين الفارين وليم النجار وبطرس الراهب (يناير ١٠٩٨) . غير أن تانكرد يقتهما وقبض عليهما ثم أعادهما ذليلين إلى المعسكر (١٩٩١) . فير أن تانكرد

Alexiad, XI, iii, 4, p. 18. (\AA)

Kemal ad - Din, Chronicle of Aleppo, in R.H.C.OR., Vol. III, () A4)

p.p. 578 - 79.

عاود يساور أفراد الحملة جميعاً عندما تواترت الأنباء عن قرب وصول جيش كبير إلى أنطاكية بقيادة كربوغة أمير الموصل .

بينا وقع قادة الصليبية فريسة للجزع والقلق ، راح واحد منهم يضع مخططاً لاستخدام هذه المحنة لتحقيق مطامعه الشخصية ؛ وكان هذا الانتهازى الكبير بوهمند ذاته .بعد واقعة ٣١ ديسمبر ١٠٩٧ التى هزم فيها الصليبيون هزيمة ساحقة ، أعلن بوهمند أنه عازم على العودة إلى غرب أوربا بحجة أن الحرب كلفته كل ثروته . على أنه أوضح لزملائه أنه قد يقبل البقاء معهم إذا وعدوه بتسليم أنطاكية إليه في حالة فتحها من يد الترك (١٩١١). وكانت غالبية الزعماء ، باستثناء الكونت رايموند من سان جيل ، على استعداد لإعطاء بوهمند هذا الوعد ؛ على شريطة أن تكون كتائب بوهمند أول الكتائب في دخول المدينة وقت الفتح .

بعد هذا راح بوهمند يعمل فى دهاء لتحقيق هذا الحلم الذى راوده منذ دخل آسيا الصغرى . وكان يدرك أن رايموند من سان جيل سوف يقف فى طريقه ، ولكن هذا الكونت لم يكن يمثل العقبة الكبرى أمام القائد النورماندى . وإنما رأى بوهمند بثاقب نظره أن الخطورة الكبرى التى تتهدد أطماعه كانت تتمثل فى الفرقة البيزنطية المرافقة للحملة وفى زعيمها تاتيكيوس ، ومن هنا راح بوهمند يعمل ما فى جهده لطرد تاتيكيوس من المسرح ليخلو له الجو تماماً لإنفاذ سياسته . وليس من قبيل الصدفة أن نجد السرح ليخلو له الجو تماماً لإنفاذ سياسته . وليس من قبيل الصدفة أن أبد المسات على أنه Inimicus ثم يحده المرحلة من الأحداث على أنه Inimicus ثم يحيمته وأعلمه أن أفراد الحملة جميعاً يرتابون فى نوايا الإمبراطور البيزنطى، خيمته وأعلمه أن أفراد الحملة جميعاً يرتابون فى نوايا الإمبراطور البيزنطى، وأن الأصابع تشير إليه بالحيانة الكبرى لأنه هو الذى حرض كربوغا التركى

Raymond of Aguilers, pp. 245 - 46.

⁽¹⁹¹⁾

Anonymous, pp. 78 - 80.

على الزحف على أنطاكية لإبادة أفراد الحملة جميعاً ، وراح برهمند — كما تقول آنا — يوضح للقائد البيزنطى أن الصليبيين قد عقدوا العزم على الانتقام من خيانة الإمبراطور في شخص ممثله ؛ أي تاتيكيوس ذاته . وهنا أدرك تاتيكيوس خطورة الموقف فسارع في انتحال الأعدار واختفى من المعسكر ، بعد أن وعد بالعودة محملا بالمؤن اللازمة (فبراير ١٠٩٨) (١٩٣٠).

هذه القصة التى ترويها آنا كومنينا تبدو متساوقة مع سير الأحداث ، ولهذا فهى مقبولة تاريخياً ، وليس هناك من أسباب تدعوا إلى رفضها مه وهنالك ما يؤيد هذه الرواية فيا كتبه رايموند آجوى فى حوليته ؛ فهو يروى كيف أن تاتيكيوس اقترح على قادة الصليبية تشديد قبضة الحصار على مدينة أنطاكية غير أن اقتراحه قد رفض . كما يضيف قائلا بأن تاتيكيوس كان قبل أن يهرب من المعسكر الصليبي قد تخلى عن مدائن مامسترا وطرسوس وأدنة إلى بوهمند (١٩٤١) .

ومع أن ما يقوله رايموند عن تخلى القائد البيزنطى لبوه مند عن هذه المدائن أمر مستبعد ، إلا أن الحقيقة الثابتة هي أن بوهمند كان قلد استدعى تاتيكيوس الحاجماع في خيمته، وبعدها قرر تاتيكيوس الفرار (١٩٥٠).

وصلت الأنباء قرابة نهاية عام ١٠٩٨ بأن كربوغا قد رفع حصاره عن. مدينة الرها ، وبأنه في طريقه إلى أنطاكية . وكانت هذه الأنباء كافية لأن تثير الذعر في قلوب الصليبيين ، وفي الثاني من يونيو هرب القائد الشهير ستيفن من بلوا من المعسكر(١٩٦) وفي تلك الأثناء كان بوهمند قد وثق علاقات

Alexiad, XI, iv. 3, pp. 20 - 21.

Raymond of Aguilers, pp. 254 - 56. (19 8)

The "Gesta Francorum" (pp.78 - 80) pretends that Taticius had fled (14 o) from cowardice, pretending to arrange for better provisioning of the army. But this story is not convincing, as Taticius lest most of his staff behind with the army.

الصداقة مع ضابط أرميني اسمه فيروز ، الذي كان في خدمة ياغي زيان حاكم أنطاكية . وكان فيروز هذا حاقداً على سيده التركي • ويقال إنه قد استشاط غضباً عندما اكتشف أن أحد الضباط الترك قد اعتدى على عفة زوجته . وعليه فقد عرض فيروز على بوهمند أن يفتح له البرج المعروف ببرج الأختين الذي كان تحت حراسته وذلك الجزء من سور المدينة الذي كان تانكرد. يعسكر أمامه .

كان بوهمند بهذا واثقاً من فتح المدينة ، ولكنه راح يعلن لزملائه اللاتين أن الأمور قد ازدادت سوءاً . وكان هدفه من وراء هذه السياسة الماكرة أن يجعل فتح المدينة على يديه حما اتفق سراً مع فيروز - نصراً مؤزراً يقرن باسمه هو فحسب . ولذلك عندما أوماً بأنه قد يتمكن من غزو المدينة ، سارع أقرائه يعدونه بمنحه حكمها ، وذلك إذا فشل الكسيوس. كومنين في تحقيق وعده بالحجىء بجيشه لمساعدة الصليبية ضد الأتراك (١٩٧٠).

على أنه بعد رحيل تاتيكيوس ، نتيجة للحيل التى اتبعها بوهمند تجاهه ، لم يعد ممكناً أن يثق الإمبراطور الكسيوس كومنين بالقادة الصليبين أبعد من هذا . ذلك لأن الإمبراطور كان قد فقد الأمل فى نوايا الصليبيين ، وكانت شكوكه فيهم وفى مقاصدهم على حق . ولم تكن مأساة الرها بكافية لتقديم البرهان على غدر الصليبيين بوعودهم لبيزنطة ، وإنما جاءت أحداث أنطاكية لتؤكد سوء النية والجشع لدى الصليبيين ، وعلى رأسهم فريق النورمان بزعامة بوهمند وتانكرد .

كانت خيانة الضابط الأرميني فيروز خير سهم في يد بوهمند . فلقد. سقطت أنطاكية بفعل هذه الخيانة في يد الصليبيين في ٣ يونيو ١٠٩٨ (١٩٨٠). ولم يفقد بوهمند لحظة من الوقت ، فسارع يرفع رايته على أعلى أبراج. أنطاكية (١٩٩١) .

Ibid., pp. 100 - 102.

H. Hagenmeyer, Chronologie, pp. 149 - 50.

Anonymous, p. 108. (۱۹۹)

بعد سقوط أنطاكية في أيدى الصليبيين بثلاثة أيام وصل كربوغا على رأس جيشه وبدأ في حصار المدينة . وشن أمير الموصل هجوماً على المدينة ولكنه رد متكبداً خسائر فادحة . وعلى هذا فقد تقرر تشديد قبضة الحصار على أسوار المدينة مدة طويلة إلى أن تحل المجاعة بالصليبيين ، وعندها يقوم بمهاجمتهم . ولقد كانت هذه الحطة آية في العبقرية والدهاء . فسرعان ما نفدت المؤن عند الصليبيين داخل المدينة وحات مجاعة قاسية بهم ، هلك يسبها الكثيرون . وهنا هرب الكثيرون سراً من المعسكر ، وكان من بينهم وليم ، وأوبرى من جرانت مانسل ، ولامبرت كونت كليرمونت (١ ١يونيو) (٢٠٠٠). لن يتأتى إلا إذا زحف الإمبراطور الكسيوس كومنين بجيوشه ليهاجم أمير الموصل الذي كان قد أنقل عليهم في محنتهم بهذ الحصار العنيد الطويل .

على أن الكسيوس فى تلك الأثناء لم يكن خاملا ؛ فمند أن سقطت نيقيا فى يده ، بمعاونة الصليبيين ، راح يعد العدة لتأديب خصمه الأكبر زاخاس أمير سميرنا السلجوق . ولهذا سير حملة بقيادة يوحنا دوكاس ، يعضدها أسطول تحت إمرة كاسباس ، لمهاجمة هذا الأمير . ولقد أرسل ، الإمبراطور فى رفقة القائد دوكاس زوجة الأمير قلج أرسلان والتي كانت ابنة ، لزاخاس ، التي وقعت أسيرة يوم سقوط نيقيا ، لردها إلى والدها ولتسميل مهمة الحملة البيزنطية (٢٠١) .

وعند وصرل الكتائب الإمبراطورية إلى سميرنا ، سارع زاخاس يطاب الأمان له ولذويه مقابل تسليم المدينة لدوكاس . وقبلت هذه الشروط ، وعين كاسباس حاكماً على سميرنا ؛ غير أن أحد مواطني سوريا هجم على الحاكم البيزنطي واغتاله (٢٠٢) . ترك دوكاس أسطوله ليحمي سميرنا ، ثم تقدم

Ibid., p. 126. (Y··)

Arexiad, Xl, v. 2, p. 24. (7.1)

1bid., XI, v, 4, p. 25. (7.7)

لمهاجمة افيسوس ؛ التي استولى عليها من حاكمها تنجريبرن . وفي هذه الواقعة قبض دوكاس على عديد من الأسرى ، ثم قام بترحيلهم ، وفق أوامر الإمبراطور ، إلى منطقة الجزر (٢٠٣٠) . ولقد شجعت هذه الانتصارات المتلاحقة دوكاس على أن يتقدم إلى وادى نهر المياندر ، حيث شن هجوماً على كل من فيلادلفيا ولامبيا وبوليبوتوس (٢٠٤) .

وقد تمت هذه العمليات العسكرية في ربيع ١٠٩٨ ، وكان القصد منها تمهيد الطريق لحملة ضخمة يقودها الإمبراطور ذاته بغية مساعدة الصلبيين في سوريا . وبالفعل في بداية يونيو ١٠٩٨ قاد الكسيوس حملته ميمماً شطر أنطاكية لمؤازرة الصليبيين ضد الأتراك . وعند مدينة فيلومليوم التقى الإمبراطور بكل من ستيفن من بلوا (فر من المعسكر الصليبي في ٢ يونيو) ووليم من جرانت مانسل (هرب في ١١ يونيو) (٢٠٠٠) . ولكى يبرر هدان الفاران فعلنهما ، وتغطية لعار الجبن ، أعطيا الإمبراطور صورة قاتمة عدان الفاران فعلنهما ، وتغطية لعار الجبن ، أعطيا الإمبراطور صورة قاتمة هدان الفاران فعلنهما ، وتغطية نهارحا يؤكدان أن الصليبيين لا بد وأنهم قد هلكوا جميعاً بسيوف كربوغا أمير الموصل ورجاله (٢٠٠٠) . ثم انبرى وليم يحدث الإمبراطور بأن بوهمند كان قد أقسم علانية بأنه سوف يدق عنق يحدث الإمبراطور إن اجترأ على الاقتراب من أنطاكية (٢٠٠٠) .

هنا توقف الكسيوس ليتدبر الأمر مليبًا . لم يكن هنالك من الأسباب ما يجعله يكذب روايات ستيفن ووليم . وبناء على ذلك فإن أنطاكية لا بلد وأنها قد وقعت فى قبضة كربوغا ، وهذا كان كفيلا بأن يشحذ هم سلاجقة قونية ليهبوا من جديد للانتقام من إذلال نيقيا فى شخص الإمبراطه روتخومه فى آسيا الصغرى . ولما كانت الأولويات فى نظر العاهل البيزنطى تتطلب

```
      Ibid., XI, v, p. 26.
      (\(\gamma\cdot\gamma\))

      Ibid., XI, v, 6, pp. 26 - 27.
      (\(\gamma\cdot\gamma\))

      Anonymous, p. 140; Alexiad, XI, vi, 1, p. 27.
      (\(\gamma\cdot\gamma\))

      Anonymous, pp. 140 - 46.
      (\(\gamma\cdot\gamma\))

      Bibliothèque de l'Escurial, DIII, II; L. Brehier, op. cit., n. 9, p. 149.
      (\(\gamma\cdot\gamma\))
```

منه المحافظة على سلامة وأمن دولته ، فإنه رأى فى مواصلة الزحف شطر أنطاكية ضرباً من الحمق بل الجنون السياسي . ولهذا فقد آثر التقهقر بقواته إلى عاصمته . وأثناء تقهقره أمر بتخريب المسالك لكى يعطل على الأتراك استخدامها فى هجومهم المرتقب ضد الأراضى البيزنطية .

كل هذا ورجال الصليبية الأولى كانوا من وراء أسور أنطاكية يمنون أنفسهم بأمل وصول الامبراطور بقواته الجرارة لفك حصار كربوغا الذى كان قد أماتهم جوعا وإعياء . ولهذا عندما نما إلى سمعهم خبر تقهقر الإمبراطور واحتجامه عن التقدم لإنقاذهم من محتهم الكبرى ، نظروا إليه على أنه الخائن الأكبر لقضيتهم المصيرية . كما رأوا في هذه السياسة خرقاً لاتفاق القسطنطينية المبرم في عام ١٠٩٧ بينه وبينهم . وبطبيعة الحال لم يدر بخلد زعماء الصليبية أن الحرص الأول والأخير لدى الإمبراطور هو الحفاظ على رعاياه وعاصمته قبل كل شيء . وكانت هذه الفرصة اللهبية لبوهمند والعناصر المعادية للبيزنطيين في الحملة ؛ فراحوا ينددون بالكسيوس وخيانته وجبنه ، كما نعتوا ببيزنطة بكل ما هو قميء ورذيل .

على أن الأمور فى أنطاكية سارت على خلاف ما توهم ستيفن ورفيقه وليم . فقد دافع بوهمند دفاع الأبطال عن المدينة ؛ وسرعان ما دب الحلاف بين كربوغا وضباطه مما فت فى عضد حملته . ولعل أهم من هذا وذاك أن أحد الرهبان من پروڤنسال زعم أنه قد بشر فى رؤية بموضع الحربة المقدسة (التى طعن بها المسيح فى جنبه وقت الصلب) . وبالفعل تم اكتشاف الحربة على مشهد من جميع قادة الحملة والمندوب البابوى . وبعدها أعلن رجال الدين فى الحملة تباشير النصر ، مما شحد الهمم من جديد ودارت رحى الحرب بينهم وبين كربوغا ، وكان أن دحرت قوات أهير الموصل بفعل الدعاية الدينية لهذه الحربة .

باءت حملة كربوغا بالفشل؛ في حين أن نجم بوهمند أخذ في الصعود إلى القمة . على أن بوهمند وجد في شخص الكونت رايموند من سان جيل منافساً عنيداً وخطيراً يبغى تعويق وإحباط مخططاته للانفراد بحكم مدينة أنطاكية . والغريب في الأمر أن رايموند كان الأوحد من قادة الصليبية الذي رفض أداء يمين الولاء والطاعة الألكسيوس كومنين ، كما سبق أن بينا ، غير أنه الآن راح يتبنى قضيةالإمبراطور ويدافع عن حقه في مدينة أنطاكية . ويمكن تفسير هذا الموقف من جانب الكونت بغيرته الشديدة من النجاح الساحق الذي حققه بوهمند في المعارك السابقة ، مما قلل من شأن رايموند كقائد عام للحملة الأولى . ولما احتدم النزاع بين القائدين ، تقرر عقد اجتماع لزعماء الحملة جميعاً لمطارحة موضوع أنطاكية. وهناك وقف رايموند يذكر زملاءه بأن بوهمند هو الذيكان قد ألح عليه في عام ١٠٩٧ بأن يقسم على احترام شرف وحياة الإمبراطور البيزنطي أمامهم، ثم أخذ يوبخ بوهمند في حنوثه بعهده بمحاولته الاستيلاء على أنطاكية، التي هي من حق الإمبراطور البيزنطي . وبعد نقاش طويل اتفق الجميع على إيفاد كل من هيو لى مينيه وبولدوين من مونز إلى القسطنطينية ليطلبا من الإمبراطور الحضور إلى أنطاكية ليتسلمها من القادة الصليبيين ؛ تنفيذاً لما اتفق عليه في معاهدة ١٠٩٧ بينه وبينهم (٢٠٩) . على أن الأتراك هاجموا هذين الرسولين وهم بعد في آسيا الصغرى ؛ واختنى يلدوين في حين أن هيو لاذ بالفرار إلى القسطنطينية ، ومنها سارع للعودة إلى فرنسا .

* * *

وهنا يجب أن نقف قليلا للبحث فى موقف المندوب البابوى – أدهيار – تجاه الكنائس الشرقية . كان أدهيار دبلوماسيًّا رائعاً : فما أن فتح الصليبيون خطرط المواصلات بين سوريا وجزيرة قبرص ، حتى سارع إلى الاتصال بسمعان الثانى ، بطريرك أورشليم الأسبق ، والذى كان قد اعتزل منصبه ولجأ إلى جزيرة قبرص . والمعروف أن سمعان هذا كان قد كتب مقالا يهاجم فيه

(111)

(YIY)

الطقوس اللاتينية للكنيسة الرومانية ؛ غير أن حصافة أدهيار كانت كفيلة بأن تكسب ود سمعان وعطفه على الصليبية الأولى . ولذا نجد أنه في أكتوبر ١٠٩٧ اشترك سمعان مع أدهيار في كتابة رسالة إلى مواطني شهال أوروبا يعلنان فيها انتصار الصليبية في نيقيا ، ويحنان « المؤمنين » على حمل علامة الصليب والمسارعة لمساعدة إخوانهم في الحملة الأولى ضد الأتراك (٢١٠). ولما نفدت المؤن من المعسكر الصليبي ، أرسل سمعان كميات ضخمة من الطعام والأنبذة من خيرات قبرص إليهم (٢١٠).

وفى يناير ١٠٩٨ أرسل سمعان باسمه وباسم رجال الدين البيزنطيين والأساقفة اللاتين المرافقين للصليبية الأولى إلى البابوية ، يعلنون فيها انتصار الحملة على الأتراك فى موقعتين صغيرتين ، ويحثون الكنيسة الغربية على بلل قصارى الجهد لإنجاح الحملة . والمدهش فى هذه الرسالة أن سمعان يخاطب «مؤمنى غرب أوربا » بصفته « زعيم الإكليروس الشرقيين والغربيين أيضاً »؛ كما أنه يلقب نفسه « بالأسقف الرسولى » ؛ وأهم من هذا وذاك أنه يهدد بإنزال لعنة الحرمان على أى غربى يحنث فى وعده بحمل شارة الصليب (٢١٢).

وعندما استولى الصليبيون على مدينة انطاكية ، اتخذ الأسقف أدهيار الخطوات اللازمة لإعادة فتح الكنائس التي كان الأتراك قد عبثوا بها . ثم حرر البطريرك يوحنا من سجنه الذي وضعه فيه ياغي زيان . والحق أن يوحنا هذا كان قد قاسى الأهوال وقت حصار الصليبين لأنطاكية ، إذ أمر ياغي زيان بوضعه في قفص وتعليقه على أسوار المدينة على مرأى من الصليبيين .

على أن يوحنا الأنطاكى كان كارها للكنيسة الرومانية ، وكان يعيب عليها طقوسها وتحريفها لقانون الإيمان النيتى . ورغم هذا فإنه كان لا يزال معترفاً بأسقف روما . وما من شك فى أن أدهيار قد صادف صعوبات عند إعادة

H. Hagenmeyer, Chronologie, p. 106.

Albert of Aix, p. 489.

H. Hagenmeyer, op. cit., pp. 120 - 21.

يوحنا إلى منصبه فى أنطاكية . ولكن بوهمند والحزب المعادى لبيزنطة امتعضوا من سياسة أدهيار هذه ؛ إذ رأوا فى وجود يوحنا بأنطاكية عقبة كؤرداً أمام مخططهم للاستيلاء على المدينة كلية من يد البيزنطيين(٢١٣).

ترفی أدهیار فی أول أغسطس ۱۰۹۸ ، ودفن فی أنطاكیة ۲۱۰ . ولقد بكاه الصلیبیون بكاء مراً . غیر أن واحداً بعینه شعر بارتیاح شدید لوفاة القاصد الرسولی و وكان هذا بطرس بارتیلیمیو ؛ الذی اكتشف « الحربة المقدسة » . والواقع أن بطرس هذا لم یغفر لأدهیار ما قاله بأن هذه الحربة مزیفة ولیست بالحربة الحقیقیة . ومن المرجح أن المندوب البابوی كان قد شاهد بعینیه الحربة المحقیقیة أثناء مروره بمدینة القسطنظینیة ؛ ومن هنا راح یكذب روایات بارتیایمیو .

ومهما كانت الأحوال ، فإن بارتيليميو الآن غدا يبشر بأن الفديس أندراوس يتردد عليه في منامه . وفي هذه المرة بالذات كان أدهيار برفقة أي القديس أندراوس . أعلن أدهيار لبارتيليميو أنه قد أسقط في الجحيم لبضع ساعات بسبب ما سبق أن أبداه من شك في موضوع الحربة المقدسة ؛ ولكن صلوات وتضرعات بوهمند المخلصة قد شفعت له فرفع من جهنم إلى النعيم . وراح أدهيار يوجه رسالة خاصة إلى الكونت رايموند من تولوز بأن «حذار من مضايقة بوهمند ؛ ولتسلم إليه مدينة أنطاكية » . كا أصر القاصد البابرى على ضرورة تنصيب بطريرك لاتيني لكرسي مدينة أنطاكية بدلا من يرحنا المهنطي و ١٠١٥) .

كان هذا بمثابة إعلان هام عن إرادة الله. وعلى هذا أصبح لبوهمند حق امتلاك أنطاكية بوحى من السهاء ؛ وباتت نغمة الصليبيين تنعت بيزنطة وكنيستها ، وكذا سائر الطوائف المسيحية الشرقية بالهرطقة والانحراف .

Albert of Aix, p. 433.

Raymond of Aguilers, p. 262; Anonymous, p. 160.

Raymond of Aguilers, pp. 262 - 64.

وإنصافاً للواقع التاريخي ينبغي إلقاء الضوء على ثلاث وثائق معاصرة توضح في جلاء مواقف كل من الكسيوس كومنين تجاه الصليبين ، والعكس . كتبت اثنتان من هذه الوثائق قبيل استيلاء الحملة على أنطاكية ؛ في حين. خرجت الثالثة بعد سقوط المدينة .

فى رسالته الثانية إلى أوديريزيوس ، مقدم دير مونت كاسينو ، عدد. ألكسيوى الحدمات التى قدمها إلى جموع الصليبيين من مال ومؤن وعتاد ونصح ؛ آملا فى نقاوة نيتهم وحسن ظهم واحترامهم للعهد والميثاق (٢١٦).

الوثيقة الثانية هي رسالة موجهة من قادة الصليبية الأولى من معسكرهم خارج. أسوار أنطاكية إلى «سائر المؤمنن» في الغرب اللاتيني . وفيها يفصل أمراء الحملة نصوص المعاهد المبرمة بينهم وبين الكسيوس كومنين : « لقد ضمن لناا الإمبراطور سلامة عبور أراضيه وتعهد بإمدادنا بالمرشدين وبعض الكتائب والرهائن ؛ وتعهدنا من جانبنا بأن نعيد للإمبراطورية الأراضي التي نغزوها من الترك» . (٢١٧)

وجدير بالملاحظة أن نغمة المودة الواردة فى هذه الرسالة عند الحديث عن. بيزنطة وإمبراطورها ، كانت دون شك من إملاء القاصد الرسولى أدهيار الذى اتصف بالحصافة والدبلوماسية فى معاملاته مع الإمبراطورية الشرقية وكنائسها .

وعندما سقطت أنطاكية فى يد الصليبيين (أوائل يونيو ١٠٩٨) تغيرت الأحوال . كشف بوهمند صراحة عن عزمه فى الاستيلاء على أنطاكية لنفسه ؛ بعد أن تخلص من تاتيكيوس ممثل الإمبراطور البيزنطى . وجاءت رؤى بارتيليميو لتنفث كراهية «سماوية» ضد البيزنطيين وكنيستهم ؛ أغلب الظن بتدبير من بوهمند وعميله الراهب الحالم . وبموت أدهيار فى أول أغسطس١٠٩٨

H. Hagenmeyer, Epistulae et Chartae, p. 152. The letter is dated June (үүү) 1098.

¹bid., p. 153. (Y1Y)

خلى الجو تماماً لبوهمند والجزب المعادى لبيزنطة كى يسيرول الأمور حسيا يبغون . وكانت غالبية جماهير الحملة تشارك بوهمند سياسته العدائية تجاه . القسطنطينية . وأصدق برهان على هذا تلك الرسالة التى كتبها قادة الحملة فى سبتمبر ١٠٩٨ إلى البابا أوربان الثانى • والتى أمليت – أغلب الظن يواسطة بوهمند ؛ منتهزاً فرصة موت أدهيار ليقوم بدور المتحدث الرسمى للصليبية جميعها . والأسباب التى تدعونا إلى افتراض أن بوهمند هو الذى أملى صيغة هذه الرسالة هى الآتى :

١ ــ يطل اسم بوهمند في عرض تلك الرسالة في تأكيد غير عادى أكثر
 من مرة ؛ كما يصور فيها على أنه البطل الأوحد في واقعة أنطاكية (٢١٨).

لاحظ أن قصة « الحربة المقدسة » التى اكتشفها بارتيلميو قد أعطيت تفصيلا فى هذه الرسالة ؛ مع أن أدهيار – المندوب البابوى الراحل – كان قد كذب هذه الرواية .

٣ - يرد اسم بوهمند مرة أخرى فى الرسالة فى صورة ، «رجل الله» ، عطم الترك ، ومعيد كرسى القديس بطرس الرسول إلى خلفائه البابوات حفاظ الإيمان الواحد الوحيد . ولا يخفى هنا مقصد الزعيم النورماندى ؛ فهو يداعب أحلام البابوية فى إظهاره العزم على إعطاء كرسى أنطاكية لبطريرك لاتينى - لا يونانى - وفى تأكيده بأن عقيدة كنيسة روما هى وحدها العقيدة القويمة كان بوهمند - بحق - يعرف من أين تؤكل الكتف (٢١٩) .

٤ — وهناك فى سطور هذه الرسالة عبارات تفيض كراهية وبغضاً للبيزنطيين بصفة خاصة وللطوائف المسيحية الشرقية بوجه عام: فالصليبيون يدعون البابا إلى القدوم إلى الشرق ليقود « رجال القديس بطرس » ، وعندها ينقضون على أهل الضلال والهرطقة لإبادتهم . وبعدها يتربع البابا على عرش وليه بطرس فى مدينته أنطاكية . ولا تخفى هنا رغبة كاتب الرسالة فى إزاحة

Ibid., pp. 161-62.

⁽YIV)

البطريرك البيزنطى الشرعى عن كرسيه ، وفى تحويل كنيسة أنطاكية إلى بطريركية لاتينية تخضع اروما مباشرة . وقد جاءت العبارة الأولى فى هذا النص لتؤكد أن الصليبية لم تكن لتهدف فقط إلى تحطيم قوة الترك ، وإنما أيضاً إلى إبادة الطوائف المسيحية الشرقية ، التي كانت فى نظر الغرب اللاتيني « مهرطقة » وضالة (٢٢٠) .

وفى نهاية الرسالة تشير أصابع الاتهام فى صراحة إلى الكسيوس كومنين على أنه قد خان قضية الصليبية وعرض جندها إلى التهاكة والأهوال (۲۲۱).

ولعله جدير بالملاحظة أن البابا أو ربان الثانى قد عقد مؤتمراً فى مدينة بارى فى أكتوبر ١٠٩٨ ، حيث حضر بعض رجال للدين البيزنطيين ودخلوا فى جدل دينى مع اللاتين فى أمر انبثاق الروح القدس . وقد كان القديس انسلم رئيس أساقفة كانتربرى حاضراً فى هذا المجاس ، فطلب منه البابا أن يقف ليدافع عن كنيسة روما «سيدة الكنائس» ضد أغلاط البيزنطيين . ويقول مانسى إن البيزنطيين قد أذلو وهنموا فى هذا الجدل الذى دار حول الروح القدس (٢٢٢).

* * *

لما علم الكسيوس بما تم فى أمر أنطاكية شعر بأن الصليبيين قد غدروا به ، وبأن المنح والأموال الطائلة التى قدمها لهم قد قوبلت من جانب أمراء الصليبية بالجحود والتحدى الصارخ. ولهذا رأى ضرورة اتخاذ خطوات حاسمة لاسترداد حقوق إمبراطوريته المغتصبة.

كانت بيزنطة على علاقات مودة مع الخلافة الفاطمية . وكان الكسيوس قد نصح الصليبيين بفتح المفاوضات مع القاهرة عند وصولهم سوريا . وبالفعل

Ibid. (YY.)

Ibid. (771)

Mansi, Vol. XX, cols. 448-49. (YYY)

وصلت سفارة من البلاط الفاطمى إلى معسكر الصليبين أثناء حصارهم لأنطاكية. وعاد مبعوثوا الحليفة وبرفقتهم سفارة لاتينية (٢٢٣).

ويبدو أن الأفضل ، الوزير الفاطمى ، قد رأى فى الصليبين مجرد جند مرتزقة فى خدمة الإمراطورية البيزنطية . ولكن فى أغسطس ١٠٩٨ فتح الفاطميون فلسطين ، والواقع أن الكسيوس كومنين قد ارتاح لسيطرة الفاطميين على فلسطين ؛ ذلك لأنه كان يوقن أن الرعايا المسيحيين هناك، سوف يكونون فى حال أفضل مما لو وقعوا تحت نير الصليبيين . وحدث أن وقعت بضع رسائل وافدة من الكسيوس إلى الخليفة الفاطمى فى يد الصليبين ، وفسرها هؤلاء على أنها دليل دامغ على غدر وخيانة الإمراطور البيزنطى لقضية الصليبية (٢٢٤) . وراحوا يدعون أن الكسيوس قد حرض الحليفة الفاطمى على أسر أعضاء السفارة اللاتينية فى القاهرة .

وفى أبريل ١٠٩٩ وصلت رسالة من الكسيوس إلى قادة الصليبية ردًّا على الرسالة التي حملها إليه هيومن قرماندوا . ولا يرد ذكر هذه الرسالة إلا في حولية رايموند من آجوى ، التي نقلها عنه فيا بعد وليم الصورى . (٢٢٠) أعلن الإمراطور في هذه الرسالة أنه قادم إلى أنطاكية في يوم عيد القديس يوحنا ، متعهداً بعاونة الصايبيين إن هم أعادوا إليه مدينة أنطاكية .

كان الكونت رايموند من سان جيل الشخص الأوحد الذى رأى قبول عرض الإمبراطور ، غير أن رأيه قد أغفل ، وقررت الغالبية العظمى إهمال بيزنطة وإمبراطورها ؛ والعمل على فتح بيت المقدس دون تدخل من جانب البيزنطيين .

تم الغزو الصليبي المتبربر لمدينة القدس في ١٥ يوليو ١٠٩٩ . وعملت

in Partibus Transmariniae Gestarum, in R.H.C.Occ., I, p. 307.

Historia Belli Sacri, in R.H.C. Occ., Vol. III, p. 181;

Raymond of Aguikrs, p. 247.

Ibid., p. 277; Historia Belli Sacri, p. 189.

Raymond, P.278; William of Tyre, Historia Rerum

(YY6)

سيوف الفرنجة فى رقاب الأهلين ، دون مراعاة لسن أو جنس ؛ وحتى الأطفال الرضع لم ينجوا من وحشيتهم! ثم اختار الغزاة جودفرى دى بويون ملكاً على بيت المقدس بلقب "Advocatus Sancti Sepulchri".

بعد واقعة عسقلان بين الصليبيين والجيش الفاطمى ، قرر عدد كبير من الصليبيين العودة إلى غرب أوربا ، وصبهم رايموند من سان جيل ، الذى كان قد أقسم أن يقضى بقية عمره فى الأرض المقدسة ، حتى ميناء اللاذقية ، وعند مدينة جبلة علم رايموند بأن بوهمند قد ضرب حصاراً حول مدينة اللاذقية ، التى كانت تحت سيطرة البيزنطيين . ولما كان رايموند كارها لبوهمند وأطماعه فقد عمل على معارضته وعرقلة مشروعه . وجدير بالملاحظة أن الذى شجع بوهمند على هجومه على أملاك بيزنطة وصول مندوب بابوى جديد هو دامبرت رئيس أساقفة بيزا ؛ الذى كان عدواً لدوداً لبيزنطة ، والذى كان قد عقد العزم على السيطرة الروحية والزمنية على الحركة الصليبية . و بوصول هذا القاصد البابوى الجديد ، بدأت صفحة جديدة من العدوان الصليبي على ممتلكات وحقوق بيزنطة فى الشرق .

الفصل الخامس البابوية تبشر بحملة صليبية ضد بيزنطة ضد (١١٠٧)

وضحت نية كثلكة كنيسة سوريا مذ لحظة وفاة أدهيار القاصد الرسولى، فعندما استولى رايموند من تولوز على مدينة البارا ، جنوبي شرق أنطاكية ، رسم لها كاهناً لاتينياً هو بطرس من ناربون لمنصب الأسقفية . ومع أن بطرس هذا قد تمت سيامته على يد يوحنا بطريرك أنطاكية البيزنطي ؛ إلا أن تنصيبه أسقفاً يدلل على بداية إرساء كنيسة لاتينية دائمة في سوريا . كما أن هذا قد شجع الكثيرين من رجال الصليبية ، الذين كانوا يشاطرون بطرس بارتيلميو شجع الكثيرين من رجال الصليبية ، الذين كانوا يشاطرون من أبروشياتهم وإحلال لاتين بدلاً منهم .

وعندما اختير أرنولف من روز بطريركاً لأورشليم ، افتتح عهده بطرد القساوسة الشرقيين ، اللدين كانوا يمارسون شعائرهم كل مع طائفته على مذبح خاص بهم ، من كنيسة القبر المقدس . وكان هؤلاء يمثلون فئات عدة من أغارقة أرثوذكس ، وجورجيين وأرمن ، إلى يعاقبة ونساطرة وقبط .

وكان حاكم بيت المقدس الفاطمى افتخار الدولة قد طرد المسيحيين كافة من مدينة أو رشليم قبيل الغزو الصليبي لها . و بعد الغزو عاد هؤلاء المسيحيون آملين في حرية ممارسة شعائرهم ؛ غير أن ظنهم قد خاب عندما صادفوا تعصباً وقسوة من جانب اللاتين وعلى رأسهم البطريرك آرنولف . وهنا بات مواطنو القدس من النصارى يترحمون على عهد الفاطميين وحكمهم لهم في تسامح زائد . وكان بعض هؤلاء النصارى قد حملوا معهم وقت طردهم على يد افتخار الدولة أعز أثر مسيحى

تملكه كنيسة أورشليم: خشبة صليب الصلبوت. وكان طبيعيًّا أن يرفض هؤلاء تسليم هذا الأثر المقدس إلى البطريرك اللاتيني المغتصب الذي ابتلع كافة حقوقهم الشرعية في موطنهم الأصلي على أن آرنولف عمد إلى تعذيب زعمائهم حتى اضطرهم لأن يكشفوا عن مخبأ صليب الصلبوت (١).

شعرت بيزنطة أن كرامتها وحقوق رعاياها قد أهينت وأهدرت فى كل من الرها وأنطاكية وبيت المقدس . وجاء القاصد البابوى الجديد دامبرت البيزى ليدبر لبيزنطة مكائد أخرى . فلقد هاجم أسطول بيزا ، بقيادة دامبرت بذاته ، جزائر سنت ماورا ، والهبتانيز ، وكيفالونيا ، وكورفو ، وليؤكاس ، وزانتي ، كما أمر القائد بنهها جميعاً .

أرسل الكسيوس كومنين كلا من تاتيكوس ولاندلب لمواجهة هذا العدوان الصليبي الجديد. ولحق الأسطول البيزنطي بأسطول بيزا ما بين رودس وباتراس ؛ غير أن عاصفة فنجائية حالت دون التحام الأسطولين في معركة فاصلة. وبعدها أبحر الأسطول البيزي إلى جزيرة قبرص ، حيث هرع حاكمها يوماثيوس فيلوكالس يصد هذا الهجوم (٢). كان تاتيكيوس مسرعاً بأسطوله ليطارد هؤلاء القراصنة ، ولكن الأسطول البيزي شق ظريقه حتى وصل الساحل السورى .

فى أثناء ذلك أرسل الكسيوس سفيره بوتوميتس إلى بوهمند فى أنطاكية لمفاوضته . غير أن الأمير النورماندى طرد السفير البيزنطى فى وقاحة زائدة ، متهماً إياه بالتجسس على الإمارات اللاتينية . ولما وصل المندوب البابوى الجديد إلى الشاطئ السورى ، طلب منه بوهمند معاونته بالأسطول البيزى فى حصار ميناء اللاذقية البيزنطى لقطع خطوط اتصال المدينة بجزيرة قبرص ، وما أن بدأ الأسطول البيزى فى تنفيذ الخطة ، حتى وصل رايموند من تولوز إلى اللاذفية فى رفقة جماعة الصليبيين اللين قرروا العودة إلى غرب أوربا بعد إتمام فتح

Foucher of Chartres, op.cit., pp. 309-10; William of Tyre, op. cit., p. 369.

Alexiad, XI, x,4, p. 43. Anna wrongfully dates the incident with the γcar 1103 instead of 1099.

بيت المقدس ولما كان رايموند لا يقر بوهمند على سياسته العدائية تجاه حقوق بيزنطة ، فإنه استدعى دامبرت إلى اجتماع فى مدينة جبلة حيث عنفه لتعاونه مع النورمان ضد اللاذقية . غير أن المندوب البابوى راح يعتذر لنفسه معلناً أن أمير أنطاكية ب بوهمند - قد أفهمه بأن البيزنطيين هم الأعداء الحقيقيون للصليبيين (٣) . وعندها اضطر المندوب البابوى إلى أن يرفع الحصار عن اللاذقية وإلى أن يتخلى عن معاونة بوهمند فى مخططه ضد المدينة .

وفي عيد ميلاد ١٠٩٩ قصد كل من بوهمند ودامبرت إلى بيت المقدس . وكان بوهمند يوقن أن حجه إلى بيت المقدس أمر حتمى من أجل إعلاء شأنه وهيبته بين أقرانه في الشرق اللاتيني وأيضاً في الدوائر الدينية في غرب أو ربا اللاتيني . وفي مطلع ١١٠٠ عاد الأمير النورماندي إلى إمارته أنطاكية و ماراً باللاذقية ، حيث كان رايموند من تولوز قد نصب معسكره بموافقة السلطات البيزنطية وتأييدها . ولما طلب بوهمند من رايموند تزويده ببعض المؤن اللازمةلرجاله وحاشيته رفض الأخير تلبية طلبه معتذراً بنقص المؤمن المطلوبة في المدينة (٤) وبعد ذلك شرع رايموند في حصار مدينة طراباس بمعونة القوات البيزنطية وبعد ذلك شرع رايموند في حصار مدينة طراباس بمعونة القوات البيزنطية

لا شك في أن قلب الكسيوس كومنىن بات يفيض مرارة بسبب الخذلان الذى

أوقعه به جماعة الصليبيين ، بعد أن جاد بكل ما فى استطاعته من مال ومؤن للحملة فقوبل بنكران الجميل . والواقع أن الرسالة التى كان البابا أو ربان الثانى قد بعث بها إلى الإمبراطور البيزنطى يوصيه فيها خيراً بأمراء الحملة الصليبية كانت قد بددت بعضاً من مخاوفه فى عام ١٠٩٥ ؛ ولكن بدت عبارات البابا عن « تقوى وورع وشهامة » برهمند الآن مدعاة للغيظ والكراهية فى بلاط

القسطنطينية (٥) فإن ذلك الرجل الذي امتدح البابا غيرته الدينية وخلقه الحسن الأحسن أضحى ينقض الآن على ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية علانية . ولم يكن

Athert of Aix, op. cit., p. 520.

⁽٣)

Foucher, pp. 309 - 10.

⁽ t) (a)

The Pop's letter is in Mansi, Vol. XX, col. 660.

قانعاً بالاستيلاء ــ دون وجه شرع ــ على إمارة أنطاكية ؛ وإنما راح يهجم على المدائن البيزنطية والتركية على حد سواء ·

فأطلق كتائبه لتخرب آباميا ، وحلب ، وماراش (١) وكانت ماراش قد سلمت للسلطات البيزنطية في أكتوبر ١٠٩٧ ، فعين الكسيورس كومنين أميراً أميناً يدعى ثاتول لحكمها كتابع للإمبراطورية البيزنطية (٧). وبينما كان بوهمند يضرب حصاره حول مدينة ماراش ، علم بأن ملك غازى محمد، الذى تسميه الحوليات اللاتينية جوموشتيكين ، كان يزحف في طريقه صوب مليتين ؛ التي كانت تحت إمرة جبرائيل الأمير الأرميني . طلب جبرائيل النجدة من بوهنمد ، واعداً بتسليم مدينته له مقابل العون ضد جوموشتيكين .

وقبيل رحيل بوهمند عن أنطاكية لمعاونة جبرائيل هذا المحلم برنارد البيزنطي يوحنا الرابع عن عرشه المشروع ، وعين بدلاً منه كنسيا لاتينياً يدعى برنارد من فالنس ، الذي كان في خدمة القاصد الرسول الراحل أدهيار ، والذي كان يوهمند قد اصطحبه معه في وحلته إلى أو رشليم حيث كرس أسقفاً على يد البطريرك اللاتيني الجديد للمدينة المقلسة . بخأ البطريرك البيزنطي الطريد إلى مدينة القسطنطينية حيث اعتزل منصبه ليترك الفرصة لغيره من الكنسيين المبيزنطيين لمحاولة استعادة الحق المسلوب من العاصبين الملاتين . ولاجدال في أن طرد يوحنا الأنطاكي من كرسيه الشرعي يقف علامة عميزة لبداية قطيعة فعلية بين كنيسة أنطاكية الأرثون كسية و بين كنيسة روما الغازية (٨) .

هزم بوهمند فى معركة مع الأمير غازى محمد ووقع أسيراً فى يوليو ١١٠٠ (١) وقد استتبع هذا أن حدث تقارب بين الكونت رايموند من تولوز والإمبراطور

Mathew Matthew of Edessa, op. cit., pp. 229-30; Ibn al-Athir, op. cit., p.204 (7)

Matthew loc. cit. (Y)

Radulph af Caen, p. 704; v Grumel, "Les Patriarches d'Antioche an nom (A) de Jean", in Echos d'Orient, XXXII, p. 298.

Ibn Khaldoun, p. 54; Ibn al-Athir, p. 203; Matthew of Edessa, p. 231; (9). Ekkehard of Aura, Chronicon Universale, p. 330.

اللبيزنطى ، كل شيعى إلى تحقيق أغراضه الخاصة أثناء غياب الزعيم النورماندى في الأسر التركى . ولما جاءت الأنباء بوفاة ملك بيت المقدس اللاتيني جودفرى دى بويون ، في ٨ يوليو ١١٠٠ ، أبدى را بموند رغبته الملحة في أن يخلفه في الحكم بلقب Advocatus Sancti Sepulchri .

غير أن الأمور سارت على غير ما قصد إليه الكسيوس وحليفه رايموند: فلقد سارع بلدوين أمير الرها ، شقيق جود فرى الراحل ، إلى أورشليم حيث تمكن عن طريق الرشوة من أن يضع تاج مملكة بيت المقدس فوق رأسه وذلك في ٢٥ ديمسبر ١١٠٠ (١١١). وفي نفس الوقت عمد القاصد البابوى الجديد ، الكاردينال موريس ، إلى استدعاء تانكرد ، إابن أخ بوهمند ، ليحكيم إمارة أنطاكية بدلا من عمه الأسير (١٢) . وكان تانكرد أشد عداوة من عمه في سياسته مع الإمبراطورية البيزنطية ؛ إذ افتتح عهده بالهجوم على مدائن طرسوسة وأدنه ومامسترا ؛ وبعد أن استولى عليها جيعها من السلطات البيزنطية تقدم ليحاصر ميناء اللاذقية .

أمام هذا العداء السافر قرر الكسيوس كومنين ضرورة قيادة حملة عسكرية لمواجهة الأطماع الصليبية في سوريا . غير أن أخباراً وردت إلى العاصمة عن قرب وصول زحوف صليبية جديدة قادمة من غرب أوربا .

كانت الأنباء التي وصلت الغرب عن النجاح الذي أحرزته الصليبية الأولى في الشرق ، بالإضافة إلى رسائل قادة الحملة المتتابعة للدوائر الكنسية اللاتينية طلباً في المزيد من التعزيزات العسكرية ، إلى جانب الروايات الأسطورية التي راح الحجاج العائدون من الصليبية الأولى يقصونها على العامة والخاصة عن الأرض المقدسة والشرق الدافئ . . . كانت كل هذه العوامل متضافرة مهمازاً جديداً في العمل على جذب الكثيرين من أبناء غرب أوربا لحمل علامة الصليب والزحف نحو الشرق.

Alexiad, XI, viii, 1, p. 36.

Matthew of Edessa, p. 231.

H. Hagenmeyer, Chronologie, pp. 319 - 20.

وكانت أساطيل جنوة وبيزة قد وصات بالفعل إلى ميناء بيريه الفتصدى لحله حاكم المدينة عندما سمع ربانها يتناولون بيزنطة وإمبراطورها بأقذع ااشتائم والاتهامات . وعمد حاكم بيريه إلى تعطيل إبحارهم صوب الشاطئ السورى، ولكن الإمبراطور أرسل إليه أمراً بعدم عرقلة خط مسيرهم . وإلى جانب هذه الحملات البحرية التي اتجهت نحو سوريا ، كان جيش صيلي كبير يزحف براً قبالة القسطنطينية في طريقه إلى آسيا الصغرى . فني الشهور الأخيرة من عام ما ١١٠٠ بدأ اللومبارديون زحفهم صوب الشرق . ثم أمضوا شتاء العام في بلغاريا . وأرسل قادتهم إلى القسطنطينية يطلبون الإذن بعبور الأراضي البيزنطية ، فوافق الكسيوس على مطلبهم ، راجياً منهم عدم إيذاء الأهالي في المدن التي يعبر ونها . ورغم هذا أنقض اللومبارديون – دون مبرر واضح – على كل من رودوستو وديموتيكا وساليبريا وأدريانو بل وفيليبو بولس ونهبوها عن آخرها ؛ تماماً مثلما فعل من قبلهم فرسان صليبية ١٩٠٦ .

وصل هؤلاء المقاتلون الصليبيون إلى مدينة القسطنطينية في مارس ١١٠١. وكان الكونت رايموند من تولوز موجوداً بالعاصمة آ نذاك ؛ مما سهل مهمة التفاوض بين زعماء الحملة الجديدة والإمبراطور البيزنطي (١٣٠). غير أن رجال الحملة سرعان ما انقضوا على تخوم العاصمة فنهبوها ؛ مما اضطر السلطات الإمبراطورية إلى أن تمنع تزويدهم بالمؤن اللازمة ؛ خاصة وأنهم رفضوا نصيحة الإمبراطور بعبور البسفور إلى آسيا الصغرى . هجم الصليبيون على مدينة القسطنطيتية ، ولولا تدخل ووساطة كونت بلاندرات وأسقف ميلان لتمادى الصليبيون في تحقيق غرضهم (١٤٠) وفي نهاية الأمر اقتنع القادة بضرورة العبور إلى آسيا الصغرى .

تبع هذا وصول حملة جديدة بقيادة سبتيفن من بلوا . وستيفن هذا هو الذى . كان قد فر من معسكر أنطاكية وعاد سراً اللي غرب أو ربا . غير أن زوجه أديلا احتقرته لهذا المسلك الدنئ ونصحته بضرورة العودة إلى الشرق لإنقاذ سمعة العائلة النبيلة التي ينتمي إليها (١٥). وكان في رفقة ستيفن هذه المرة كل من

Albert of Aix, p. 562.

Ibid. (14)

Orderic vitalis, p. 118.

هيو من جراندبرا ، وهيو من بروى ، وهيو من بيرفوند ، وأسقف سواسون ، وأخوان لكونت بلاندرات (١٦٠). كذلك قدم مهم كونراد ، كونستابل الملك الألمانى هنرى الرابع (١٧٠) .

اقترح الكسيوس على زعماء الصليبية الجديدة أن يتركوا أمر قيادتهم وتوجيههم الله الكونت را يموند من سان جل الذي كان قد اكتسب خبرة واسعة عن جغرافية وأحوال آسيا الصغرى . كما وعد بإمدادهم بفرقة من الجنود التركوبول تحت قيادة تزيتاس . ويروي أوردريك فيتالس كيف أن الكونت را يموند رفض في بداية الأمر الاضطلاع بمهمة القيادة فهاج الصليبيون وانقضوا على أسوار مدينة القسطنطينية عما اضطر الكسيوس لأن يواجه هذا التحدى مستعيناً على حد قول نفس المصدر ببعض الأسود والنمور في الدفاع عن مدينته (١٨١) . وعرض ستيفن من بلوا أن يتبع الصليبيون نفس الطريق الذي اتبعته حملة ١٩٩٧ ، ووافق الكسيوس على هذا الرأى غير أن الصليبيين رفضوا هذا الرأى وقرروا الزحف شرقاً نحو خرسان (١٩١) . بغية تحرير بوهمند من الأسر التركى . وفي نهاية الأمر وافق را يموند على أن يغية تحرير بوهمند من الأسر التركى . وفي نهاية الأمر وافق را يموند على أن

تحرك الصليبيون من نيقوميديا في مطلع يونية ١١٠١ متبعين الطريق الحربي المؤدى إلى آنسيرا (٢٠٠). وكان عليهم عبو رمنقطة بافلاجونيا الحبلية . ولقد وصلوا إلى آنسيرا في الثالث والعشرين ، ومنها تقدموا إلى جانجر زثم إلى كاستاموني شمالا. وكان علمهم أيضاً عبورنهر قزل إرمق للوصول إلى آمازيا .

لما وصلت أنباء قدوم حملة صليبية جديدة إلى الشرق نفض الأمراء الأتراك خلافاتهم الشخصية جانباً وتضافر وا جميعاً لمقاتلة هذا العدوان الغربي الجديد.

Ekkehard, p. 225.

Albert of Aix, pp. 562 - 63.

Orderic Vitalis, p. 120; Albert of Aix, loc. cit. (1A)

For Khorasan was believed by the Westerners to be the home of the Seldjuk (14).

Turks. When Pope Urban II preached the Crusade at Clermont he spoke of the Turks as Persians.

Alexiad, XI, viii, 2, p. 37; Orderic Vitalis, p. 126.

ولهذا فإن قوات كل من ملك غازى محمد ، وقلج أرسلان ، والأمير رضوان عاكم حلب تجمعت تحت راية واحدة فيا بين آمازيا وسيوة . ومن هناك انقضوا على العدو الصليبي وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة ، فزع الصليبيون من هذا الهجوم المفاجئ ففرت غالبيتهم صوب سينوب التي كانت في يد السلطات البيزنطية . أما عن قائدهم رايموند من سانجيل فقد هرب إلى بافيارا على البحر الأسود (٢١). ولم يتمكن الهار بون من سيوف الترك الوصول إلى بيزنطة حتى نهاية عام ١٠١١ (٢٢)، ويتهم أوردريك فيتالس الكونت رايموند بالخيانة العظمى طبقاً لمخطط مدبر بينه وبين الكسيوس (٢٣).

بعد ذلك وصل جيشان صليبيان آخران من الغرب: الأول بقيادة وليم كونت. نيڤيرز، والثانى بقيادة كل من وليم التاسع الأقطانى، وولف الرابع دوق باڤاريا وكان الجيش الأول منظماً إذلم يقدم جنده على أعمال الفوضى والنهب للأراضى البيزنطية، ولهذا فقد أكرم الكسيوس وفادة القائد وليم وأمده ببعض الجند البيزنطيين (٢٤). ترك وليم مدينة القسطنطينية في ٢٣ يونيو آملا في اللحاق بالجيوش التي سبقته إلى آسيا الصغرى وعند آنسيرا اكتشف أنه ليس بمقدوره اللحاق بهم فيم هو ورجاله شطرقونية في عير أن الأتراك هجموا عليه بقيادة قلج أرسلان وملك غازى عند هرقلية . وكانت الهزيمة تامة ؛ ففر الكونت إلى جرمانكوبولس (٢٥). وتعقبه الأتراك وألحقوا به هزيمة أخرى عند حصن القديس أندراوس ، وبعدها انسل الكونت إلى أنطاكية (٢٢).

أما الجيش الثانى الذى كان بقيادة وليم الأقطانى وولف الرابع ، فمعلوماتنا عنه أكثر وضوحاً بفضل ما كتبه عن الحملة أحد الذين شاركوا فيها ، وهو إيكهارد من أورا . وكما حدث من قبل اتخذت السلطات الإمبراطورية كافة

Albert of Aix, p. 568.	(11)
Alexiad, XI, viii, 5, p. 38.	(۲۲)
Orderic Vitalis, toc. cit.	(۲۳)
Albert of Aix, pp. 574 - 78.	(٢٤)
Ibid.	(۲0)
Ibid., p. 579.	(11)

احتياطاتها بأن أوفدت السفراء لملاقاة القادة الصليبيين ولإقناعهم بضرورة مراعاة النظام أثناء عبورهم لأراضى الإمبراطورية وفى نقس الوقت صدرت الأوامر إلى كتائب البشنق لمراقبة سلوك الجيش الصليبي ورغم هذا فقد هجم الصليبيون على مدينة أدريانوبل للاستيلاء علمها ونهمها (٢٧).

على أن إيكهارد يناقض نفسه في حوليته عند الكلام عن بيزنطة وإمبراطورها : فهو إذ يطلق لسانه ضد البيزنطيين وسيدهم « يشير في أكثر من مكان إلى غلظة وعجرفة أهالى أقطانيا ؛ التي كانت - دون نزاع - سبباً في التوتر الذي ساد بين الطرفين . يضاف إلى هذا أن الكاتب بذاته يعترف بأن الكسيوس عامل قادة الحملة وكأنهم أبناء له ؛ ويمضى نفس المصدر ليؤكد أن الكسيوس أجبر رجال الحملة على العبور إلى آسيا الصغرى كارهين ؛ وأن المفاوضات بين الطرفين كانت تتسم بالغموض والتمويه بسبب الالتواء المعهود في الخلق البيزنطي (٢٨) .

ويروى إيكهارد أيضاً أنه فى تلك المرحلة بالذات راجت اشاعات مؤداها أن الكسيوس - الذى كان يفضل عنصر الترك على بنى الفرنجه - قد اتفق سراً مع الأتراك على إبادة الصليبيين فى آسيا الصغرى . ويضيف بأن العقلية البيزنطية كانت ترى فى الصليبيين والترك « مجرد كلاب مسعورة » ينهش الواحد منهم فى لخم الآخر . ومن مزاعم نفس المصدر أيضاً أن الإمبراطور البيزنطى كان قلد عقد النية على حمل « الحجاج » (الصليبيين) على ظهر بعض سفنه ثم الإلقاء بهم فى قاع المي (٢٩١) .

ورواية إيكهارد هذه حلقة من حلقات العداء اللاتيني والدعاية الفرنجية ضد بيزنطة وإمبراطورها ؛ وتعتبر ترديداً لما ورد في رسالة بوهمند إلى البابا أوربان التي تحدثنا عنها سالفاً . ولم يكن إيكهارد بهذا بعيداً عن تصوير مشاعر الدوائر الكنسية والعلمانية في غرب أوربا تجاه الدولة البيزنطية ؛ فبنفس العقلية والانجاه افتتح الرسول البابوي دامبرت عهده في سوريا . والحقيقة أن بيزنطة قد

Ekkehard, op. cit., pp. 219-20.

(YV)

Ekkehard, loc. cit.

⁽Y4)

فجعت لما شاهدته ولمسته من إجرام صليبي ضد أهالى الإمراطورية وأيضاً ضد جيرانها المسلمين. كما أن أحداث الرها وأنطاكية وبيت المقدس واللاذقية أعادت للبيزنطيين الذكريات القديمة لهجمات الحرمان المتبربرين على الإمبراطورية . ولم تنظل شعارات الصليبية على رجل من طراز الكسيوس كومنين ولا على الرأى العام فى الإمبراطورية الشرقية ؛ وأيقن الحيع فى الشرق أن هؤلاء المقاتلين الذين يحملون شارة الصليب أبعد ما يكون عن الحلق المسيحي الصحيح وعن الرسالة المسيحية الحقة . ومن هنا اتسمت العلاقات بالتوتر بين الطرفين ، إذ لم تسمح السلطات البيزنطية لنفسها أن تتعاون مع هؤلاء «البرابرة » فى مشروعاتهم التوسعية وفى اضطهادهم المتعنت للسلمين وأيضاً للطوائف المسيحية الشرقية التي نعتها الصليبيون بالمرطقة والانحراف .

على أية حال حل بدوق أقطانيا ورجاله ما سبق أن حل بمن سبقوهم فى آسيا الصغرى ؛ إذ انقض عليهم ملك غازى محد وأمير حوران عند إرجلى وفرقوا شملهم . وبعدها نجح الدوق وليم فى الفرار إلى لونجنادا ، ومنها إلى مدينة أنطاكية (٣٠٠) .

على أن أمواج الصليبيين الوافدة من الغرب لم تقف عند حد . فنى عام ١١٠٢ قدم جيش اسكندنا في بقيادة الملك إرك الطيب . والمعلومات التي لدينا عن هذه الحملة أقرب ما تكون إلى الأساطير . ومن الصفحات القلائل التي كتبها المؤرخ Riant عن هذه الصليبية نعلم أن أزمة ما قد نشبت بين الزعيم الإسكندنا في والإمبراطور البيزنطي ، أغلب الظن بسبب الشكوك التي ساورت الكسيوس بأن ضيفه المرموق كان يحاول سرًا أن يحرض أفراد الحرس الإمبراطوري من المرتزقة الغربيين ضد بيزنطة (٣١)

Albert of Aix, pp. 581 - 82. (7.)

P. Riant, Expeditions et Pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte au (71) Temps des Croisades, Paris, 1865, pp. 159 - 61.

لما علم تانكرد — حاكم أنطاكية — بعلاقات المودة بين الكسيوس ورايموند من سان جيل ، قرر الانتقام من الأخير وتقليم أظافره . وعند عودة رايموند من القسطنطينية بحراً ، رسى فى ميناء سانت سيميون ؛ وهناك وقع فى يد شخص يدعى برنارد الغريب الذى أسلمه إلى تانكرد . وزج به تانكرد فى السجن على زعم أنه قد قام باتصالات مريبة مع العدو البيزنطى (٣٢) . غير أن رجال الدين اللاتين توسطوا فى الأمر ، وأطلق تانكرد سراح أسيره بعد أن تعهد له بعدم المساس بأمور إمارة أنطاكية مستقبلا (٣٣) .

غير أن هذه الحادثة المهيئة قد ضاعفت من كراهية رايموند لتانكرد ولعمه بوهمند ، الذي كان لا يزال في الأسر التركي . ولهذا ما أن تمكن رايموند من إعادة تنظيم رجاله حتى زحف إلى تارتوز ليستولى عليها . وبمعونة أسطول جنوة تمكن رايموند بالفعل من الاستيلاء على المدينة ، التي كانت النواة الأولى لإمارة طرابلس اللاتينية (٢٤) . بعد ذلك استولى الكونت على أنتارتاس وحصن الأكراد ، وذلك في سبتمبر ١١٠٧ . ثم بدأ في حصار طرابلس ، كما نجح في احتلال حمص عند موت أميرها شفاء الدولة . والواقع أن ذلك النجاح الذي أحرزه رايموند في سوريا يرجع في الدرجة الأولى إلى المعونة الصادقة التي أمده بها الكسيوس كومنين ، خاصة ما قام به الأسطول البيزنطي لجزيرة قبرص من تزويده بالإمدادات اللازمة عن طريق البحر (٣٥) .

وعندما تقدم تانكرد لحصار اللاذقية هرع رايموند من معسكره حول طرابلس لمساندة السلطات البيزنطية فى المدينة ضد الحصار النورماندى ؛ غير أن المدينة سقطت فى يد تانكرد فى النصف الثانى من عام ١١٠٢ . والحق أن نفوذ تانكرد كان آخذاً فى الازدياد بصورة مذهلة فى سوريا ، فإلى جانب المثراء الذى تميزت به إمارته الإنطاكية نجح فى توسيع سلطانه حتى امتد إلى

 Albert of Aix, p. 582.
 (ΥΥ)

 Ibid.
 (ΥΥ)

 Ibn-Khaldoun. op. cit., p. 60.
 (Υξ)

 Alexiad, XI, 6, p. 35; Ekkehard, p. 238.
 (Υο)

حلب ، ذلك لأن أميرها رضوان قد اضطر إلى دفع ٧٠٠٠ قطعة ذهبية للأمير النورماندى بغية تجنب هجوم على مدينته (٣٦٠). وبسقوط اللاذقية في يد تانكرد ضمن لإمارته سهولة الاتصال بحراً بغرب أوربا .

بات النفوذ النورمانى الصليبي فى إمارة إنطاكية يهدد حقوق ومصالح الإمبراطورية البيزنطية بشكل مباشر . ولم تجد المفاوضات الودية التى أجراها الكسيوس مع الأمراء النورمان ، بل تبين له من خلالها أن سياسة كل من بوهمند وتانكرد قبالة بيزنطة كانت مضيا صريحاً فى سياسة روبرت جويسكارد العدوانية ضد المصالح البيزنطية بل والكيان الإمبراطوري ذاته . ولهذا فقد فتح الكسيوس كومنين باب المفاوضات مع الأمير ملك غازى محمد مستهدفا الحصول على شخص بوهمند من الأسر ليصبح لديه رهينة هامة تعينه على تسوية المسألة الأنطاكية . غير أن الأمير الأرميني كوج فازل قام بافتداء بوهمند من الأسر وأطلق سراحه في صيف عام ١١٠٣ . وجدير بالملاحظة أن تانكرد لم يكن وأطلق سراحه في صيف عام ١١٠٣ . وجدير بالملاحظة أن تانكرد لم يكن وهو يسلم مقاليد أنطاكية والفتوحات الجديدة إلى بوهمند . ولقد تصادف وهو يسلم مقاليد أنطاكية والفتوحات الجديدة إلى بوهمند . ولقد تصادف

أرسل الكسيوس رسالة إلى بوهمند يذكره فيها باليمين الذى كان قد أقسمه له ويطالبه برد الأراضى البيزنطية التى استول إعليها هو وتانكرد (٣٨). غير أن بوهمند رد عليه بالرفض الرسمى متهما بيزنطة و إمبراطورها بخرق إتفاقية ١٠٩٧، وأيضا بالخيانة والجبن (٣٩). من أجل هذا أرسل الإمبراطور حملة بقيادة بوتوميتس وموناستراس لمهاجمة كيليكيا. وقد نجح القائدان البيزنطيان في تأسيس عدة مواقع دفاعية وهجومية في إقليم ماراش ، وبعدها عادا إلى العاصمة

Kémal ed-Din Extraits de l'Histoire d'Alep - in Defremery's Mélanges (٣٦) d'Histoire Orientale, Paris, 1849, p. 50.

Alexiad, XI, ix, 1, p. 39. (YV)

Ibid. (TA)

Ibid. (٣٩)

حاكم قل بشير (١١٠٣). فير أن مطلع عام ١١٠٤ شهد سقوط ماراش في يد جوسلين حاكم قل بشير (١١٠). وقد حدث في نفس الوقت أن هزمت القوات التركية الجيوش الصليبية المتحالفة في واقعة حران (٢٠). وتبع هذا أن حض الترك شعوب سوريا وكيليكيا على الثورة ضد الحكم الصليبي . وما أن اندلعت الثورة في كيليكيا حتى سارعت الجيوش البيزنطية فاحتات طرسوسة وأدنة ومامسترا . وفي نفس الوقت تقدمت الجيوش التركية حتى مشارف آرتوس ، مما بات يهدد أنطاكية ذاتها . كذلك ألحق الترك هزيمة ساحقة بحاكم الرها بلدوين ووقع أسيراً في يدهم . ولما تولى تانكرد حكم الرها ، هجم عليه الترك مرة أخرى فاضطر إلى طلب المعونة من عمه بوهمند . ولما تقدم بوهمند لمساعدة ابن أخيه في الدفاع عن الرها ، زحف البيزنطيون للاستيلاء على اللاذقية ، يساعدهم في ذلك الكونت رايموند من سان جيل . على أن الزعم النورماندى انقض برجاله على البيزنطية ورايموند واستعاد اللاذقية بقوة السيف (٢٤) .

ورغم هذا فقد أدرك بوهمند أنه ليس ندا لخصمين قويين: الأتراك من جانب والبيزنطيين من جانب آخر. ولذا فقد قرر العودة إلى غرب أوربا ، تاركاً تانكرد وصياً على إمارة أنطاكية ، بقصد التبشير بصليبية جديدة . على أن هذه الصليبية التي كان يخطط لها بوهمند كان الهدف الأول والأخير لها تدمير القسطنطينية وخلع إمبراطورها « الحائن » ؛ وذلك حسماً للأوضاع المعقدة في الشرق اللاتيني . وبهذا المشروع الضخم في فكره أبحر بوهمند في الشهور الأخيرة من عام ١١٠٤ فوصل أبوليا في يناير عام ١١٠٥ .

هبت أوربا اللاتينية عن بكرة أبيها لاستقبال البطل الأول للصليبية الأولى . وكانت سيرة بوهمند وأعماله البطولية وشبه الأسطورية قد سبقته إلى

Ibid, XI, ix, 4, p. 41.
 (1)

 Matthew of Edessa, p. 257.
 (1)

 Abu' I Feda, p. 343; Ibn al-Athir, p. p. 221 - 23.
 (1)

 Alexiad, XI, xi, 6, p. 48.
 (1)

عواصم الغرب اللاتنى وراح الناس يرددونها فى كل مكان . وكان الزعيم النورماندى غاية فى الدهاء ، فكان قد أهدى إلى كنيسة القديس نيقولا فى مدينة پارى خيمة الأمير الركى كربوغا التى وقعت فى يده (٤٤) .

والآن عاد بوهمند محملا بالوفير من آثار الأرض المقدسة وأيقوناتها ايهديها إلى الدواثر الكنسية والعلمانية المرموقة صاحبة الكلمة فى غرب أوربا . ويقال إنه قدم إلى كنيسة القديس سابينوس فى كانوسا شوكتين من إكليل الشوك الذى توج به اليهود المسيح وقت صلبه ، تحملان آثار دم الفادى العظيم (ه، ويقول صاحب كتاب Historia Belli Sacri بأن الجماهير قد توافدت لتحملق فى وجه بوهمند « ولكأنهم يرنون بأبصارهم قبالة المسيح ذاته » (٤٦).

أمضى بوهمند بعضاً من عام ١١٠٥ فى الإشراف على بناء أسطول قوى . ثم أوفد سفراءه إلى بلاط إنجلترا للتمهيد لزيارة كان يزمع القيام بها إليها . على أن الملك هنرى الأول لم يشجع إتمام هذه الزيارة خوفاً من مسارعة العديد من الفرسان الإنجليز للانضام إلى صليبية بوهمند ، ولذا فقد اقترح مقابلته فى فرنسا (٤٠) . وفى سبتمبر ١١٠٥ قام بوهمند وصديقه دامبرت المندوب البابوى – بمقابلة البابا الجديد باسكال الثانى . (٤٨) وكان باسكال من المتحمسين للغاية للحركة الصليبية ، فنجده فى رسالة مؤرخة بديسمبر من المتحمسين للغاية للحركة الصليبية ، فنجده فى رسالة مؤرخة بديسمبر الجماهير لحمل شارة الصليب والزحف نحو الشرق لمساعدة مملكة بيت المقدس الصليبية . أما هؤلاء النفر الذين قد هربوا من معسكر أنطاكية فإن البابا الصليبية . أما هؤلاء النفر الذين قد هربوا من معسكر أنطاكية فإن البابا هددهم بلعنة الحرمان الكنسى ما لم يبادروا بالعودة إلى سوريا لإنقاذ

Historia Belli Sacri, p. 206. (££)

Angelus Andrea Tortora, Relatio status S. Primatialis Ecclesiae Canusinae (\$ 0) seu Historia, Rome, 1768, p. 180.

Historia Belli Sacri, p. 228. (£7)

Orderic Vitalis, p. 210. (& Y)

Historia Belli Sacri, p. 228. (£ A)

سيمتهم (٤٩). وتلبية لرغبة البابا أرسل ماناسيس رئيس أساقفة ريمز رسالة إلى لامبرت أسقف آراس يأمره بفرض الصيام على رعاياه وجمع التبرعات من أسقفيته لخدمة قضية الكنيسة ضد العدو وضد زيغ وأباطيل الطوائف المسيحية المهرطقة في الأرض المقدسة (٥٠).

وفى أبريل ١١٠١ كتب البابا باسكال الثانى إلى الصليبيين فى الشرق يخاطبهم على أنهم « أبطال آسيا » . ونجده فى هذه المكاتبة يعين موريس كاردينال بورتو قاصداً بابويا جديداً ، له سلطان على أمراء الحملة وأساقفتها وسائر المؤمنين المشاركين فيها . وكانت من مهام القاصد البابوى الجديد تنظيم شئون الكنيسة التي حررها « الأبطال الفرنجة » من أغلال العدو (١٥٠) .

كان موقف باسكال الثانى تجاه بيزنطة يتسم بالكراهية والمعاداة ، ففضلا عن نظرته إلى بطريركية القسطنطينية على أنها منشقة ومنحرفة ، فإنه رحب بالأنباء والإشاعات المروجة عن خيانة بيزنطة وإمبراطورها لقضية الحركة الصليبية . ولقد زاد من هذا الشعور لدى البابا وكرادلته ما ورد من ضغائن واتهامات ضد بيزنطة في كتاب Gesta Francorum الذي حمله بوهمند معه في رسطته إلى غرب أوربا . كذلك راحت الدوائر الكنسية والعلمانية في الغرب تؤكد أن الملابحة التي حلت بصليبية ١٠١١ في آسيا الصغرى كانت من تدبير الخيانة البيزنطية . ولم يكن هذا الشعور قاصراً على عواصم غرب أو ربا ، بل إننا نجد أن بلدوين ملك بيت المقدس يوسل سفارة إلى القسطنطينية أو ربا ، بل إننا نجد أن بلدوين ملك بيت المقدس يوسل سفارة إلى القسطنطينية غياصة في استرداد ما فقدوا من أراض للأتراك (٢٠٠) . وحدث أن زار ماناسيس خاصة في استرداد ما فقدوا من أراض للأتراك (٢٠٠) . وحدث أن زار ماناسيس خاصة في استرداد ما فقدوا من أراض للأتراك (٢٠٠) . وحدث أن زار ماناسيس خاصة في استرداد ما فقدوا من أراض للأتراك (٢٠٠) . وحدث أن زار ماناسيس خاصة في بارزينونا (٢٠١) الكسيوس كومنين في عاصمة ، وطلب الإمبراطور من

H. Hagenmeyer, Epistulae et Chartae, pp. 174 - 75

(19)

Ibid., p. 175.

(b)

Ibid., pp. 178 - 79.

(c)

Albert of Aix, pp. 582 - 85.

(b)

(c)

(c)

(c)

الأسقف اللاتيني مقابلة البابا لإقناعه ببراءة بيزنطة من الاتهامات المنسوبة إليها فيا يتصل بفشل صليبية ١١٠١ ، غير أن الأسقف نكص بوعده وراح يقص على مجمع عقده البابا في بينيفنتو (١١٠٢) روايات خيالية عما أسماه « خيانة البيزنطيين » وجرمهم (١٥) .

باتت سمعة الكسيوس كومنين وإمبراطوريته تنتهك في غرب أوربا ، لا على ألسنة حزب بوهمند فحسب ، وإنما بفعل الدعاية العدائية للدوائر الكنسية اللاتينية في الشرق والغرب . والواقع أن الفرنجة بصفة عامة كانوا ينظرون في ازدراء شديد إلى البيزنطيين من قبل قيام الحركة الصليبية ، فكان الرأى السائد عند اللاتيين أن هذا الجنس جبان ومخاتل وأيضاً خنث . وظلت هذه الفكرة سائدة حتى إننا نجد أسقفاً من طراز وليم الصورى " الذي قضى وقتا طويلا في الشرق والذي تلقى كرما وهدايا بالغة من البلاط البيزنطي، راح هو أيضا ينعت البيزنطيين بالمداورة والمخاتلة والتضليل في معاملاتهم الدبلوماسية مع الغرب (٥٠٠) .

على أنه إنصافاً للواقع التاريخي ينبغي أن نقرر أن المصادر الغربية على مختلف مشاربها قد جانبت الحق ، فألكسيوس كومنين هو الذي أرسل سفارة إلى الحليفة الفاطمي تعرض عليه افتداء الأسرى اللاتين في القاهرة (٢٥) . كما أن الإمبراطور الألماني هنري الرابع طلب منه افتداء كونستابله كونراد . ولقد رفض الحليفة الفاطمي قبول المال من العاهل البيزنطي وأرسل إليه جل الأسرى الصليبيين ليتصرف فيهم كيفما شاء . واستقبل الكسيوس هؤلاء الأسرى بالترحاب والإكرام ووزع عليهم الصدقات والكسوة وأرسلهم إلى مواطنهم في الغرب لعلهم يقدمون الدليل على نواياه الطيبة . ولكن الذي

Annales Beneventani, in M.G.H.SS., Vol. III, p. 183. (•)

William of Tyre, op. cit., p. 587.

Alexiad, XII, 3, p. 54. (07)

حدث أن قوبل هذا العطف بنكران الجميل وبحملة من التشهير والافتراء على الإمبراطورية الشرقية .

كان بوهمند عازماً على تحطيم بيزنطة بصليبيته الجديدة . وجاء التأييد المبابوى لهذه الحملة ليسبغ عليها صفة الحرب المقدسة اللاتينية ضد الإمبراطورية البيزنطية . ولهذا فقد قدم باسكال الثانى راية القديس بطرس إلى بوهمند عشية تبشيره بالحملة الجديدة ، كما أرسل برفقته الكاردينال برونو أسقف سيجنى ، الذى كان من حزب أوربان الثانى ، مندوبا بابوياً . وصدرت الأوامر البابوية بالتبشير بالصليبية الجديدة في سائر أرجاء غرب أوربا (٧٠) . وكان بوهمند قد قابل في روما بطرس الثانى أسقف پواتييه الذى وضع كافة إمكانيات مدينته رهن إشارة أمير أنطاكية الصليبي (٨٥). وعلى هذا فإن حملة بوهمند هذه تعد صليبية مكملة لما سبقها من صليبيات.

قرر بوهمند زيارة فرنسا لتجنيد فرسانها لحملته ، وأيضا بقصد إتمام غرواجه من كوتستانز ابنة فيليب ملك فرنسا وكذلك للبحث عن أميرة فرنسية أخرى زوجا لابن أخيه تانكرد . ويحدثنا أوردوريك فيتالز بأن بوهمند كان قد أوفد أحد رجاله ويدعى ريتشاود ، وذلك عقب إطلاق سراحه من الأسر ، ليهد لهذا الزواج في البلاط الفرنسي (٥٩) .

دخل بوهمند فرنسا فی أواخر فبرایر ۱۱۰٦ . وقصد أول الأمر إلی ضریح القدیس لیونارد فی مدینة نوبلات فی اللیموزین ، حیث قدم نذراً کان قد وعد بتوفیته وقت الإسار الترکی : وهو ما یعادل من الفضة الخالصة وزن الأغلال التی قید بها علی ید الأمیر ملك غازی محمد (۲۱) . بعد هذا قام بز بارة للملك الفرنسی فی بلاطه وأتم مفاوضاته بشأن مشروع الزواج (۲۱) .

Chronica Monasterii Casinensis, in M.G.H. SS., Vol. VII, p. 77; A. Richard, (o v)
Histoire des Comtes de Poitou, Vol. I, p. 448.

A. Richard, Ioc. cit.

Orderic Vitalis, op. cit., p. 156.

[o 4]

Ibid., p. 213.

ترك بوهمند بعضاً من متاعه وحاشيته في مدينة شارترز وقام برحلة شاملة. لكافة الأقاليم الفرنسية . وقوبل الفارس الصليبي بالترحاب والإكرام أينما حل؛ ففتحت له الأديرة أبوابها ، وهرع النبلاء يلقونه على أعتاب قلاعهم ، وراح يقص عليهم مغامراته البطولية في الشرق ويعرض أمامهم المخلفات المقدسة التي كان قد حملها معه من الشام (٦٢). وبلغ إعجاب نبلاء فرنسا ببوهمنك حدًّا بالغاً فاستقدموا أطفالهم الصغار ليطلبوا منه أن يكون لهم أباً اشبينيًّا . « وهكذا » ، يحدثنا أوردوريك ، « بعد أن كان اسم بوهمند غير مألوف في الغرب صار شائعاً في غالة » (٦٣) . واستغل بوهمند فرصة إقامته في فرنسا استغلالاً حسناً ، فراح يبشر بحملته للمجماهير التي توافدت للقياه ، وأكد لهم أن إمبراطور بيزنطة « زندين مارق » = وبأنه العدد الحقية, للصليبيين (٦٤) يُـ كما أوضح لسامعيه أن فشل صليبيتي ١١٠١ و١١٠٢ كنان من فعل الخيانة البيزنطية . وكان بصحبته في هذه الجولة نفر من النبلاء البيزنطيين المأجورين، من بينهم واحد راح يدعى بأنه الابن الشرعي للإمبراطور رومانوس دايوجينيز صاحب الحق في التاج البيزنطي (٦٠٠) . ومن المرجح أن بوهمند وصل في رحلته هذه إلى فلاندرز ، إذ نعلم من المصادر المعاصرة أنه كان قد حل في سانت أومير في ٣٠ مارس (٢٦) . ويبدو أيضاً أنه قد رافق المندوب البابوي برونو في رحاته إلى مونز(٦٧) . وفي أبريل تمت المقابلة بين بوهمند والقاصد البابوي. من جانب وبين أنسلم رئيس أساقفة كانتربرى ووليم رئيس أساقفة روين من جانب آخر وذلك في ضيافة وليم ؛ حيث نوقش المشروع الصليبي الجديد . وفى أثناء هذا المؤتمر أهدى أحد أتباع بوهمند ويدعى الجيروس بعضا من خصلة شعر للسيدة العذراء إلى أنسلم ، وكان هذا النورماندي قد حصل على

 Ibid.
 (7f)

 Ibid., p. 213.
 (7f)

 Ibid; p. 212; Alexiad, XII, i, 5, p. 56.
 (7f)

 Orderic, p. 213.
 (7e)

 Lambertus Andomariensis, Chronica, in M.G.H.SS., Vol. V, p. 66.
 (7f)

Iohannes Longus de Ipra, Chronica Monasterii Sancti, Bertini, in (77)

M.G.H. SS., Vol. XXV, p. 787.

هذا الأثر المقدس من بطريرك أنطاكية (٦٨).

تم زواج بوهمند من كونستانز ابنة ملك فرنسا فى مدينة شارترز ؛ حيث كانت أديلا ، أرملة الصليبي ستيفن من بلوا ، قد أعدت حفلاً رائعاً للمناسبة (١٩٠) . وقد حضر إلى هذا الحفل ملك فرنسا وولده لويس السمين ، وعديد من وجهاء القوم والسادة (٧٠) . وبعد إتمام مراسيم الزواج اعتلى بوه ند منصة الكنيسة وخاطب الحماهير والحاصة : فراح يقص عليهم عن حروبه وأسره فى الشرق • وحبهم على السير معه ضد بيزنطة ، واعداً إياهم حصونا وأراضي تفيض عسلا ولبناً جزاء حملهم الصليب والسير وراءه (٧١) .

وفي السادس والعشرين من يونيو ١١٠٦ دعا برونو المندوب البابوى إلى مجمع عقد في مدينة بواتييه . وكان شوجر راهب سانت دينيس حاضرا هذا الحجمع ، وكان وقتها قد أتم دراساته . ولقد ترك لنا شوجر تفاصيل هامة عن المجمع . ناقش المؤتمرون هناك بعض المسائل المحلية ، ولكن الغاية الأساسية أمامهم كانت الصليبية الحديدة . ثم وقف المندوب البابوى ومن بعده بوهمند يبشران بالحملة ضد الكسيوس كومنين ، وصادفت كلماتهما استجابة طيبة وحماساً بالغاً لدى فرسان أقطانيا (٧٢) .

ولقد أوضح مانسى (Mansi) أن بواتييه قد اختيرت لعقد هذا المجمع بالذات حيث إنها كانت قلب المقاطعة التي أرسلت بفرسانها في الصليبية « المشتومة » لعام ١١٠١ ، ومن ثم فإن العداء ضد بيزنطة كان موجوداً بوجه خاص في هذه المنطقة (٧٣) . ونطالع في الحولية المعروفة بإسم ورجه خاص في هذه المنطقة (٧٣) ما يفيد بأن البابا باسكال الثاني

Breve Chronicon Gemmeticense, inM. Bouquet, R.H.G., Paris, 1838-76, (\(\cappa\)A)
Vol. XII p. 775; Eadmerus, Historia Novorum in Anglia, (cd. M. Rule), London, 1884 (Rolls Series), pp. 79-80.
Orderic, p. 213.

Suger of. St. Denis, Vita Ludovici Grossi, in P.L., Vol. CI.II, col.1266. (V.)

Orderic, loc. cit. (V1)

Suger of St. Denis, op. cit., col. 1267; Chronicon Sancti Maxentii Pictavensis (YY) in P. Marchegay and Mabille, Chronique des Eglises d'Anjou, Paris 1869, p. 432

Mansi, Vol., XX, cols. 1205. - 7. (YT)

عقد مجمعاً في إيطاليا في تلك الفترة لاستنفار الشعب للمشاركة في صليبية بوهمند هذه (٢٠) . وبعد الانتهاء من مجمع بواتييه قصد بوهمند إلى آنجو بحثاً عن أنصار آخرين من هذه المقاطعة ، ويرجح أنه قد اتصل بالدوق جودفرى. مارتل الذي كان نفوذه ضالعاً في تلك المنطقة من غالة (٢٥) . كذلك رافق. بوهمند المندوب البابوى برونو إلى الأجزاء الجنوبية القريبة من فرنسا . وطبقاً لرواية إيكهارد فإن بوهمند قد واصل رحلته حتى أسبانيا (٢٦) . كذلك. قام بزيارة جنوة ، وبعدها عاد إلى أبوليا ، حيث أشرف على إتمام بناء الأسطول اللازم لنقل الحملة .

كانت حملة بوهمند ضد بيزنطة صليبية حقيقية ، إذ بشر بها البابا ومندوبه برونو تماما مثلما فعل أوربان الثانى من قبل . وبقيام هذه الحملة إلى حيز الوجود يصبح للصليبية مفهوم آخر : إذ لم تعد الصليبية قاصرة على مهاجمة الجماعات الغير مسيحية ، وإنما بات في الإمكان التبشير بالحركة ذاتها ضد مجتمعات مسيحية غير مرغوب فيها .

تقدر قوات بوهمند بحوالی ۳٤,۰۰۰ رجل (۷۷). وفی سبتمبر ۱۱۰۷ حضر الأمير النورماندی صلاة القداس فی كنيسة القديس نيقولا فی مدينة باری ، وبعدها يمم هو ورجاله نحو برنديزی التی أبحروا منها قبالة الشواطئ الألبانية فی ۹ أكتوبر من نفس العام . وكان جيش بوهمند يتألف أساساً من فرسان غالة وإيطاليا ، هذا إلى جانب ما تذكره آناكومنينا عن المحاربين الإنجليز والجرمان والأسبان فی الحملة (۷۸) . ويبدوأن رواية آناكومنينا صادقة على ضوء الأسفار التی قام بها بوهمند فی غرب أوربا للدعاية لمشروعه الصليبی

رسى بوهمند ورجاله عند مدينة آفلونا في ٩ أكتوبر ١١٠٧ ، ومنها

Chronicon Sancti Maxentii Pictavensis, Ioc. cit.	(Y £)
A. Richard, op. cit., loc. cit.	(vo)
Ekkehard of Aura, Chronicon Universale, p. 233.	(٧٦)
Annales Barenses, in M.G.H.SS., Vol. V, p. 155.	(٧٧)
Alexiad VII is 2 n 82.	(VA)

زحفوا على بترولا وميلوس واحتلوهما (٧٩). وفي نفس الوقت هجم جاى ، أخ بوهمند على جيوش يوسطاسيوس كامتيزس القائد البيزنطى وهزمها هزيمة ساحقة عند آربانوم (٨٠). غير أن القائد كانتا كيوزينوس ، الذي كان قدا استدعى من اللاذقية لمواجهة العدوان الصليبي الجديد ، هجم على معسكر جاى. وأوقع به الهزيمة على مقربة من ميلوم (٨١). وكانت هزيمة الصليبيين في هذه المواقعة تامة على مقربة من ميلوم (٨١). وكانت هزيمة الصليبيين في هذه الواقعة تامة على مقربة ميو وشقيقه ريتشارد والكونت باجان (٨٢).

كان الأسطول البيزنطى ، أثناء الحرب تحت قيادة ماريانوس مافروكاتا وكالون ، الذى نجح فى قطع سبل الاتصال بين بوهمند وإيطاليا ، وذلك بسبب سيطرته اليقظة على بحر الأدرياتيك (٨٣٠) . لما وجد بوهمند نفسه محاصراً من البر والبحر ، ولما كانت مؤن جيشه قد أوشكت على النفاذ ، أرسل قوة قوامها ، ، ، ٢ محارب لنهب المناطق المجاورة لمدن آفلونا ، وهايريكو وكانينا ، غير أن القائد كانتاكيوزينوس أوقع بهم الهزيمة على ضفة نهر بوز (١٤٠) . وهنا فضل بعض الجند الصليبيين الهروب إلى المعسكر البيزنطى بعد أن تبينوا أن فشل الحملة محقق (١٥٠) . وفي تلك المرحلة من الصراع حاول بعض النبلاء المشاركين في الحملة ، لما تبينوا فشلها ، إقناع بوهمند بضرورة فتح باب المفاوضات مع الكسيوس كومنين ، الذي كان قد أقام مركز قيادة جيوشه القدوم لمقابلته في معسكره (٢٨٠) .

Tbid., XIII, ii, 1, p. 93. (V4) Ibid., XIII, V, 2, p. 105; Albert of Aix, p. 651. $(\wedge \cdot)$ Alexiad, XIII, vi, 2, pp. 108-9. (٨١) Ibid. (XY)Ibid., XIII, vii, 5, p. 113. (A T) Ibid., XIII, vi, 6, p. 110. (A &) Ibid., XIII, viii, 6, p. 116. (No) Ibid., XIII, viii, 7, p. 117. $(\lambda\lambda)$ روما و بيزنطة

بعد مناقشات ومفاوضات مشحونة بغليان المشاعر تم الاتفاق بين الطرفين على توقيع معاهدة تعرف بمعاهدة ديابولس ١١٠٨. (٨٧) وضمنت تفاصيل هذه الاتفاقية في وثيقتين ، إحداهما من توقيع بوهمند والثانية صادرة من الكسيوس ليتبادلاهما . ولقد احتفظت لنا آنا كومنينا في مؤلفها الكسياد بوثيقة بوهمند في حين أن وثيقة والدها المعطاة لبوهمند قد فقدت ، غير أنه في الإمكان تلمس ما ورد فيها على ضوء ما جاء في رواية آنا وأيضا في كتابات المصادر الغربية المعاصرة .

أعلن بوهمند بطلان مفعول معاهدة القسطنطينية التي أبرمت بين الصليبيين وبيزنطة في عام ١٠٩٧. وتعهد بأن يقيم من ذاته «رجلا مخلصا» لألكسيوس ولولده؛ وألا يحمل سلاحاً ضدهما بل يقدم لنصرتهما على رأس كافة كتائبه إذا طلب منه ذلك ؛ ألا يحتفظ بأراض تخص الإمبراطورية إلا ما يمنحه الإمبراطور منها. كما وافق بوهمند على الاحتفاظ بالأراضي التي قام بالاستيلاء عليها ، ولم تكن ملكا لبيزنطة ، كإقطاع إمبراطوري له . تعهد القائد النورماندي كذلك بضهان تأدية سائر أفصاله في الحملة يمين الولاء والتبعية للإمبراطور الكسيوس قبل السماح لهم بالعودة إلى الغرب . وطلب منه أيضا تطبيق نفس القاعدة على أفصاله في الشرق اللاتيني . صار لزاما على بوهمند أن يعامل ابن أحيه تانكرد كعدو له حتى يرد لبيزنطة كل ما يخصها من أملاك في سوريا وكيليكيا . وتعهد بوهمند أيضا ألا يتعرض للمسلمين الذين أملاك في سوريا وكيليكيا . وتعهد بوهمند أيضا ألا يتعرض للمسلمين الذين يقطنون الأراضي الإمبراطورية بأي تهديد أو مضايقة . أما عن كرسي البطريركية في أنطاكية فهو من حق كنيسة بيزنطة ، وإذا وجب تنحية اللاتين عنه كلية ليعين الإمبراطور له واحداً من إكليروس أياصوفيا .

وفى مقابل هذا منح الإمبراطور « لرجله » بوهمند المدائن والأراضى الآتية : أنطاكية وما حولها ؛ ميناء سانت سيميرن ؛ دوكس وأعمالها ، لولوس ؛ فيريزيا وأعمالها ، سانت إيلياس وما جاورها ؛ المناطق المتاخمة

لشيزار؟ آرته؟ جرمانيكايا ومدائنها عجبل ماوروس وقلاعه والسهل المجاور عدا الأراضى التابعة للأميرين الأرمينيين ليو وتيودور . وكان على بوهمند أن يملك هذه الأراضى طيلة حياته للاستفادة بدخولها ، ولكن عند وفاته تؤول هذه الأراضى إلى الإمبراطورية البيزنطية . كذلك نص على استبعاد بعض المدائن والمناطق من إمارة أنطاكية وهي : بونداندم ، طوسوسة ، أدنة ، مامسترا ، وعينزربا ، اللاذقية ، جبلة ، فالانيا عوماراقليا .

على أن الملاحق التى أضيفت إلى هذه الوثيقة نتيجة لتوسلات بوهمند وبعض النبلاء من أتباعه نصت على تعويض بوهمند بإقليم كازلوتس الذى يشمل حلب وأراضيها، إقليم لابارا ومداثنه؛ قونيوس، رومانيا، أراميزوس، عاميره، ساربانوس وعدة مناطق أخرى. وبالإضافة إلى هذه الإقطاعات، وعد الكسيوس بدفع ٢٠٠ رطل من عملة Michaels له . كذلك عدل النص الحاص بإقطاع هذه الأراضى لبوهمند لمدى الحياة فأعطى حق تعيين خليفته عليها .

وتختم الوثيقة بقسم بوهمند على خشبة الصليب وإكليل الشوك والمسامير المقدسة والحربة الإلهية على أنه سوف يوفى كافة التزاماتة للإمبراطورية . وكان ذلك فى حضور وشهادة موروس أسقف آمالنى ، الذى أرسله البابا نيابة عنه لحضور هذه المناقشات ، ورينارد أسقف تارانتي وبعض كبار رجال الدين المرافقين للحملة . كذلك كان شاهداً على هذه المعاهدة الحان بطرس والحان سمعان اللذان كانا قد قدما نيابة عن ملك المجر الذى كانت ابنته قد زفت من قبل إلى يوحنا ابن الكسيوس كرمنين . (٨٨)

أما عن الوثيقة التي سلمها الكسيوس إلى بوهمند فتعدد الإقطاعات من. الأراضي التي منحها الإمبراطور إلى الزعيم النورماندي . وفيها أيضاً ضمان وعهد من بجانب الكسيوس لضمان أمن وحرية «الصليبيين والحجاج» الذين يعبرون

Alexiad XIII, xii, 28, p. 138.

الأراضي البيزنطية . (٨٩) ولا شك في أن برهمند كان قد تشدد في النص على هذه الفقرة في الاتفاقية لكي يبرر الأسباب التي من أجلها كان قد قدم لمهاجِمة بيزنطة . كذلك أنعم الإمبراطورِ على هذا الأمير المنهزم بلقب سياستيس (٩٠).

ترك بوهمند جيشه في أيدي الوسطاء البيزنطيين وأبحر عائداً إلى أوترانتو (سبتمبر ١١٠٨). وطبقاً لرواية البرت من إكس ، "فإن الصليبيين قد شعروا بشيء من الحذلان عندما انسل قائدهم عائداً وتركهم دون جزاء كاف على خدماتهم العسكرية . (٩١١) تفرقت الحملة بعد ذلك فقرر فريق منهم العودة كل إلى موطنه ، بينها أصرت الغالبية على مواصلة السير حتى أورشلم ^(٩٢) .

توفى بوهمند بعد فترة قصيرة من نهاية حملته الفاشلة ، وأغلب الظن أنه مرض فمات في ٧مارس ١١١١ وهر يعد لحملة جديدة للشرق، لا يستبعد أنه كان من بين أهدافها الانتقام من بيزنطة (٩٣).

كانت معاهدة ديابولس انتصاراً حاسما لألكسيوس كومنين على بوهمند وحملته الصليبية . ولكن بوهمند لم يعش ليقوم بتنفيذ ما نص فيها من التزامات نحو بيزنطة ، وآلت الأمور في أنطاكية إلى تانكرد ، ولذا بقيت الاتفاقية حبراً على ورق . والواقع أن هيبة تانكرد ونفرذه كانا قد وضحا بشكل مرموق في الشرق اللاتيني: فلقد انتصر على رضوان أمير حلب، وضم آرتا واحتل آبامیا ما بین عامی ۱۱۰۶، ۱۱۰۲ (۱۴۰ . وفی عام ۱۱۰۸ ، وبتأييد من أسطول بيزا ، استرلى على مدينة اللاذقية . وفي نفس الوقت

⁽⁴⁴⁾ Narratio Floriacensis p. 362; Albert of Aix p. 652.

Alexiad, XIV, i, p. 141. (٩٠)

⁽⁴¹⁾ Albert of Aix loc. cit. Orderic Vitalis, p. 242.

Alexiad, loc. cit., Orderic, p. 242.

⁽⁴ Y) Bohemond was buried in the chapel adjoining the Cathedral of St. Sabinus (44)

at Canossa. (4 1) Kemal ed - Din op. cit., p. 53.

انقض على مامسترا وعدة مدائن أخرى في إقليم كيليكيا (٩٥) .

كان الكسيوس كومين عازماً على قيادة حملة لاجبار تانكرد على احترام الاتفاق الذي أبرم بينه وبين بوهمند . ولكن الرأى العام في القسطنطينية كان معارضا لفكرة الحرب آنداك ؛ ذلك لأن الشعب والجند كانوا قد أنهكوا بسبب الحروب التي قام بها الإمبراطور منذ توليه العرش مذ عام ١٠٨١ . ولذا أشار عليه أعضاء السناتو والقادة بأن يلجأ إلى سلاح الدبلوماسية في مواجهة تانكرد بدلا من اللجوء إلى القتال . وعليه قرر الإمبراطور فتح باب المفاوضات مع بلدوين الأول ملك بيت المقدس ؛ فأرسل تعليات إلى يوماثيوس فيلوكالس – دوق قبرص – يطلب منه إعداد السفن والمال اللازم لبعثة السفير بوتوميتس إلى أورشليم ؛ « ذلك لأنه بدون مال وفير لا يمكن الحصول على شيء من جماعة اللاتين » ، حسبا تروى الأميرة آنا كومنينا (٩١) .

تسلم السفير البيزنطى الأموال اللازمة من حاكم قبرص وأبحر على رأس اثنتى عشرة سفينة فوصل إلى طرابلس . كان برتراند حاكم إمارة طرابلس على خلاف مع تانكرد ؟ وهذا الحلاف بين خليفة رايموند سان جيل وبين الأمراء النورمان في أنطاكية كان أمراً طبيعيناً . ومن المعروف ، زيادة على ذلك ، أن برتراند كان قد قام بأداء يمين الولاء والطاعة للإمبراطور الكسيوس عن الأراضى التي كانت تحت يده [٩٧] . ولذا كان برتراند على استعداد لمعاونة بوتوميتس في مهمته ضد تانكرد . سلم السفير البيزنطى مبلغاً ضخما من المال إلى أسقف طرابلس لحين عودته من زيارته لبلدوين ملك ييت المقدس . ولقد أمضى القائد البيزنطى جزءاً من عام ١١١٢ في صحبة الملك اللاتيني ، ساعده خلالها في معاركه ضد أعدائه (٩٨) . غير أن السفير البيزنطى أخبر ساعده خلالها في معاركه ضد أعدائه (٩٨) . غير أن السفير البيزنطى أخبر

Alexiad, XII, ii, 2, p. 57. (40)

Ibid. XIV, ii, 12 - 13, pp. 152 - 53. (97)

Ibid. XIV, ii, 6, p. 149.

Ibid. (٩٨)

بلدوين بأن الإمبراطور كان في طريقه إلى أنطاكية ، على رأس حملة وصلت بالفعل إلى سلوقية . ولسوء حظ السفير وصلت فجأة سفينة بيزية كشف ربانها لبلدوين أن رواية السفير لا أساس لها من الصحة . ونتج عن هذا أن غضب الملك الصليبي من السفير البيزنطي وأعلن أنه لم يعديق في وعود بيزنطة .

أسرع بوتوميتس عائداً إلى طرابلس حيث وجد أن برتراند قد مات وأن خلفه بونس رفض رد المال المودع لدى أسقف المدينة إليه . ومع أنه هدد بقطع المؤن من قبرص إلى طرابلس ، إلا أن الأسقف وسيده الجديد لم يكترثا بهذا التهديد ، وضاعت الأموال على الحزانة البيزنطية .

توفى تانكرد فى ١٧ ديسمبر ١١١٢ ، وبموته زالت عقبة كؤود من طريق بيزنطة ، غير أن الكسيوس كومنين لم يكن فى موقف يساعده على القيام بحملة عسكرية على سوريا . ولذا فقد بلأ إلى أسلوب الدبلوماسية ؛ هذه المرة مع البابوية . وهذا الاتجاه الجديد فى السياسة البيزنطية الخارجية كان يهدف إلى نفى ما تواتر من إشاعات ضد بيزنطة فى غرب أوربا ، وفى نفس الوقت إلى عقد معاهدات ودية مع جمهورية بيزا صاحبة الأسطول الضخم فى البحر الأبيض المتوسط .

والواقع أن جمهورية بيزا لعبت دوراً كبيراً في الحركة الصليبية، وأيضاً في النشاط العدائي ضد الإمبراطورية البيزنطية. ولعل أشهر ما حدث في هذا الصدد ما أقدم عليه دامبرت - رئيس أساقفة بيزا - عندما أوفد مندوباً بابوياً للشرق ؛ إذ قدم معونة أسطوله لبوهمند في حصاره لمدينة اللاذقية التي كانت تحت حكم بيزنطة . وفي أواخر عام ١١١١ أغار الأسطولان البيزي والجنوى ضد شواطئ الأراضي البيزنطية (٩٩) .

فى أكتوبر ١١١١ وقع اتفاق بين جمهورية بيزا وبيزنطة ، تعهدت بمقتضاها الجمهورية أن تؤيد بيزنطة ضد أعدائها . وفي مقابل ذلك وعد الإمبراطور بتسهيل مهمة بيزا فى نشاطها البحرى تجاه سوريا ، كما تعهد بحماية البيزيين فى إمبراطوريته من أى ظلم قد يحل بهم . وبرهاناً على حسن نيته وعد بتقديم هبة من الفضة والحرائر إلى رئيس أساقفة وكاتدرائية الجمهورية . كماخصص مرسى خاصاً فى ميناء القسطنطينية لنشاط السفن البيزية . كذلك وعد بتخصيص حى بأكله لإقامة الجالية البيزية فى العاصمة البيزنطية . كما سمح لهم بركن خاص فى كنيسة أيا صوفيا لأداء شعائرهم المدينية فى حرية تامة . كذلك خصص لهم مقاعد خاصة فى الهبدروم . كما تعهد الإمبراطور بإنصاف كل مواطن بيزى يحل به إجحاف ما فى إمبراطوريته (١٠٠٠) .

ويجب تفسير سياسة المودة التي نهجتها الإمبراطورية البيزنطية تجاه جمهورية بيزا على أنها حلقة في سلسلة اتجاه ودى جديد في العلاقات مع اللبابوية . ولقد ساعدت الظروف في غرب أوربا ألكسيوس في محاولته التقرب من روما . ذلك أن البابا باسكال الثاني كان قد سجن على يد الإمبراطور الألماني هنرى الخامس في ١٧ فبراير ١١١١ ، وفي ١٣ أبريل من نفس العام أجبر البابا على تتويجه إمبراطوراً . (١١١ تابع الكسيوس تلك الأحداث باهتهام زائد ، وشجعه على المضى في التقارب من باسكال الثاني وفاة بوهمند وروجر بورسا في عام ١١١١ ، مما ترك جنوب إيطالبا دون سيد مرموق . وكان الإمبراطور ، مثله مثل أسلافه من أباطرة بيزنطة ، ينظر بحسرة الى الأقاليم الجنوبية الإيطالية الضائعة التي انتزعها النورمان من الإمبراطورية ؛ ويتمنى أن تتاح له الفرصة لاسترجاعها . وفي بناير ١١١١ كتب ألكسيوس إلى جيرارد من مارزيس ، مقدم دير مونت كاسينو ، وألمح في رسالته إلى سجن البابا ، معبراً عن أسفه ومواساته لهذا الحادث المروع (١٠٠) . وكان سفراء الإمبراطور اللدين سلموا هذه الرسالة لمقدم المروع (١٠٠) . وكان سفراء الإمبراطور اللدين سلموا هذه الرسالة لمقدم المروع (١٠٠) . وكان سفراء الإمبراطور اللدين سلموا هذه الرسالة لمقدم المروع (١٠٠) . وكان سفراء الإمبراطور اللدين سلموا هذه الرسالة لمقدم المروع (١٠٠) . وكان سفراء الإمبراطور اللدين سلموا هذه الرسالة لمقدم

W. Heyd, Histoire du Commerce dans le Levant (French trans. by Furcy (\\ \cdot\)
Rayroud), ■ Vols., Leipzig 1885 (2nd reimp. 1936) I pp. 193 - 4.
Gotifredi Viterbiensis "Pantheon" in M.G.H.SS. Vol. XXII p. 220. (\\ \cdot\)
Riant, Inventaire Critique p. 246. (\\ \cdot\)

الدير يحملون رسالة أخرى موجهة إلى شعب روما (١٠٣). عبر ألكسيوس في رسالته إلى شعب روما عن أسفه الشديد لما أنزله الإمبراطور الألماني من هوان وإذلال بالبابا باسكال الثاني . كما امتدح الشعب الروماني لصلابة مقاومتهم لحملة هنرى الخامس . وقد أعرب ألكسيوس في ختام رسالته عن رغبته واستعداده لقبول التاج الغربي لنفسه أو لابنه ؛ وذلك إذا أيد الرومان هذا المطلب. وقد أرسل ألكسيوس أيضاً رسالة إلى البابا باسكال الثاني تحمل نفس المعنى . ويرجح أن هذه الرسالة هي التي حدت بالبابا إلى أن يعلن ندمه على استكانته وخضوعه لهنرى الحامس كما استنكر على نفسه أن أقدم على تتويجه إمبراطوراً (١٠٤).

وفي مايو ١١١٢ أرسل أهل روما سفارة إلى ألكسيوس لمناقشة مقترحاته بصدد التاج . ويبدو أن الإمبراطور وعد بالقدوم إلى روما في صيف ١١١٢ بهدف الوصول إلى اتفاق نهائي مع الشعب الروماني ؛ غير أن مرضاً مفاجئاً ألم به حال دون رحيله إلى روما . ولهذا فقد أرسل معبراً عن اعتذاره في خطاب إلى البابا باسكال الثاني (١٠٥).

واصل باسكال الثاني المفاوضات مع بيزنطة لا من أجل توحيد الإمبراطوية أو الإنعام بالتاج الروماني على ألكسيوس ، وإنما تلبية للرغبة التي كان الإمبراطور قد أبداها في السعى نحو توحيد الكنائس. وإنصافاً للحق يجب التأكيد هنا بأن الكسيوس حاول استغلال مسألة وحدة الكنائس من أجل تحقيق الأحلام الى كانت تداعب خياله في أمر التاج الروماني. والدليل على ذلك أن هابرياركية أيا صوفيا ما كانوا يعطفون على مشروع الكسيوس الكنسي لأن الكنيستين البيزنطية والرومانية كانتا قد قطعتا شوطاً كبيراً في تعميق الفجوة التي كانت تفصل بينهما منذ شقاق ١٠٥٤ . ويجب أن

Peter the Deacon, Chronica Monasterii Casinensis p. 785.

^(1.4) Gotifredi Pantheon p. 275; see also P. Jaffé, Regesta Ponificum (1.1) Romanorum, 6310.

Riant, op. cit., p. 136. (1.0)

للاحظ أيضاً أن عجلس الكرادلة الروماني كان ينظر إلى أحلام الكسيوس في شيء من السخرية ، ذلك لأنه كان يطالب بالمستحيل . ولهذا عندمًا كتب البابا باسكال الثاني إلى الكسيوس في عام ١١١٥ جاءت رسالته خالية من أية إشارة إلى مشروع الكسيوس السياسي وإنما انصب الكلام كله على وبحدة الكنيستين . أوضح البابا في خطابه أنه يدرك الصعوبة التي تحول حون الوحدة الكنائسية وذلك بسبب الخلاف بين اليونانيين واللاتين ، والتي يعزو البابا السبب في نشوبها إلى عناد وتمرد بطارقة بيزنظة . ولذا فقد أكد أن السبيل الأوحد لتحقيق تلك الغاية الغالبة على البابا لن يتأتى إلا إذا اعترف بطريرك القسطنطينية بإمارة البابا - خليفة بطرس الرسول - على سائر الكنائس الأخرى . وواضح من كلام البابا أنه يصر - تماماً مثلما فعل أسلافه من قبل ـ على خضوع كنيسة بيزنطة للسلطان البابوى (١٠٦).

إن حجة باسكال الثاني ومزاعمه القائمة على النظرية البطرسية وعلى هبة قسطنطين العظيم المزيفة توضح أن السبيل إلى الوحدة بات أمراً مستحيلا ؟ ذلك لأن بطريركية ببزنطة لم تكن لنقر هذه المزاع الرومانية . كما أن كلات من الطرفين كان ينظر إلى الآخر على أنه قد انحرف عن العقيدة القويمة. وقد حدث في عام ١١١٦ أن عرج بطرس كريزولان ، رئيس أساقفة ميلان، أثناء سفره من بيت المقدس إلى غرب أوربا ، على مدينة القسطنطينية . وهناك أذاع مقالة كتبها عما أسماه « أخطاء اليونان في العقيدة (١٠٧)». فانبرى لــه يرستراتيوس أسقف نيقيا ففند مزاعمـه وهاجم عقيدة روما وطقوسها (۱۰۸).

في هذه المرحلة توقفت المفاوضات بين بيزنطة وروما ، وأدرك الكسيوس

P.L. Vol. CLXIII cols. 388 - 9.	(۲۰1)
P.G. Vol. CXXVII col. 911.	(1+v)
Bibliotheca Graeca, XI, pp. 622 seg.	(1-7)

⁽¹⁺A).

كومنين عبث محاولته وجهوده لمصالحة اللاتين سواء على المستوى السياسى أو على الصعيد الكنسى . والواقع أن غرب أوربا اللاتيني — مدفوعاً بدوافع الكراهية الدفينة لكل ما هو بيزنطى — كان قد قام بمحاولات منذ بداية الصليبية الأولى للتهجم والهجوم على الإمبراطورية الشرقية . ولولا تلك الدبلوماسية والمهارة العسكرية التي تفرد بها الكسيوس كومنين لكان ممكناً أن تدمر القسطنطينية في عام ١١٠٧ ، إن لم يكن قبل ذلك بعشرة أعوام .

الفصل السادس علاقات بيزنطة باللاتين فى عهد يوحنا كومنين (١١١٨ – ١١٤٣)

أولا: الموقف تجاه الإمارات الصليبية

ثانيا : العلاقات مع دويلات إيطاليا

ثالثا: البلاط البيزنطي والبلاط الألماني

رابعا: يوحنا كومنين والبابوية

توفى الكسيوس كومنين فى عام ١١١٨ فخلفه على العرش ولده يوحنا الله كان يبلغ الثلاثين من العمر . ولقد أطلق المعاصرون على يوحنا كنية «المراكشي» بسبب سواد عينيه وسمرة بشرته وشعره . وكان البازيليوس الجديد على خلق جميل ، كما وأنه أجبر رجال بلاطه على التخلى عن حياة الرغد والفساد التى اعتادوها . (١) ولقد كان يوحنا جندياً ممتازاً فقاد جيوشه من نصر إلى نصر ودخل العاصمة فى مواكب الظافرين .

تزوج يوحنا من الأميرة پيريسكا ابنة لادزلاس ملك الحجر عندما كان في العشرين من عمره ؛ غير أنها توفيت في عام ١١٣٤ تاركة له ثمانية أطفال : أربعة أولاد وأربع بنات : الكسيوس ، وأندرونيكوس = وإسحق ، وعمانويل ثم ماريا ، وآنا ، وثيودورة ، ويودكيا . وفي عام ١١٢٢ أشرك يوحنا ابنه الأكبر الكسيوس معه في الحكم ، ولكن هذا توفي قبل والده بعام (١١٤٢).

كان يوحنا محاطاً بجماعة من المخلصين لشخصه ، وعلى رأس هؤلاء كان أوكزوش ، وإسحق كومنين ، وجريجورى تارونيتس ، واللوغوثيت

Nicetas Choniates, Historia "Of John Comnenus" (Bonn ed. 1835), II, (1) pp. 8-9.

جريجورى كاماتيروس. وكان أوكزوش أهم هؤلاء الأعوان ، وهو تركى الأصل وكان قد وقع أسيراً في يد الصليبيين عند سقوط نيقيا فأسلموه هدية لألكسيوس كومنين ؛ الذى تعهده بالرعاية ورباه مع ولده يوحنا . ومن هنا نشأت الصداقة المتينة بين الاثنين ، وعندما اعتلى يوحنا الحكم عين صديقه المخلص هذا « كبيرا للأعوان » وهو من أعلى المناصب الحكومية في الإمبراطورية البيزنطية .

تميز عهد يوحنا كومنين بالطابع العسكرى ، إذا كان الجيش شاغله الأكبر. وكان يقضى جل وقته بين أفراد قواته المسلحة يدربهم ويلقنهم فنون الحرب والنظام. وقد أوضح المؤرخ البيزنطى نيكيتاس كونياتس أن الجيش في عهد يوحنا قد قسم إلى فرق متعددة ، تضم كل منها أبناء جنس معين دون غيرهم ، فهناك الفرقة المقدونية ؛ والكلتية ، والبشتق ؛ والترك.

أولا: موقف بيزنطة تجاه الإمارات الصليبية:

كان يوحنا كومنين مصراً منذ بداية حكمه على استرجاع الأراضى التى اعتصبها الأمراء الصليبيون من الإمبراطورية البيزنطية ؛ ولذا فإن قصارى جهوده قد انصبت على إمارة أنطاكية . ذلك لأنه وفق معاهدة ديابولس جهوده قد انصبت على إمارة أنطاكية . ذلك لأنه وفق معاهدة ديابولس التى أبرمت بين بوهمند والكسيوس كومنين قد اتفق على تبعية أنطاكية لبيزنطة على أن يقطعها الإمبراطور البيزنطى للأمير النورماندى . غير أن بوهمند مات في عام ١١١١ ، ورفض ابن أخيه تانكرد احترام المواثيق التي وقعها عمه مع الإمبراطور البيزنطى . وفي عام ١١١١ ثرفى تانكرد فخلفه الأمير روجر حاكما على الإمارة . وفي عام ١١١٩ أرسل يوحنا كومنين سفيره رافندينوس إلى بلاط روجر لطلب يد ابنته للزواج من أحد الأمراء من الأسرة الحاكمة في القسطنطينية . وقد رافق السفير البيزنطى الأمير النورماندى في حر به ضد الأمير الغازى صاحب ماردين ، ولكن روجر قتل في المعركة ، بينا وقع

السفير أسيراً (٢). وبعد أن افتدى رافندينوس من الأسر قصد إلى أنطاكية من جديد لمواصلة مباحثاته التي أوفد من أجلها من قبل الإمبراطور. غير أنه وجد الأمور قد تبدلت تماما في الإمارة: فبعد وفاة روجر آلت الولاية إلى وصاية بولدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان يسعى إلى تزويج ابنته من الأمير النورماندي القاصر بوهمند الثاني .

لذلك سارع وافندينوس إلى أورشليم ليطلب يدابنة الملك الصليبي للزواج من أحد الأمراء من آل كومنين . وحب الملك بهذا العرض ، وعاد السفير إلى القسطنطينية ليفضي بنتائج بعثته ، ولكن هذا الزواج لم يتم . ولا نكاد نعرف السبب الحقيقي و واء ذلك ؛ اللهم إلا ما و رد عبراً في حولية الكاتب السوري أبوالفرج الذي يروى أنه في عام ١١٢١ عرض يوحنا كومنين على الأمير الغازي تزويده بقوة من ٣٠٠٠٠ رجل لمقاتلة الفرنجة في سوريا واثن ولئن صح هذا فلا بد وأن هذا التقارب بين الإمبراطور البيزنطي والأمير المسلم قد صدم الدوائر الصليبية في بلاط بيت المقدس ، مما أدى ببلدوين الثاني إلى أن يغض النظر عن مشروع الزواج هذا .

على أية حال تزوج الأمير الأنطاكى بوهمند الثانى من أليس ابنة الملك الصليبى بلدوين الثانى ، ولكن حدث فى عام ١١٣٠ أن قتل الأمير الشاب فى حربه ضد الأمير الغازى . راحت الأرملة الشابة أليس تسعى بعد مقتل زوجها إلى السيطرة الكاملة على شئون الحكم غاضة النظر عن الحقوق الشرعية لطفلتهما كونستانز . غير أن والدها – بلدوين الثانى – وقف فى وجهها ، ولكن بعد وفاته (٣١ أغسطس ١١٣١) واصلت أليس السعى لتحقيق ولكن بعد ولكن الملك الجديد لبيت المقدس — فولك – تدخل فى الأمر وأجبرها على الحروب إلى اللاذقية . ثم خطب كونستانز إلى رايموند من پواتييه الذى على الحروب إلى اللاذقية . ثم خطب كونستانز إلى رايموند من پواتييه الذى

(r)

Kemal ed - Din op. cit., p. 622.

⁽٢)

Abu'l Faradj, Syrian Chronicle, (ed. Bruns and Kirsch), 11, p. 307.

كان وقتها فى بلاط هنرى الأول ملك إنجلترا(ئ). ومع هذا لم تيأس أليس فعادت إلى أنطاكية وفتحت باب المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطى ، ثم عرضت يد ابنتها — كونستانز — الزواج من عمانويل ابن يوحنا كومنين . ولكن وصول رايموند إلى أنطاكية والتأييد الذى لقيه من جانب بطريركها راؤول من دومفرونت ، سهل عليه مهمة الزواج من الأميرة الصغيرة كونستانز ، وهنا اضطرت الأرملة المنهزمة إلى أن تهرب ثانية إلى اللاذقية (٥٠).

قوبل زواج رايموند من كونستانز الأنطاكية بشعور من الغضب شديد فى البلاط البيزنطى . واعتبر البازيليوس هذا الفعل تحدياً صارحاً من بارونات أنطاكية لشخصه ؛ إذ أنه وفق معاهدة ديابولس (١١٠٨) ، كان لزاما على البارونات مشاورة سيدهم الإقطاعي – الإمبراطور البيزنطي – في أمر على هذه اللدرجة من الخطورة في مستقبل الإمارة ذاتها . ومن هنا راح يوحنا كومنين يتحين الفرصة المواتية لتقليم أظافر هؤلاء الخارجين على طاعته وحقوقه المشروعة .

* * *

في هذه المرحلة كان نجم الأمير عماد الدين زنكي حاكم الموصل آخداً في الصعود . ولقد وهب هذا القائد نفسه لمقاتلة الصليبيين في سوريا ، يؤيده في هذا السلطان السلجوق محمود والخليفة العباسي المسترشد بالله في بغداد . والتف الأمراء المسلمون حول هذا الزعيم في الحرب المقدسة ضد الفرنجة : فانضم إليه في الكفاح شرف الدين سوار صاحب حلب والأمراء شمس الملوك إسماعيل في الكفاح شرف الدين سوار صاحب حلب والأمراء شمس الملوك إسماعيل وشهاب الدين محمود . كانت العصبة الإسلامية جادة العزم في هذه الجولة على الحراز النصر على الإمارات اللاتينية في الشام : فني عام ١١٣٦ دمرت اللاذقية ؛ وفي ١١٣٧ اشتد الهجوم على طرابلس . وهكذا باتت الإمارات الصليبية مهددة بالأنهيار .

كان هذا الموقف مشجعاً للإمبراطور يوحنا كومنين لأن يتدخل لاسترجاع

p.Ibi (°)

William of Tyre, XIII, xxvii, p. 599. (t)

إمارة أنطاكية إلى حوزة إمبراطوريته . وبينا كان يعد العدة لحملته على سوريا جاءت الأنباء بأن فواك الملك الصليبي لبيت المقدس قد لتى هزيمة بالغة على يد الأمير زنكى . ولقد فر ملك بيت المقدس وفلول قواته بعد الهزيمة ، ولما طارده الأمير أرسل يستنجد بريموند حاكم أنطاكية . على أن أخبار تحركات يوحنا كومنين صوب انطاكية وضعت رايموند في موقف حرج للغاية . فمن ناحية لم يكن يود أن يبرح إمارته في تلك اللحظة فيتمكن عدوه البيزنطي من الاستيلاء عليها ، ومن جانب آخر كان عليه أن يلبي نداء ملك بيت المقدس واستنجاده به . ولذا فقد وكل إلى بلدوين حاكم ماراش وإلى جوسلين الثاني . حاكم الرها مهمة حماية إمارته ، وأسرع ليقدم العون لملك بيت المقدس . على أن عماد الدين زنكي أمام هذه التعزيزات القادمة من أنطاكية آثر التفاوض مع فولك ؛ ومن ثم تمكن رايموند من العودة إلى إمارته .

لما رجع رايموند علم أن يوحناكومنين قد قدم على رأس حملة ضخمة وأقام معسكره على مقربة من أنطاكية ، ولذا فقد أيقن خطورة موقفه فآثر التفاوض معه . قصد رايموند إلى مقر قيادة الحملة البيزنطية وهناك أقسم يمين الولاء والطاعة للإمبراطور ، كما وافق على تنصيب بطريرك بيزنطى فى أنطاكية بدلا من اللاتيني الذي كان يجلس وقتها على كرسي البطريركية . أنطاكية بدلا من اللاتيني الذي كان يجلس وقتها على كرسي البطريركية . وبعد ذلك رفع العلم البيزنطي على قلعة مدينة أنطاكية . وفي مقابل هذا وعد يوحنا كومنين معاونة رايموند ضد أعدائه .

على أن المؤرخ العربي كمال الدين يروى أن الإمبراطور البيزنطى ، أثناء عودته من أنطاكية ، فتح باب المفاوضات مع عماد الدين زنكى ، وبأنهما تبادلا الهدايا ، وبأن يوحنا أحاطه علما بمشروعه فى إعداد حملة ضد الأمير ليو الأرميني (٦) .

وفي أواخرعام ١١٣٧ هاجم كومنين عدوه الأرميني وأخضعه لسلطانه .

Kemal ed-Din, op. cit., p. 424. An. 1137. (7)

وبعدها انضم بجيوشه إلى فرق الفرنجة في سوريا تحقيقاً لوعده لرايموند حاكم أنطاكية . وتمكنت الجيوش البيزنطية اللاتينية من الاستيلاء على مدينتي بيزاو والأثارب ، ثم هاجمت معرة النعمان وكفر تاب. وبعد هذه الانتصارات المتتالية زحفت الجيوش المتحالفة قبالة وإدى الأورونتيز لحصار مدينة شيزار ، ولكن المدينة قاومت واضطرت العدو إلى فك هذا الحصار . عاود الصليبيون وحلفاؤهم حصار المدينة مرة ثانية ، ولكن الإمبراطور قرر فجأة رفع الحصار والتقهقر برجاله ؟ الأمر الذي أثار غضب القادة اللاتين .

اختلفت تفسيرات المؤرخين المعاصرين في تعليل موقف يوحنا هذا: · فابن الأثير يتحدث عن قدوم عماد الدين زنكي على رأس حملة لإنقاذ شيزار ، إلىجانب جهوده في بث الفرقة بين الإمبراطور البيزنطي والأمراء الصليبيين (٧). ويشير كمال الدين إلى الأنباء التي وردت عن قدوم حملة ضخمة تحت إمرة ·قره أرسلان بن داود بن سقمان بن أرطق ، أمير حصن كيفا ، ويقدر نفس المصدر عدد رجال الحملة التي عبرت الفرات بخمسين ألفا(^). أما ميخائيل . السورى فيعلمنا أن رسالة وصلت إلى الإمبراطور البيزنطي تحذره من مخطط مسعود سلطان قونية الذي هاجم أدنة في إقليم كيليكيا (٩١) . أما المؤرخ . ولم الصورى فيروى أنه إبان الحرب كان الإمبراطور البيزنطى يقاتل ببسالة في حين أن حليفيه وايموند وجوسلين كانا متقاعسين بل وراحا يمضيان الليل والنهار في لعب الميسر. ويمضى المؤرخ فيقول بأنه رغم تحديرات يوحنا ا المتكررة لهما فإنهما لم يقلعا عن هذا السلوك المشين (١١) . ويتضح من رواية وليم الصورى أن الإمبراطور البيزنطي رأى بثاقب نظره أن حليفيه الصليبيين كانا يدبران إلقاء عبء الحرب عليه وعلى رجاله البيزنطيين ، ومن ثم فقد

Ibn al-Athir op. cit., pp. 427 - 28.

⁽ y.)

⁽ A) Kemal ed-Din, p. 678. (9)Michael the Syrian, III, p. 245.

⁽¹¹⁾ William of Tyre, XV, ii, p. 657.

طرأ تغيير كبير في سياسته تجاههما . والواقع أن مباحثات سرية كانت تدور بين الجانبين البيزنطى والإسلامى ، ووافق أمير شيزار على دفع وبلغ كبير من المال ليوحنا كومنين كما أهداه ببضع خيول عربية وأقمشة حريرية وماثلة مطعمة بالصدف ، وأهم من هذا رد إليه الصليب المطعم بالياقوت الذي كان الأتراك قد استولوا عليه من أسيرهم الإمبراطور رومانوس دايوجينيس في واقعة ملاذكرد عام ١٩٧١ (١١١) .

بعد هذا يم يوحنا كومنين صوب مدينة أنطاكية في زيارة رسمية لها ، فقوبل على أبوابها بجماعة اكليروس المدينة وعلى رأسهم بطريركها البيزنطى . ولقد وزع الإمبراطور الهدايا والصدقات على فقراء المدينة . وبعد أن استقر وحاشيته في القصر المخصص لمقامه أرسل يستدعى رايموند وجوسلين ووجهاء اللاتين في الإمارة لمقابلته . ثم طلب من رايموند تسليمه قلعة المدينة والسماح للكتائب البيزنطية بدخول المدينة والحروج منها دون عقبات . كذلك طلب من يوحنا أن يوفيه حقه كتابع إقطاعي يدين له بالولاء (١٢) . على أن لهجة كومنين وموقفه المتشدد أزعجت السلطات الصليبية في أنطاكية ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رد طلب له في تلك الآونة . ولكن جوسلين تدخل وطلب من البازيليوس إمهال رايموند للتشاور مع أفصاله في الأمر . ووافق يوحنا على هذا المطلب على ألا يبرح رايموند القصر الإمبراطوري (١٣) . وبينا وقع رايموند في المصيدة كان صديقه جوسلين يدبر مؤامرة لخداع العاهل البيزنطي .

أسرع جوسلين ينشر فى ربوع المدينة « تلك الشروط المهينة والمتعسفة » التى أملاها كومنين على رايموند ، وراح أعوانه يدقون طبول الحرب ؛ وتسلح غوغاء الصليبيين وزحفت جماهير غفيرة منهم صوب قصر الإمبراطور تطالب

Kinnamos, op. cit., I, viii, pp. 19 - 20.

⁽¹¹⁾

William of Tyre, pp. 659 - 660.

⁽۱۲) (۱۳)

Ibid., p. 661: "Principe in palatio remanente et sui ipsius ut diceba-

tur non habente potestatem".

بالانتقام لشرف اللاتين المهيض. وهنا اندفع جوسلين إلى حضرة الإمبراطور في غرفته الخاصة دون مراعاة لقواعد البروتوكول المتبعة وألتى بنفسه عند قدميه يقص عليه كيف أن الجماهير باتت تشير إليه بأصابع الاتهام دامغين إياه بالخيانة لأنه مزمع على بيع إمارة أنطاكية للإمبراطور البيزنطى . وراح هذا الممثل البارع يقص على الامبراطور أن الغوغاء في هتافاتهم طالبوا بقتل جوسلين ذاته . ولقد بلغ الدهاء بهذا الأمير الصليبي إلى حد أنه كان قد دبر أيضا مسيرة غاضبة من أتباعه الذين انقضوا على عسكر البيزنطيين المقيمين داخل المدينة وقتلوا عدداً منهم الذين لاذوا بالفرار حتى بوابات القصر الإمبراطوري في المدينة (١٤) .

أدرك يوحنا كومنين أنه أمام عدو ماكر وأنه ورجاله محاطون بغوغاء لاترحم . ولذا فقد استدعى رايموند إلى مقامه وأعرب له عن قراره فى التخلى عن كافة طلباته السابقة منه وحثه على أن يهدئ الجماهير المتظاهرة فى شوارع المدينة وأمام القصر . كما أعلن له عن عزمه على مغادرة انطاكية فى اليوم التالى مباشرة . وسمح يوحنا للعاصفة بأن تمر فى هدوء ولكنه كان موقنا أن الزمرة الصليبية الأنطاكية قد تآمرت ضده هذه المرة ، ومن ثم فقد ترك هذا فى قلبه مرارة لم ينسها . حقيقة أن رايموند وجوسلين و بعض البار ونات الفرنجة قاموا بزيارة معسكر الامبراطور خارج أسوار المدينة بعد ذلك ، وأن الإمبراطور صرح لهم بوعود غامضة لمساعدتهم فى حملة ضد حاب ، ولكنه فى حقيقة الأمر كان يترقب اللحظة المناسبة لعقاب هذين الأميرين بسبب مقامرة الديئة ضده و رجاله .

* * *

كانت حملة يوحنا كومنين سنة ١١٣٧ على سوريا فلشلة تماما ، ولذا فقد قرر عدم التدخل فى الصراع الذى احتدم بين الفرنجة وعماد الدين زنكى، وترك الأمير المسلم ليقلم أظافرهم . فنى ٢٦ سبتمبر ١١٣٨ فتح زنكى مدينة

بيزاو وفي العاشر من أكتوبر استولى على الأتارب ؛ وفي أبريل ١١٤٢ قام أمير حلب بهجوم شامل على الجيوش الصليبية على ضفاف الأورونتس وألحق بها هزيمة ساحقة . وفي نفس الوقت انقض أهالى عسقلون على كتائب الملك فولك وهزموها هزيمة نكراء . وبذا بات كيان الإمارات الصليبية في الشام مهددا بخطر داهم . وهنا توجه جوسلين ورايموند بتوسلاتهما إلى يوحنا كومنين يطلبان منه النجدة . وفي صدد الحديث عن أحداث تلك الفترة يطالعنا المؤرخ البيزنطى يوحنا كناموس أن الإمبراطور كان ينوى إنفاذ مشروع جديد مؤداه بناء دولة جديدة تضم أناضوليا وأنطاكية وجزيرة قبرص يوكل أمر حكمها لابنه الأصغر عمانويل كومنين (١٥٠) . وكان هذا يعنى سلخ إمارة أنطاكية من حوزة اللاتين لتكون اللبنة الكبرى لدويلة عمانويل سلخ إمارة أنطاكية من حوزة اللاتين لتكون اللبنة الكبرى لدويلة عمانويل المزمع إنشاؤها . كذلك يتحدث نفس المصدر عن نية الامبراطور في مد نفوذه حتى الفرات بغية عزل سلاجقة آسيا الصغرى عن حلفائهم في ميز وبوتاميا (١٦) .

وفى عام ١١٤٢ كان يوحنا كومنين على أهبة الاستعداد لقيادة حملته إلى الشام ؛ وبينها يزعم المؤرخ البيزنطى نيكيتاس كونياتس أن البازيليوس كان قد أعلم أمير أنطاكية الصليبي بنبأ قدومه (١١) ؛ نجد وليم الصورى يؤكد أن الإمبراطور البيزنطى تكتم أخبار حملته بقصد مفاجأة الأمير الأنطاكي . ورواية الأسقف الصورى تبدو أكثر معقولية وقبولا عن قصة كونياتس ، لأنها تتوافق ومخطط كومنين (١٨) .

ضرب كومنين معسكره عند مدينة طربيسل ، ومنها أرسل إلى جوسلين كونت الرها يطلب منه إرسال رهائن للدلالة على تبعيته وإخلاصه . واضطر

Kinnamos, I, X, p. 23. (10)

Ibid. pp. 25, 56. (11)

Ibid., p. 52. (1V)

William of Tyre, XV, XiX, p. 689.

أمير الرها – كارها – إلى أن يرسل ابنته إيزابيل رهينة لدى الإمبراطور البيزنطى (١١). وبعد ذلك هجم يوحنا على قلعة الرهبان المحاربين من طائفة الداوية عند جاستن واستولى عليها منهم (٢٥سبتمبر ١١٤٢) (٢٠). ومن هذه القلعة وجه الإمبراطور أوامره إلى رايموند أمير أنطاكية بأن يسلم إليه قلعة أنطاكية والمدينة ذاتها.

استدعى رايموند باروناته ورجال الدين يطلب منهم المشورة . وفى المجلس أعلن المؤتمرون أن التسليم بشروط كومنين يعنى ضياع كرامة اللاتين وخراب كنيستهم . وصرح البارونات بأنه حتى وإن أجاز رايموند ذاته مطلب الإمبراطور فإنهم سيعارضونه لأنه قد تلتى الإمارة لاعن وراثة وأما عن طريق زواجه بالأميرة كونستانز ابنة بوهمند الثانى . كذلك أعلن هؤلاء أن الأميرة ذاتها لاتملك حق تسليم إمارتها لكائن ما دون موافقتهم لأن هذا يتضمن تبعيبهم دون مشاورتهم للسيد إقطاعى جديد ؛ كما هددوا رايموند وزوجته بأنهم نافضون عن كواهلهم حقوقهما إن أقدما على خرق التقليد الإقطاعى فى أية صورة (٢١) . ولقد وكل المؤتمرون مهمة إبلاغ قرارات مجلسهم الصعبة للإمبراطور إلى أسقف جبلة وبضعة بارونات مرموقين . ولما وصل هؤلاء السفراء إلى مقام يوحنا كومنين تقدم منه الأسقف اللاتيني وخاطبه « باسم القديس بطرس وباسم الإمبراطور الألماني » معلنا إصرار مجلسهم على بقاء أنطاكية إمارة لاتينية مع التنبيه عليه باستنكارهم الشديد للمطالب البيزنطية والمطامع في إمارتهم (٢٢) .

أمام هذا الإصرار العنيد من جانب الاكليروس والبارونات اللاتين ، وأمام فاجعة وفاة ولده الأكبر ألكسيوس المفاجئة ، آثر يوحنا كومنين عدم

Ibid. (19)

Ibid. (Y·)

William of Tyre, loc. cit. (Y1)

Ibid., Otto of Freising, Chronica' in M.G.H.SS. Vol. XX, p. 263. (YY)

التشدد مرة أخرى حتى تسنح له فرصة أفضل ؛ ومن ثم فقد قرر قضاء موسم الشتاء فى كيليكيا . على أنه قبل أن يبرح الأراضى السورية أطلق كتائبه لتدمر المدن والقرى المجاورة لأنطاكية ، ويقال إن الرهبان اللاتين القاطنين فى تلك المنطقة صادفوا عداباً شديداً على يد رجال يوحنا كومنين (٢٣) .

أمضى الإمراطور البيزنطى فصل شتاء سنة ١١٤٣/١١٤٢ في السهل الواقع ما بين عنزرب ومو پسويستا . ومن هناك وجه رسالة إلى فولك ملك أورشليم يعبر فيها عن رغبته في القدوم بجيشه إلى أورشليم لمعاونته ضد أعدائه . غير أن فولك رفض مساعدة يوحنا كومنين وأرسل أنسلم أسقف بيت لحم إليه في رفقة روارد حارس قلعة أورشليم ، وجودفرى رئيس دير السيد المسيح ، اللي كان يجيد اللسان اليوناني ، ليبلغوا العاهل البيزنطي بأن سلطات بيت المقدس الصليبية لن تسمح له بالاقتراب من المملكة على رأس جيشه ؛ على أنه إن رغب ذاته في الحج إلى بيت المقدس فإنه سينزل أهلا ويلتي سهلاً . وكان في هذا إعلان صريح من جانب فولك أنه لن يسمح لبيزنطة بالتدخل في شيون مملكته الصليبية (١٤٠) .

وهكذا فإن علاقات يوحنا كومنين بالإمارات الصليبية اتسمت بالمرارة والشك المتبادل ، ولم ينجح يوحنا في إملاء شروطه على إمارة أنطاكية ، أى أن ما اتفق عليه بين بوهمند والكسيوس في عام ١١٠٨ قد ظل حبراً على ورق .

ثانياً : علاقات يوحناكومنين بدويلات إيطاليا :

كان الكسيوس كومنين قد منح جمهورية البندقية امتيازات تجارية طائلة فى الإمبراطورية البيزنطية مقابل معاونتها له فى صراعه المرير ضد روبرت جويسكارد وولده بوهمند . ومن ثم فقد ازدهرت أحوال مستعمرة البنادقة فى القسطنطينية

Otto of Freising, loc. cit.

⁽ ۲۳)

William of Tyre, XV, xxi, pp. 591 - 92.

⁽ ٢٤)

إلى حد بات يوغر صدور الأهلين حقداً ضد هؤلاء « الأجانب » الموسرين . ويما زاد الأمورسوءا سلوك البنادقة المتعجزف في معاملاتهم مع الشعب وبذاءة لسانهم ضد فقراء القوم وأعيانهم في العاصمة . كان هذا الشعور بالسخط مدعاة لأن يرفض يوحنا كومنين تجديد الامتيازات التي منحها والده الراحل للبنادقة ولذا فشلت مهمة سفراء الدوق دومنيكو ميخائيل الذين قدموا إلى العاصمة للتفاوض مع البازيليوس الجديد .

كان الدوق قد أعد حملة صليبية إلى بيت المقدس ، ولما علم بموقف يوحنا كومنين من سفراته ، قاد صليبيته المؤلفة من ٣٠٠ سفينة و ١٥٠٠٠ رجل لحصار جزيرة كورفو البيزنطية في عام ١٦٢٢ . على أن رسالة وصلته من السلطات الصليبية في أورشليم تحثه على المسارعة برجاله وسفنه لشدة الحاجة إليهم . ومن ثم فقد رفع دومينيكو حصاره عن كورفو وأبحر قبالة الأرض المقدسة . ولقد انقضت الحملة في مسيرتها على جزائر مودون ورودس وقبرص بقصد النهب والسلب انتقاما من الإمبراطور البيزنطي .

بعد قضاء بعض الوقت في الأرض المقدسة تلبية لرغبة أمرائها اللاتين ، أبحر أسطول البندقية من هناك بغية استئناف أعمال القرصنة ضد أملاك بيزنطة بهم وبالفعل انقض البنادقة على جزيرة رودس مرة أخرى ونهبوها (٢٠) . وتعرضت جزر خيوس وسامو لل ولز بوس وأندروس لنفس المصير الذي تعرضت له رودس (١١٢٤ – ١١٢٥) . كذلك قاست مودون وشواطئ دلماشيا من قرصنة الدوق و رجاله . وفي ١١٢٦ قامت حملة أخرى جهجوم على جزيرة سيفالون .

لم يكن أسطول بيزنطة نداً اللقوة البحرية لجمهورية سان مارك . ولذا فقد آثر يوحنا كومنين فتح باب المفاوضات مع البندقية . وفي خريف سنة ١١٢٦ عقدت معاهدة بين الطرفين تقر للبنادقة كافة الحقوق والامتيازات التي سبق

^{&#}x27;Historia Ducum Veneticorum' in M.G.H.SS. Vol. XIV, pp. 74 seq. (Y o)

كذلك رأى يوحنا كومنين ضرورة عقد معاهدة ودية مع جهورية بيزا. وتطالعنا «حوليات مدينة بيزا» أنه فى عام ١١٣٧ أوفد البازيليوس يوحنا سفارة إلى بيزا تحمل الهدايا المؤلفة من ٢٠٠ بالى ومبخرتين ذهبيتين (٢٧). والواقع أن الإمبراطور قصد بهذه المعاهدة ضمان تحالف بيزا معه فى صراعه ضد روجر الثاتى ملك صقلية وأبوليا. والذى شجع يوحنا على التقرب من سلطات بيزا أنها عضدت الأمير روبرت صاحب كابوا فى تمرده ضد سيده روجر الثانى.

عادت سفارة يوحنا كومنين يصحبها السفير البيزى يوجونى دودى الذى وكل إليه مهمة توقيع المعاهدة مع البازيليوس وكذا الإشراف على مصالح الجالية البيزية في العاصمة البيزنطية.

* * *

أما عن علاقات يوحنا كومنين مع جنوة ، فلم يحدث تقارب بين الطرفين حتى قرب نهاية عهد الإمبراطور ، وذلك أثناء قيامه بحملته على سوريا عام ١١٤٢ . فلقد قدم إلى معسكر الإمبراطور في سوريا السفيران أوبرتو ديللا تورى ، وجيجليلمو ديللا بارتشا (٢٨) . ويبدو أن سلطات جنوة توقعت أن يحرز يوحنا كومنين نجاحاً مرموقاً ضد الفرنجه في الشام ، ولذا فقد سارعوا للتفاوض معه بغية تأمين مصالحهم التجارية في سوريا والأرض المقدسة وكان هذا هو الدافع الكامن وراء بعثة السفيرين سالني الذكر .

ثالثا : البلاط البيزنطي والبلاط الألماني في عهد يوحنا كومنين :

لانكاد نعلم شيئاً عن علاقات يوحنا كومنين بأباطرة الغرب قبل عام ١١٣٥ .

Ibid. (Y1)

[&]quot;Annales Pisani", in M.G.H.SS. Vol. XX, p. 240.

[&]quot;Cafari Annales' in M.G.H.SS. Vol. XVIII, p. 20.

في ذلك العام بعث البازيليوس بأحد أساقفته وأحد أدواقه سفيرين إلى الإمبراطور لوثير في مدينة مرزبورج . وقد صادف وصولهما إلى مقام الإمبراطور الألماني قدوم رسل من قبل دوق البندقية إلى هناك (٢٩) .

تم هذا التقارب بين الإمبراطورين الشرق والغربى نتيجة للتحديات الى أقدم عليها روجر الثانى ملك صقليه :

في ٢٥ ديسمبر عام ١١٣٠ تمكن هذا الزعيم النورماندى من الحصول على لقب «ملك» من البابا المعارض آناكليتوس الثانى . وبازدياد نفوذ روجر الثانى في إيطاليا تناقص سلطان الإمبراطورين البيرنطى والألمانى فيها تباعاً . ولقد فجع الرأى العام فى بيزنطة عندما وردت الأنباء بسقوط مدينة نابلى — آخر المدن الإيطالية التى كانت تؤرخ حولياتها وفق مدة حكم الأباطرة البيرنطيين — فى يد العاهل الصقلى . وهكذا بات نجاح روجر يوماً بعد يوم مبعث حزن وضيق فى القسطنطينية على مجدتالد فى الجنوب الإيطالي .

ولما كان يوحنا كومنين فى تلك الفترة منصرفاً كلية لمقاتلة الترك والهنغار والصرب ، لم يكن بمقدوره الاضطلاع بخطوات إيجابية للحد من أطماع ملك صقلية . على أنه استقبل بترحاب بالغ البارونات النورمان الذين شقوا عصا الطاعة ضد سيدهم فى عاصمته .

أرسل روجر الثانى أسطوله لنهب شواطئ الأراضى البيزنطية وجمهورية البندقية أيضاً. والواقع أن روجر كان يخطط للسيطرة على شرق وغربي حوض البحر الأبيض المتوسط لنشاط مملكته التجارى. كما أنه لم يخف أطماعه فى الشرق اللاتينى : فلقد قيل إن زواج أدليد أرملة روجر الأول من بلدوين الأول ملك أورشليم (في عام ١١٣٣) كان زواجاً دبلوماسياً قصد روجر الثانى من ورائه وضع تاج مملكة بيت المقدس على رأسه إن لم ينجم عن هذا

[&]quot;Annales Erphesfurdenses" in M.G.H.SS. Vol. VI, p. 540. (74)

الزواج وريث للعرش . كذلك بعد أن توفى بوهمند الثانى أمير أنطاكية (في عام ١١٣٠) راح روجر الثانى يطالب بهذه الإمارة لنفسه (٣٠٠). ولذا فقد اتخذ إجراءات ليمنع رايموند من بواتييه من الإبحار إلى سوريا والزواج من كونستانس ، وريثة بوهمند الثانى . ولم يفلت رايموند من هذا الحصار إلا بعد أن تنكر وأخفى شخصيته عن عيون الملك الصقلى .

رأى يوحنا كومنين فى أطماع روجر الثانى تهديداً مباشراً لمصالح بيزنطة فى الشرق والغرب . وهذا يفسر ذاك التقارب الودى الذى تم بين البلاطين البيزنطى والألمانى بهدف إبرام حلف ثنائى ضد ملك صقلية . وفى عام ١١٣٧ وصلت سفارة بيزنطية جديدة إلى لاجوبيزول لتقدم إلى لوثير مبلغاً من المال (٣١) .

رحب الإمبراطور الألمانى لوثير بعروض يوحنا كومنين لأنه من جانبه كان يرى ضرورة معاقبة الزعيم النورماندى الذى كانت مكاسبه فى جنوب إيطاليا على حساب هيبة الإمبراطور الألمانى، وهو الذى كان يرى فى نفسه الخليفة الشرعى للأباطرة الرومان . ولذا فقد قاد لوثير حملة إلى إيطاليا وهاجم مدينة بارى واستولى عليها ؛ غير أن روجر الثانى سرعان ما نقض ورجاله على المدينة واستعادها لسلطانه . وبعدها قلم روجر أظافر المتمردين ضده وقضى على ثورتهم تماما .

وفى عام ١١٤٠ عندما كان يوحنا كومنين يعد لحملته على سوريا ، أوفد سفراءه للإمبراطور الألماني الجديد كونراد الثالث ، يطلب منه تجديد المعاهدة التي سبق أن أبرمها مع سلفه اوثير الراحل . كذلك كانت لدى المسفراء البيزنطيين تعليات من سيدهم بطلب يد أميرة من البيت الحاكم الألماني للزواج من عمانويل أصغر أبناء يوحنا كومنين (٣٢) .

William of Tyre, XV, xii, p. 677.

⁽٣٠)

[&]quot;Chronica Monasterii Casinensis", in M.G.H.SS. Vol. VII, p. 833. (W)

Otto of Freising, "Gesta Friderici I Imperatoris" in M.G.H.SS. Vol. (YY)
XX p. 363.

رحب كونراد الثالث بمطلب يوحنا كومنين وأرسل كاهنه الحاص ألبرت والكونت إسكندر صاحب جراڤينا ، الذي كان قد تمرد على روجر الثانى علمواصلة المفاوضات مع العاهل البيزنطى في عاصمته . كذلك كان من مهام هذه السفارة عرض يد برتا – شقيقة زوج كونراد – للزواج من عمانويل كومنين .

وفي عام ١١٤٢ جاءت سفارة ييزنطية أخرى لحث كونراد الثالث على مهاجمة إيطاليا والانتقام من روجر الثاني، الذي راح يجدد عدوانه ضد الأراضي البيزنطية . ورداً على هذا المطلب أوفد كونراد الثالث ألبرت السالف الذكر برفقة روبرت صاحب كاپوا ، الذي كان روجر قد طرده من إمارته ، للتفاوض مع الإمبراطور البيزنطي في تفصيلات الحلف المزمع عقده بين الطرفين. كذلك أرسل كونراد رسالة إلى يوحنا كومنين ، من راتسبون ، يرحب فيها بالتعاون سويـًا ضد العدو المشترك · روجر الصقلي ، فيما اسماه « حلفا دفاعيـًا هجوميًّا » . كما أوضح فيه أن الأحوال الداخلية في ألمانيا آنئذ كانت مواتية لَقيادة حملة ضد النورمان . كذلك أوصى كونراد ــ فى رسالته هذه ــ خيراً بالألمان القاطنين في الإمبراطورية البيزنطية وبخاصة بهؤلاء الذين كانوا يخدمون في جيوشها . كما طلب الإمبراطور الألماني من حليفه البيزنطي رقعة من الأرض في العاصمة تبنى عليها كنيسة . وفي نهاية الرسالة طلب الكاتب أيضاً أن يلقى التجار الألمان الذين هوجموا على يد جماعة من الروثينيين إنصافاً وعدالة من جانب السلطات البيزنطية (٣٣) . وفي نفس العام سافرت سفارة بيزنطية إلى البلاط الألماني لتكون في رفقة الأميرة الألمانية _ برثامن سالز باخ _ في رحلتها إلى القسطنطينية.

أمام هذا الحلف الوثيق بين الإمبراطورين الشرقى والغربي وجد روجر الثانى نفسه مهدداً بقوتين كبيرتين ، لم يكن هو نداً الهما مجتمعين . ولذ فقد

(44)

طرق باب التفاوض مع البلاط البيزنطى . وبالفعل قدمت سفارة نورماندية إلى العاصمة البيزنطية ، ولكنها أتت متأخرة لأن يوحنا كومنين كان وقتها على فراش الموت (١١٤٣) .

رابعاً : علاقات بيزنطة بالبابوية أثناء حكم يوحنا كومنين :

شهد القرن الثانى عشر قيام نظام ديرانى جديد عرف بجماعة الا Cistercians الذين طارت شهرتهم فى أرجاء غرب أوربا يفضل زعيمهم الشهير القديس برنارد ده كليرفوه الذى يطل فى القرن الثانى عشر كأهم شخصية دينية وأبرز رجل سياسة فى الغرب اللاتينى على الإطلاق. وفى نفس الوقت ترأس دير كلونى العريق زعيم آخر لايقل شأناً وشأواً عن برنارد ؛ وهو بطرس الوقور . و يمثل الرجلان ثقافه الصفوة الغربية آنئذ ، كما أن كتاباتهما كانت البوق الحقيقي للكرسي البابوى . كما أن لكل مهما وجهة نظره قبالة الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها ؛ مما يعطى أهمية خاصة لمحاولة تفسير كتاباتهما فى البيزنطية وكنيستها ؛ مما يعطى أهمية خاصة لمحاولة تفسير كتاباتهما فى هذا الصدد .

فى رسالة إلى يوحنا كومنين يخاطبه بطرس الوقور على أنه إمبراطور كافة المسيحيين وأميرهم ؟ وكذا حامى حمى كنيسة الأرض كلها سواء فى الشرق أو الغرب (٣٤). وعلى هذا فيوحنا وأسلافه هم « الأباطرة الرومان » كما أن القسطنطينية قد شيدت على يد إمبراطور رومانى مسيحى قديس ، هو قسطنطين العظيم ؟ في حين أن روما قد أقيمت على يد روميلوس الوئنى . وامتدح الزعيم الكلونى جهود أباطرة بيزنطة لحدمة قضية المسيحية ضد الترك ؟ وخص بالمديح والد يوحنا – الكسيوس طيب الذكر – الذي قدم العون للصليبيين والذي منح الرهبان الكلونيين ديرا في مدينة كيفيتوت (٣٥) . وفي نهاية الرسالة يشيد بطرس وجماعة ديره بخلق يوجنا وتدينه وسماحته .

Peter the Venerable, ep. XXXIX, in P.L. Vol. CLXXXIX, cols. 260 - 62. (T !)

Ibid. (T o)

وفى رسالة موجهة إلى بطريرك القسطنطينية تحدث مقدم دير كلونى – بطرس الوقور – عن الإله الواحد والإيمان الواحد والحبة الوحيدة التي تربطه بأخيه فى الرب ، رغم تباين اللسان وبعد المسافة بينهما . كما أشاد الكاتب بالمدينة الحالدة المقدسة – القسطنطينية – منبع الإيمان وبكرسيها الرسولى مزار القديسين والإنجيليين والشهداء (٣٦) .

الجماعة الثانية من الديريين ذوى النفوذ العميق على غرب أوربا في تلك الفترة كانت منظمة السستيرشيان بزعامة القديس برنارد ده كليرفوه . كان برنارد من المتحمسين للحركة الصليبية ؛ على أن اهمامه الخاص كان بجماعة فرسان المعبد (الداوية) التي أسسها هيومن پاين (١٠٧٠ – ١١٣٦) تحت اسم « الفرسان الفقراء للسيد المسيح ولمعبد سليان » . وفي عام ١١٢٨ قصد هيو وخمسة من رفاقه منأورشليم إلى فرنسا للبحث عن متطوعين لحماعتهم، وقد حضروا المجلس الذي عقد في هذا العام في مدينة تروى . وكان القديس برنارد مشاركاً في هذا المجلس ، ولا شك في أنه قد عاونهم في الحصول على التأييد لمنظمتهم من السلطات الكنسية في الغرب . هذا وقد أتى مقاله De Laude Novae Militiae موجها إلى هيو ورجاله من الداوية . وفيه يبشر القديس بحرب مقدسة من صنف جديد يتسلح فيها الصليبي لا بالسيف فحسب وإنما أيضاً بدرع الله . والمعمدان ـ في رأى برنارد ـ لم يمنع الجند الرومان من أداء خدماتهم العسكرية ، بل وافق عليها ضمنا عندما حبهم على القناعة بأجورهم . والرجال - ابتغاء مرضاة النداء الساوى - وجب عليهم القتال : ألم يقاتل السيد المسيح ذاته - بسوطه لابسيفه - لينظف المعبد من خرى الضمائر والمنافقين وتجار السوء من اليهود ؟ . : 1

على أن برنارد عاب على الجماعات الصليبية سوء المسلك والفوضى والجشع والنهم والسلب والقرصنة وركوب الجياد المظهمة المزدانة بالحرائر ونفيس الجواهر

Peter the Venerable, ep. XL in P.L. Vol. CLXXXIX, col. 262. (77)

والافتتان بزخرف العالم وسفك الدماء بغير حق ؛ مما أدى به إلى الحجاهرة بأن جند المسيح أمسوا مكراً للشيطان (٢٧) .

وإلى جانب هذا فللقديس برنارد وجهة نظره في البابوية وحقوقها . ولقد رأى في البابا جريجورى السابع الأنموذج الأفضل للبابوات ، كما تأثر كثيراً بكتاباته ونظريته الأوتوقراطية وكذا بكتابات القديس أغسطينوس والبابا جريجورى العظيم . فهويرى في الجالس على عرش القديس بطرس الكاهن الأعظم ؛ أمير الأساقفة ؛ وريث الرسل ؛ صنو هابيل في حق البكورية ، ونوح في الفلك ، وإبراهيم في البظريركية ، وملكيصادق في الجلالة ، وهارون في الوقار ، وموسى في السلطان ، وصموئيل في التشريع ، وبطرس في حق الربط والحل . هو حامل مفاتيح الجنة والراعي الصالح ورأس المؤمنين قاطبة وراعي رعاتهم وقسيس الله المفضل الممسوح بزيته الرباني (٣٨) .

فالبابا على هذا رأس كافة الرعاة (البطارقة) لأنه خليفة بطرس أمير الرسل صاحب حق الحل والربط على الأرض وفى السياء . ومن يقاوم سلطانه يغضب الله ذاته ، ولذا وجب عقابه مهما كان مركزه ؛ علمانيًّا كان أم روحيًّا ، فهو القاضى الأوحد للمسكونة . والواقع أن هذا الكلام تأكيد جديد للنظرية الهلدبراندية ؛ ذلك لأن القديس برنارد كان معجباً الإعجاب كله بالبابا جريجورى السابع .

ونجد الرئيس الديراني نفسه يتحدث عن الكنيسة البيزنظية فيشير إليها يأصابع الاتهام معيباً عليها القطيعة والانشقاق عن الكرسي الرسولي ، منهاً إلى ما شابها من هرطقات قديمة . وهو على هذا يستنفر البابا لتقويم هذا الاعوجاج البيزنطي بكل قوة لينقذ العقيدة المسيحية من خطر الانحراف

St. Bernard de Clairvaux, De Laude Novae Militiae', V, 9, col. 1256 in (♥ V)
J. Mabillon's Opera Omnia, ■ Vols. Paris, 1839.

St. Bernard', De Consideratione' lib. II, cap. viii, 15, col. 1032, in Opera (TA). Omnia.

والهلاك . والحدير بالملاحظة أن برنارد يضع البيزنطيين جنباً إلى جنب فى صده التقريع مع الكفار والوثنيين واليهود ، مشبها إياهم «بكلاب الضلال وذئاب التدليس » (٣٩) .

ولذا نجد القديس برنارد يحث تلميذه يوجينيوس الثالث الذي كان آنتذ جالساً على عرش البابوية على أن يستخدم «سيفي» القديس بطرس الرسول لهدم الضلال وتقليم أظافر الانفصاليين : وهو بهذا يعنى الكنيسة البيزنطية وبطريركيتها (٤٠) .

* * *

فتح يوحنا كومنين باب المفاوضات مع الكرسي الرسولي ؛ مبدياً استعداده لمناقشة موضوع وحدة الكنيستين البيزنطية والرومانية . ويجب التنبيه هنا إلى أن هذه المبادأة من جانب يوحنا كومنين كانت تستهدف في المقام الأول مصالحه السياسية في الغرب ، وكذا متابعة لحلم غال على آل كومنين ؛ وهو محاولة استرجاع التاج الروماني من الأباطرة الألمان . وفي يونيو ١١٢٤ كتب الإمبراطور البيزنطي إلى البابا كالكستوس الثاني رسالة ودية ملؤها الغيرة على وحدة الكنيستين والمرارة التي يكابدها إذ يعاينهما على حال من الشقاق والقطيعة (٤١) .

توفى البابا كالكستوس فى عام ١١٢٤، وخلفه على العرش البابوى هونوريوس الثانى (١١٢٤ – ١١٣٠). فأرسل يوحنا كومنين إلى البابا الجديد رسالة (فى أبريل ١١٢٦) عبر فيها مرة أخرى عن رغبته فى وحدة الكنيستين . على أنه أكد فى هذا المضار مبدأ السيفين اللذين سلمهما الله للسلطتين الدنيوية والروحية ؛ فهو بهذا يطالب لنفسه بما أقره السيد المسيح لقيصر : (اعط

De Consideratione III, i, 2 - 4, cols. 1040 - 42. (٣٩)

St. Bernard of Clairvaux, cp. CCLVI, cols. 538-40, in Opera Omnia. (1.)

A. Theiner and F. Miklosich, Monumenta Spectantia ad Unionem Ec- (ξ) clesiarum Graecae et Romanae Maiorem Partem e sanctoribus Vaticani Tabularis, Vindobonae, 1872, pp. 2 - 3.

ما لقيصر لقيصر وما لله لله) (٢٤٠). على أن الجهود بغية تحقيق الوحدة لم تتعد تلك الرسائل الودية بين الطرفين ، بمعنى أنه لم يتخذ جانب منهما خطوات إيجابية لتحقيق ماورد في تلك الرسائل .

والواقع أن يوحنا كومنين كان يبغى من وراء تلك النغمة الودية التي خاطب بها البابوية مساندتها له في مشروعاته في غرب أوربا . ولكن حقيقة الموقف والمشاعر بين الكنيستين لاينبغي تقصمها في سياسة آل كومنين وإنما فى اتجاهات وكتابات رجال الأكليروس بيزنطيين ولاتين معا . فني عام ١١٣٦ عرج أنسلم من هافلبرج على القسطنطينية ، وهناك دخل في جدال ديني مع نيكيتاس رئيس أساقفة نيقوميديا . وفي هذا الجدل تبادل الطرفان الآنهامات في المسائل العقائدية والطقوسية ، كما حمل نيكيتاس حملة شديدة على مزاعم اليابوية في إمرة الكنيسة (٤٦) . وفي يوليو ١١٣٧ وصل سفراء يوحنا كومنين إلى بلاط الإمبراطور الألماني لوثير لتهنئته على انتصاره ضد روجر الصقلي ولتقديم الهدايا الإمبراطورية إليه . وكان من بين أعضاء هذه السفارة البيزنطية أحد الفلاسفة من اللاهوتيين الذي أعلن على مسمع من الجميع أن « البابا الروماني ليس برجل دين وإنما إمبراطور "(الله على الله يؤكد أن الكهنوت اللاتيني واقع تحت لعنة الحرمان بسبب استخدام الخبز الغير مختمر في شركة التناول . على أن أحد رجال الدين اللاتين وهو بطرس الشهاس ــ وهو علم من أعلام مونت كاسينو - كان حاضراً في البلاط ، فتصدى للفيلسوف البيزنطي ، ودار بين الاثنين حوار حاد اللهجة به إصرار من الطرفين على لعن الآخر ووضعه في عداد الهراطقة . والحلاف الذي لا تهاود فيه بين الكنيستين - على لسان هذين المتجادلين - هو تحريف اللاتين لقانون الإيمان النيقي في إضافة الغرب لعبارة « انبثاق الروح القدس من الابن أيضاً » ؛ بينما

Ibid., pp. 5 - 6. (17)

Ibid., p. 4. (£٣)

Chronica Monasterii Casinensis', in M.G.H.SS. Vol. VII, p. 833. (£ £),

يعيب اللاتين على البيزنطيين إنكار ما لله الأب من طبيعة ، في مجال انبثاق الروج القدس ، على الابن ؛ مما يضعه بالضرورة في جوهر دون الجوهر الإلمي الكامل (٥٠٠) .

هذا وفى موقف البابوية تحاه سياسة يوحنا كوه نين فى الإمارات الصليبية في المرارات الصليبية في مايلتي ضوءاً أكثر على حقيقة المشاعر. يحدثنا أودو دى دويل أن يوحنا كومنين بعد أن استولى على طرسوس وما مسترا فى كيليكيا ، طرد الأساقفة اللاتين من كافة مدنها وعين بدلا منهم يونانيين هراطقة (٤٦٠).

ولما علم البابا أنوسنت الثانى بهذا ، أصدر قراراً بابويتًا فى ٢٨ مارس ١٦٨ م يحض فيه المرتزقة من اللاتين فى خدمة يوحنا كومنين على التمرد ضده ، إذا هاجم أنطاكية ؛ مهدداً من لا ينصاع للأمر بلعنة الحرمان (٤٧).

ليس بمستغرب إذن أن نجد لاهوتى بيزنطة والمشتغاين بالقانون الكنسى في القرن الثانى عشر ينظرون بازدراء إلى مزاعم البابوية وتحدياتها لبطريركية القسطنطينية . ولعل أشهر ماكتب في هذا الصدد مقالة أهداها نيلوس دوكسوپاترس إلى روجر الثانى ملك صقلية في عام ١١٤٣ . وفيها يتحدث الكاتب عن مركز القسطنطينية الفريد كعاصمة للإمبراطورية الرومانية المسيحية ، وكبيت للبطريركية المسكونية . أما عن روما فقد فقدت إمرتها على الكنائس بعد وقوعها في يد المتبربرين (٤٨١) . وهذا البرهان الذي اعتمد عليه نيلوس وغيره من كتاب القرن الثانى عشر يقوم أساساً على ما ورد في القانون عليه نيلوس وغيره من كتاب القرن الثانى عشر يقوم أساساً على ما ورد في القانون الثامن والعشرين من قرارات عجلس خلقدونية (٤٥١) الذي سبق ذكره .

Ibid. $(\xi \circ)$

Odo of Deuil, De Profectione Ludovici VII in Orientem (ed. G. Berry) (4%)
New York, 1948. IV, p. 70.

P.L. Vol. CLXXX, cols. 354 - 55. (१४)

Nilus Doxopatres 'Notitia Patriarchatum', in P.G. Vol. GXXXII, cols. (\$\lambda\) 1100 - 1101.

الفصل السابع بيزنطة والحملة الصليبية الثانية

تمهيد

أصيب الإمبراطور يوحنا كومنين بسهم مسموم وهو فى رحلة صيد فى كيليكيا المسلم على حياته . وكان الإمبراطور الراحل قد اختار عمانويل أصغر أبنائه ليخلفه على العرش بأن وضع بيديه ، فى اللحظات الأخيرة من حياته ، التاج الإمبراطورى . على رأس ولده (إبريل ١١٤٣) .

وعمانويل واحد من أمجد أباطرة بيزنطة : وهو إذ يطل من بعض الجوانب عملاقاً بيزنطيًّا في ملامحه وسماته ، نلمس فيه أيضاً نتاجاً للحضارة الغربية اللاتينية . وكان عمانويل في هذا يحاكى بعض الفرسان اللاتين من أبناء القرن الثاني عشر الذين دربوا على التقاليد الفروسية ، ويذهب البعض في هذا إلى حد مقارنته بالملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد . والواقع أن افتتان عمانويل بمثل الفروسية . العليا وزواجه من أميرتين لاتينيتين أنبت في وجدانه حبيًّا وتفضيلا خالصين .

ولذا فلقد وفد على بلاطه عديد من اللاتين من جرمان وفرنجة ونورمان. وإيطاليين وإنجليز وهم على ثقة من النزول أهلا وسهلا فى القسطنطينية سواء أقاموا بخدمة العاهل البيزنطى فى بلاطه أو فى جيشه . ومع جهل هؤلاء المرتزقة اللاتين. باللسان اليونانى ، إذ كانوا « يبصقون أفضل مما ينطقون » ، إلا أنهم نجحوا باللسان اليونانى ، إلا أنهم نجحوا من المناصب فى الإدارة والحكومة ؛ الأمر الذى أثار نار الحقد فى قلوب شعب العاصمة الإمبراطورية . ولقد أجج من نار هذه الكراهية للاتين ما صارت عليه من ثراء فاحش تلك الجاليات الجنوية والبيزية و حماعة البنادقة الذين استقر وا واستمرءوا فى القسطنطينية .

روما وبيزنطة

كان عمانويل كومنين مهتما بالآداب هو وزوجه ورجال بلاطه ؛ ولذا فقد التف حوله خيرة مثقني عصره وفلاسفتهم . من طراز تزاتزيس، وقسطنطين ماناسيز وغليكاس وأحد الأخوين برود روموى . هذا وفي عهد عمانويل أتمت الأميرة آناكومنينا ملحمتها الرائعة «الكسياد» ، كمل حذا حذوها الكاتبان زوناراس وغليكاس ؛ وفي نفس الآونة جمع المؤرخان الكبيران يوحنا كناموس ، ونيكيتاس كونياتس المادة اللازمة لتاريخهما .

على أن عمانويل كومنين لم يكن على وفاق مع الكنيسة البيزنطية . فنجد فيكيتاس كونياتس ينتقد جرأته في الخروج على النصوص الواردة في الكتاب المقدس وتراث الآباء الباكرين (۱). ومن قبيل ذلك اضطهاد عمانويل البطريوك ثيودوزيوس الذي انتقد تفسيرات الإمبراطور لبعض النصوص الإنجيلية . كذلك عمد البازيلوس إلى سمل عيون ميخائيل غليكاس لأنه فند ما كتبه الأول في التنجيم كذلك عيب على عمانويل جهوده في التقليل من شأن الكنيسة كمؤسسة ذات شعبية عريضة . ولعل من أشهر أمثلة استخفافه بتقاليدها أنه أقدم على اصطحاب مسلطان قونية التركي الذي كان في زيارة رسمية للقسطنطينية الزيارة كنيسة أياصوفيا ، مما أزعج بطريركها (۲) هذا وفي المجامع التي دعيت لها كمة الهراطقة كانت قرارات عمانويل وحدها هي فيصل القول ، وكان على أكليروس أياصوفيا ابتلاع آرثهم الخاصة . على أن الذي أثار رجال الكنيسة البيزنطية بشكل خاص ابتلاع آرثهم الخاصة . على أن الذي أثار رجال الكنيسة البيزنطية بشكل خاص الإمبراطور في هذا إلى حد راح فيه يساوم روما على الاعتراف به امبراطوراً ومانياً مقابل إخضاعه بطريركية بيزنطة لسلطان خلفاء القديس بطرس الرسول . وقد جلبت تلك السياسة على العاصمة البيزنطية تو تراً شديداً هدد شعبية عمانويل وقد جلبت تلك السياسة على العاصمة البيزنطية تو تراً شديداً هدد شعبية عمانويل وقد جلبت تلك السياسة على العاصمة البيزنطية تو تراً شديداً هدد شعبية عمانويل

Nice. 2 Chonitates Historia, (C.S.H.B.) 'De Manuele, Bonn 1835, VII, (1) v, pp. 274 - 75.

John Kinnamos, Epitome Historiarum (C.S.H..B.) Bonn, 1836, V, iii, p. 206. (7)

ذاته . ولعل في هذا بعض من إجابة للسؤال الذي حير جماعة المؤرخين في تعليل. العداوة الفجائية التي رمى بها عمانويل اللاتين ، عندما استنفر غوغاء العاصمة. لسلب حي البنادقة في العاصمة وعندما أمر بسجن وجهاءهم في معتقلاته .

ومهما كان الأمر فإن عمانويل كومنين كان معجباً باللاتين حريصاً على توظيفهم في امبراطوريته مفضلا إياهم — على حد تعبير وليم الصوري — على « رجاله المخنثين (٣) » . ونجد من بين خلصائه اللاتين الكسندر كونڤرسانو كونت جراڤينا اللي كان قد تمرد ضد سيده روجر الثاني ملك صقلية . وكان الكسندر هذا قد بلحاً إلى بلاط كونراد الثالث الألماني ومن هناك وفد على القسطنطينية في مهمة دبلوماسية . غير أنه قرر البقاء في بيزنطة وعينه عمانويل قائداً للجند المرتزقة النورمان في خدمته والمعروفين في الحوليات البيزنطية باسم « الكلت » . وقد وكل عمانويل إليه مهام خطيرة من قبيل مقابلة ملك فرنسا وألمانيا القادمين على رأس الحملة الصليبية الثانية . كما وأنه مثل الإمبراطور أيضاً في المباحثات التي كانت الحملة الصليبية الثانية . كما وأنه مثل الإمبراطور أيضاً في المباحثات التي كانت الحملة الصليبية الثانية . كما وأنه مثل الإمبراطور أيضاً في المباحثات التي كانت الحملة المعاهدة مع ملك بيت المقدس اللاتيني والتي بمؤداها تقرر أول هجوم بيزنطو — المعاهدة مع ملك بيت المقدس اللاتيني والتي بمؤداها تقرر أول هجوم بيزنطو — المعاهدة مع ملك بيت المقدس اللاتيني والتي بمؤداها تقرر أول هجوم بيزنطو — المعاهدة مع ملك بيت المقدس اللاتيني والتي بمؤداها تقرر أول هجوم بيزنطو — المنتيني على مصر (عام ١٦٠١) .

هذا ولقد كان سفراء عمانويل إلى لويس السابع والبابا اسكندر الثالث من اللاتين العاملين فى خدمته . كما كان بلاطه عامراً بالمترجمين اللاتين وعلى رأسهم ثيوفيلاكت ، وميخائيل من أوترانتو ، وليو من تسكانا الذى ترجم صلاة قداس القديس يوحنا خرايز وستوم إلى اللاتينية .

* * *

عندما توفى يوحنا كومنين (١١٤٣) غزا رايموند ، أمير أنطاكية الصليبي ٤ بعض المناطق المتاخمة لإقليم كيليكيا (٤) ومع أن قوات عمانويل استعادت ما نهبه رايموند ، ورغم قدوم هذا الأخير إلى القسطنطينية للاعتذار ولأداء يمين.

William of Tyre, op. cit., XXII, x, p. 107.

Kinnamos, I, iii, p. 33. ()

الولاء والطاعة ؛ إلا أن عمانويل كان موقناً أنه لن يتم له إرساء سلطانه في الشرق اللاتيني حتى يجد حليفاً قوياً في الغرب في مقدوره تقليم أظافر ملوك صقلية النورمان. وهذا هو الدافع الأساسي لذاك التقارب الذي تم بين البلاطين البيزنطي والألماني خاصة في عهد عمانويل كومنين. فني أوائل ١١٤٥ أرسل عمانويل سفيره نقفور محملا بالهدايا للإمبراطور كو زراد الثالث ؛ ليطلب منه ٥٠٠ فارساً للخدمة في الجيش البيزنطي • وأيضاً ليبلغه رسالة شفوية من قبل العاهل البيزنطي . ولما استمع كونراد إلى هذه الرسالة الشفوية على لسان نقفور حكما تقولى المصادر المعاصرة — « استشاط غضباً وأقسم أنه لو كان ولده هنرى قد ذبح أمام بصره لما كان ليتألم هذا الألم الذي أحدثه كلام نقفور » (٥) .

واقد حيرت هذه المسألة كتاباً كثيرين ، إذ لا ندرى تماما فحوى ما قاله نقفور لكو نراد فأغضبه على هذه الشاكلة . على أن ردكوفراد على عمانويل قد يلتى بعض الضوء على أعماق هذا الموقف الصعب : نجد في هذه الرسالة أن كوفراد يخاطب عمانويل على أنه مجرد «ملك يوناني» لا كامبراطور روماني (١). ولنا أن نتساءل : هل رفض عمانويل مخاطبه كوفراد كإمبراطور روماني في بادئ الأمر(٧) ؟ أم أن هناك مسائل أخرى أدت إلى ثورة العاهل الألماني؟

يبدو أن السفير نقفور قد ذكر شيئا على لسان سيده فى أمر خطيبته الألمانية

برتا سشقيقة زوج كونراد . والمعروف أن برتا قد وصلت بعد خطبتها العمانويل إلى القسطنطينية ولم يكن وقتئد ولياً للعرش ؛ ولكن بوفاة شقيق عمانويل الأكبر سالكسيوس سوضحت فرصته لحمل التاج البيزنطى . ومن ثم فقد راح سأغلب الظن سليمث عن أميرة غيرها كزوجة له عناصة وأن والده لم يكن واضياً تماماً عن هذا الزواج ، وإنما كان راغباً فى تزويج ابنه من أميرة من الدم الملكى الخالص .

Otto of Freising, Gesta Friderici I Imperatoris, I, XXV. (•)

Ibid. (٦)

See P. Lamma, Comneni ■ Staufer, Rome, 1955 - 57, I, p. 51.

ويحتمل أن نقفور قد طلب زوجة لسيده من الدم الملكي الحالص بدلامن برتا؟ مما أثار كونراد عليه . ومما يؤيد ذلك أن كونراد في رسالته لعمانويل أولى أهمية خاصة لموضوع برتا مؤكداً أن هذا الأمر قد اتفق عليه وأن زواجها من عمانويل لابد وأن يتم (٨) .

وبالفعل تم زواج عمانويل كومنين من برنا الألمانية في عام ١١٤٦ . وقد رأى الكاتب برودروموس في اقتران الأميرة الجرمانية بخليفة قسطنطين شرفاً زائداً لكونراد الثالث والألمان ، مشيراً ضمنا إلى علو شأن بيزنطية بالنسبة إلى ألمانيا (١٠) وكان الشعور في البلاط الجرماني أن هذا الزواج الميمون لبنة في التضامن بين الإمبراطورين من أجل «إعلاء اسم المسيح حتى تلهيج به كل الألسن في المسكونة (١١٠) . ولقد وعد كونراد صهره عمانويل بأنه يكون صديقاً لأصدقائه المسكونة الأعداءه، وأنه سينظر إليه «كابن عزيز للأسرة الجرمانية الملكية » . كذلك عرض كونراد إرسال ٢٠١٠ فارس من رجاله لخدمة بيزنطة ، ووعده بمعونة القوات الألمانية جميعاً إذا مادعت الضرورة إلى ذلك (١١) .

كانت السلطات البيزنطية تعقد على هذا الزواج آمالا عراضا في التعاون بين الإمبراطوريتين لتقليم أظافر ملك صقلية . غير أن هذه الآمال كانت سراباً الذسرعان ماتوافدت الأنباء من الغرب عن اقتراب جحافل الحملة الصليبية الثانية صوب العاصمة البيزنطية ؟ مما أدى إلى توتر بين السلطات البيزنطية وقائدى الحملة كونراد امبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا .

* * *

ف ٢٣ نوفمبر ١١٤٤ هجم عماد الدين زنكى على مدينة الرها واستردها من الصليبيين . وبسقوط الرها في يده باتت مملكة بيت المقدس ذاتها مهددة بالخطر ؟

Otto of Freising, op. cit., I, xxiv.	•	۸)
P.G. Vol. CXXXIII, col. 1360.	(۹)
Otto of Freising, loc. cit.	((۱۰
Ibid.	(11)

وتوقع الرأى العام فى الإمارات اللاتينية الباقية أن يكون غزو أنطاكية الخطوة التالية لهذا القائد المسلم فى مخططه الواسع. ويحدثنا أوتو من فريزنج أن أسقف جبلا وصل إلى روما « وعيناه قد اغرورقت بالدموع يحذر سامعيه من الخطر المحدق بالكنيسة فيا وراء البحار نتيجة لسقوط الرها ؟ ومبديا رغبته فى عبور جبال الألب ليستعطف ملكى الألمان والفرنسيس لاستنقاذها (١٢) ».

وقى ٢٥ ديسمبر ١١٤٥ أعلن لويس السابع ملك فرنسا عن عزمه لحمل الصليب ، وأبرق للبابا يوجينيوس الثالث بقصده هذا . فأمر البابا بكلام «أحلى من العسل » سائر المؤمنين تلبية مبادأة صاحب الجلالة ، وخطط لوضع زوجات وأطفال من يسير و راءه في الحملة الصليبية تحت الحماية البابوية ذاتها . ولقد عبر يوجينيوس عن تحرقه ذاتياً للتبشير بالحملة لولا « طغيان سيده الجبار » ويقصد الشعب الروماني اللي لميكن ليكف عن مناوأته للبابا . ولذا فقد وكل مهمة التبشير بها إلى معلمه القديس برنارددي كليرفوه ، الذي كان لسان حال الكرسي البابوي آنذاك .

ولقد أصدر البابا يوجينيوس الثالث مرسومين: أولهما في أول ديسمبر ١١٤٥ موجها إلى لويس السابع والأمراء وسائر المؤمنين، في غالة ؛ والثاني في أول مارس ١١٤٦ موجها إلى « المؤمنين » على الإطلاق في غالة أيضاً ، يدعوهم فيه إلى الإنخراط في الحملة الصليبية . وفي يوم أحد الشعانين (الخوص) الموافق ٣٦ مارس ١١٤٦ اجتمع جمع كبير في مدينة فيزيلاي حيث تلقى الملك الفرنسي مارس ١١٤٦ اجتمع جمع كبير في مدينة فيزيلاي حيث تلقى الملك الفرنسي الصليب الخاص الذي بعث به البابا لهذه المناسبة من يد القديس برنارد . واعتلى القديس المنصة أمام هذا الجمع الغفير وسحرهم ببيانه وحماسه فسارعوا لتلبية دعوته لهم لحمل الصليب ؛ وكان على رأس هؤلاء الملكة إليانور الأقطانية ، وثيودوريك كونت فلاندرز ، وهنري ابن ثيو بالد كونت بلوا ، ورو برت شقيق وثيودوريك كونت فلاندرز ، وهنري ابن ثيو بالد كونت موريين ، ووليم كونت الملك لويس السابع ، وعمه آماديوس الثالث كونت موريين ، ووليم كونت

نيفيرز ، وارتشيبالله كونت بوربون ، وانجير رانله من كوسى ؛ ثم الأساقفة جود فرى من لاروش ، وارنولف من ليزييه . ولقد تقرر فى هذا المجمع تكوين حملة صليبية ضخمة لمقاتلة عرب لشبونة ، والسلاف على نهر إلب ، والأتراك فى آسيا الصغرى والأراضى المقدسة (١٣) . وقد حدد موعد رحيل الحملة فى مارس من العام التالى (١١٤٧) .

على أن الجماهير الشعبية لغرب أوربا اللاتيني كانت تحتاج ، لكى تنخرط في حركة صليبية جديدة ، إلى نداء علوى من الساء مثلما ألفوا وقت بطرس الناسك ورفاقه .

يحدثنا أوتو من فريزنج عن راهب يدعى راؤول ظهر فى أراضى الراين واستنفر الآلاف فى كولون ومينز وورمز وستراسبورج وسبايرز لحمل علامة الصليب، حاثا إياهم على ذبح اليهود « الأعداء الحقيقيين للصليب ومسيحه »؛ فانقضوا عليهم نهبا وتقتيلا . على أن القديس برنارد غضب من هذا المسلك وراح يهاجم راؤول رغم أنه كان من أبناء جماعة السيسترشيان الديرانية ، ورغم موافقة رئيس ديره لوبز من هينولت على هذا التصرف (١٤٠) .

وجدير بالذكر هنا أن لويس السابع قد فرض ضريبة صليبية على أتباعه الإقطاعيين من علمانيين وأساقفة ، وكذا البيوتات الدينية . غير أنه لم يطلب من يهود غالة المساهمة في حملته الصليبية ؛ الأمر الذي أغضب مقدم ديركلوني بطرس الوقور — فكتب إليه يقول بأن « الذين تستوجب عليهم الجباية في هذه المناسبة بالذات هم اليهود الملاعين » الذين اضطهدوا المسيح وصلبوه وأراقوا دمه. ثم لامه على إعفائهم من الضريبة رغم ثرائهم الفاحش وكنوزهم المكدسة . على

(11)

E. Vacandard, Vie de St. Bernard Abbé de Clairvaux, 2 Vols. Paris, 1895, (\\mathbf{r})
I, p. 301.

Otto of Freising, Gesta, I, 38.

أنه أوضح أنه لا يطالب بقتلهم وإنما بجباية الضريبة منهم تكفيراً عن جرمهم ضد المسيح والمسيحية (١٥) .

يقص علينا السجل المعروف باسم Liber miracularum ، وهو يحوى تسجيلات رفاق القديس برنارد عن رحلاتهم في غرب أوربا ، المنجزات التي حققها القديس في أسفاره للتبشير بالحملة: فلقد زار مدائن فلاندرز = وآراس، وڤوسى ؛ ولى دين ، وكليرماريه ، وبروج ، وأفلجهم ، وجمبلوني ، وڤىللىر ز ، ومينز ، وكونستانس ، و في مدينة فرانكفورث التقي بكونواد الثالث ملك الألمان ؛ غير أن العاهل الألماني وقتها أعلن أنه لن يتمكن من المشاركة في الحملة . و بعدها يمم برنارد صوب شافهاو زن 🔹 وڤنترثور وغيرهما من المدن . ويحدثنا جودفري كاتب سيرة القديس أنه أينها حل سيده كان لسانه ينطق قَدْسية وتقى من الطراز العلوي (١٦) وفي مدينة سيايرز لتى القديس الملك الألماني للمرة الثانية وأخذ يستميله إلى قيادة حملة صليبية أسوة بالملك الفرنسي. وقد اتفق أن حضر هذا الاجتماع بين الرجلين سفراء من البلاط البيزنطي كانوا قد وفدوا للتفاوض على حملة مشتركة ضد النورمان في صقلية . وبينها كان أحد السفراء البيزنطيين منشغلا في الحديث مع القديس برنارد ، تقدم قوم بامرأة. ضريرة إلى مجلس القديس ؛ فما إن لمسها بأنامله حتى رفعت عنها غشاوة بصرها ورأت النور . ويقول نفس المصدر ــ جودفري ــ أن السفير البيزنطي ذهل ما رآه (۱۷) .

ويروى مانريكيه أن القديس بعد أن اختتم صلواته للعذراء بقوله « أيتها. الرحيمة التقية الخلوة ماريا » ألتى بنفسه أرضاً ثلاث مرات أمام أيقونتها في الكاتدرائية ، فحياه جمهور المصلين صارخين « طوباك يابرنارد » . وفي

Peter the Venerable, cp. XXXVI in P.L. Vol. CLXXXIX. (10)

Vita Bernardi, VI, i, 4, 15, in P.L. Vol. CLXXXV. (17)

Idem. (\Y)

حفل قداس الروح المقدس اعتلى الرجل منبركاتدرائية سبايرز وفتح فاه وتكلم فحرك شغاف القلوب. وهنا انفعل كوزراد وابن أخيه فردريك بربروسا وعديد من أسياد القوم ؛ فحملوا جميعاً علامة الصليب (١٨٠). وفي مدينة كولون خرجت جموع البشر للقياه وللحملقة في وجهه . وهناك أقام المعجزات وشفى المرضى وهم كثيرون ؛ فصاح الجمع صارخين :

Christ, uns gnade ! Kyrie, eleison ! Die Heiligen alle helfen uns. (19)

و بعد عدة رحلات أخرى فى غرب أو ربا وصل القديس إلى شالون ــ سير ــ مارن حيث التقى بلويس الصغير وسفراء من قبل كوزراد الثالث وولف زعيم الحولف . وفى نهاية المطاف ، فى فبراير ١١٤٦ ، وصل إلى مقره فى كليرڤوه .

* * *

أعد لويس السابع لحملته الصليبية باتصالات دبلوماسية واسعة النطاق ؟ فني أغسطس ١١٤٦ أرسل سفراءه ميلون من شفريز وراهبين من الداوية إلى البلاط البيزنطى . وقد سلم هؤلاء المبعوثون رسالة ودية من سيدهم وأخرى من البابا يوچينيوس الثالث إلى عمانويل كومنين . وقد طلب صاحبا الرسالتين من العاهل اليزنطى تسهيل مهمة الصليبيين في عبور أراضى الإمبراطورية وتزويدهم بالمؤن اللازمة مقابل ثمن معقول . كما تلقي عمانويل في نفس الوقت رسالة من القديس برنارد يوصيه فيها خيراً بهنرى ابن الكونت ثيوبالد من شمباني وبرجال الحملة الصليبية عامة التي يقودها لويس السابع بتعضيد وبركات من السيد البابا . ولقد عبر القديس عن كبير أمله في جهود عمانويل لمناصرة قضية المسيحية مثلما فعل أجداده ، كما وأنه أكد في مكتوبه أن عمانويل كومنين المسيحية مثلما فعل أجداده ، كما وأنه أكد في مكتوبه أن عمانويل كومنين المسيحي شرقيه وغربيه » (۲۰) . ولا ندرى إذا ما كانت هذه العبارة

Ibid. (1A)

Ibid. (14)

St. Bernard, ep. 462, in Opera Omnia, cols. 771 - 73. (Y.)

على لسان برنارد مجرد مجاز برناردى أنيق من طراز الإطراء المبالغ فيه ، أم أنه حقيقة كان يقصد ما قد كتب .

أرسل عمانويل كومنين برسالتين وسفارة إلى البابا يوجينيوس الثالث رداً على مكتوبه السابق موضحاً فى الأولى استعداده لتسهيل مهمات الصليبيين إن هم وافقوا على أداء يمين الولاء والطاعة له مثلما جرت العادة على عهد أسلافه (٢١). وفى الرسالة الثانية طلب الإمبراطور من البابا إيفاد أحد كرادلته مندوبا بابويسا مع الحملة الفرنسية ليحول دون إيقاع الصليبيين ضرراً بأراضيه وشعبه ما عرج على موضوع الوحدة بين الكنيستين (٢٢). أما رسالته إلى لويس السابع ففيها تأكيد واضح عن استعداده للتعاون مع لويس بنفس الشروط السابقة . والمهم في هذه الرسالة الأخيرة أن عمانويل يلقب نفسه بلقب « العاهل المولود فى العباءة الأرجوانية ، امبراطور الرومان الأغسطس » (٢٣). وهذا أمر له دلالته عند مخاطبة واحد من أقوى ملوك غوب أوربا آنداك .

هذا وجدير بالذكر هنا أن روجر الثانى ملك صقلية كان مدركا للنفع الذى سيعود عليه إن هو شارك فى هذه الحملة الصليبية بجهده ونفوذه . ولذا فإنه قد أوفد سفراءه إلى المؤتمر الذى عقد فى مدينة ايتامپ (١٦٠ – ١٨ فبراير ١١٤٧) ليعرضوا على المؤتمرين استعداد سيدهم لنقل الصليبيين إلى سوريا على سفنه وكذا تزويدهم بالمؤن اللازمة لهم طوال الرحلة . كذلك وعد بأن يشارك هو ذاته أو أحد أولاده فى الحملة (٢٤) ولقد كان رسل عمانويل كومنين وكذا سفراء كونراد

F. Dölger Regesten der Kaiserurkunden des ostromischen Reisches, II, (YY) Monaco, 1921 n. 1348, ed. in S. Lampros pp. 112 - 14.

W. Ohnsorge, Ein Beitrag zur Geschichte Manuels I Von Byzanz Festschrift für Albert Brackmann (ed. L. Santifaller Weimar1931)pp. 391-93.

R.H.G., Vol. XVI, pp. ■ - 10. (۲۳)

Odo of Deuil, De Profectione Ludovici VII in Orientem (ed. V.G. Berry) (Yt)

I, p. 14. Odo was a monk of St. Denis from Deuil in the valley of

الثالث من بين الحضور في هذا المؤتمر. وقد عرض رسل عمانويل شروط سيدهم وأهمها أداء قادة الحملة الفرنسية بمين الولاء والطاعة له . وهنا تصدى الوفد النورماندى للبيزنطيين وراحوا يشككون في نوايا الإمبراطور البيزنطي . على أن سفراء كونراد الثالث قابلوا هذه المظاهرة النورماندية بفتور شديد مما قلل من شأنها . وفي نهاية الأمر قرر لويس السابع قيادة حملته عبر الأراضي البيزنطية ، أي أنه رفض عروض روجر الثاني . وهنا يحدثنا مؤرخ هذه الحملة أودودى دويل حن سخاء عروض روجر ، بينا يحجم عن ذكر اسم امبراطور القسطنطينية في كتابه لأنه قد أسقط من سجل الحالدين لحيانته للحملة الصليبية «الثانية» ؛ كتابه لأنه قد أسقط من سجل الحالدين لحيانته للحملة الصليبية «الثانية» ؛ كا أنه يعيب على سيده ثقته في بيزنطة التي أودت بشباب فرنسا وتآمرت على هلاكهم (٢٥) .

كانت الحملة الصليبية الثانية تختلف عن الأولى من حيث أن قائديها كانا أقوى ملكين في غرب أوربا: لويس السابع وكونراد الثالث. على أنه على عكس ما كان يتوقع كان المشاركون في هذه الحملة على نفس القدر من السوء الذي تميزت به الجماعات المشاركة في الحملة الصليبية الأولى. ففي الحولية المعروفة باسم Annales Herbipolenses نطالع أن كثيرين من المشاركين في هذه الحملة كانوا لا يصلحون البتة لمثل هذه المهمة بسبب أوضاعهم الاقتصادية ، كما أن بعضهم تظاهر بالتي والحماس الديني وإن كانوا في حقيقة أمرهم من المنافقين الحناتلين (٢١). كذلك نجد في كتابات جرهوه بعنوان كانوا في حقيقة أمرهم من المنافقين الحناتلين أميناً لجند الصليبية الثانية : فهم من فئات العبيد والأقنان الهاربين من التزاماتهم ومن جماعات لا تفهم شيئاً في فن القتال ومن المفلسين وقطاع الطرق من التزاماتهم ومن جماعات لا تفهم شيئاً في فن القتال ومن المفلسين وقطاع الطرق

Montmorency. He was Louis VII's chaplain for the Second Crusnde. In 1149 he returned with Louis to France. In 1152 when Suger died Odo became the Abbot of St. Denis.

Ibid. (Yo)

Annales Herbipolenses, in M.G.H.SS. Vol. XVI, an. 1147.

وجميعهم كانوا قد حملوا الصليب أملا في النهب والسلب والغنم (٢٧).

عندما أرسل عمانويل كومنين سفراءه للتفاوض مع لويس السابع في الشروط التي أصر عليها الأول لتسهيل مهمة عبور الفرنجة أراضي الإمبراطورية البيزنطية في لم يكن كونراد الثالث قد قرر بعد حمل الصليب والارتحال إلى الشرق ، فلما وفدت الأنباء إلى البلاط البيزنطي بأن الملك الألماني أيضاً قد قرر المشاركة في الصليبية استشاط الإمبراطور البيزنطي وحكومته غضباً لهذا القرار . إذ أن ذلك كان يعني مضاعفة في العب اللي كانت الإمبراطورية لا بد وأن تثقل به أثناء عبور أكبر جيشين في غرب أوربا : الفرنسي ثم الألماني . والمسألة التي باتت تقلق عمانويل هي أنه علي حين أن لويس كان قد أرسل ما يفيد قبوله لشروط بيزنطة في قسم يمين الولاء والطاعة للبازيليوس، لم ير العاهل البيزنطي كيفية ما يعامل بها في قسم يمين الولاء والطاعة للبازيليوس، لم ير العاهل البيزنطي كيفية ما يعامل بها الإمبراطور الروماني المقدس كونراد الثالث . كما أن قبول كونراد مؤخراً لقيادة على حملة صليبية جعله في حل من أية التزامات ارتبط بها الملك الفرنسي قبالة السلطات البيزنطية . وأيضاً كان تغيب كونراد عن مسرح الأحداث في غرب أوربا يعني فرصة ذهبية لروجر الثاني الصقلي ليغزو الأراضي الغربية للدولة البيزنطية منتهزاً فرصة انشغال جيوش بيزنطة في مراقبة تحركات الصليبيين من ألمان وفرنجة ، وفرصة رحيل عدوه اللدود كونراد الثالث عن الغرب .

كان الألمان أول من ارتحل فى الصليبية الثانية عبر الأراضى البيزنطية . وفى المجر تلقى كونراد الثالث رسالة من عمانويل كوه نين سامها له السفيران ديمتريوس ماركمبوليتس واسكندر من جراڤينا ، اللدان طلبا باسم سيدهما من العاهل الألمانى الإفصاح عن نيته إن كان قد قدم ورجاله أعداء أم أصدقاء ، وراح السفيران يبسطان شروط عمانويل : لئن كان كونراد صديقاً فعليه أن يأمر أتباعه النبلاء وقواد الجيش بقسم يمين الولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطى . وعلى هذا جمع الإمبراطور الألمانى رجاله وحهم على قبول مطلب البازيليوس . وبعدها زحف

Gerhoh, De Investigatione Antichristi, in M.G.H.SS., Libelli de Lite, (YY) III, p. 305 seq.

الألمان إلى بلغراد. وحتى وصولهم إلى بلدة برانشيفو لم تحدث قلاقل بين الصليبيين. وبين الكتائب البيزنطية التي كانت تراقب تحركاتهم عن كثب. ولقد أوضح كونراد في رسالته إلى ويبالد رئيس دير ستاڤيلوت أن البيزنطيين لم يتحرشوا برجاله عندما دخلوا الأراضي الإمبراطورية (٢٨).

على أنه سرعان ما أدى جشع الألمان وعجرفتهم إلى صدام بينهم وبين الكتائب البيزنطية ؛ إذ أصر الصليبيون على النهب بأن رفضوا دفع أثمان الأطعمة والسلع التي أخذوها من البيزنطيين ، ولما احتج الأخيرون قابلهم الألمان بالإهانة. وضربات الحراب. ومن أمثلة الفظاظة الجرمانية ما حدث في إحدى الحانات على أطراف مدينة فيليبو بولس حيث عرج للراحة والشراب جماعة من الصليبيين وبينها هم يمرحون دخل الحانة أحد « الحواة » اليونان وطلب قدحا من الخمر راح يحتسيه . و بعد قليل أخرج الرجل من جيب سترته الداخلية ثعباناً و وضعه على الأرض وراح يمارس ألاعيبه بقصد الفكاهة والمداعبة . على أن الألمان، ولكأنهم أبصروا شرآ مستطيراً ، أمسكوا بالرجل من عنقه وطرحوه أرضاً ثم قطعوه إربا بسيوفهم وصاحوا في صوت واحد بأن البيزنطيين قد عزموا على قتلهم بالسم الزعاف (٢٩) . وقد وردت هذه الحادثة في مؤلف أودودي دويل في صدد تعريضه بمسلك الألمان ، لاحباً وعطفاً على البيزنطيين وإنما لتصوير غلظتهم وعجرفتهم وتحرشهم بالصليبيين الفرنسيين من بني جلدته ؛ إذ دأب الألمان على السخرية من الفرنجة ونهب ما قد ابتاعوه من الأسواق أثناء عودتهم إلى معسكراتهم (٣٠) . ولفد مضى الألمان في غمهم وسلمهم للمواطنين العزل مما دعى رئيس أساقفة فيليبو بولس ، الأديب المرموق ميخائيل أتاليكوس ، إلى أن بتدخل في الأمر ويطلب من كونراد الثالث معاقبة الذين أخلوا بأمن وسلام مواطني مدينته.

Wibald, ep. 48, in Jassé, Biliotheca Rerum Germanicarum, I, p. 126. (YA)

Odo of Deuil, op. cit., III, p. 44.

Ibid. (r.)

ولما علم عمانويل كومنين بالحرائم التى ارتكبها الألمان ضد رعاياه العزل أرسل فرقاً بقيادة بروزوش للدفاع عن السكان . وبالفعل انقضت الكتائب البيزنطية على البلحماعات التى أخذت على النهب والسلب وقاتلتها قتالا مريراً . ولقد حدث بعد أن رحل كونراد ومعظم أفراد جيشه الرئيسي عن مدينة أدريانوبل أن تخلف أحد أقاربه بسبب مرض مفاجئ ألم به في أحد أديرة المدينة . على أن نفراً من أشقياء المدينة هاجموا الرجل وسرقوا متاعه وماله وقتلوه وواروه التراب إخفاء لجرمهم . فلما علم كونراد بالحبر أوفد فردريك السوابي ليتحرى الأمر . فما كان من فردريك الوائه أنه أشعل النيران في الدير وقبض على عديد من أهل المدينة وأعدمهم في التو بها أدى إلى صدام بينه وبين بروزوش ورجاله (٣١) وبعدها أسرع فردريك ورجاله المحاق ببقية الجيش الألماني الزاحف صوب القسطنطينية .

كان كونراد قد خطط السير بجيشه في الطريق المؤدى من تشورلو إلى القسطنطينية. وفي طريقه قابل اندر ونيكوس أو بوس سفيراً من قبل عمانويل لتقريع الملك الألماني على الجرائم التي ارتكبها رجاله ، وأيضاً ليطلب منه اتباع الطريق المؤدى إلى سيستوس حيث كانت هناك سفن معدة لنقله وجيوشه إلى آسيا الصغرى . كما أوضح له أو بوس أن عمانويل سوف يعتبر مسيرة الألمان إلى القسطنطينية ضربا من ضروب العدوان السافر (٣٢). ومع أن الطريق الذي أوصى به عمانويل كان الطريق الأقل وعورة والأكثر أماناً للحملة الألمانية لأنه يؤدى بهم إلى سيستوس ومنها إلى اللاذقية ، التي كان الطريق إليها في أيدى السلطات البيزنطية ، إلا أن كونراد أصر على السير نحو العاصمة البيزنطية في عناد وإصرار بالغين .

جاء رفض كونراد لمطلب عمانويل ليزيد من عمق الهوة التى باتت تفصل بينهما . ولقد فكر الإمبراطور البيزنطى جديثًا فى قيادة حملة بذاته لمقاتلة الصليبيين الألمان وإجبارهم على الابتعاد عن عاصمته . وبالفعل أرسل القائدين بروزوش وبازل تزيكانديلس ليعدا كميناً عند مدينة لونجا فى المنطقة المتاخمة

Kinnamos, II, xiii, p. 71; conf. Choniates, I, V, p. 85. (71)

Kinnamos, II, xiv, p. 72. (TY)

لأدريانوبل (^{٣٣)}. ويبدوأن عمانويل قد زحف ورجاله بالفعل لمقاتلة كونراد وجيشه ولكنه فجأة قرر العودة إلى العاصمة مستدعياً الجنرالين اللذين كان قد سبق إيفادهما إلى لونجا (^{٣٤)} .

وصل كونراد الثالث وقواته إلى فيلوپاتيون ومنها عبروا قنطرة القرن الذهبي. وأقاموا معسكرهم عند بكرديون وجيوفيريا . ومن هناك بدأت المفاوضات بينه وبين عمانويلكومنين. ونجد هنا تناقضاً كبيراً بين ماتورده المصادر الغربية وبين ماتطالعنا به المصادر البيزنطية : فبينا تتكلم المصادر اللاتينية عن لقاء أخوى بين العاهلين. وعن هدايا إمبراطورية للملك الألماني (٣٥) " تتحدث الأصول البيزنطية عن المعلاقات بين الطرفين في تلك المرحلة بالذات في شيء من المرارة (٣٦) . وأغلب المطلقات بين الطرفين في تلك المرحلة بالذات في شيء من المرارة (٣٦) . وأغلب بعدها كونراد أنه قادم في العام التالي لحصار القسطنطينية بين الألمان والبيزنطيين ، أعلن بعدها كونراد أنه قادم في العام التالي لحصار القسطنطينية ويناك المرحلة بالذات خلك التقارب الذي تم بين عمانويل كومنين وسلطان قونية في تلك المرحلة بالذات ذلك أن الإمبراطور البيزنطي لما استبان نوايا الملك الألمانية وأيضاً ليؤمن حدوده ذلك أن الإمبراطور البيزنطي لما الصغرى ، وكذلك ليقاوم الغز و النورماندي لممتلكاته المتاخمة لسلطنة قونية في آسيا الصغرى ، وكذلك ليقاوم الغز و النورماندي لممتلكاته الغربية . على أنه إنصافاً للواقع يجب ملاحظة أن هذا التحالف بين بيزنطية وسلطنة قونية لم يكن موجها ضد الحملة الصليبية الثانية ، وإنما قصد به تأمين وسلطنة قونية لم يكن موجها ضد الحملة الصليبية الثانية ، وإنما قصد به تأمين حدود الإمبراطورية في آسيا الصغرى .

لما وصلت الأنباء بقرب قدوم لويس السابع ورجاله سارع كونراد الثالث

Ibid. (TT)
Ibid, p. 73. (T\$)
Annales, Palidenses, in M.G. H.SS.Vol. XVI, p. 82; Annales Casinenses, (To)
in M.G.SS. Vol. XIX p. 310.
Kinnamos, II, XV, p. 75; Cheniates, I, v, p. 87. (T1)
Kinnamos, II, xvi, p. 79. (TV)

فى طلب التفاوض مع عمانويل كومنين . والمعروف أن الملك الألمانى لم يكن على وفاق مع ملك فرنسا فى ذلك الوقت . ووافق عمانويل كومنين على نقل الألمان على سفنه إلى آسيا الصغرى كما وعد بإمدادهم بمرشدين من رجاله . كذلك أمر الإمبراطور البيزنطى بتوزيع الأسلحة على فقراء الحملة العزل (٣٨) .

وقد أرسل عمانويل كومنين رئيس حرسه الخاص لمقابلة كونراد والتفاوض معه في آسيا الصغرى ، طالباً منه إمداده ببعض الفرسان الألمان مقابل تعاونه معه في حربه ضد « السراكنة » (٣٩) . ولم يكن عمانويل بعرضه هذا يعني محاربة سراكنة قونية الذين عقد معهم معاهدة في تلك الآونة ، وإنما كان يقصد، بطبيعة الحال ، سراكنة سوريا وبوجه خاص عماد الدين زنكي الذي كان قد استولى على الرها من أيدى الصليبيين ومن ثم فقد كان السبب الأساسي لقيام الصليبية الثانية . على أن كونراد رفض شروط عمانويل وتوقفت المحادثات بين الطرفين ؛ ومن بعدها أحجم العاهل البيزنطي عن تقديم أي عون أو نصح للملك الألماني .

اتبع كونراد وجيشه الطريق المؤدى إلى قونية عبر نيقوميديا ونيقيا . وفى نيقيا دب الحلاف بين البارونات ، إذ قرر أوتو اتباع الطريق المؤدى إلى اللاذقية وآتاليا ؛ بينا أصر الباقون على الزحف صوب قونية . وبعد مضى ثمانية أيام من مسيرتهم اكتشف الصليبيون نقصاً فى المؤن ؛ وسرعان ما بدأت المجاعة تنتشر فى معسكرهم . ثم جاءت ضربات الأتراك المتلاحقة الحاطفة لتشيع الفزع فى نفوسهم وذلك على مقربة من دوريلايوم .

ولقد كان فى رفقة الألمان مرشد بيزنطى لمساعدتهم فى التعرف على المسالك إ فى آسيا الصغرى . فلما انهارت معنوياتهم لاذ هذا بالفرار خوفاً من اتهامه بالخيانة. ويتهم أودودى دويل هذا الضابط البيزنطى بالخيانة وبأنه تعمد تضليل .

Annales Herbipolenses, loc. cit.

⁽٣٨)

الصليبيين في متاهات آسيا الصغرى لكى يدفنهم أحياء هناك بعد أن أعلم الترك عِلَماكن تجمعاتهم (٤٠) . وبعد هزيمة ماحقة لحقت بالألمان عند باثيز قرر كونراد التقهقر إلى نيقيا . وكان هذا القرار المفاجئ كافياً لإشاعة الفوضى والفزع بين رجاله ، فانقض عليهم الترك ذبحاً وتقتيلا (٤١) . ولقد جرح كونراد ذاته أثناء المعركة ، ويقدر عدد الذين هلكوا بسيوف الترك بحوالي ٢٠٠٠،٠٠٠ . وبعد عنت مرهق وصلت فلول الجيش الألماني إلى نيقيا ، حيث التقي كونراد بلويس السابع .

لقد كانت هزيمة صليبية كونراد ساحقة ماحقة بالفعل . هذا وتجمع المصادر اللاتينية دون استثناء على تجريم عمانويل كومنين في الحديث عن فشل حملة كونراد وتتهمه اتهامات ثلانة : أنه باع الألمان دقيقاً مخلوطاً بالحجر الجيرى ؛ وبأنه أنقدهم عملة مزيفة ، وبأنه استعدى عليهم الترك ودلهم على تحركاتهم . والاتهام الأول ظهر بعد وصوفم فارين من ضربات الترك إلى نيقيا . والواقع أن الوباء الذي تفشى في معسكرهم على أثر النتن الذي فاح من جثث القتلى العديدين قد ساعد على إطلاق هذه الإشاعة ضد السلطات البيزنطية . أما عن المعاهدة التي أبرمت بين عمانويل وسلطان قونية فقد أملتها تحرشات كونراد ورجاله بالأراضي البيزنطية . كما أن هنالك نقطة هامة حدد الإمبراطور البيزنطي على أساسها البيزنطية . كما أن هنالك نقطة هامة حدد الإمبراطور البيزنطي على أساسها لاتينية كانت تصل إلى أنطاكية كانت تعنى مناعها وبالتالي كانت سوف تؤدي لا إحباط محاولات عمانويل كومنين في فرض سيطرته التامة عليها . وكونراد كان في حل من قسم يمين الولاء والطاعة لعمانويل المعنوي . وأهم من هذا فإن تلك المؤقف في سوريا لو نجحت مهمته في آسيا الصغرى . وأهم من هذا فإن تلك المؤقف في سوريا لو نجحت مهمته في آسيا الصغرى . وأهم من هذا فإن تلك المؤقف في سوريا لو تجحت مهمته في آسيا الصغرى . وأهم من هذا فإن تلك المؤترة قد شهدت جهوداً لتوحيد الكنيستين البيزنطية والرومانية ، وكان الرأى

Odo de Deuil, V, p. 76. (5.)

Michael the Syrian, op. cit., III, p. 276.

Odo de Deuil, V, p. 75. (£7).

العام البيزنطى يأمل فى اعتراف البابوية بعمانويل امبراطوراً رومانياً ، ولذا فإن أى نجاح يحرزه كونراد الثالث فى الشرق اللاتينى كان سيؤدى حتما إلى التقليل من شأن مطامع عمانويل كرمنين. كما أن الإمبراطور البيزنطى لم ينس أن والده قد أذل فى سوريا (١١٤٢) باسم البابا والإمبراطور الألمانى ، وذلك خارج أسوار أنطاكية . ويتفق فى تأييد هذا الرأى كل من يوحنا كناموس المؤرخ البيزنطى ، ووليم الصورى المؤرخ اللاتينى (٤٣٠) . ولعل فى هذا ما يفسر وجهة نظر عمانويل كومنين الذى كان على يقين من أن أى نجاح يحرزه إمبراطور الألمان كان يمثل تهديداً مباشراً لمصالح بيزنطية فى سوريا وأيضاً فى إيطاليا، بل وفى غرب أوروبا كلها .

* * *

تلقى جند الصليبية الفرنسية بركات البابا يوجينيوس الثالث ، الذى زار فرنسا خصيصاً لهذا الغرض ، في عيد فصح ١١٤٧ في كنيسة سان دينيس وتحركت جحافل لويس السابع من متز وورمز إلى فيرزبورج ، ومنها إلى راتسبون ثم باساو و واستغرق عبورهم أراضي المجرخسة عشر يوماً ومرا بعدها خلال أراضي بلغاريا حتى وصلوا مدينة نيش ، أولى المدائن في الأراضي البيزنطية من الجانب الغربي وهنا يروى أودودي دويل أنهم في تلك المدينة تعرفوا على العملة البيزنطية النحاسية المعروفة باسم ستاميناي التي ابتاعيها من أهلها بخمسة دينارات أي أنهم كانوا يخسرون ماركا كاملا في تبديل ما قيمته اثنتا عشر سوليداي ، وهكذا ما إن وطأنا أرض البيزنطيين »، يقول الكاتب ، «حتى كان في ستقبالنا والخداع في معاملات البيزنطيين ومفاوضاتهم الرسمية ؛ فعندما ضاق لويس السابع والخداع في معاملات البيزنطيين ومفاوضاتهم الرسمية ؛ فعندما ضاق لويس السابع ذرعاً بنفاق السفير الذي جاء ليحييه ، صاح في وجهه أسقف لانجريه خرعاً بنفاق السفير الذي جاء ليحييه ، صاح في وجهه أسقف لانجريه المعسولة حودفري — قائلا : «أيها الرفاق ! لاحاجة بمليكنا إلى ألفاظكم المعسولة

Kinnamos, II, xii, p. 70; William of Tyre, XVI, xxi. (¿٣)

Odo de Deuil, p. 20.

« صاحب الجلالة والمجد والحصافة والتقى » فى كل عبارة تنطقون بها ، هو علم ؛ بذاته و نحن أيضاً نعرفه جيداً . أو لا تعرفون سبيلا آخر لإيضاح رسائلكم دون طنطنة وغموض؟! »(٥٠٠) .

طلب سفراء عمانويل من الملك الفرنسى أن يتعهد بالقسم هو ونبلاؤه بألا يعرضوا مدن الإمبراطورية لأى عبث ؛ وبأن يردوا إليه ما يقع في أيديهم من أراض في حوزة الترك كانت أصلا ضمن أراضي الإمبراطورية ، ولما لم يتسلم السفراء رداً عاجلا من لويس السابع صرحوا له بأن سيدهم عازم على الحراق المؤن وتخريب الطرق ليأمن شر الصليبيين وليحمى رعيته من غزواتهم ونهم وبهم وبهم المنه وليهم والمنه المنه والمهم المهم المنه والمهم المهم المنه والمهم المنهم المنه والمهم المهم المنه والمهم المهم المنه والمهم المهم المنه والمهم المنه والمهم المنه والمهم المنه والمهم المنه والمهم المهم المنه والمهم المنه ا

والواقع أن سكان الإمبراطورية في الجزء الغربي كانوا قد عانو الأمرين على يد الجماعات الألمانية من حملة كونراد الثالث و فلما دخلت أراضهم جيوش لويس السابع أحجم الناس عن التعامل معهم بل وأغلقوا متاجرهم ودورهم ، وفي الحالات القليلة التي تم فيها البيع والشراء بين الجانبين كان البيزنطيون يدلون بسلعهم من وراء جدرانهم مدلاة بالحبال . وأمام هذا هجم الفرنسيس على المتاجر والدور وحطموها بعد نهب ماكانت تحتويه من مال وسلع . ورغم هذا نطالع كيف أن أهالي صوفيا خرجوا لاستقبال الحملة الفرنسية في شرف زائل رافعين أمامهم الأيقونات والصلبان . وجاء حاكم المدينة ليوفر لهم ماكان يلزمهم من طعام وشراب ، كما يقرر ذلك أودو دى دويل ذاته (١٤٧).

كانت بعض الفرق الفرنسية من جيش لويس السابع قد سبقت غالبية الحملة ووصلت القسطنطينية . وكان على رأس هؤلاء أسقف متز وشقيقه رينولد كونت مونسون ، ثم أسقف تول . ولما حدث توتر بين هؤلاء الفرنسيين ورجال كونراد الثالث ، تقرر أن تنتظر هذه الفرق في العاصمة البيزنطية حتى

Ibid., p. 28. (£0)

Ibid. ({ { t \ \ }

Ibid., III, p. 41. (£v)

وصول بقية الجيش والملك إلى هناك (١٩١). وطبقاً لرواية أودو دى دويل أغلق أهالى العاصمة الأسواق في وجههم بقصد إجبارهم على العبور إلى آسيا الصغرى ، ونجحت الخطة . على أن نفراً من هؤلاء قد آثروا البقاء في المدينة ورفضوا اللحاق ببنى جلدتهم على الشاطئ الآسيوى . وأمام هذا هجم عليهم فريق من الجند البشنق والكومان الذين كانوا في خدمة عمانويل كومنين . ولما علم سفراء لويس في القسطنطينية بهذا هرعوا إلى الإمبراطور للشكوى من أجل « هؤلاء الحجاج الذين تعرضوا لوحشية الكفار في مدينة مسيحية » ، على حد تعبير أودو دى دويل (٤٩) .

أصدر الإمبراطو أوامره بالساح لحؤلاء الفرنجة من جيش لويس السابع بإقامة معسكرهم على مقربة من أحد قصوره كما فتح لهم سوقاً خاصاً لتسهيل مهمتهم في البيع والشراء (٥٠) ولكن صداماً آخر وقع بينهم و بين البشنق. وهنا انطلق بعض سفراء لويس – افرارد من برتويل ، ومناسيس من بيل ، وانسلم سنيكال فلاندرز وغيرهم – شاهرين سيوفهم للدفاع عن بني جلدتهم ضد ضربات البشنق. ووسط هذا الصراع يمم اللورد افرارد من بارريه ، وبارتيلميو المستشار ، وآرشيبالد من بور برن شطر القصر الإمبراطوري للاحتجاج على هذا العدوان . على أن عمانويل أقسم لحؤلاء السادة أنه لا يعلم بأمر هذا الهجوم من جانب البشنق ، وطلب منهم العفو لرجاله ، ثم سمح للفرنجة بإقامة معسكرهم على مقربة من قصره كما أصدر الأوامر بإمداهم بكافة المؤن اللازمة .

وفى هذه المرحلة من الأحداث نجد أودو دى دويل يلعن عمانويل كومنين وينعته بالخيانة ؛ موضحاً أن سفراء لويس السابع قد علموا آنثذ بأمر المعاهدة التي أبرمها الإمبراطور البيزنطي سراً مع سلطان قونية التركيي.

ولعل أهمِما يستلفت النظر في كتابات هذا الراهب الفرنسي ــ أودو دى دويلــ

Ibid. p. 50. (£ \(\)

Ibid. (¿٩)

Ibid. (o·)

تحامله الشديد على الكنيسة البيزنطية وعقيدتها وطقوسها . ومن خلال صفحاته التي كرسها للتسفيه سن بيزنطة وكنيستها يدرك القارئ تلك الفجوة الهولة التي باتت تفصل بين اللاتين والبيزنطيين على المستوى العقائدى : فهو يذكر أنهم احتادوا تطهير المذابح المقدسة في الكنائس إن تصادف وكان اللاتين قد استخدموها لأداء صلواتهم عليها ظناً منهم أن اللاتين قد دنسوها بطقوسهم . كذلك يذكر نفس المصدر أن البيزنطيين ، إذا ما تزوجوا من نساء لاتينيات أجبر وهن على العماد مرة ثانية وفقاً للطقوس اليونانية. و يمضى الكاتب في تعديد « هرطقات » البيزنطيين خاصة مسألة انبثاق الروح القدس من الأب فقط (٥١) . ولهذه الأسباب مجتمعة فإن الصليبي ، علمانياً كان أو من جماعة الإكليروس ، كان يؤمن إيماناً راسخاً أن بيزنطة كانت بمثابة العدو الألد له ولقضية الصليب ؛ بل وراح البعض من المسئولين في الحملة يؤكد أن خطر بيزنطة على المسيحية كان أدهى وأنكي من خطر المثراك السلاجقة. ومن ثم فقد استحل الفر نحة دم البيزنطيين ، واعتبر وا مقاتلتهم واحدة من مكرمات الصليبي الحقيقي . وهذا ما نجده تماماً في كتابات أودودي واحدة من مكرمات الصليبي الحقيقي . وهذا ما نجده تماماً في كتابات أودودي دويل (٢٠) .

أرسل عمانويل كومنين رسله إلى لويس السابع لينصحوه بتغيير خط سيره إلى سيستوس ضهانا لسهولة العبور وسرعتها ؛ ولكن الملك الفرنسي ، مثله في هذا مثل الملك الألماني من قبله ، رفض المشورة وواصل السير نحو القسطنطينية . وعلى مسيرة يوم من العاصمة التق الملك بسفرائه الذين قصوا عليه ما وقع لبني جلدتهم في العاصمة البيزنطية كما أبلغوه بنباً المعاهدة السرية المبرمة بين بيزنطة وسلطان الترك . وهنا بدأت الأصوات في المعسكر الفرنسي تعلو منادية بالاستيلاء على الأراضي البيزنطية وقلاعها ، كما طلبوا من الملك مكاتبة روجر الثاني الصقلي الذي كان آنذاك يسدد ضرباته لإملاك بيزنطة في البحر الأدرياتي – للمساهمة الذي كان آنذاك يسدد ضرباته لإملاك بيزنطة في البحر الأدرياتي – للمساهمة

Ibid., p. 51.

Ibid. (or)

بأسطوله ورجاله للهجوم على القسطنطينية (٥٣) . ولكن الملك لم يأخذ بهذا الرأى لأنه أراد مواصلة سيره إلى الأرض المقدسة .

عندما اقترب لويس السابع ورجاله من العاصمة البيزنطية خرج للرحيب بهم خيرة رجالات المدينة من علمانيين وكهنوت ، طالبين من الملك قبول الدعوة لملاقاة البازيليوس في قصره . وفي حين يروى أودو دى دويل أن سيده لتي استقبالا إمبراطوريًا في بهو القصر تبادل وقتها العاهلان القبلات والعناق ثم ولجا إلى الداخل فجلسا على مقعدين أعدا خصيصاً للمناسبة (أأه) ؛ نجد أن كناموس يروى قصة أخرى ؛ فهو يقول إنه جيء بلويس إلى حيث كان عمانويل جالساً على عرشه ، ثم أجلس على مقعد صغير ليتمكن من المحادثة . وفي رأى هذا الكاتب البيزنطي أن ما سمح به للويس كان شرفاً بعيداً ؛ لأنه كان على سائر نبلائه الوقوف طيلة المحادثة (٥٥) . ومهما كانت الحال فإن أغلب الظن أن عمانويل رحب بضيفه الفرنسي ترحيباً طيباً ؛ وعقب هذه المقابلة اصطحبه نبلاء البلاط إلى قصر فيلوباتيون الفاخر الذي خصص له أثناء إقامته في العاصمة .

سحر جمال القسطنطينية خيال صاحبنا أودو دى دويل، الذى كان مرافقاً للويس السابع. والمدينة كما رآها هى مجد الإغريق، ثرية فى شهرتها وأزيد من هذا فيا تحويه من نفائس وآيات للفن. كما أن الجمال الأخاذ الذى تفردت به آيا صوفيا وما احتوته من أيقونات وآثار مقدسة أخذ بألباب الفرنجة. هذا ولقد اصطحب عمانويل كومنين ضيفه لزيارة أضرحة القديسين فى المدينة ؟ ثم أقام له وحاشيته مأدبة فاخرة ؟ كانت على حد تعبير أودو « تفوح شواء وتفيض أنبذة يسيل لها لعاب الفم » (٥٦) على أن هذه الحاتمية قوبلت ، كالعادة ، بنكران

Ibid. (or)

Ibid. (oţ)

Kinnamos, II, xvii, p. 81. (00)

Odo de Deuil, IV, p. 66.

للجميل وبشعور بالريبة من جانب الفرنجة ؛ إذ رأى أودو فى هذا الكرم الزائد والفضل السابغ تغطية لما كان معشر البيزنطيين فى الخفاء يمكر ون (٥٧) .

تقاطر الفرنجة من معسكراتهم فى خارج الأسوار إلى قاب المدينة الفاحشة الثراء وراحوا يشبعون وحمهم الجشع فى السرقة والابتزاز والعربدة (٥٠١). واستاء أهل العاصمة من مسلك هؤلاء « الحجاج » السكارى وفجورهم فاحتجوا وكان جزاؤهم أن أشعل نفر من الصليبين النيران فى الدور والمتاجر وأشجار الزيتون (٥٩).

ويقص علينا أودو حدثاً له دلالته في إلقاء الضوء على الحلافات الطقوسية بين كنيسة الفرنجة وكنيسة بيزنطة : فبينا كان لويس السابع في معسكره منتظراً وصول بعض قواته القادمة من أبوليا بحراً إلى دورازو ، حل عيد القديس دينيس . ولما كانت الكنيسة البيزنطية أيضاً تحتفل بهذا العيد، فإن عمانويل كومنين أرسل بنفر من خيرة القسيسين مزودين بدفوف ذهبية رائعة الزينة إلى معسكر الملك لينشدوا لهم صلوات الابتهاج بحلول العيد . ويقول صاحبنا الراهب الفرنجي الملك لينشدوا لهم صلوات الابتهاج بحلول العيد . ويقول صاحبنا الراهب الفرنجي أسماعنا لغة ومعنى ؛ فهو مغاير لما اعتدناه في صلواتنا اللاتينية » . ولايكتفي هذا الجاحد بهذا القول، وإنما يلمز بأن جله ولاء الكهنة كانوا من الحصيان (٢٠٠٠) . وعلى هذا فإن تلك اللفتة الإمبراطورية الكريمة قو بلت بالاستهزاء والسخرية و بأقذع الاتهامات في المعسكر الصليبي .

والواقع أن رجال الدين المرافقين للويس السابع بوجه خاص كانوا يضمرون عداوة شديدة لبيزنطة واحتقارا فظاً لكنيستها: فها هو جودفرى أسقف لانجريه يهمس فى أذن الملك أنه يحسن به مهاجمة القسطنطينية «مدينة الجبناء والهراطقة، أشياع كل الغزاة ». وأوضح الأسقف لسيده أن المدينة لا تحمل شيئا من المسيحية

Ibid.		(0 Y)
Ibid.		(0 Å)
Ibid.		(• 4)
Ibid.	IV, p. 70.	(4.)

بين ظهرانيها عدا اسمها عوذكره بما فعله يوحنا كومنين « والد هذا التعس » ف أنطاكية وكيف أندل الذل والهوان يالرهبان اللاتين في كيليكيا فحرق صوامعهم ، ثم طرد الأساققة الفرنجة وأحل مكانهم هراطقة من عنده. وراح جودفرى يقص على الملك كيف أن يوحنا كومنين حالف « الكفار » ضد الصليبين لاستئصال شأفتهم عولكن الله شاء أن يصيب هذا نفسه برمح مسموم لينهى هكذا حياته المدنسة بالعار جزاء وفاقاً على جرمه . وأنهى الأسقف الفرنجي حديثه للويس السابع مؤكداً له أن الصليب وضريح المسيح المقدس لن يكونا في أمان طالما جلس على عرش هذه المدينة اللعينة عمانويل هذا عدو القديس بطرس وعرشه الرسولي في أنطاكية (٢١).

بذل عمانويل كومنين كومنين قصارى جهده لإقناع لويس السابع بضرورة عبور البسفور إلى آسيا الصغرى . وأخيراً وافق الملك الفرنسى وتم العبور . وهناك كان على لويس أن ينتظر وصول بقية أجناده لمدة عشرة أيام . وفي أثناء ذلك هاجم نفر من الصليبيين التجار البيزنطيين اللذين أتوا لتسهيل مهمة تغيير العملات ونهبوا كنوزهم ؛ مما أساء إلى مشاعر السلطات البيزنطية فأوقفوا إمداد الفرنجة بالأسواق اللازمة . ولما طلب لويس من عمانويل إعادة فتح هذه الأسواق الملاخير على تأدية البارونات الفرنجة يمين الولاء والطاعة له ضماناً لحسن نيتهم . غير أن البارونات والأساقفة رفضوا مطلب عمانويل وانبرى الأسقف جودفرى يقول : « صه ! هو ذا الملحد يظهر ما كان يبطن . لقد أتى يطلب منكم أنتم تبعيته سيداً عليكم . . هو الذي لا يصلح فيصلا لكم . أما نحن _ يا سيدى الغالى _ فيحسن بنا الحصول على ما نبغى بقوة السيف منه . كما وأننا لن نرضى بهذا الوثني لنا سيداً » (٢٢٠) .

تم لقاء ثان بين عمانويل كومنين ولويس السابع تعهد فيه الثانى بألا يستولى على أراض كانت ضمن السلطان البيزنطى من قبل ؛ وفي مقابل

Ibid. (11)

Ibid., pp. 74 - 76.

هذا وعد الأول بتزويده بثلاثة من رجاله لإرشاد الصليبيين عبر مسالك آسيا الصغرى ؛ كما وعد بتسهيل مهمة إمدادهم بالمؤن اللازمة . ولقد طلب عمانوبل من لويس تأييده له في صراعه ضد روجر الثانى الصقلى ، الذى كان قد أثقل ضرباته على أراضى الإمبراطورية، ولكن لويس رفض المعاونة . ويبدو أن هذا كان كافياً لأن يهمل عمانويل صليبية لويس السابع ويتركها وشأنها : فمع أن الأسواق قد أعيدت إلا أنها سرعان ما اختفت ، ولم يرسل عمانويل المرشدين الذين كان قد وعد بإرسالهم للويس (١٣٠) .

* * *

عند وصول او يس السابع مدينة نيقيا التى بالملك كونراد الثالث جريحاً منكسراً كاسف البال وذلك عند قلعة لوبار . وإتفق هناك على أن يتزود كونراد من جديد بالمؤن اللازمة لمن تبقى من رجاله من مدينة نيقيا وبعدها يسرع للحاق بالفرنجة عند لوبار . وانتشر الفرنجة فى كل حدب وصوب من الأراضى البيزنطية فنهبوا ما فيها . وسار الألمان للحاق بجيش الفرنجة فى لوبار وكأنهم فى موكب جنائزى رهيب بطله المتوفى هو الكرامة الجرمانية . ومن هناك تقدم الجيشان حتى فيلادلفيا ومنها إلى ميناء ادرميد . ولقد خبر الفرنسيون فى جبال تلك المنطقة أهوالا بشعة . ومن ثم فإن جماعة من الصليبين المنون انهارت معنوياتهم ركبوا سفينة راسية فى ادرميد ومخروا عباب البحر ؛ الشرق من الإمبراطورية .

أما بقية جند الصليبية ، من ألمان وفرنجة ، فقد قصدوا إلى سميرنا ثم برغامة حتى وصلوا افيسوس . وهناك التي بهم رسل عمانويل يحملون رسائل تعذرهم من هجوم وشيك الوقوع عليهم من جانب الترك وتنصحهم بالاحتماء داخل القلاع البيزنطية في المنطقة (٦٤) . ولكن لويس الذي كان – على داخل القلاع البيزنطية في المنطقة (٦٤) . ولكن لويس الذي كان – على

Ibid.

⁽⁴⁴⁾

حد قول أودو دى دويل _ يزدرى الترك وأيضاً مشورة عمانويل رفض النصح. وهنا أبرز سفراء عمانويل رسائل أخرى تحذر الملك من الانتقام الذى ينتويه رعاياه فى تلك المنطقة بسبب ما حل بهم وبدورهم من خراب ونهب والثابت أن أهالى آسيا الصغرى من البيزنطيين الذين قد جن جنونهم من قسوة الفرنجة كانوا قد عقدوا العزم على محالفة الترك ضدهم انتقاماً منهم لما قد حل بهم وبثر واتهم (١٥٠). وهنا تصدق رواية أودو دى دويل فى قوله بأن البيزنطيين أرشدوا الترك إلى معسكر الفرنجة ليلة عيد الميلاد ليأخذوهم على غرة (١٦٠).

في هذه المرحلة قرر الإمبراطور الألماني العودة إلى القسطنطينية لقضاء فصل الشتاء ضيفاً على عمانويل كومنين. وأغلب الظن أن كونراد الثالث اضطر للعودة بسبب شدة مرضه وإن كان كناموس يعزو الأمر كله إلى السخرية التي تعرض لها الألمان من الفرنجة وإلى شعور الإمبراطور بتضاؤل شأنه إن هو بتى في معسكر لويس السابع (٢٧).

دفع الصليبيون بأنفسهم بعد هذا إلى اللاذقية ، وجاءت الأمطار الغزيرة والثلوج لتزيد الطين بلة . وعلى هذا المنوال وصلوا إلى ضفة نهر المياندر حيث انقض عليهم الترك . وفي طريقهم إلى آتاليا هوجموا مرة أخرى وسقط الآلاف منهم صرعى في ساحة القتال . وفزع الباقون منهم ففر البعض إلى حيث لا يدرى بينها سقط آخرون على الأرض إعياء ورعباً . أسرع لويس السابع لنجدة رجاله ، ولكن الترك أثقلوا ضرباتهم ، وتعرض الملك لخطر فادح هدد حياته ذاتها ، وهوت من حوله جثث الضحايا مخضبة بالدماء . « وهكذا » ينوح أودو دى دويل ، « ذبلت ورود فرنسا قبل أن تتفتح

B. Kügler, Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzuges, Stuttgart, 1866, (% o) p. 166.

Odo de Deuil loc. cit. (77)

Kinnamos, II, xviii, p. 83. (\u2134 V)

براعمها في دمشق » (٦٨) .

يقول أودو دى دويل إن البيزنطيين والترك اتفقوا على إبادة من تبقوا من الصليبيين سواء بتجويعهم أو بمقاتلتهم . ولذا فقد أطلقوا السائمة لتلتهم كل عشب ونبات في طريق الفرنجة ، كما أحرقوا المحاصيل لحرمانهم من العيش . وأمام هذا اضطر الصليبيون إلى هجر خيولهم الجائعة المتمالكة ، وكذا تخففوا بإلقاء متاعهم وخيامهم وملابسهم وسلاحهم لأن أحوالهم لم تكن لتسمح لهم بحملها أثناء فرارهم (١٩١) .

كانت الكارثة التي حلت بصليبية لويس السابع مهولة بالفعل: ولقد خص الملك أسباب الفشل الذريع في رسالة بعث بها إلى شوجير مقدم سانت دينيس. فهويتهم عمانويل كومنين بالحيانة ، ويشير إلى وعورة المنطقة الطبيعية وكراهية أهليها للفرنجة ثم نقص المؤن في معسكره . على أنه عزا الشر الذي حاق به وبرجاله إلى الآثام التي تردوا فيها دون مراعاة لغضب الله (٧٠)

بلغت المحنة غايتها في آتاليا (٢٠ يناير ١١٤٨) وابد حرت معنويات البارونات إلى وحل اليأس والإعباء الحقيقي. وفي هذه اللحظة ظهر رسل عمانويل كومنين ينصحون لويس السابع بأنه لم يبتى أمامه سوى البحر يلوذ إليه مسلما أمره وأمر السفينة إلى سيد العواصف . وأسلم لويس أمره إلى عفو الله » وتمتم مثل بولس الرسول « هأنذا في التهلكة في لجة البحر . وفي البرية . . وبين أنياب الكفار . . وفي شباك أخوة مزيفين (٢١) وأبحر لويس والمقربون إليه على متن السفن التي أرسلها إليه عمانويل كومنين ، ميممين شطر سوريا ؛ تاركين من خلفهم من تبقوا من الحملة ليموتوا ا

Odo de Deuil, loc. cit.
 (%)

 Ibid., VI, p. 110.
 (%)

 R.H.G, XV, xv, p. 496.
 (v)

 Odo de Deuil, VI, p. 111.
 (v)

وما من شك فى أن هؤلاء التعساء قد صعقوا وهم يرقبون السيد الذى وضعوا آمالهم فيه ينسل هارباً مع خلصائه تاركاً إياهم للهلاك المحقق .

أبحر مؤرخنا أودو دى دويل مع لويس السابع من آتاليا . ولا ندرى المصدر الذى استمد منه معلوماته عن بقية أفراد الحملة الذين تخلى عنهم لويس فى آتاليا ؛ ويرجح أنه استقى أخبارهم من أرشيبالد من بوربون كونت فلاندرز، الذى وكل إليه الملك مهمة ترحيل من تبقوا من الحملة .

لم يسمح البيزنطيون للصليبيين الاحتماء داخل قلاعهم والذا كان أمر ذبحهم على يد الرك شيئاً ميسوراً على أن أودو دى دويل يذكر أن الترك تحركت قلوبهم عطفاً على هؤلاء التعساء المحذولين وقدموا الطعام والشراب لمرضاهم ومعدمهم ؛ في حين أن البيزنطيين سخروا الأصحاء منهم في القيام بخدمتهم وكانوا ينقدونهم لكماً وضرباً مقابل خدماتهم . كما أن الترك اشتروا من البيزنطيين بعض العملات الفرنسية وتصدقوا بها على الصليبيين . غير أن البيزنطيين قاموا بسرقة هذه الصدقات من جيوب هؤلاء البؤساء . ولقد جاء عطف الترك هذا بأكبر الأثر وأعمقه على نفوس الفرنجة ؛ ولذا فإن ثلاثة عطف منهم اعتنقوا الإسلام (٧٧) . ومن النابت أن الترك لم يجبروا واحداً منهم على هجر مسيحيته .

جاهد لويس السابع ومن تبقوا معه من ألمان وفرنجة لكى يؤدوا شيئاً يذكر فى سوريا . فاقترح عليه رايموند (٧٣) أمير أنطاكية أن يهاجم نور الدين أمير حلب ؛ بينا نصح بطريرك أورشليم بتوجيه حملة ضد دمشق . وفى نهاية الأمر شارك لويس وجماعة فى حصار عسقلان الذى انتهى بفشل ذريع فى صيف ١١٤٨ (٧٤) . هذا ولم يكن جند الصليبية الثانية على وفاق

Ibid. (YY)

Louis VII was shocked at the romantic intimacy between Raymond of (VY) Poitiers and Queen Eleanor.

R. Grousset, op. cit., p. 250; C. Cahen, La Syrie du Nord à l'Epoque des (γξ) Croisades, pp. 379 - 82; S. Runciman, op. cit., II, p. 285.

مع الفرنجة فى سوريا بسبب «خستهم وفوضويتهم» على حد تعبير وليم الصورى (٧٠٠). وبعد سلسلة من الفشل المتلاحق تسلل الباقون من أفراد صليبية ١١٤٧ عائدين إلى غرب أوربا.

* * *

وكما جرت العادة في الأوساط الكنسية والعامانية في غرب أور با اللاتيني ألتي ثقل اللوم جميعه في فشل الحملة على كاهل بيزنطة وإمبراطورها على أن هناك بعض السطور الواردة في حوليات اللاتين تلقي اللوم على الصليبيين أنفسهم فنطالع في كتابات أحدهم أن ما حل بالصليبيين يرجع إلى عجرفتهم وسوء خلقهم واستبدادهم بالرأى واستخفافهم بالسراكنة (٢٧٠) . ويذكر أوقو أسقف فريزنج أن هذه الصليبية قد شملت فيا شملت لصوصاً وقطاع طرق (٧٧) .

ولقد جزع الرأى العام في غرب أوربا عندما وفدت الأنباء بفشل حصار عسقلان (٧٨). وراح التقريع ينصب على رأس مبشر الحملة برنارد دى كلير ڤوه ؛ خاصة وأن إشاعة كانت قد راجت آنذاك بأن أحباب القديس من جماعة الداوية قد خانوا قضية صليبية ١١٤٧. على أن برنارد كان موقنا أن « أخلاقيات » الحملة كانت قد تمرغت في الطين ولذا نجده في « تأملاته » يصرخ قائلا « بشرنا بالسلام وليس هناك سلام ، ووعدنا بالحير فعجت من حولنا صنوف الشر » (٧٩).

واكن القديس برنارد اعتقد أن البيزنطيين لهم يد في أسباب فشل حملة

(vo)
(V1)
(vy)
(VA)
(v4)

السابح ولما هاجم الأسطول البيزنطى السفن التي كانت تحمل لويس السابح والملكة اليانور من الشام نحو غرب أوربا ، ونهب الجند أمتعة الملكة هاج الرأى العام الفرنسي منادياً بالانتقام، وأضحت النظرية الحاكمة آنئذ ، والتي تشدد لإنفاذها شوجير من سانت دينيس ؛ وبطرس الوقور ؛ والقديس برنارد دى كليرقوه، أنه لابد من توجيه حملة صليبية لتقليم أظافر البيزنطيين ومعاقبتهم على خيانتهم للقضية المسيحية .

الفصل الثامن

بيزنطة والإمارات الصليبية

$(11A \cdot - 1127)$

إن دراسة سياسات عمانويل كومنين تجاه اللويلات الصليبية في الشرق الأدنى أمر حتمى لتفهم علاقاته بغرب أوربا بصفة عامة وبالبابوية على وجه الحصوص.

ولقد تغير ميزان القوى تماماً على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية : فالجزء الأكبر من مكاسب يوحنا كومنين في كيليكيا قد ضاع على بيزنطة على إثر الثورة الأرمينية هناك . وأدى هذا إلى صراع دموى شمل البيزنطيين والأرمن والترك واللاتين . وساعدت الفوضى الناجمة عن هذا الصراع العناصر الأرمينية واللاتينية الطموحة على توسيع نفوذها على حساب أراضى بيزنطة وإمارة نور الدين صاحب الموصل . وتاريخ هذه الفترة غامض وبخاصة في التفاصيل المتصلة بالثورة الأرمينية ؛ وذلك لأن الحوليات المقتضبة التي لدينا عن تلك الثورة مليئة بالتناقض وبالقصص الأسطورية عن الأبطال الأرمن وكفاحهم من أجل الاستقلال .

وبطل استقلال أرمينيا هو ثوروس ابن الزعم ليو . وكان ليو هذا وولداه ثوروس وروبن ، قد وقعا أسيرين في يد يوجنا كومنين . أما أبناء الزعيم الأرميني الثلاثة الباقون : قسطنطين وستيفانوس ومليح فقد أفلتوا من يد الإمبراطور ، ولجأوا إلى قريبهم جوسلين كونت الرها . والصورة التي يرسمها المؤرخون الأرمن لثوروس محاطة بإطار أسطورى . فهم مثلا عندما يتحدثون عن فترة سجنه في القسطنطينية يصورونه بطلا غراميا إذ هنالك

وقعت في حبه أميرة بيزنطية أمدته بالمال اللازم لاستعادة أراضي والده الضائعة (١).

ومهما كان الأمر فإن ثوروس وصل آنزاربا حيث قابل صديقه الوفي أثاناسيوس الثامن (١١٣٨ – ١١٦٦) بطريرك اليعاقبة السوريين(٢).

تمكن ثوروس من جمع بعض الرجال حوله وهبجم على قلعة آمودة واستولى عايها بمعونة سكامها الذين انقضـــوا على حراسها البيزنطيين وفتكوا مهم (٣).

بعد هذا النصر انضم إلى ثوروس عديد من شباب الأرمن ، كما أن بعض اللاتين تطوعوا للمحاربة في صفه ضد البيزنطيين أن و مهذه القوات الجديدة تمكن ثوروس من الاستيلاء على عدة بلدان من حوزة بيزنطة أشهرها قاجا (٥). ثم تزوج ثوروس من ابنة سيمون حاكم مدينة رابان اللاتيني (٢). وواصل هذا الثائر غزواته فهاجم بعض الفرق التركية وهزمها ثم أطلق سراح الأسرى الذين كانوا معهم .

وسار البطل الأرميني من نجاح إلى نجاح فاستولى على سمنجالا ، وأريوندسبرت في كيليكيا ، وفي عام ١١٥٢ دانت له مو پسوستا وتل حمدون من يد البيزنطيين ، كما أن توماس قائد القوات البيزنطية وقع أسيراً في مده (٧).

Chronique Rimée de la Petite Arménie, in R.H.C. Arm., Vol. I, p. 503: (1) Documents Arméniens, Ibid., p. 618. (Y)Michael the Syrian, Chronique, (ed. Chabot), III, p. 281. (٣) 1bid. (1) Sempad, Chronique, in R.H.C. Arm., Vol. I, p. 618 (•) Chronique Rimée, p. 594; Sempad, loc. cit. Michael the Syrian, loc. cit.; the Documents Arméniens (p. 342) give (٦) Jocelin instead of Simon. (V) Sempad, p. 619.

تعرض نفوذ بيزنطة فى كيليكيا إلى خطر آخر تمثل فى سياسة مسعود. سلطان قونية ، الذى استغل الصراع الدائر فى المنطقة وبدأ يتوسع فى كيليكيا ووادى الفرات على حساب ممتلكات ونفوذ بيزنطة . وكانت المنطقة الواقعة بين ميليتين وأنطاكية بقلاعها الحصينة فى قيسون وبهنزى ورابان تحت إمرة بلدوين اللاتيني كونت ماراش (٨).

توفى بلدوين فى عام ١١٤٦ فخلفه فى الإمارة شقيقه رينولد الذى. كان متزوجاً من أجنس ابنة جوسلين صاحب الرها (١).

وفى يونية ١١٤٩ توفى رينولد فآلت أملاكه إلى صهره جوسلين. ولكى. يحمى أراضيه من الغزوات القادمة من الشهال اضطر جوسلين إلى عقد. معاهدة مع قلج أرسلان ، ولكن الوفاق بينهما لم يدم طويلا.

وفى سبتمبر ١١٤٩ سقطت ماراش فى يد السلطان مسعود وتعرضت. تل بشير لهجوم شديد أيضاً (١٠٠). واضطر جوسلين إلى الاعتراف بالسلطان. سيداً إقطاعيًّا له ، كما تعهد بإطلاق سراح جميع الأسرى الترك كما قدم له هدايا نفيسة القيمة (١١١) . وفى مابو ١١٥٠ وقع جوسلين أسيراً فى يد. الكتائب التركمانية التى كانت فى خدمة نور الدين (١٢٠) ؛ مما سهل على الأتراك مهمة غزو كيليكيا . وبذلك أصبحت سلطنة قونية تملك ماراش ، الأتراك مهمة غزو كيليكيا . وبذلك أصبحت سلطنة قونية تملك ماراش ، فرزمان ، رابان ، قيسون ، ثم بهنزى ؛ واستولى قلج أرسلان على بابولا ، جاكتا ، ثم جارجار (١٣٠) ؛ أما تمورتاش فقد سيطر على بير ، ساموساتا غورس ، وكفاسود ؛ وصار لنور الدين بلدان آزاس ، كاليد (خالد ؟).

ر وما و بیزنطة

Gregory the Priest, Chronicle, in R.H.C. Arm., Vol. I, p. 158.

(A)

Michael the Syrian, III, p. 275.

Gregory the Priest, p. 162; Michael the Syrian, p. 296.

(14)

Michael the Syrian, p.p. 293 - 94; William of Tyre, XVII, X.

Gregory the Priest, p.p. 165 - 66; Michael the Syrian, p. 296.

(17)

Michael the Syrian, p. 295.

وغيرهما من البلدان الصغيرة (١٤) .

باتت الإمارات اللاتينية في سوريا في خطر داهم أمام هذه الانتصارات الساحقة من جانب الأتراك . ولذا فإن أرملة أمير أنطاكية ، كونستانس، التي كانت أراضيها عرضة لهجوم وشيك الرقوع ، وضعت نفسها وأملاكها تحت حماية بيزنطة (١٥) . ولقد رحبت السلطات البيزنطية بهذا ، وفي عام ١١٥٢ صدرت الأوامر إلى حاكم كيليكيا البيزنطي ، ليعرض على أرملة جوسلين ، بياتريس ، شراء ما تبقي من أراض في يدها مقابل مبلغ سنوي يحق لها ولأولادها من بعدها (١٦) .

وفي أثناء المباحثات بين البيزنطيين وبياتريس وصل بلدوين ملك بيت المقدس في زيارة إلى أنطاكية وأحيط علماً بها . وقد ثار جدل عنيف بين الأمراء والبارونات اللاتين حول هذا الأمر : ففريق رفض الاعتراف بخطورة الموقف ورأى في تسليم أراضي بياتربس للسلطات البيزنطية اعترافاً بالعجز واليأس ؛ وفريق آخر نصبح بضرورة تسليم بعض المناطق للإمبراطور البيزنطي بدلا من ضياعها ليد الأتراك خاصة وأن الصليبين كانوا عاجزين تماماً عن الدفاع عنها ، وكان ملك أورشليم مؤيداً لرأى الفريق الثاني ، ولذا فقد اصطحب القوات البيزنظية إلى تل بشير حيث أشرف على تهجير بياتريس كونتيسة الرها وأبناءها وكذا السكان اللاتين والأرمن الذين رفضوا البقاء في المدينة في ظل الحكم البيزنطي . ثم سلم بلدوين المدينة للسلطات البيزنطية . وتم نفس الشيء في عنتاب ، وراڤندان ورانكولات ، وبيلا ثم ساموساتا (١٧) . وقامت قوات ملك بيت المقدس ورانكولات ، وبيلا ثم ساموساتا (١٧) . وقامت قوات ملك بيت المقدس

Ibn al-Athir, Kamel el-Tawarikh, in R.H.Ci or, Vol. I, p. 481; Michael (11) the Syrian, p. 297.

Kinnamos, IV, xvii, p. 178. (10)

William of Tyre, XVII, vi; Sempad, p. 619. (\7)

Bar - Hebraeus, Chronicon Syriacum, II, p. 345; William of Tyre, XVII, (۱۷), xvi; Michael the Syrian, p. 297.

بحماية عدد وافر من السكان اللاتين والأرمن أثناء هجرتهم إلى أنطاكية ... على أن ما آل إلى البيزنطيين هكذا دون قتال من أعمال إمارة الرها لم يلبث أن سلب منهم على يد نور الدين الذى ألحق بهم هزيمة نكراء في عام ١١٥٧ . وفي نفس الوقت استولى الثائر الأرميني ثوروس على . طرسوس ومو بسوستا وأخذ توماس دوق كيليكيا أسيراً للحرب .

قوبلت هذه الأنباء بضيق شديد في العاصمة البيزنطية واضطرت السلطات إلى اتخاذ موقف حاسم في كيليكيا . فعين الإمبراطور ابن عمه أندرونيكوس كومنين دوقاً على كيليكيا . وأوفد معه القيصر يوحنا أرمل شقيقة عمانويل ماريا ، في مهمة خاصة إلى أنطاكية تلبية للرغبة التي كانت قد أبدتها أميرتها كونستانس . وكان على القيصر هذا أن يطلب يد الأميرة كونستانس للزواج منه . ولكن أفصال أنطاكية استنكروا هذا العرض لآبهم رأوا فيه سيطرة للنفوذ البيزنطي على إمارتهم وأميرتهم . وأغلب الظن أن كونستانس رفضت الاقتران بالقيصر بسبب كبر سنه . ولما فشل القيصر في مهمته رجع إلى القسطنطينية واعتزل الحياة العامة وارتدى مسوح النساك (١٨) .

كان الدوق الحديد لكيليكيا – أندرونيكوس كومنين – معروفاً بغرامه، النهم بالنساء وبحبه الجم للمسرح. ويحكى عنه أنه كان يصطحب معه فرقة من الكوميديين إلى ساحة المعركة (١٩٠٠). وكان يختار ضباطه ممن يقدرون فيه هذه الملكات الفنية والمغامرات النسائية. هجم أندرونيكوس ورجاله على مدينة موبسوستا، حيث أقام ثوروس معسكره القيادى ، وضربوا حولها حصاراً. ولكن ثوروس ورجاله ثقبوا نخارجاً في ذلك الجزء من سور المدينة الذي لم يكن أندرونيكوس قد اهتم بحراسته. وذات صباح انقض القائد الأرميني وفرسانه على معسكر أندرونيكوس وهم في غفلة من أمرهم وهزموهم هزيمة نكراء، قتل خلالها السباستوس ثيودور كونتستيفانوس، كا

Kinnamos, III, xiv, pp. 121 - 23; IV, xvii, p. 178.

Ibid., p. 123.

وقع كل ما احتواه المعسكر البيزنطى من عتاد ومؤن غنيمة فى يد الأرمن . هرب أندر ونيكوس بعد هذه الهزيمة إلى أنطاكية ، ومنها عاد إلى القسطنطينية (٢٠) وقد توج ثوروس انتصاره هذا بالاستيلاء على عدة مدن أخرى من يد البيزنطيين ، مما زاد من هيبته بين أمراء أرمينيا ، فاعترفوا به سيداً عليهم .

اهتزت كرامة عمانويل كومنين على إثر الهزائم المتلاحقة التي أحلها ثوروس بالقوات البيزنطية في كيليكيا . والما فإن الإمبراطور لجأ إلى سلاح الدبلوماسية في مصارعته ثوروس ؛ ففتح باب المفاوضات مع سلطان قونية ، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال إن هو شن حرباً على ثوروس بمؤازرة القوات البيزنطية (٢١) .

هجم السلطان على كيليكيا ، ولكنه عندما حاول عبور جبال طوروس وجد ممراتها مدججة برجال ثوروس المسلحين . ولذا فقد آثر التفاوض مع الثاثر الأرميني ، وطلب منه الاعتراف به سيداً عليه وإعادة المدن التي استولى عليها من البيزنطيين إليهم . وقد قبل ثوروس الشرط الأول من عروض السلطان مسعود ولكنه رفض التنازل عن شبر من الأراضي البيزنطية . واتفق الطرفان على هذا ووقعا معاهدة صلح كانت بطبيعة الحال لمصاحة الطرفين ، ولكن على حساب بيزنطة (١١٥٣) .

ومع هذا فقد سعى عمانويل كومنين مرة أخرى لتأليب السلطان مسعود على ثوروس بأن بذل له قلراً من الذهب. وفي مايو ١١٥٤ وجه السلطان حملة بقيادة يعقوب لمهاجمة ثوروس ، ولكن الذى حدث أن انقض جماعة الداوية ورجال ستيفانوس ، شقيق ثوروس ، عليهم في ممر بورتللا الضيق الذى يصل كيليكيا بسوريا . وكانت هزيمة الترك في هذه

^(**)

الموقعة تامة، كما قتل فيها قائد الحملة يعقوب (٢٢). هذا في حين أن وباء حل برجال مسعود أثناء حصارهم لتل حمدون مما اضطره لرفع الحصار والتقهقر إلى قونية .

وفي عام ١١٥٥ توفي مسعود ، فاندلعت نار الحرب الأهلية في سلطنته. كما أن ولده وخلفه قاج أرسلان وقع في صدام شديد مع نور الدين صاحب حلب في وادى الفرات . وأمام هذا التحدى من جانب نور الدين عقد قلج أرسلان معاهدة صلح مع ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية وثوروس الأرميني = وذلك في عام ١١٥٧ (٣٣) .

لما وصلت أنباء هذه المعاهدة إلى البلاط البيزنطى أرسل عمانويل سفيره الكسيوس جيفارد محملا بالهدايا إلى بلاط قلج أرسلان وإلى الأمير يعقوب أرسلان ، طالبا منهما وعداً باحترام حدود الإمبراطورية في آسيا الصغرى (١١٥٨) . وبعد أن تم له هذا قرر قيادة حملة ضخمة بنفسه لتصفية الموقف المعقد في كل من كيليكيا وسوريا .

كان عمانويل قد شعر بالإهانة التي وجهتها إليه كونستانس أميرة أنطاكية برفضها الزواج من القيصر يوحنا. ولقد زاد من غيظه أنها تزوجت في عام ١١٥٣ من مغامر صليبي يدعو رينولد دى شاتيلليون الذى كان قد رافق لويس السابع من أورشليم إلى أنطاكية حيث التي بالأميرة الفرنجية (٢٤). وقد رأى عمانويل في هذا الزواج تحديا صارخاً لأوامره ونكراناً لحقوقه على إمارة أنطاكية المتعارف علها .

ولذا نجد أن رينولد بعث يطلب الصفح من الإمبراطور البيزنطى مبديا استعداده لتنفيذ ما يطلب منه لنيل رضاءه (٢٥). طلب عمانويل منه أن

Gregory the Priest, . 172; Michael the Syrian, p. 347.	(۲۲)
Gregory the Priest, pp. 177 - 78.	(۲۳)
William of Tyre,, XVII, xxvi.	(٢٤)
Kinnamos, IV, xvii, p. 178.	(Yo)

يشن حملة على ثوروس ، متعهداً إمداده بالمال اللازم لتمويل هذه الحملة (٢١). وكان رينولد لا يمانع في الاضطلاع بهذه الحملة ؛ لأن ثوروس كان قد اغتصب حصن جاستين من جماعة الداوية . وبالفعل دارت الحرب بين رينولد وثوروس على مقربة من الإسكندرونة . ويبدو أن النصر فيها كان لأمير أنطاكية على الأمير الأرميني (٢٧). إلا أن الطرفين قد عقدا صلحاً ثم معاهدة للعمل سويا بغية تحقيق أطماعهما الشخصية . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً تحالف الاثنان على العمل سويا ضد البيزنطيين . ويحاول المؤرخ الصليبي وليم الصورى تبرير موقف رينولد بقوله إن الأخير ويحاول المؤرخ الصليبي وعده به عمانويل كومنين رغم أنه أنفذ بالفعل حملة ضد ثوروس (٢٨). ولذا فإن أمير أنطاكية قرر التعاون مع خصم عمانويل ثوروس – المانتقام من خداع الإمبراطور له .

اختار رينولد وثوروس جزيرة قبرص الغنية بالخيرات مسرحاً لمغامرتهما المشتركة ، وجهزا أسطولا لهذا الغرض . كانت قبرص فى ذلك الوقت تحت حكم يوحنا كومنين ، ابن شقيق عمانويل كومنين ، يعاونه فى إدارة شئونها ميخائيل براناس . ويبدو أن حاكم الجزيرة قد علم بطريقة ما بمشروع رينولد ضد الجزيرة ، ويدل على ذلك أنه عند رسو سفن رينولد كان براناس ورجاله واقفين له بالمرصاد ، فى حين أن يوحنا ذاته كان مرابطاً بقواته فى ليكوزيا (نقوسا) (٢٩١).

يزعم المؤرخ كناموس أن رينولد قد هزم على يد أهالي قبرص (٣٠)، ولكن روايته هنا غير صحيحة . ونجد الحقيقة فيما كتبه وليم الصورى في

William of Tyre, XVIII, x. (??)
William of Tyre, loc. cit.; conf., Michael the Syrian, p. 350 gives the opposite version of the story.
William of Tyre, loc. cit. (?A)
Ibid. (?9)
Kinnamos, IV, xvii, p. 179.

هذا الصدد: فالقوات البيزنطية التي حاولت صد رينولد ورجاله منيت بالحريمة واضطرت للتقهقر إلى ليكوزيا. ثم تعقب الغزاة القوات المتقهقرة وأسروا القائد ميخائيل براناس. وعندما تقدم يوحنا كومنين لمعاونة الفرق المتقهقرة مني هو الآخر بهزيمة فادحة بل ووقع أسيراً في يد رينولد. وبعد هذا أطلق الأمير الصليبي عصاباته في كل ركن من أركان الجزيرة وقراها لتجريدها من كل ثرواتها وخيراتها. وهكذا فإن مداثن الجزيرة وقراها وكنائسها ودورها وقعت فريسة للنهب والسلب والعبث. وعملت سيوف الفرنجة في الأهلين دون رحمة على وتعرض النساك في صوامعهم للتشويه. وكان الحصاد من الذهب والفضة والأقمشة جد وفير ، هذا إلى جانب أعداد مهولة من القطعان على عنتلف صنوفها . على أن رينولد على سفنه إلى مشقة نقل هذه الأعداد الضخمة من الماشية والقطعان على سفنه إلى أنطاكية ، فرض غرية أهل الجزيرة شراء مواشيهم وقطعانهم وبثمن باهظ . كذلك فرض ضرية أسماها « جزية الحرب المقدسة » على سكان الجزيرة ورؤساء الدين ولفيان حباية هذه الضريبة قبض على عدد من وجهاء الجزيرة ورؤساء الدين ولفيان لديه في أنطاكية وبشاء الدين .

وقعت أحداث حملة رينولد هذه فى عام ١١٥٦ ، وجاءت هذه الفعلة صدمة عنيفة للرأى العام . ولقد غضب الأمراء الصليبيون أقران رينولد فى سوريا وبيت المقدس من مسلكه هذا ، لأن السلطات البيزنطية أغلقت جميع الموانى فى وجه السفن القادمة من الغرب إلى الإمارات الصليبية ، رداً على هذا العدوان السافر . هذا وقد عنف بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس ، الأمير الأنطاكى على خطئه أثناء حصارهما لمدينة شيزار (٣٢) . ولم يكن غضب بلدوين دون مبرر : فإلى جانب كراهيته لشخص رينولد،

William of Tyre, XVIII, xvii; Gregory the Priest, p. 187; Michael the (Y1) Syrian, p. 350; Bar - Hebraeus, II, p. 325.

William of Tyre, loc. cit.

رأى فى حملته على قبرص المسهار الأخير فى نعش التفاهم بين الصليبيين وبيزنطة ، وذلك فى وقت بلغت فيه سطوة نور الدين أوجها ، مما بات مهدد كيان الإمارات اللاتينية بخطر محقق .

ورغم هذا فقد كتب بولدوين إلى الإمبراطور البيزنطى يطاب الصفح والغفران • كما أوفدسفارة إلى القسطنطينية لتخطب له أميرة بيزنطية للزواج منه . ولكمى يؤكد حسن نواياه أعلن الملك الصليبي أنه عازم على إخضاع السلطات الحاكمة في إمارة أنطاكية لطاعة عمانويل كومنين (٣٣) .

تألف سفراء بلدوين إلى العاصمة البيزنطية من إيتارد رئيس أساقفة الناصرة ، وهمفرى من تورون ، وجوسلين بيزوه ، ثم وليم من باريه (٢٤٠) . وقد توفى رئيس الأساقفة أثناء زيارته للقسطنطينية . هذا ولم يسمح للوفد اللاتيني بمقابلة عمانويل كومنين فور وصولهم العاصمة . على أنه بعد حين سمح لهم بذلك، وتقرر تلبية طلب بلدوين بأن رشح الإمبراطور زوجاً له ثيودورة ابنة شقيقه إسحق . ووهب الإمبراطور ملكة أورشليم المستقبلة ثيودورة ابنة شقيقه إسحق . ووهب الإمبراطور ملكة أورشليم المستقبلة والأقمشة والسجاجيد وخلافه من نفائس القصر الإمبراطورى . وأوفد معها وفداً من أعيان المدينة في رحلتها الميمونة مع السفراء الفرنجة إلى الأرض وفداً من أعيان المدينة في رحلتها الميمونة مع السفراء الفرنجة إلى الأرض.

وصلت ثيودورة إلى صور فى سبتمبر ١١٥٨ ، ومنها تقدمت فى موكبها إلى أورشليم حيث عقد قرانها على بلدوين الثالث على يد عمورى بطريرك أنطاكية ؛ إذ كان بطريرك أورشليم متغيباً فى تلك اللحظة (٣٥).

بعد أن وثق عمانويل كومنين علاقاته ببلدوين الثالث قرر قيادة حملة لتقليم أظافر المارقين رينولد وثوروس لفعلتهما البشعة ضد أهالى جزيرة.

Gregory the Priest, p. 189.

Ibid.; William of Tyre, XVIII, xxii. (7)

Ibid. (To)

قبرص . ولكى يأخذ عدويه على غرة روج إشاعة مؤداها أنه قادم لمحاربة الترك (٣٦) . وزحف الجيش البيزنطى بقيادة إهبراطوره من آتاليا إلى سلوقيا حيث كان فى انتظاره حائمها الكسيوس كازيانهس .

لعب القدر دوراً بارعاً في إنقاذ ثوروس من قبضة عمانويل . ذلك أن أحد الحجاج اللاتين ، الذي كان قادماً من الشهال ، أبلغه أنه قد رأى الإمبراطور البيزنطى على رأس جيش هائل يزحف صوب الجنوب . جمع الزعيم الأرميني أفراد عائلته وكنوزه وفر إلى بطن الجبال . وتوارى هذا الهارب وذووه في بقعة تعرف باسم دادجيق ، لم يعرف عنها من قبل أنها آوت إنساناً ما (٣٧) . ولم يعلم ثوروس بملاذه هذا أحداً عدا صديقيه توماس وكوركيس . وكان بين الحين والآخر يخرج من كهفه هائماً في جبال طوروس ليتسقط الأنباء عن الانتصارات المتلاحقة التي حققها عمانويل كومنين في كيليكيا (٣٨) .

كان عمانويل قد دخل كيليكيا بعد هروب ثوروس بثلاثة أيام فقط (٣٩) ولم ياق مقاومة تذكر ، فاستولى على لاموس وكستراموس وآنزربا وطرسوس ، ولونجينياس ، ثم تل حمدون ، وعند حلول نوفبر من عام ١١٥٨ أصبح عمانويل السيد المطلق لإقليم كيليكيا (٤٠٠). أمر عمانويل أن يقام معسكره عند بوابات موبسوستا ، ثم بدأ يفكر في كيفيسة إذلال ينولد دى شاتيلليون .

نظر رينولد ،ن حوله فرأى الإمبراطور وجيشــه على أطراف إمارته يتأهبون للنيل منه ، ووجد أعداءه داخل أنطاكية مستبشرين ارتياحاً لما

Kinnamos, IV; xvii, p. 179.	(٣٦)
Dadjig was a castle in the Cydnus valley.	(mv)
Greogry the Priest, p. 187; Kinnamos, loc. cit.	(٣٨)
William of Tyre, XVII, xxiii.	(44)
Gregory the Priest, loc. cit.; Kinnamos, IV, xvii, pp. 180 - 81.	(11)

كان لا محالة واقع به من عقاب . وكان على رأس أعدائه فى أنطا كية عمورى بطريركها العنيد . ولقد بدأت العداوة بين الرجلين مذ عارض البطريرك زواج رينولد من الأميرة كونستانس . وانتقم الأمير من رجل الدين بأن قبض عليه وأمر بضربه ثم طلاه وهو عريان بالعسل وألقى به أرضاً نهباً للدغ الذباب في صيف أنطاكية القائظ . ولم ينقذ عمورى من الهوان سوى دفعه لرينولد مبلغاً ضخماً من المال اشترى به حريته . على أنه ما إن أطلق سراحه حتى فر يلتجئ عند بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (ائ) . كان طبيعيا ان يشمت بلدوين الثالت وعمورى في رينولد وأن يودا عقابه على يد عمانويل كومنين . وكان رينولد مدركاً لهذا ، ولذا فقد بعث يعرض على البازيليوس تسليمه قلعة أنطاكية ولكن هذا ولذا فقد بعث يعرض على البازيليوس تسليمه قلعة أنطاكية ولكن هذا العرض رفض بشدة . وهنا نصح لرينولد خلصاؤه بأن يسرع فيضع نفسه العرض رفض بشدة . وهنا نصح لرينولد خلصاؤه بأن يسرع فيضع نفسه تحت رحمة الذات الإمبراطورية بدلا من أن يحسر كل شيء .

عارى الرأس ، حافى القدمين ، ويداه أيضاً عاريتان حتى العنق الذى التف حوله حبل من مسد ، وقد أمسك بغمده من حده لا من المقبض جر رينولد دى شاتيللون قدميه على طول طريق موبسوستا حتى الخيمة الإمبراطورية . وكان يحيط به من حوله جمع من النساك عارى الرؤوس حافى الأقدام ، وهو يقدم خطوة ويؤخر أخرى قبالة مقام صاحب العباءة الأرجوانية . أما عمانويل كومنين فقد كان متربعاً على عرشه محاطاً بالحاشية والحرس المدجج بالسلاح ؛ الذين وقفوا شاهرين سيوفهم . وفي حين ركع القوم الذين قدموا مع الأمير النادم وهم يمدون أيديهم توسلا للرحمة والغفران ألقى رينولد بنفسه على الأرض عند قدى الإمبراطور يشحذ رضاه . تعمد عمانويل إطالة مدة هذا المشهد المهين إلى حد راح من طوله بعض المشاهدين في سنة من النوم .

وفى نهاية الأمر منح الإمبراطور عفواً مشروطاً للأمير الذليل . ومهما كان الأمر فإن من شاهد أو سمع عن هذا الإذلال من الفرنجة رأى فيه مهانة مقصودة للعنصر اللاتيني على إطلاقه . ويروى وليم أسقف صور تفاصيل هذه الحادثة فى أسى وحزن بالغين « بسبب العار الذى لحق بالفرنجة » فى مو بسوستا (۲۶) . والذى زاد من قدر هذه المهانة وجود عدد كبير من السفراء من مختلف الأمصار والأقطار : من خراسان و بغداد وحلب وقونية ، ليشهدوا تلطيخ كبرياء الفرنجة فى وحل كيليكيا (۳۶) . وقبل أن يسمح عمانويل كومنين لأمير أنطاكية بأداء قسم الولاء والطاعة له » الذى كان عليه بمؤداه أن يسلم إلى الإمبراطور قلعة أنطاكية ، كان عليه أن يتعهد بقبول بطريرك بيزنطى لكرسى المدينة بدلا من بطريركها اللاتيني . ولم يكن بقبول بطريرك بيزنطى لكرسي المدينة بدلا من بطريركها اللاتيني . ولم يكن هذا الشرط بدعة جديدة » فهو النزام كان يصر عليه من قبل يوحنا كومنين ، ومن قبله الكسيوس كومنين عندما وقع اتفاق ديابولس (١١٠٨) مع بوهمند الأول . كذلك كان على رينولد إمداد عمانويل بعدد محدد من مع بوهمند الأول . كذلك كان على رينولد إمداد عمانويل بعدد محدد من الكتائب للخدمة في جيش الإمبراطور وقباً تدعو الحاجة إلى ذلك (١٤٤) .

كان إذلال موبسوستا انتصاراً كبيراً لبيزنطة على اللاتين في سوريا . ونظر أهل الإمبراطورية إلى هذا الحدث على أنه حصاد كفاح مرير دام ستين عاماً مع جنس الفرنجة المتبربر . ولقد نظم ثيودور برودروموس قصيدة لتخليد هذا الحدث التاريخي تحدث فيها عن دونية اللاتين وسيادة بيزنطة (٥٤) .

بعد ذلك بقليل وصل بلدوين الثالث وشقيقه عمورى كونت يافا إلى أنطاكية . ومن هناك أوفدا جيوفرى مقدم دير معبد السيد المسيح ليطلب

Ibid. (£ Y)

Kinnamos, IV, viii, p. 183.

Kinnamos, IV, xxiv, p. 199; William of Tyre, XVIII, xxiii. (1)

Theodore Prodromus, Carmen, in R.H.C.Gr., Vol. II, pp. 303 seq. (¿ o)

من عمانويل كومنين السماح لهما بزيارته . ويبدو أن بلدوين كان يطمح في أن يقطعه الإمبراطور إمارة أنطاكية بدلا من رينولد (٢٦٠) . ولقد ذهب رجال البلاط لاستقبال بلدوين على بعد من الحيمة الإمبراطورية . غير أن حادثاً صغيراً وقع فعكر صفو المودة بين الضيف والمضيف إلى حد : ذلك أن ملك أورشليم ، بقصد أو بغير قصد " تقدم ممتطياً جواده أبعد من المنقطة التي كان يتحتم عندها أن يترجل كائن من كان إلا الإمبراطور ذاته . وكان هذا الحرق لقواعد البروتوكول من جانب بلدوين سبباً في فتور الاستقبال الذي لقيه من الإمبراطور (٢٤٠) . ومع ذلك فقد أقام بلدوين ضيفاً على الإمبراطور عشرة أيام ، اتفق خلالها على أن يمد الأول الثاني بعدد معين من الكتائب . ولا يستبعد أن يكون بلدوين قد أقسم يمين الولاء والطاعة لعمانويل أيضاً .

هذا عن قصة رينولد دى شاتيلليون . أما عن ثوروس فيبدو أنه طلب من بلدوين الثالث التوسط له لدى الإمبراطور لتسوية خلافه مع بيزنطة . ووافق عمانويل كومنين على أن يقدم ثوروس نفسه فى مشهد شبيه بذلك الذى كان رينولد بطله الذليل . وقبل ثوروس هذا الشرط وأدى يمين الولاء والطاعة الذى طلب منه . وعليه فقد أقطع بالأراضى التى كان قد استولى عليها من الإمبراطورية لله (٤٨) .

وكما جرت العادة ، وزع البازيليوس الهدايا الإمبراطورية على أتباعه وحلفائه . ويروى وليم الصورى أن نصيب بلدوين الثالث كان ٢٢,٠٠٠ هايبيربيروى و ٣٠٠٠ مارك من الفضة (٤٩٠) وغادر بلدوين موبسوستا عائداً إلى أنطاكية ، تاركاً وراءه شقيقه عمورى ، وهيومن إبلسين ليتلقيا

William of Tyre, XVIII, xxiii. (£7)

Kinnamos, IV, xix, p. 183; William of Tyre, loc. cit. (&v)

Kinnamos, p. 187. (& A)

William of Tyre, XVIII, xxiv. (19)

نصيبهما من الكرم الإمبراطوري (٥٠)

قبل حلول فصح ١١٥٩ أرسل عمانويل كومنين سفيره يوحنا كاماتيروس. إلى أنطاكية ليعلن وشوك زيارة سيده للمدينة (٥١). غير أن السلطات الحاكمة في أنطاكية أعلنت أنها لا تنصح بإتمام هذه الزيارة لأن هناك مؤامرة قد دبرها البعض لاغتيال البازيليوس (٢٥). ولكن عمانويل كان مصراً على دخول أنطاكية في موكب المنتصرين ، فأرسل يطلب من أمراء إنطاكية بعض الرهائن ، كما أمرهم بعدم حمل سلاح ما إن أرادوا المشاركة في حفل استقباله .

كان دخول عمانويل كومنين مدينة إنطاكية دخولا مظفراً: فقد ظهر في ردائه الإمبراطورى يتلألاً بالأحجار الثمينة ممسكاً بصولحانه على ظهر جواده .

أما رينولد دى شاتيلليون ورفاقه الأمراء اللاتين فقد ساروا على ظهر الأقدام فى تواضع جم بجواره . وأتى من خلفه ملك أورشليم على ظهر جواده دون أن يحمل سلاحاً . وكان فى استقبالهم عند بوابة المدينة الشعب والإكليروس وعلى رأسهم البطريرك فى كامل زيه الكهنوقي ممسكاً بالأناجيل فى يديه . وهنا علا رنين الأبواق وارتفعت نغمات الترانيم الدينية ، وتقدم الموكب الحافل على البسط المفروشة فى الطريق الرئيسي المؤدى إلى الكاتدرائية التي توجه منها الإمبراطور إلى قصره (٥٠) . ولمدة ثمانية أيام ارتفع العلم الإمبراطوري ليرفرف فى أعلى قلعة المدينة ؛ كما أمر الإمبراطور بتوزيع الهبات والصدقات على أهليها . كذلك أمر بعقد مبارزات ودية بين فرسانه والفرسان اللاتين ، واشترك بذاته فى هذه الرياضة وأوقع بفارسين لاتينين

Ibid. (0·)

Ibid. (01)

Kinnamos, IV, xxi, pp. 186 - 87.

William of Tyre, XVIII, xxv. (a7)

من على ظهر جواديهما أرضاً (١٥٠) . `

فى آخر مايو ١١٥٩ رحلت القوات البيزنطية عن أنطاكية بقصد شن الحرب ضد نور الدين أمير حلب . وانضمت لهذا الغرض قوات الأمراء اللاتين إلى قوات بيزنطة . ضرب المتحالفون معسكراتهم عند عواضى بالا استعداداً للقتال . غير أن البازيليوس قرر فجأة عدم القتال وعقد صلحاً مع نور الدين ، تعهد الأخير بمقتضاه إطلاق سراح الأسرى اللاتين اللذين كانوا فى حوزته . كما وعد أمير حلب معاونة عمانويل فى حربه ضد سلطان قونية (٥٠) . كان مدد الأسرى الذين أطلق نور الدين سراحهم أكثر من ستة آلاف (٢٠) غالبيتهم من أفراد الحملة الصليبية الثانية . وكان من بين هؤلاء برتراند ولد الفونس جوردان وحفيد رايموند من سان جيل ، ثم برتراند من بلانكافورت رئيس الداوية (٢٠) .

عندما قرر عمانويل كومنين عقد هدنة مع نور الدين ، رأى الأمراء اللاتين في هذا الإجراء مثلا آخر من جبن البيزنطيين وغدرهم . كما أن الفرق الأرمينية التي كانت مشتركة مع القوات المتحالفة شاركت اللاتين في شعورهم بالمرارة (٨٥) .

على أنه ينبغى ملاحظة أن عمانويل كومنين عندما قدم إلى كيليكيا وسوريا لم يأت بغية التعاون مع الأرمن أو اللاتين ضد نور الدين ، وإنما العكس هو الصحيح ، إذ أنه قد جاء ليعاقب أمير أنطاكية وزعيم الأرمن لمجومهما الغادر على جزيرة قبرص . وما من شك في أن الحطر الذي كان يمثله نور الدين على الإمارات اللاتينية كان عاملا أساسيًّا من العوامل التي

Nicetas Choniates, III, iii, p. 142.	(01)
Kinnamos, IV, xxi, p. 188.	(00)
Ibid.	(০ খ)
William of Tyre, XVIII, xxv.	(°V)
Gregory the Priest, p. 191.	(0)

شجعت عمانويل على الزحف على كيليكيا وسوريا لتحقيق أغراضه ولتأكيلا حقوقه على إمارة إنطاكية بقوة السيف. وأغلب الظن أن عمانويل عقد صلحاً مع نور الدين بدلا من مقاتلته ليبتى عليه شوكة قوية فى ظهر الصليبيين ، مما يترك الأمور فى سوريا فى شيء من التوازن الذى كان بالضرورة من مقتضيات الحفاظ على مصالح الإمبراطررية البيزنطية فى المنطقة . يضاف إلى هذا أنه بهذا الصلح كسب إلى جانبه حليفاً يخشى بأسه ضد سلطان قونية . ومع هذا فإن المعاهدة التى عقدها الإمبراطور مع أمير حلب قد حققت مكسباً وافراً للصليبيين إذ بمقتضاها أطلق نور الدين سراح ما يربو على ستة آلاف أسير صليبى ، كان من بينهم أفراد ذوو مكانة هامة .

بعد هذا رجع جيش عمانويل بطريق سلوقيا – لاراندا . ولكن القبائل التركية في المنطقة انقضت عليه عند كاتايون (كوتاهية) وأوقعت به هزيمة نكراء (٥٩) . وما من شك في أن سلطان قونية – قلج أرسلان – هو الذي حرض القبائل على هجومها ضد الجيش البيزنطي ، كرد فعل طبيعي على المعاهدة التي أبرمها عمانويل مع أمير حلب .

فى عام ١١٦٠ أرسل عمانويل كومنين سفيريه يوحنا كونتستيفانوس وثيوفيلاكت كبير التراجمة فى مهمة خاصة إلى ملك بيت المقدس كان على هذين السفيرين أن يطلبا من بلدوين الثالث يد إحدى الأميرات اللاتينيات للزواج من عمانويل كومنين ، الذى كانت زوجته الألمانية إيرينى قد توفيت فى عام ١١٥٨ . وكانت رغبة البازيليوس تنحصر فى واحدة من اثنتين : إما مليسيندا شقيقة الكونت رايموند الثالث صاحب طرابلس ، وإما ماريا ابنة رايموند أمير أنطاكية المتوفى .

تشاور بالموين الثالث مع نبلائه في الأمر ، ثم قرر عرض يد ابنة

(11)

Ibid., p. 192.

William of Tyre, XVIII, xxx; Kinnamos, V, iv, p. 210.

أخته ميليسيندا معلى عمانويل ، والواقع أن ملك بيت المقدس أراد أن يبعد الإمبراطور عن شئون أنطاكية خوفاً من ازدياد النفوذ البيزنطى فى سوريا ، إن تم زواجه من ماريا الأنطاكية . بدأ السفراء يتقصون أخبار الأميرة المرشحة لمشاركة سيدهم فى التاج الإمبراطورى وأرسلوا بتفاصيل دقيقة عن قوامها وجمالها إلى عمانويل (٢١) . وفى أثناء ذلك بدأ رايموند فى تجهيز اثنتى عشرة سفينة للمناسبة السعيدة وراح يشترى لأخته أغلى النفائس استعداداً للزفاف الميمون . وانتشرت الأخبار السارة فى كل أرجاء الشرق اللاتينى ، فوفدت جماعات النبلاء من كل ركن إلى بلاط طرابلس حيث أمتعوا بفاخر المآدب والشراب ابتهاجاً بالمناسبة . وأطال الأضياف إقامتهم فى بلاط رايموند فى انتظار وصول رسالة من القسطنطينية يحدد فيها عمانويل موعد اللحظة المرتقبة . ولكن شيئاً من هذا القبيال لم يرد البتة من هناك .

كان طبيعياً أن يزداد القلق فى نفسى بلدوين ورايموند بعد أن انصرم عام كامل دون رد من القسطنطينية . ولذا فقد طلبا من السفراء البيزنطيين البحث فى الأمر . وأعلن رايموند أن هذا الزواج إن لم يتم فإنه لقاطع أواصر الصلة بالبيزنطيين ، كما أنه صرح بعزمه على استرداد جميع ما أنفقه من مال استعداداً لهذا الزواج (٢٢) . أما بلدوين فقد أرسل أوتو من رزبرج إلى العاصمة البيزنطية لكشف الأمر ، وهناك علم أن عمانويل قد رفض الزواج من ميليسيندا (٢٣) . وسرعان ما انتشر الحبر فى كل مكان وأشاع اضطراباً شديداً بين الأوساط اللاتينية خاصة فى بلاط طرابلس إذ أعلن رايموند أنه سيقود حملة بحربة بنفس السفن التي كان قد أعدها للزفاف ليخرب سواحل الإمبراطورية انتقاماً للإهانة التى لحقت بشرف للزفاف ليخرب سواحل الإمبراطورية انتقاماً للإهانة التى لحقت بشرف

Ibid., XVIII, xxxi. (71)

Ibid. (TY)

Ibid. (77)

أسرته من جراء تصرف عمانويل كومنين (٦٤) . أما السفراء البيزنطيون فى طرابلس فقد انسلوا سرًّا من هناك وأبحروا هاربين فى قارب صغير إلى قبرص .

اختلفت الآراء في تفسير الأسباب التي من أجلها رفض عمانويل يد الأميرة ميليسيندا: إذ نجد كناموس يصرح بأن السفير كونتستيفانوس اكتشف من خلال تحرياته الدقيقة أن ميليسينداكانت من أصل غير شرعي ، ولذا فقد قرر العودة إلى العاصمة دون إتمام شيء (٢٥٠). أما وليم الصورى فيقرر أن سبب عدول عمانويل عن هذا الزواج تلك الأحداث المتلاحقة التي شهدتها أنطاكية: في ٢٢ نوفمبر ١١٦٠ وقع رينولد دى شاتيلليون أسيراً في يد الترك ونتج عن هذا أن نشط الحزب المعادى لبيزنطة في أنطاكية بتحريض من ثوروس الأرميني ، بهدف طرد كونستانس من أنطاكية بتحريض من ثوروس الأرميني ، بهدف طرد كونستانس من فقد كتبت كونستانس – سرًّا – إلى عمانويل كومنين تستنجد به بوصفه فقد كتبت كونستانس – سرًّا – إلى عمانويل كومنين تستنجد به بوصفه مسيدها الإقطاعي هي وزوجها وفق معاهدة ١١٥٩ ، وكانت كونستانس تغشي أيضاً نفوذ بلدوين ملك أورشليم ، الذي كان كارهاً لها ولزوجها .

أرسل عمانويل يطمئن كونستانس وفي نفس الوقت طلب يد ابنتها ماريا في الزواج منه . وأوفد لهذا الغرض بعثة دبلوماسية من كبير الأدواق الكسيوس ، ابن الأميرة آنا كومنينا ، ومحافظ العاصمة أندرونيكوس كاماتروس (٢١٠) .

ولما قدم بلدوين الثالث إلى أنطاكية علم بالأمر فحاول إحباط مشروع الزواج. ولكن الأمركان قد قضى بعد أن وافقت الأميرتان الأم والابنة

Ibid. (\(\frac{1}{\xi}\))

Kinnamos, V, iv, p. 26.

Ibid., V, iv, p. 210. (77)

على مشروع عمانويل . وبعد قليل سافرت ماريا إلى القسطنطينية (٦٧) . وفي ٢٥ ديسمبر ١١٦١ احتفلت أياصوفيا بعقد قران عمانويل كومنين على ماريا الأنطاكية، وقام بالمراسيم لوقا بطريرك القسطنطينية، يعاونه في ذلك سوفر ونيوس بطريرك الإنطاكية (٦٨) .

وثق هذا الزواج العلاقات بين بلاطى أنطاكية وبيزنطة ، وأخذ النفوذ البيزنطى يزداد وضوحاً فى الإمارة ، مما أزعج ملك بيت المقدس الجديد عمورى وأيضاً بوهمند الثالث الأمير الأنطاكى . ولذا نجدهما يكتبان إلى الملك لويس السابع فى عام ١١٦٢ للشكوى من ازدياد نفوذ بيزنطة فى سوريا . ورغم هذا فإن القوات البيزنطية حاربت جنباً إلى جنب مع اللاتين فى كيليكيا ضد نور الدين : فقد حارب دوق هذا الإقليم كولومان ورجاله معهم فى موقعة البقيع ضد أمير حلب . وفى أغسطس ١١٦٤ وقع الدوق البيرنظى أسيراً فى موقعة حارم ، هو و بوهمند الثالث ورايموند الثالث .

في هذه المرحلة كان عمانويل كرمنين منصرفاً لمحاربة الهنغار في أوربا الله الله الله المنطق على أراضي الإمبراطورية . فاستغل ثوروس زعيم أرمينيا وأخوه ستيفانوس هذه الفرصة وراحا يهجمان على كيليكيا البيزنطية . وحدث أن دعا اللوق الجديد لكيليكيا ، أندرونيكوس يوفوربينوس ، ستيفانوس إلى مأدبة عشاء ، تم فيها اغتيال الضيف ورجال حرسه جميعاً (٧٠). وانتقاماً لهذا شدد ثوروس وشقيقه الآخر مليح ضرباتهما للبيزنطيين في كيليكيا وقتلا ما يزيد على عشرة آلاف منهم ثم استوليا على موبسرستا ، وانزاربا ، وقتلا ما يزيد على عشرة آلاف منهم ثم استوليا على موبسرستا ، وانزاربا ، وقاجا (٧١)

William of Tyre, XVIII, xxxi. (\(\nabla \nabla)

Kinnamos, V, iv, p. 211. (气ん)

Ibn al-Athir, History of the Atabeks, p. 209; William of Tyrc, XIX, ix. (74)

Michael the Syrian and almost all the Armenian chroniclers report, (y•) wrongfully, that Sdephanus was murdered by Andronicus Comnenus.

Sempad, pp. 621 - 22. (vi)

تدخل عمورى ملك بيت المقدس ليفض الصراع الدامى بين الأرمن والبيزنطيين فى كيليكيا وعقد بينهما صلحاً ، ولكن سرعان ما نقض ثوروس الجهد واستأنف مقاتلة القوات البيزنطية من جديد .

اضطر عمانويل كومنين بعد هذا إلى أن يعين دوقاً جديداً لإقليم كيليكيا : هو أندرونيكوس كومنينوس ، وزوده بمال وفير لمحاربة ثوزوس والقضاء على ثورته الجديدة . على أن الدوق الجديد لم يكن رجل حرب، إذ دأب على قضاء جل وقته في مدينة أنطاكية ، حيث أقام علاقات ودية مع أميرتها وآل بيتها . وسرعان ما أوقع في حبائل غرامه الأميرة فيليبا شقيقة زوج عمانويل كومنين . وهامت فيليبا بأندرونيكوس حباً وإعجاباً وأسلمت ذاتها كلية لهذا الممثل البارع .

ولما علم الإمبراطور بهذه العلاقة بين الاثنين غضب غضباً شديداً الإحكان موقناً أن أندرونيكوس سيعبث بالصبية بغية تحقيق مآربه الخاصة في اغتصاب إمارة أنطاكية ذاتها . ولذا أقاله من منصبه وعين بدلا منه كولومان الذي افتداه من الأسر . وقد أمر الإمبراطور هذا اللوق الجديد بالتردد على البلاط الأنطاكي ومحاولة كسب قلب فيليبا وتأليبا على أندرونيكوس . ولكن الأميرة المدللة ، التي كان عليها أن تستقبل كولومان تنفيذاً لأوامر زوج شقيقها ، باتت تشكو علائية من إحلال هذا « الفارس الأشعث القصي وقد تبع هذا نزاع حاد بين عمائويل وأندرونيكوس ، قرر بعده الشميء » على أندرونيكوس الجميل ، كما وأنها كثيراً ما سخرت منه لقصر قامته . وقد حمل أندرونيكوس معه قامته ، الرحيل عن أنطاكية . وقد حمل أندرونيكوس معه الأحوال الوفيرة التي كانت قد سلمت إليه لمهمته في كيليكيا (٢٧٠) . وصل أندرونيكوس بعد هذا إلى بيت المقدس حيث وجد ثيودورة أرملة بلدوين الثالث فطارحها الغرام ، ثم هرب الاثنان معاً إلى بلاط أحد الأمراء المسلمين .

ورغم هذا فإنه فى بداية عام ١١٧٠ نشط الحزب المعادى لبيزنطة فى أنطاكية وازداد نفوذه ، ويدلنا على ذلك حقيقة إعادة البطريرك اللاتينى عمورى إلى عرشه البطريركي وإغفال حقوق بطريركها البيزنطي (٧٠).

* * *

أما عن علاقات عمانويل بمملكة بيت المقدس ، فقد سبق ذكرأن بلدوين الثالث قد غضب من زواج البازيليوس بماريا الأنطاكية بعد الإهانة التي ألحقها بابنة شقيقته ميليسيندا أميرة طرابلس .

توفى بلدوين الثالث فى العاشر من فبراير ١١٦٢ فخلفه على العررش شقيقه عمورى . وكان الملك الجديد يرى فى سياسة عمانويل عداء للصليبيين لا يقل عن عداوة الجانب الإسلامي لهم . وقد وضح موقفه هذا فى الرسالة التى بعث بها إلى الملك لويس السابع فى بداية عهده بالملك

William of Tyre, XIX, ii. (YT)

Michael the Syrian, p. 360. Amouri retired to Koseir (Kursat), and his (v t) case was the cause of Pope Alexander III's anger in 1178. See Jaffé, 3020.

William of Tyre, XX, xviii; Michael the Syrian, p. 339. (vo)

يطلب فيها نجدات ضد « عدوان نور الدين وعمانويل على الإمارات اللاتينية (٧٦) .

ولكن الرأى العام فى غرب أوربا كان قد صم أذنيه بعد الفشل الدريع الذى منيت به صليبية ١١٤٧ . وجهذا لم يتلق عمورى ردًا مطمئنًا من الغرب لاستنجاده المتكرر . وهنا أخذ عمورى يتملق العاهل البيزنطى ويخطب وده . والذى دفعه إلى هذا التقارب ذاك الخطر الذى كان يكمن فى مخطط نور الدين فى مصر والشام والذى كان يستهدف تطويق الفرنجة تمامًا ومن هنا ولدت فكرة عمورى فى قيادة حملة مشتركة مع بيزنطة ضد مصر التى كان النفوذ فيها وقتئذ لنائب نور الدين : صلاح الدين الأيوبى .

أرسل عمورى سفيريه هينيزلوس رئيس أساقفة قيسارية وأودو من سانت آماند رئيس جماعة الداوية للتفاوض مع عمانويل كومنين في أمر الحملة المشتركة ضد مصر وأيضاً ليخطبا له إحدى الأميرات البيزنطيات لتكون شريكة لحياته (٧٧).

نجح السفيران في مهمتهما وعادا إلى أورشليم يصطحبان معهما الأميرة ماريا ابنة البروتيسيباستوس يوحنا كومنين ، وممثلي الإمبراطور : جورج باليواوغ والسيباستوس عمانويل كرمنين الأصغر . وتم حفل الزواج في مدينة صور في ٢٩ أغسطس ١٦٦٧ (٧٨) . كما أرسل الإمبراطور فيا بعد اسكندر كونفرسانو ، وميخائيل أوترانتو للتفاوض مع ملك بيت المقدس في أمر الحملة المشتركة . وقد طلب عمانويل كومنين جزاء اشتراكه في الحملة نصيباً معيناً من الغنائم وكذا بعض الأراضي . ويبدو أن عموري لم يرض عن هذه الشروط فأرسل وليم رئيس أساقفة صور ، مؤرخنا المرموق ، ليتفاوض مع الإمبراطور في هذه الشروط .

R.H.G., Vol. XVI, pp. 36 - 37, 39 - 40.

Kinnamos, VI, xiii, p. 237; William of Tyre, XX, i. (YY)

William of Tyre, loc. cit. (VA)

لما وصل وليم الصورى إلى العاصمة البيزنطية علم أن الإمبراطور كان على رأس حملة لتأديب الصرب. ولما كان رئيس الأساقفة شديد الرغبة في إنفاذ مهمته على أسرع وجه سافر إلى بيتوليا (موناستير) حيث استقبله عمانويل بمقتضاها التعاون مع الملك عمورى في حملة ضد مصر في العام التالى من اللقاء ، مقابل تسليمه نصف ما قد يقع من غنائم في أيدهم . ولما عاد وليم الصورى إلى أورشليم اكتشف أن الملك عمورى قدرحل

على رأس حملة إلى مصر (٧٩).

هذا في حين أن عمانويل كومنين أمضي شتاء ١١٦٩ يشرف على تجهيز أسطول لنقل الكتائب البيزنطية التي كانت ستشارك عموري في حملته المتفق علمها . وعين الإمبراطور كبير الأدواق الكسيوس كونتستيفانوس قائداً عاميًّا للحملة ، يعاونه في ذلك اسكندر من جرافينا وثيودور ماروزويميس، وكان الأسطول البيزنطي يتألف من ٢١٠ قطعة حربية وناقلة للجند (٨٠).

وفي العاشر من يوليو ١١٦٩ أبحر الجزء الأكبر من الأسطول إلى جزيرة قبرص ، بينها أبحرت ستون ناقلة إلى الأرض المقدسة لبعلن قائدها ماروزويميس عن نبأ وصول الحملة إلى قبرص، وكذا لينقل الفرسان الفرنجة الذين اتفق على سفرهم على الناقلات البيزنطية (٨١) . على أن القائد العام للحملة الذي كان منتظراً برجاله وسفنه في جزيرة قبرص لم يتلق ردًّا من ملك بيت المقدس ، فقرر الإبحار إلى الأرض المقدسة لتقصى الأمر بنفسه . وقد ذهل كونتستيفانوس عندما اكتشف أن عمورى لم يتمم أية استعدادات توحى بأنه راغب في الاشتراك مع بيزنطة في هذه الحملة. وأمام هذا الواقع اضطر عمورى إلى أن ينجز ترتيباته على أسرع وجه للمشاركة في الحملة .

⁽ V4) William of Tyre, XX, iv.

 $^{(\}wedge \cdot)$ Dandolo, Chronicon, in Muratori, R.I.SS., XII, p. 291.

⁽¹¹⁾ Choniates, V, iv, p. 208.

فى ٢٥ أكتوبر ١١٦٩ وصلت القوات البرية إلى الفرما ، حيث التقت بالأسطول البيزنطى الذى نقلها عبر الفرع الشرقى لنهر النيل . وتقدمت بعض الفرق بحراً على الضفة الغربية لنفس الفرع قبالة دمياط ، التى وصلوها فى ٢٧ أكتوبر وأقاموا معسكراتهم . وبعد ثلاثة أيام وصل الأسطول ، ولكن تعذر عليه دخول ميناء المدينة بسبب السلاسل الضخمة التى كانت تربط بين برجين كبيرين على الجانبين (٨٢) .

كان أمر حكومة مصر في ذلك الوقت موكولا إلى صلاح الدين الأيوبي، نائب نور الدين = ووزير الخليفة الفاطمي في آن واحد . وحيما بدأ الفرنجة والبيزنظيون حصارهم لمدينة دمياط ، وفدت للمدينة تعزيزات ومؤن من قبل صلاح الدين، لمواجهة هذا العدوان المشترك . كما قاوم أهل المدينة هذا الهجوم مقاومة مشرفة ، وقتلوا عدداً وافراً من المعتدين (٢٣٠) . وسرعان ما نفذت مؤن الجيش البيزنطي ، في حين كانت لدى اللاتين كيات باقية . وعندما طلب البيزنطيون من حلفائهم بعض المؤن عرضوا بيعها لهم بأسعار خيالية . ولما اشتد بهم الجوع ، وازداد عنف المقاومة بدأ الكثير من الجند البيزنطيين يفكر في الهروب . وازداد الأمر سوءاً عندما راجت إشاعة مؤداها أن الملك عمر ري قد اتفق سراً مع صلاح الدين ، دون مشاورة مع السلظات عمر ري قد اتفق سراً مع صلاح الدين ، دون مشاورة مع السلظات البيزنطية . ويشير — هنا — نيكيتاس كونياتس إلى الفرقة التي حلت بين الحليفين ، مذكراً القارئ بقصة الأخوين بروميتيوس وأبيميثيوس ؟ من الحليفين ، مذكراً القارئ بقصة الأخوين بروميتيوس وأبيميثيوس ؟ من أعمال هزيود (١٩٨) . هذا في حين أن وليم الصوري (١٩٨) يؤنب الجانب البيزنظي الممات البيزنطية — في رأيه — قد فشلت في تحقيق التزامها في تزويد لأن السلطات البيزنطية — في رأيه — قد فشلت في تحقيق التزامها في تزويد

William of Tyre, XX, xv. (AY)

See Beha ed - Din - Life of Salah ed-Din, II, v; Ibn al - Athir, Kamel (AT) el-Tawarikh, p. 567.

Choniates, V, vi, p. 214. (A&)

William of Tyre, XX, xvii. (A0)

الحملة بمال وبمؤن كافية . كما وأن نفس المصدر يعتذر لبنى جلدته في موقفهم هذا بأنه كان يتحتم عليهم اختزان الفائض من طعامهم لغد غير مأمونة عواقبة (٨٦) .

والمسلمين الجادة المسلمين المعتدين بأن أعداداً وفيرة من الجند المسلمين كانوا في طريقهم إلى دمياط لنجدة إخوانهم ضد الفرنجة والبيزنطيين . وما إن بدأ البيزنطيون هجومهم على المدينة حتى ظهر عمورى على ظهرجواده بين القادة البيزنطيين يظلب منهم وقف القتال ، معلناً لهم أن مفاوضاته مع الجانب المصرى قد أسفرت عن تسليم المدينة إليه (۸۷) . وأغلب الظن أن الملك عمورى تلتي أنباءاً من أورشليم تفيد بأن نور الدين قد شدد هجماته على مملكة بيت المقدس ، مما أضطره إلى وقف القتال والإسراع في العودة للدفاع عن أراضيه . على أنه قد انحذ هذا القرار دون الرجوع استعداداً للانسحاب . وقد تخلص الكثيرون من أسلحهم بأن أشعلوا فيها النيران ، تحقيفاً للعبء في رحلة العودة (ديسمير ۱۱٦٩) . واستقلت النيران ، تحقيفاً للعبء في رحلة العودة (ديسمير ۱۱۹۹) . واستقلت غالبية جند كونتستيفانوس سفن الأسطول ، بيما تخلف هو بست سفن غالبية جند كونتستيفانوس سفن الأسطول البيزنطي في البحر الأبيض فقط . وقد وقعت سلسلة من النكبات نلأسطول البيزنطي في البحر الأبيض فقط . وقد وقعت سلسلة من النكبات نلأسطول البيزنطي في البحر الأبيض فقد رافق ملك بيت المقدس إلى عسقلان ، ومنها عاد إلى القسطنطينية .

عندما عاد عمورى إلى أورشايم اكتشف أن الحسائر الني تكبدتها مملكته من جراء إغارات نور الدين أثناء تغيبه ثلاثة وخمسين يوماً في حملته على دمياط كانت فادحة . ونظر ملك بيت المقدس من حوله فأيقن أن إمارته باتت عرضة لحصار من الشمال على يد نور الدين ومن الجنوب من جانب

Ib'd. (A1)

Choniates, V, vii, p. 217.

William of Tyre, XX, xvii.

نائبه صلاح الدين فى مصر . كما أدرك عمورى أن لا تعزيزات يرجى وصولها فى القريب العاجل من غرب أوربا . وهنا قرر الملك مرة أخرى طلب العون من الإمبراطور البيزنطى (٨٩) .

قرر عمورى القيام بزيارة رسمية للعاصمة البيزنطية لمقابلة البازيليوس . فأرسل فيليب من نابلوز مقدم الداوية ليعلن عن مقدم سيده . وفي العاشر من مارس ١١٧١ أبحر ملك بيت المقدس من عكا ، يرافقه وليم الصورى ، وجيرموند من طبرية ، ويوحنا من أسور ، وجيرارد من يوجى ، ورايموند من نفين (٩٠٠) .

رست السفن المقلة لعمورى وحاشيته عند جاليبولى حيث كان في استقباله حموه يوحنا كومنين على رأس بعض الفرق البيزنطية لمرافقة الضيف المرموق إلى أرجلى ثم منها إلى المرسى الحاص بالإمبراطور في بوصوليون . وكان رجالات البلاط في استقبال عمورى هناك، ثم رافقوه إلى القصر الإمبراطورى حيث استقبله عمانويل كومنين في قاعة العرش . وقد احتنى الإمبراطور بضيفه وحاشيته وأقام المآدب الفاخرة تكريماً لهم وسمح لهم بمشاهدة آثار الآلام المقدسة [وهي جزء من صليب الصلبوت ، المسامير ، الحربة المقدسة ، قطعة الإسفنج التي قدم بها اليهود خلا بدلا من الحمر للمسيح المصلوب ، قطعة الإسفنج التي قدم بها اليهود خلا بدلا من الحمر للمسيح المصلوب ،

أظهر عمانويل كومنين عطفه على قضية ملك بيت المقدس ووعده بالمعاونة ضد أعداءه ، ثم أبرمت معاهدة بين الطرفين (١١٧١) تعهد فها الإمبراطور بمساعدة الملك ضد نور الدين وصلاح الدين . هذا

Ibid., XX, xxii. (A4)

Ibid. (4.)

F. de Mély; 'La Croix des Premiers Croisés', in Supplementary Vol. to (1) P. Riant, Exuviae Sacrae Constantinopolitanae, Paris, 1904, III, pp. 39-172.

ويروى كناموس أن عمورى قبل ، فى مقابل هذا ، أن يصبح « رجل الإمبراطور » أى تابعه الإقطاعى (٩٢) . ويؤيد قول كناموس هذا ذاك النص المنقوش فى كنيسة بيت لحم ، الذى يرجع تاريخه إلى عام النص الذى يعترف فيه عمورى بعمانويل كومنين سيداً له (٩٣) .

فى عام ١١٧٤ اتفق وليم الثانى ملك صقلية مع عمورى ملك بيت المقدس على قيادة حملة مشتركة بينهما ضد مصر . ولما علم عمانويل كومنين بأمر هذا الاتفاق رأى فيه خرقاً للمعاهدة المبرمة بينه وبين عمورى فى عام ١١٧١ . ولذا فقد أبلغ الإمبراطور البيزنطى صلاح الدين الأيونى بأنباء تحركات الحملة النورماندية أولا بأول. وفى ١١ يوليو ١١٧٤ توفى عمورى تاركاً النورمان ليمضوا فى حملتهم بمفردهم (٩٤) .

جدد ملك بيت المقدس الجديد ، بلدوين الرابع ، معاهدة ١١٧١ مع بيزنطة ، كما أتفق مع عمانويل كومنين على قيادة حملة مشتركة ضد مصر . ولكن هذه الحملة لم تتم بسبب تعثر المحادثات بين الطرفين .

في السنى الأخيرة من حكمه أظهر عمانويل كومنين عطفاً بالغاً على اللاتين في السام: فعندما وقع الكونت هنرى من شامباني أسيراً في يد أتراك آسيا الصغرى افتداه الإمبراطور بمبلغ كبير من المال (٩٥). وفي نهاية عام ١١٧٩ ، كان وليم الصورى عائداً إلى الأرض المقدسة بعد مشاركته في المجمع اللاتيراني الثالث بروما ، فتوقف في القسطنطينية لمدة سبعة أشهر وهناك أكرم عمانويل وفادته كما تبرع له بهبات قيمة لكنيسة صور . كذلك دعى رئيس الأساقفة هذا في الحفلين الذين أقيا ابتهاجاً بزواج ابن الإمبراطور وابنته (الكسروس وماريا) (٩٦) . وفي عام ١١٨٠ أوفد

Kinnamos, VI, x, p. 28. (47)

See M. de Vogue, Les Eglises de la Terre Sainte, Paris, 1860, p. 99. (47)

F. Chalandon, Histoire de la Domination Normande, II, p. 395.

R.H.G., Vol. XVIII, p. 249. (%)

William of Tyre, XXII, iv. (47)

ملك بيت المقدس السنكال جوسلين ليطلب عون القوات البيزنطية لمملكته ضد أعدائها ، وقد أقام السفير في العاصمة البيزنطية حتى بعد وفاة عمانويل كومنين في نفس العام (٩٧) .

وقد كتب وليم الصورى الكثير عن صفات عمانويل الحسنة وعن تسامحه وكرمه الزائد علما أوضح أن ذكرى هذا البازيليوس ستظل تتلى فى كنيسة القديسين فى مدينة صور بسبب هباته الكثيرة لها (١٨٠).

Ibid., XXII, v. (4y)

Ibid., XVI, xxviii; XVII, xvii; XVIII, xvii; XX, xxii; XXI, xii. (AA)



الفصل التاسع

العلاقات السياسية بين بيزنطة وغرب أورو با من ١١٤٧ للي ١١٨٠

فى الوقت الذى كانت فيه بيرنطة مهددة بجيوش الحملة الصليبية الثانية ، مكبت بغزو غربي آخر من جانب النورمان . فقد سبق أن ذكرنا أن روجر الثانى الصقلى قد حاول فى مجلس ايتامب أن يقنع الملك لويس السابع بالسفر بصليبيته عن طريق صقلية . وكان هدف روجر من هذا بسط نفوذه على أمور الإمارات اللاتينية فى الشرق ، حيث يمكنه مضايقة السلطات البيزنطية بصورة مباشرة ، على أن نفوذ الإمبراطور الألماني كونراد الثالث قد حطم مخطط روجر الثانى فى السيطرة على صليبية ١١٤٧ .

ومع أن خطة روجر قد باءت بالفشل ، إلا أنه استغل فرصة تغيب كوذراد الثالث من غرب أور با وراح يقلم أظافر الإمبراطورية البيزنطية بالتحرش بحدودها الغربية . وجاء الصدام الذى وقع بين عمانويل كومنين وكوذراد الثالت أثناء عبور حملته للأراضى البيزنطية ليزيد من فرص روجر الثانى في تشدته ضرباته للأراضى البيزنطية . فنى النصف الثانى من عام ١١٤٧ تحرك الأسطول النورماندى من أوترانتو إلى جزيرة كورفو واستولى عليها (۱). ثم سقطت في يده بعد ذلك مدائن مثنا ، وموممفيسيا ، ونوبليا ، كما نهبت قواته يوبيا ونجروبونت وآثينا ، كذلك وقع تحت طائلة يده جزيرة سيريحو ، ورأس ماليا ومنطقة سيرقى . أما مدينة طيبة فقد دمرت عن كاملها ثم سيقت نسوتها أسيرات للحرب إلى مدينة بالرمو بصقلية لتعليم

Nicctas Choniates, II, i, p. 97; Kinnamos, III, ii, p. 92; Otto of Freising, (1)
Gesta, I, xxxiii.

أهلها صناعة الحرير التي اشتهرن بها . كدلك نهبت كورنثة واستولى النورمان على رفات القديس ثيوردور ونقلوها إلى جزيرة كورفو . وبعد هذه القرصنة عاد الأسطول المنورماندي محملا بالأسلاب والأسرى إلى جزيرة صقلية (٢) .

كان هذا التحدى النورماندى السافر لأراضى بيزنطة مدعاة لأن يطلب عمانويل كومنين من لويس السابع ثم من كونراد الثالث معاونتهما ضد روجر الثانى = ولكنهما رفضا المعاونة . ولذا فقد عقد عمانويل صلحاً مع سلطان قونية ليؤمن حدوده فى آسيا الصغرى أثناء كفاحه ضد روجر الصقلى . كذلك فتح عمانويل باب المفاوضات مع جمهورية البندقية ، التى باتت مصالحها التجارية فى الأدرياتي مهددة أمام النفوذ المتزايد للنورمان فى تلك المنطقة . ولقد منح عمانويل كومنين جمهورية سان مارك امتيازات تجارية طائلة فى قبرص ورودس كما خصص لها مرسى بحرياً رابعا فى ميناء القسطنطينية ، وذلك فى مقابل وضع أسطولها فى خدمته وتطوع البنادقة المقيمين فى الإمبراطورية للحرب ضد النورمان .

جهز البازيليوس جيشاً ضخماً وأسطولا لمقاتلة « تنين الغرب ، عدو المسيحية الأكبر ، الذي يحكم صقلية اغتصابا » (٣) . ولقد باركت الكنيسة البيزنطية حملة عمانويل هذه ضد « آماليك » (٤) . ولحق أسطول جمهورية البندقبة بالأسطول البيزنطي عند اسكي – ساجرا . وهناك التقي عمانويل بالإمبراطور كونراد الثالث أثناء عودته من عكا ، وتوجه العاهلان سويا إلى القسطنطينية ؛ حيث أمضي الضيف الألماني أعياد ميلاد ١١٤٨ مع عمانويل كومنين ، وحيث شارك في حفل زواج هنرى دوق النمسا من الأميرة البيزنطية ثيودورة . كذلك ناقش الطرفان مشروع زواج ابن كونراد

Otto of Freising, loc. cit. (7)

Choniates, II, ii, pp. 102-103. (v)

Ibid. (t)

الثالث من إحدى أميرات البيت المالك فى بيزنطة . ولعل أهم ما تم إبرام معاهدة بين الطرفين ، تعهد فيها كوذراد الثالث بقيادة حملة لتأديب روجر الثانى فى عام ١١٤٩ ، كما وعد ، فى حالة سقوط آبوليا وكلابريا فى يده ، أن يقدمهما هدية لشقيقه زوجه ، برتا ، زوج عمانويل كومنين (٥) ثم غادر كونراد العاصمة البيزنطية فى فبراير ١١٤٩ عائداً إلى ألمانيا .

فى خلال ذلك الوقت حاصر الأسطولان البيزنطى والبندقى جزيرة كورفو للدة ثلاثة أشهر دون نجاح . ثم نشب نزاع بين البنادقة والبيزنطيين كان من نتيجته أن أشعل البنادقة النيران فى السفن البيزنطية (٦) . واضطر هذا الإمبراطور إلى أن يتدخل بذاته لفض النزاع بين الطرفين ، ثم أقنع البنادقة بضرورة مشاركتهم مرة أخرى فى حصار كورفو . غير أن النورمان قاوموا هذا الحصار فى إصرار وعنف وقتلوا الكثير من جند القوتين المتحالفتين .

فى هذه المرحلة من الصراع كان الملك لويس السابع مبحراً من الأرض المقلسة إلى فرنسا ، فلما قابل قطع الأسطول النورماندى آثر الانتقال على ظهر إحداها . وقد حدث أن هاجم البيزنطيون السفينة المقلة لبعض رجال الملك ومتاعه واستواوا عليها . غير أن عمانويل كومنين أصدر أوامره بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين وإعادة أمتعة الملك إليه فوراً .

أراد روجر الثانى أن يستغل هذا الحادث ليظهر حرصه على الانتقام لشرف الملك من السلطات البيزنطية ، فأرسل جزءا من أسظوله لمهاجمة القسطنطينية . وقد نجح النورمان بالفعل في الحصول عل غنائم وفيرة من البيوتات الساحلية على البسفور ، كما وأنهم أمطروا القصر الإمبراطورى بوابل من السهام . وفي صيف ١١٤٩ فتح أحد الحونة من النورمان ، وابات مدينة كورفو للجيش البيزنطي فتم لهم الاستيلاء

Kinnamos, IV, i, p. 134.

Ibid., III, v, p. 98. (1)

(v)

عليها (٧) . بعد هذا يمم عمانويل كومنين شطر آفلونا بقصد محاربة روجر الثانى فى إيطاليا ، ولكن سوء الأحوال الجوية حال دون ذلك . ولقد علم الإمبراطورية فأسرع عائداً لقمعها ، تاركاً أمر القيادة إلى اكزوش . ولكن هذا اكتشف أن البنادقة ياتوا يتأمرون ضد القوات البيزنطية فقرر العودة بقواته إلى العاصمة فى شتاء ١١٥٠ (٨) .

اندلعت ثورة الصرب بوحى من روجر الثانى الذى كان قد بدل مالا وفيراً للهنغار والصرب للتمرد ضد عمانويل كومنين ؛ بغية تحويل أنظاره عن حملته ضد إيطاليا . رفى نفس الوقت استمال روجر الثانى الدوق ولف شقيق هنرى المتكبر إلى جانبه . ولقد عمد ولف إلى تأليف عصبة من الأمراء الألمان أجبروا كونراد الثالث على التراجع عن قيادة حملة ضد روجر الثانى ـ

ولم يكتف روجر بهذا وإنما بدأ يروج فى دواتر غرب أوربا الكنسيه السياسية أن الفشل الذى أصاب الحملة الصليبية الثانية كان سن فعل الحيانة البيزنطية ، وأن آل كومنين قد غدروا بقضية المسيحية .

كانت البابوية أول من تلقف هذه الدعاية وتحمس لها: فإلى جانب كراهيتها الدفينة لبيزنطة وبطريركيتها المنشقة ، كانت تتظر إلى علاقات المودة ببن عمانويل كومنين وكونراد الثالث فى قلق زائد . إذ فسر البابا ذاك الحلف المبرم بين الألمان والبيزنطيين على أنه تهديد مباشر لنفوذه فى غرب أور با بشكل عام وفى إيطاليا بصفة خاصة . وشارك البابا فى رأيه لويس السابع ملك فرنسا ، الذى كانت لديه من الدواعى ما يجعله يكره كلا من عمانويل كومنين وكونراد الثالث . ولقد صدم الرأى العام فى فرنسا عندما جاءت أنباء المهانة التى لحقت بملكتهم ومايكهم فى البحر على يد الأسطول جاءت أنباء المهانة التى لحقت بملكتهم ومايكهم فى البحر على يد الأسطول

Choniates, II, v, pp. /117 - 18.

Kinnamos, III, ix, p. 113. (A)

البيزنطى أثناء عودتهما من الحملة الفاشلة ، التي كانت _ في رأيهم _ ضحية للخيانة البيزنطية .

تقابل لويس السابع مع روجر الثانى فى بوتنزا حيث ناقشا مشروع إقامة حلف أوربى ضد الإمبراطورية البيزنطية · كذلك أوسى روجر إلى الدوق ولف أن يبحث هذا المشروع مع سينسيو فرانجييانى ، زعيم الحزب البابوى فى روما ، وذلك عندما دارت بينهما المحادثات . وأهم من هذا وذاك أن لويس السابع عرض الأمر نفسه على البابا يوجينيوس الثالث عند لقاءه يه فى مدينة تيفولى ، وذلك قبل عودته إلى فرنسا .

كان يوجينيوس الثالث شديد الريبة في الحلف القائم بين عمانويل كومنين وكونراد الثالث ، والحق أن كونراد راح يتحدث علانية عن حاتمية صهره البيزنيطي وشهامته وإهتامه البالغ به عندما كان ضيفا معتل الصحة عليه في عاصمته (٩) ، ولذا نجد البابا يوجينيوس الثالث ، في رسالته إلى كونراد معزياً إياه فيها على النهاية المشتومة التي لقيتها الحملة الصليبية الثانية ، يذكره بالزاماته كإمبراطور للرومان — تجاه الكنيسة الرومانية الأم ؛ حاثاً إياه على توثيق أواصر المحبة معها بدلا من العمل ضدها (١٠).

هذا ، ولقد كان من خلصاء عمانويل كومنين في ألمانيا أيضاً مقدم دير ستافيلوت ، وهو ويبالد . ولقد دأب ويبالد على تقوية عرى الحبة والمودة بين سيده كونراد الثالث وبين صديقه عمانويل كومتين . غير أن البابا وعلى كرادلته استشاطوا غضباً من موقف هذا الزعيم الديني الألماني ، ولذا فقد كتب إليه الكردينال جيدو – المستشار البابوي – يطلب منه إعلام كونراد أن البابوية هي التي قامت بحماية ابنه هنري من أي أذى أثناء غيابه في الحملة الصليبية ، وأنه على هذا لا يحسن به أن يبدى نكراناً

P. Jaffé, Bibliotheca Rerum Germanicarum, Vol. I, p. 152.

Ibid., p. 304, an. 1149, Jun. 23. (۱۰)

للجميل في إبرام أحلاف بينه وبين القسطنطينية ضد مصالح كنيسة روما (١١). على أن صيحات جيدو وسيده يوجينيوس الثالث لم تلق أذناً صاغية قى البلاط الألمانى . وعليه فقد حدث تقارب سياسي بين البابوية وروجر الثانى الصقلي . غير أن هذا الاتجاه البابوي الجديد أغضب مجلس السناتو في روما والحزب الجمهوري بزعامة آرنولد من بريشيا . وبدأ الصراع يحتدم بين الحزب البابوي ، الذي احتمى في قلعته في توسكيلو ، وبين أهل مدينة روما . وهنأ استنجد السيناتو والأهلون بكونراد الثالث ــ « إمبراطور الرومان وسيد العالم » ــ ؛ طالبين منه الهجوم على إيطاليا لتأديب البابا وحليفه روجر الصقلى . ولقد ذكر أصحاب الرسالة الإمبراطور كونراد يالدسائس والمؤامرات التي كادها البابوات السابقون للايقاع بالأباطرة الألمان من أسلافه . وبعد هذا كشفت الرسالة عن طبيعة المعاهدة المبرمة بين البابا يوجينيوس الثالث وروجر الصقلي : فقد وافق البابا على الاعتراف بأحقية روجر في الأراضي التي استولى عليها جنوب إيطاليا مقابل مبلغ ضمخم من المال يدفع سنوياً للخزانة البابوية. وفى نهاية الرسالة استنجاد بكونراد بأن يشهر سيفه ليرد ما لقيصر لقيصر ؟ « مثلما فعل من قبل جستينيان ، وحسبا أوصى السيد المسيح » (١١٠) كذلك تلقى كوفراد الثالث رسالة أخرى من مجلس السيناتو الروماني يرجوه فيها القدوم إلى روما ليحكم بنيهم وبين البابا يوجينيوس الثالث حسبها جرت العادة على عهد أسلافه حتى جاء البابا جريجوري السابع وخرق هذا التقليد . كذلك جاء في الرسالة أن البابا يوجينيوس الثالث ، بدلا من التبشير بالسلام والرحمة كما ينبغي عليه ، قد انصرف كلية إلى تدبير جرائم القتل والإرهاب (١٣) .

تعقدت الأمور على المسرح السياسي في غرب أور با ووصلت قمة التأزم في عام ١١٤٩ — ١١٥٠ ؛ إذ حفل هذا العام بمناورات سياسية

Ibid., p. 316.

¹bid., p. 316.

Waraid, ep CCXVI. (17)

ودبلوماسية من جانب روجر الثانى من ناحية ، ومن جانب عمانويل كومنين من ناحية أخرى . والحق أن جهود روجر الدعائية العدائية تجاه بيزنطة اتت أكلها فى مختلف الدوائر الكنسية الفرنجية . فن بين الذين تحمسوا لمشروعه ضد بيزنطة شوجير من سانت دينيس ، وبطرس الوقور ، ثم برنارد دى كليرقوه . ففى رسالة موجهة من بطرس الوقور إلى روجر الصقلى، نجد الزعيم الكلونى يعبر عن حب وإعجاب بالغين لملك صقلية ، كما وأنه يعلمه بمدى الحزن الذى يكابده هو ورفاقه أبناء دير كاونى من جراء يعلمه بمدى الحزن الذى يكابده هو ورفاقه أبناء دير كاونى من جراء ذاك الحصام الواقع بين عاهل صقلية وكونراد الثالث . ثم يبدى الكاتب استعداده للوساطة بينهما من أجل إقرار السلام بين البلاطين . بعد هذا يتعرض بطرس الوقور إلى تحديد أعداء المسيحية ، فيؤكد أن البيزنطيين والسراكنة هم الخطر الحقيقي عليها . كما يشير نفس المصدر إلى « ملك » والسراكنة هم الخطر الحقيقي عليها . كما يشير نفس المصدر إلى « ملك » البيزنطيين على أنه « تافه ودنىء » لأنه خان قضية « حجاج » الصليبية الثانية . ويهيب الكاتب في نهاية الأمر بروجر أن يعقد صلحاً مع كونراد الثائث للتفرغ لتأديب أعداء الله السابق ذكرهم (١٤) .

أما القديس برنارد دى كليرڤوه فكان يشارك بنى جلدته فى الرغبة فى الانتقام من البيزنظيين لخيانتهم الصليبية ١١٤٧. ولذا فإنه بداية من أبريل ١١٥٠ نشطت الاجتماعات والمجالس فى شارترز ولاون لمناقشة مشروع حملة صليبية ضد بيزنطة . وقد رأس لويس السابع مجلس لاون الذى قرر الائتناس برأى البابا فى هذا الأمر الهام . ورد البابا بأن فوض لويس السابع باتخاذ القرار الذى يراه صالحا . غير أن هذا الموقف السلبى من جانب البابا يوجينيوس الثالث أغضب عليه معلمه برنارد دى كليرفوه و فكتب له يقول « بواسطة من إذن يسلط سيفا القديس برنارد دى كليرفوه إن لم يكن بيدك أنت ؟ » (١٥) كذلك كتب القديس برنارد دى كليرفوه

Peter the Venerable, ep. XVI, in P.L., Vol. CLXXXIX, col. 424. (18)

St. Bernard de Clairvaux, ep. CCLVI, in Opera Omnia, I, cols. 538 - 40. (10)

إلى روجر الثانى يمتدح كرمه وغيرته على قضية المسيحية . وكان روجر قد كتب إلى القديس يطلب منه إيفاد عدد من الرهبان من طائفته الديرانية إلى صقلية . ولبي برنارد طلب العاهل الصقلى ، وبعد أن أتته أخبار حفاوته بهؤلاء النساك أرسل يشيد بشخصه وبغيرته على المسيحية (١٦).

كذلك كان شوجير زعيم سانت دينيس ناقماً على بيزنطة وإمبراطورها فأيد مشروع حملة صليبية ضد الإمبراطورية الممقوتة ، كما كاتب روجر الثانى في هذا الأمر (١٧) .

كان عمانويل كومنين مدركاً تماهاً أن صقلية وفرنسا والبابوية وسائر البيوتات الديرانية في غرب أوربا قد عقدوا النية على إيذاء بيزنطة . ولم يقف العاهل البيزنطى مكتوف الأيدى أمام هذه التحركات الدبلوماسية النشطة في الغرب • فراح يعقد المعاهدات والأحلاف مع القوى المجاورة له يقصد عامة العدوان الجماعي المرتقب من دول وكنيسة الغرب اللاتيني . وفي عام ١١٤٩ وقع معاهدة سع جمهوريتي بيزا وجنوة اتفق فيها على ضرب حصار حول صقلية في حوض البحر المتوسط غربيه وشرقيه (١٨) .

كذلك واصل عمانويل كومنين مكاتبة أصدقائه فى غرب أو ربا وعلى رأسهم ويبالد مقدم دير ستاڤيلوت . والحق أن هذا الزعيم الدينى الألمانى هو الذى حدر عمانويل من دسائس روجر الثانى : فنى رسالة له مؤرخة بابريل ١١٥٠ يصف روجر الثانى بأنه العدو المشترك لبيزنطة وألمانيا وأيضاً لويبالد شخصيا ؛ فلقد طرد روجر ويبالد هذا من ديره فى مونت كاسينو، ولذا نجده ينعته بنعوت من قبيل « الطاغية » و « عدو الله » (١٩٠) .

غير أن موقف ويبالد هذا أزعج البابا والكيوريا الذين راحوا يكيلون

St. Bernard de Clairvaux, ep. GCIX. (17)

Vita Sugerii, in R.H.G., Vol. XX, pp. 110, 495. (17)

Codice Diplomatico della Citta di Genova, a cura di G. Imperiale, I, (IA) Rome, 1936, n. 195.

Wibald, ep. CCXXIV. (19)

له الإيلام والتقريع مع اتهامه بخيانة « أمه » : كنيسة روما . ولذا نجده في رسالة إلى المستشار البابوي جيدو يعلن بأنه لامبرر بعد لانزعاج السيد البابا والسادة الكرادلة لأنه عازم – تلبية لأوامرهم – على المباعدة بين سيده كونراد الثالث وبين عمانويل كومنين (٢٠) .

في شناء ١١٥٠ أوفد الإمبراطور البيزنطى مندوبه ميخائيل بارداليا ليحث كونراد الثالث على قيادة حملة ضد روجر الصقلى. ورداً على هذه البعثة كتب الإمبراطور الألماني إلى عمانويل معبراً عن اعتذراه الشديد لتأخره في الهجوم على جنوب إيطاليا لتقليم أظافر ملك صقلية ، بسبب اعتلال الصحة ونتيجة للاضطرابات الداخلية في ألمانيا . أما وقد نجح في قمع تمرد الدوق ولف (٨ فبراير ١١٥٠) ، وقد من الله عليه بالشفاء فإنه عازم على تحقيق ماسبق ووعد به في هذا الصدد (٢١).

كذلك كتب كونراد إلى الإمبراطورة برتا ، شقيقة زرجه وقرينة عمانويل كومنين ، معبراً مرة أخرى عن أسفه للتأخر في قيادة الحملة التي كان قد وعد بها زوجها ضد ملك صقلية ، بسبب اعتلال صحته . كما زف إلبها أنباء انتصاره الساحق على عدوه ولف ، الذي كان قد تلقى معنونة مالية من « الطاغية الصقلي » لتدبير حركة التمرد داخل ألمانيا ، و بعد هذا كشف كونراد النقاب عن مشروع روجر الثاني والملك لويس السابع ضد الإمبراطورية البيزنظية ؛ ولكنه (كونراد) أوضح أنه واقف طما بالمرصاد حتى يسحق مؤامراتهما الدنيئة (٢٢) .

وفجأة حدث تحول عجيب فى الدبلوماسية الغربية : فبعد أن أنهى البابا يوجينيوس الثالث مقابلته مع روجر الثانى فى مدينة سبرانو ، أيقن أن مطامع هذا النورماندى الجبار لن تعرف حدوداً . وجاء تتويج روجر

Ibid., ep. CCXXV. (Y•)

Ibid., ep. CLXXXVII. (71)

bid., ep. CLXXXVIII, (۲۲)

لابنه دون حتى مشاورة البابا فى هذا الأمر ليؤكد مخاوف البابا من ملوك. صقلية . ولذ فقد سارع يوجينيوس الثالث فى إصدار أوامره إلى مستشاره. جيدو ليخاطب القديس برنارد دى كليرفوه وبطوس الوقور ويحثهما على التخلى عن وساطتهما فى إقرار صلح بين روجر وكونراد الثالث (٢٣).

كذلك كتب كونراد الثالث إلى محافظ مدينة روما والقناصل وإلى «كافة السلام الشعب الروماني » معلنا عن عزمه في القدوم إلى إيطاليا لإعادة السلام والأمن إلى المدينة وشبه الجزيرة . (٢٤) غير أن ابنه هنرى توفى فجأة ، ولذا فقد كتب إلى القسطنطينية ليعلم عمانويل كومنين بهذا ، كما طلب، ترشيح أميرة بيزنطية للزواج منه (٢٥) .

کان البابا یوجینیوس الثالث فی موقف لایحسد علیه : فهن ناحیه راقب ازدیاد نقوذ روجر الثانی فی قلق زائد ، ومن ناحیه أخری جاءته الأنباء بقرب وصول کونراد الثالث علی رأس حملة إلی مدینة روما . أمام هذا طلب البابا من ویبالد أن یتوسط فی إقرار صلح بینه و بین الإمبراطور الألمانی . ونجح ویبالد فی المهمة التی وکلت إلیه ، وأقنع سیده بإیفاد سفارة للتفاوض مع البابا لإقرار الصلح بینهما ، وذلك فی ربیع عام ، ۱۱۵ . (۲۱) ما من شك أن الصداقة المتینة التی کانت تربط بین کونراد الثالث ما من شك أن الصداقة المتینة التی کانت تربط بین کونراد الثالث وعمانویل کومنین کانت العامل الرئیسی فی إحباط المشروع الصلیبی الذی خطط له روجر الثانی ولویس السابع ضد بیزنطة . ولما راح القدیس برنارد دی کلیرفوه ، من جدید ، لیغری کونراد علی حمل الصلیب مرة أخری تعمد الإمبراطور الألمانی تجاهل آراء القدیس السیاسیة . کما أن کونراد لم.

See Lamma, op. cit., p. 111. (۲۳)

Wibald, ep. CCCXLV. (Y 2)

Tbid., ep. CCCCXI. (Yo)

Ibid., ep. GCXLII. (77)

يخف غضبه بسبب المودة الزائدة التي كان القديس ورجال ديره يبدونها لملك صقلية . وبينها كان عمانويل كومنين يترقب لحظة انقضاض حليفه الألمانى على جنوب إيطاليا لتقليم أظافر روجر ، فجع بخبر وفاة كونراد الثالث المباغتة في ١٥ فيراير ١١٥٢ . وبموت كونراد الثالث بدأت المانيا تتخذ نهجاً مغايراً تماما تجاه الآمبراطورية البيزنطية .

جلس على عرش ألمانيا بعد وفاة كونراد الثالث فردريك بربروسا (١١٩٢ — ١١٩٠) ، الذي استن قواعد جديدة في سياسته كامبراطور روماني . والمطالع للرسالة التي كتبها الأسقف أوتو من فريزنج وكذا للطبعة الثانية لحوليته اللتين أهداهما إلى الإمبراطور الروماني الجديد يجد صورة مثلى للإمبراطور الروماني المقدس الذي كان على غرب أوروبا علممانيين وإكليروس ، أن يخضعوا له تماماً . (٢٧) كذلك جاءت علمانيين وإكليروس ، أن يخضعوا له تماماً . (٢٧) كذلك جاءت رسالة بربروسا للبابا يوجينيوس الثالث لتحدد في حزم أن إقرار العدالة ، وحماية اليتامي والأيامي ، وإعلاء كلمة القانون في ارجاء الأمبراطورية الرومانية هي جميعا من حق الإمبراطور وحده . ولما أوفد بربروسا سفارة إلى البلاط البابوي برئلسة ادورادو أسقف بامبرج ، طلب من ويبالد تزويد الأسقف برسالة تتفق وروح العزة والكرامة والعلو التي ميزت هنري الثالث وهنري الرابع . وكتب ويبالد الرسالة المطلوبة فصور العاهل الألماني في إطار أسمى من سائر الأمراء والملوث في العالم : فهو وحده الإمبراطور والآخرون أمراء « برابرة » (٢٨)

أدرك البابا يوجينيوس على الفور أنه أمام إمبراطور عنيد مهيب الجانب فسارع يطلب الصلح معه ؛ خاصة بعد أن ساءت العلاقات بين الكيوريا وبلاط

Otto of Freising, Chronica sive Historia de Duabus Civitatibus, in SS. (YY) Rer. Germ., Leipzig, 1912.

Wibald, ep. CCCLXXII.

پالرمو. وفى ٢٣ مارس ١١٥٣ وقع يوجينيوس الثالث وبربروسا اتفاق كونستانس: الذى تعهد فيه الإمبراطور بألا يوقع هدنة أو سلماً مع شعب روما أو مع روجر الثانى دون موافقة البابا أو من يخلفه. كذلك أخذ بربروسا على عاتقه إخضاع شعب روما للسلطان البابوى والحفاظ على شرف البابوية وسلطان القديس بطرس. وتعهد الإمبراطور أيضاً بأن يستأصل شأفة نفوذ الييزنطيين من إيطاليا. أما عن البابا فقد تعهد باحترام شرف الإمبراطور وبتتويجه بذاته ، كما وعد بمقاومة أى تدخل بيزنطى فى شئون إيطاليا بجيشه المؤلف من رجال القديس بطرس (٢٩).

بعد شهور قلائل من توقيع معاهدة كونستانس وطلاق زوجته آديلا على بربروسا إلى عمانويل كومنين يخاطبه على أنه « إمبراطور القسطنطينية بينها احتفظ لتفسه دون غيره بلقب « إمبراطور الرومان ، الأغسطس الأعجد ، المتوج من قبل الله » . وفي نفس الرسالة نجد بربروسا يطلب يد إحدى أميرات المبيت المالك البيزنطي في الزواج منه ، كما أنه ألمح بأنه يعد العدة لقيادة البيت المالك البيزنطي في الزواج منه ، كما أنه ألمح بأنه يعد العدة لقيادة ابنة السباستوكراتور إسحق ، شقيق عمانويل كرمنين ، والتي كان قد رآها أثناء زيارته للقسطنطينية في رفقة كونراد الثالث (٣١) . على أن هذا الاختيار بالذات أزعج عمانويل ؛ إذ رأى في مصاهرة بربروسا الشقيقه الأكبر ساحب الحق الشرعي في التاج - تهديداً مباشراً له . وفي نوفجبر ١١٥٣ أرسل عمانويل سفراه ولعرض مشروع تحالف بينه وبين بربروسا وفق شروط معنويل سفراه ولقد أغضبت شروط عمانويل الإمبراطور الألماني الى حد جعله يطرد السفراء البيزنطيين ويأمرهم بالعردة فوراً إلى عاصمتهم

P. Jaffé, op. cit., p. 546. (۲۹)

Wibald, ep. CCCLXXXVII. (Y•)

Kinnamos, IV, i, pp. 134 - 35. (٣١)

ویشیر أوتو من فریزنج هنا إلی أن عمانویل قد طلب أن یکون له من النفوذ فی ایطالیا نفس القدر الذی یبغیه بربروسا لنفسه فیها (۳۲) . وفی خریف ۱۱۵۶ أرسل بربروسا أنسلم من هافلبرج و إسكندر من جرافینا لمتابعة المفاوضات مع عمانویل . وفی أثناء رحلتهم إلی القسطنطینیة علموا بموت روجر الثانی ملك صقلیة (۳۳) .

ما أن توفى روجر الثانى فى ٢٦ فبراير ١١٥٤ حتى اندلعت الثورة فى مملكته وتمرد البارونات ضد خلفه وليم الأول . وكان على رأس المتمردين روبرت من باساڤيلا كونت لوريتللو^(٢٢). ووجد وليم نفسه مهدداً من كل جانب ؛ فلم يقتصر الأمر على تمرد باروناته وإنما كانت هناك أيضاً تحديات الإمبراطورين الألمانى والبيزنطى له . انتهز عمانويل كومنين الفرصة وأرسل قنسطنطين انجيلوس على رأس بعض السفن إلى مومقاسيا حيث كان عليه الانتظار حتى مجىء بقية الأسطول البيزنطى . وحدث فى تلك الآونة أن كان الأسطول النورماندى عائداً من عملية قرصنة ضد مصر ، قرر إنجيلوس مهاجمة الأسطول النورماندى بما كان تحت يديه من قطع بحرية محدودة ، أملا فى تحقيق نصر يرفع من قدره فى نظر الإمبراطور ، ولكنه هزم هزيمة ساحقة ووقع أسيراً فى يد النورمان .

وفى نفس الوقت قاد فردريك بربروسا حملة على إيطاليا فى ١١٥٤ ؛ ولم يكن فى نيته التعاون مع البيزنطيين ، ولذا فإنه لم يأبه حتى بمجرد إعلام عمانويل كومنين عن خطته . ولذا فقد قرر عمانويل الكفاح فى إيطاليا بقواته دون معاونة من الإمبراطور الألمانى ، فأمر إسكندر من جراڤينا الاتصال بالذين تمردوا ضد وليم من البارونات النورمان . وفى إيطاليا لحق إسكندر

(4 1

Otto of Freising, Gesta Friderici, III, xx.

⁽٣٢)

Kınnamos, IV, i, p. 134.

⁽٣٣)

Romuald of Salerno, Chronicon, in M.G.H.SS., Vol. XX.

بميخائيل باليولوغ ويوحنا دوكاس ، وذهبوا جميعاً إلى مدينة انكرنا حيث فابلوا فردريك بربروسا بعد أن تم تتويجه على يد البابا هادريان الرابع (١٨ يونيو ١١٥٤) (٣٤) ، وقدموا له الحدايا الإمبراطورية وعرضرا عليه يد إحدى أميرات البيت المالك في بيزنطة للزواج منه وفق مطلبه الأسبق .

ولقد كان الإمبراطور الألمانى عازماً على مقاتلة وليم الأول ولكن البارونات الألمان عارضوا هذا وأجبروه على العودة إلى ألمانيا ، تاركاً أصدقاءه من الأمراء النورمان المتمردين وحدهم في ميدان القتال ضد ملك صقلية الجديد .

جاء مرقف بربروسا هذا مخيباً لآمال روبرت لوريتلاو ، ولذا أرسل سفراءه لفتح باب المفاوضات مع اسكندر من جراڤينا ويوحنا دوكاس وميخائيل پاليولوغ ؛ القائد العام للقوات البيزنطية المحاربة في إيطاليا . وبعد قليل تم توقيع معاهدة يين روبرت وباليولوغ في مدينة ڤيستي نصت على قيام حلف بين الطرفين من أجل محاربة وليم الأول (٣٦٠) . والحق أن پاليولوغ أثبت جدارة بالغة في مهمته في إيطاليا فاستولى على القلاع والمدن الواحدة تلو الأخرى ، فتجمع من حوله كافة أعداء ملك صقلية أملا في القضاء على نفوذه في جنوب إيطاليا تماماً ، وكان على رأس هؤلاء روبرت لوريتللو وشقيقه وليم ، وروبرت من كاپوا ثم أندريا من روپيتشانينا ، وبتأييدهم سقطت مدائن آركا وتراني وباري في أيدى القوات البيزنطية تباعاً . وأضحى اسم عمانويل كومنين يدوى في كل مكان في الجنوب الإيطالي .

بعد سقوط مدينة پارى فى يد پاليولوغ تشجع البابا وكرادلته وقرروا الدخول فى هذا الصراع المحتدم لاسترجاع الأراضى التى اغتصبها ملوك صقلية من البابوية فى جنوب إيطاليا . وعلى هذا فنى سبتمبر ١١٥٥ زحفت الكتائب البابوية واستولت على بعض من هذه الممتلكات (٣٧) . كذلك اتصل البابا هادريان الرابع بالقائد العام البيزنطى وأعلمه أنه على استعداد للحرب هو

Kinnamos, IV. i, p. 135, Choniates, II, vi, p. 210. (To)

Kinnamos, IV, i, p. 135, F. Ughelli Italia Sacra, XX, p. 363. (T)

Liber Pontificalis, Vol. II, p. 393. (77)

ورجاله فى صف بيزنطة ضد ملك صقلية بغية استرداد بينقنتم وكامپانا (٣٨). واتفق الطرفان و زود پاليولوغ البابا بالمال الذى طلبه لإعداد المرتزقة للخدمة فى جيشه ، كما أحاط نفسه بالأمراء المتمردين ضد وليم ، وعلى رأسهم روبرت من كاپول ودارت الحرب فى شتاء ١١٥٥ – ١١٥١ بين القوات البابوية وكتائب وليم الأول ، وسيطر رجال البابا على بينيقنتم كما ساعدوا البيزنطيين فى الاستيلاء على برنديزى .

بعد هذا النجاح الرائع الذى حققه پاليولوغ ودوكاس كان منتظراً أن يتسع المد البيزنطى ليضاعف امن هيبتة فى الجنوب الإيطالى . غير أن العكس تماماً هو الذى حدث . ومرد ذلك هـذا الخلاف الذى دب بين القادة البيزنطيين والأمراء النورمان الدين حاربوا فى صفهم ضد وليم الأول . والواقع أن الجنرالين البيزنطيين كانا فى ريبة من أمر روبرت لوريتالو ، وظنا أنه على اتصال خفى بوليم الأول . ومع أن صلحاً قد تم بين پاليولوغ وروبرت على اتصال خفى بوليم الأول . ومع أن صلحاً قد تم بين پاليولوغ وروبرت عند مدينة بيتتو ، إلا أن الصفاء لم يعد كما كان فى سابق عهده بين الجانبين . ثم توفى پاليولوغ فجأة وحل محله فى القيادة يوحنا دوكاس . ولعل من العوامل الأخرى التى كانت قد سهلت على البيزنطيين الاستيلاء على ما استولوا عليه ذاك المرض الذى ألم بوليم الأول فى سبتمبر ١١٥٥ . على أنه عوفى فى مطلع غام ١١٥٦ ثم انقض على مركز الثوار فى بيوتيرا واستولى عليها (٢٩٠) .

وفي مايو من نفس العام رحل وليم عن مسينا على رأس جيش ضخم وفاجأ القوات البيزنطية المرابطة عند برنديرى . وقد شجع قدومه حراس قلعة المدينة المحاصرين على الدفاع عنها ضد الحصار البيزنطي في بسالة نادرة . وهنا أدرك روبرت لوريتللو أن الكارثة لا محالة واقعة بالبيزنطيين ، فآثر الانسحاب برجاله من وراء الجواد الخاسر وهرب إلى شمال إيطاليا . كذلك انفض بعض الجند المرتزقة من حول يوحنا دوكاس لأنه كان قد آخر صرف

Kinnamos, IV, xiv, p. 171.

⁽ WA)

F. Chalandon, La Domination Normande, p. 225.

رواتبهم . وجاء الأسطول النورماندى ليؤازر القوات البرية ولضرب حصار محكم حول قوات دوكاس البرية وأسطوله البحرى فى ميناء برنديزى .

وفي ٢٨ مايو ١١٥٦ انقض النورمان على البيزنطيين وفتكوا بهم ، وكانت الهزيمة ماحقة بالفعل ، إذ وقع القائد العام دوكاس ونائبه برينيوس وعدد من الأمراء النورمان المحاربين في صفهم أسرى في يد وليم الأول ، كما استولى وليم على سفن الأسطول البيزنطي وما كانت تحمله من كنوز وذهب . وجاء يوم برنديزي هذا ليبتلع كافة انتصارات ياليولوغ ودوكاس وليلحق العار الشائن بهيبة عمانويل كومنين في شبه جزيرة إيطاليا . وانتشرت زحوف وليم الأول صوب الشمال ففتحت المدائن أبوابها صاغرة ضارعة في أمل العفو ، ولكن وليم الأول فتك بأهل مدينة بارى وأشعل النار في الزرع والحرن والدور ولم يتركها إلا كومة من رماد ؛ وذلك بسبب مشايعتها للقوات البيزنطية ضده .

أما البابا هادريان الرابع ورجال جيشه فقد حوصروا في مدينة بينيڤنتم ، وراح البابا يتوسل إلى العاهل النورماندي طالباً الصلح . ولكن وليم أصر على أن يرضخ البابا لسائر الشروط التي يمليها عليه بأن يعطيه مملكة صقلية وأپوليا وكاپوا ونابلي و آمالفي وسالرنو وأراضي المارسي . ووافق البابا ووقع معاهدة تنص على هذا، بعد أن اقسم له وليم يمين الولاء والطاعة (١٨ يونيو ١١٥١) وهكذا جددت معاهدة بينيڤنتم الحاف القديم بين البابوية والنورمان الصقليين.

كان عمانويل كومنين قد أرسل سفراءه بصحبة صديقه ويبالد فى يونيو المحرد المتفاوض مع بربروسا ؛ ولكن الأخير كان حانقاً على السلطات البيزنطية بسبب عملياتها العسكرية فى جنوب إيطاليا . ولذا فقد أساء معاملة السفراء الوافدين من بيزنطة بأن رفض مقابلتهم كما أمر باحتجازهم فى سالزبورج بل فكر فى محاكمتهم بتهمة الخيانة (٤٠٠) . ويزعم أوتو أسقف فريزنج أن

غضب بربروسا من عمانويل يرجع إلى أن رجاله قد زيفوا رسائل ممهورة باسم الإمبراطور الألمانى لإخضاع مدن جنوب إيطاليا . فى ذلك الوقت لم يكن بربروسا قد علم بعد بالإذلال الذى لحق بالقوات البيزنطية فى برنديزى ، ولكنه ما أن سمع به حتى سمح لسفراء عمانويل بمقابلته . ومرد ذلك أنه رأى فى الصلح الذى تم فى بينيفنتم بين البابا ووليم الأول تهديداً لنفوذه فى إيطاليا ؟ ومن ثم فكر فى عقد حلف مع الإمبراطور البيزنطى .

وفى عام ١١٥٧ أرسل بربروسا قسيس بيته المدعو ستيفن رسولا خاصاً لعمانويل كومنين . وكان هذا التقارب الجديد من ثمار جهود ويبالد الذى كان قد أمضى الجزء الأكبر من عام ١١٥٥ – ١١٥٦ ضيفاً على عمانويل فى القسطنطينية . فلذا نجد البابا يكتب إلى ويبالد رسالة تقريع عنيفة متهماً إياه بالتآمر ضد كنيسة روما مع سلطات القسطنطينية (١٩ يناير ١١٥٧) . وحث البابا رئيس دير ستاڤيلوت على أن يفيق لصوابه وأن يخدم أمه الكنيسة الرومانية وذلك بالكف عن محاولة تنفير الإمبراطور الألماني من الكرسي. الرومانية وذلك بالكف عن محاولة تنفير الإمبراطور الألماني من الكرسي.

أرسل عمانويل كرمنين سفراء مرة أخرى للتفاوض مع بربروسا أملاً في عقد حاف معه يمكنه من غسل العار الذي لحق به في برنديزي . كما حل السفراء رسالة خاصة من الإمبراطورة برتا (إيريني) الألمانية تطلب فيها من بربروسا الإنعام بشرف الفروسية على فردريك ابن كوزراد الثالث . واستجاب العاهل الألماني لطلب برتا ، ولكنه أهمل مشروع عمانويل كرمنين . ويحدثنا أوتو أسقف فريزنج عن صدام بين العاهاين بسبب الألقاب : فلقد استنكر بربروسا على عمانويل أن ياقب نفسه في رسائله «بإمبراطور الرومان» وكتب اليه مؤكداً بأن " هنالك إمبراطوراً واحداً للرومان " ؛ وهي بربروسا بطبيعة الحال . أما إذا أصر عمانويل على حمل لقب «إمبراطور» فيحسن به أن

_Jaffé, p. 585. ({ 1)

يحمل لقب « إمبراطور القسطنطينية » فحسب (٤٠) .

كان هذا بحق هو موضع الحلاف بين الطرفين : ذلك لأن ما قد يحققه عمانويل من نصر في إيطاليا كان حتماً على حساب كرامة ونفوذ الإمبراطور الألماني . ومن هنا لم يكن هنالك سبيل إلى تحالف الطرفين اللدودين : خليفة قنسطنطين من ناحية وخليفة شارلمان من ناحية أخرى . وهناك حادث معين يبين مشاعر الريبة والتربص التي ميزت العلاقات بين عمانويل وبربروسا : فقد حدث أن أوفد بربروسا سفيره ويبالد في مهمة إلى القسطنطينية = وفي أثناء عودته من هناك توفي في الطريق . فسارع عمانوبل = وهو الصديق القديم لويبالد ، بإرسال سفرائه إلى ألمانيا ليؤكدوا أن ويبالد قد توفي وفاة طبيعية وأن السلطات البيزنطية لم يكن لها يد قي موته !

لم يكتف وليم الأول ملك صقلية بما أوقعه هو ورجاله ببيزنطة من إذلال ، بل راح هو ووزيره مايون يدبران خططاً أخرى لتأديب عمانويل كومنين . فقد عقدا معاهدتين مع البندقية وجنوة لضمان مساندة الأولى وحيدة الثانية في الصراع ضد بيزنطة .

وفى ربيع ١١٥٧ أرسل وليم أسطوله لتخريب الشواطئ البيزنطية ومدنها . وهجم الأسطول النورماندى على الأسطول البيزنطى عند نجر و پونت وأحرق بعض سفنه ، ثم أشعل الجند النيران فى مدينتى نجر و پونت وألميرا . و بعدها أبحر الأسطول النورماندى حتى القسطنطينية وأمطر قصر بلاكرناى بوابل من السهام المدمرة .

وقفت السلطات البيزنطية وعلى رأسها عمانويل كومنين عاجزة تماماً أمام هذا العدو الضارى ، فلقد أحرقت معظم سفن الأسطول وهلك الكثير من الجند وأنهكت الخزانة الإمبراطورية . وهنا تدخل البابا هادريان اارابع في

الأمر وعرض وساطته من أجل صلح بين وليم وعمانويل (٤٣).

وما من شك فى أن البابا كان يخطط لحماية نفسه ، فهو بتكتيل قوات النورمان مع جيش عمانويل من وراثه كان يستطيع النهوض أمام تحديات عدوه اللدود فردريك بربروسا ، ونجحت مساعى البابا ووصلت سفارة من البلاط الصقلى إلى العاصمة البيزنطية حيث اتفق الطرفان على عقد هدنة مدتها ثلاثون عاماً ، كما أطلق وليم سراح أسراه من الجند البيزنطيين . ويضيف مصدرنا كناموم أن الملك الصقلى وعد بتأييد عمانويل كرمنين فى مشروعاته فى الغرب (٤٤) . فإن صح هذا يكون الطوفان قد وقعا حلفاً ضد العدو المشترك فردريك بربروسا بإيحاء من البابا هادريان الرابع .

اتجهت جهود عمانويل السياسية في تلك الفترة إلى توثيق علاقاته بمدن شمال إيطاليا ، التي كانت تناصب بربروسا العداء الشديد . وأغدق الإمبراطور البيزنطي العطايا والهدايا في سخاء زائد على مدائن ميلان وكريمونا وپاڤية وانكونا وبيزا وجنوة والبندقية (٥٠) . وكانت انكونا أشد مدن الشهال الإيطالي عداوة لبربروسا ، ولذا فإنها رغم تبعيتها نظريبًا للإمبراطورية الألمانية ، نادراً ما كانت تأبه بالسلطان الألماني . ولذا كانت انكونا دواماً هدفاً لغضب وانتقام بربروسا . فني عام ١١٦٧ ضرب الإمبراطور الألماني حرفها حصاراً لمدة ثلاثة أسابيع ولم ينقذها من هذه الأزمة سوى دفعها جزية طائلة القيمة وتقديمها بعض الرهائن (٤٦) . وفي عام ١١٧٧ حاصر المستشار الألماني كرستيان من مينز مدينة انكونا مرة أخرى بمعرنة أسطول جهورية البندقية . غير أن عمانويل كومنين أسرع بإرسال الأموال اللازمة لمعاونة الأهلين على مقاومة

Choniates, II, viii, p. 128. (£7)

Kinnamos, IV, xv, p. 172. (£ £)

Bon Compagni (ed. Gaudenzi), in Bulletino dell' Istutio Storico (£0)
Italiano, Vol. XV, p. 181.

Anonymi Laudensis Continuato, in M.G.H.SS., Vol XVIII, p. 646. (§ 7)

المستشار الألمانى وحليفته (٤٠٠). ولقد ظلت مدينة أنكونا طوال عهد عمانويل كومنين مركزاً للنشاط البيزنطى وللخطط التي كان يدبرها البازيليوس في محاولته بسط نفوذه في إيطاليا .

أما عن الصلات بين جمهورية بيزا وعمانويل كومنين فقد بدأت في عام ١١٦٢ عندما قدم السفيران كوتشو جريني و بوتاشيوس إلى البلاط البيزنطي للتفاوض . وقد وعد الإمبراطور البيزيين بدفع مبلغ ضخم من المال لحكومتهم ومنحهم امتيازات تجارية واسعة المدى إذا أحجمت الجمهورية البيزية عن [تعاونها مع الإمبراطور الألماني ضبد بيزنطة (٤٨) . غير أن السلطات البيزية لم تكن ترغب في إغضاب بربروسا ، ومن ثم فقد رفضت شروط عمانويل . أدى هذا إلى أن أمر عمانويل بطرد الجالية البيزية من الحي المخصص لها في العاصمة البيزنطية . وهنا أدرك البيزيون أن عداوتهم لبيزنطة قد جرت علهم ضم رآ كبيراً ، فراحوا يفاوضون الإمبراطور من جديد ، وأرسلوا إليه القنصل ألبرت بلزى وببرجنديوس وكونت ماركو الذين عقدوا معه صلحاً وحصلوا في مقابل ذلك على تجديد للامتيازات التجارية القديمة التي كانت تتمتع بها جمهوريتهم ، إلى جانب الهبة السنوية التي كان البازيليوس يمنحها لرئيس أساقفتها (٤٩). ويمكن تفسير هذا الكرم الزائد الذي أبداه عمانويل كومنين في اتفاقه مع بيزا عام ١١٧٢ على أنه تقارب دبلوماسي مع سلطاتها بقصد كسب تأييدها خاصة بعد أن انقض عمانويل على جالية البنادقة في عاصمته وقضى علمها وعلى ثرواتها . ولذا نلاحظ في مضمون الاتفاق المشار إليه أن تعتبر بيزاً كل معاهدة أبرمتها سابقاً مع « أفراد متوجين أو غير متوجين » ضد المصالح البيزنطية باطلة المفعول (···) . ويبدو أن العلاقات بين بيزنطة وبيزا ظلت حسنة حتى نهاية حكم عمانويل كومنين .

Historia Ducum Veneticorum, in M.G.H.SS., Vol. XIV, p. 81. (§ y)

Annales Pisani, in M.G.H.SS., Vol. XIX, p. 246. (£A)

Ibid., p. 262. (£4)

Ibid. (o·)

أما جمهورية جنوة فقد دخلت في مفاوضات. مع السلطات البيزنطية في عام ١١٥٥ بفضل جهد القائد البيزنطي الشهير ميخائيل پاليولوغ بطل الحرب الإيطالية الذي تحدثنا عنه سلفاً . وقد أعقب هذا توقيع معاهدة بين الطرفين تعهد بمقتضاها عمانويل بدفع مبلغ معين من المال سنويباً السلطات جنوة ، إلى جانب مبلغ آخر خصص لرئيس أساقفتها . كذلك سمح للجالية الجنوية بقطعة أرض مجاورة لحي البنادقة للسكني فيها ، مع تخصيص مرسى خاص لنشاطهم التجاري في ميناء العاصمة . وفي مقابل عده الامتيازات تعهدت جنوة بألا تشارك في أي عمل يشكل تهديداً هذه الامتيازات تعهدت جنوة بألا تشارك في ألى عمل يشكل تهديداً لأراضي الإمبراطور وشرفه ؛ كما فرضت على الجنويين المقيمين في الأراضي الإمبراطور وشرفه ؛ كما فرضت على الجنويين المقيمين في الأراضي الإمبراطور وشرفه ؛ كما فرضت على الجنويين المقيمين في الأراضي الإمبراطور وشرفه ؛ كما فرضت على الجنويين المقيمين في الأراضي الإمبراطور وشرفه ، كما فرضت على الجنويين المقيمين في الأراضي الإمبراطور وشرفه ، كما فرضت على الجنويين المقيمين في الأراضي الإمبراطور وشرفه ، كما فرضت على الجنويين المقيمين في الأراضي الإمبراطور وشرفه ، كما فرضت على الجنويين المقيمين في الأراضي الإمبراطور وشرفه ، كما فرضت على الجنويين المقيمين في الأراضي الإمبراطور وشرفه ، كما فرضت على الجنويين المقيم اعتداء على البيزنطية الحدمة العسكرية مع الجيش البيزنطي إذا ما وقع اعتداء على بيزنطة (١٠٠) .

غير أن جنوة عقدت معاهدة صداقة مع وليم الأول الصقلى في عام ١١٥٦ مما جعل عما نويل كومنين يتجاهل المعاهدة المبرمة بينه وبينها . وإزدادت العلاقات بين الجانبين سوءاً عندما وقعت جنوة حلفاً مع فردريك بربروسا في عام ١١٦٢ . وعلى هذا فقد باتت السلطات البيزنطية تفكر في الانتقام من جنوة والقضاء على مصالحها في الإمبراطورية البيزنطية . والحق أن المسئولين في العاصمة البيزنطية كانوا يدركون عمق الأحقاد والضغائن التي كانت بين الجاليات الإيطالية في القسطنطينية؛ وهذا شجع السلطات على حض البنادقة والبيزيين على مهاجمة حي الجنويين ونهبه لمدة عشرة أيام . وحدث أثناء هذا الهجوم أن قتل أحد الشبان الجنويين ويدعى روفو ؛ كما أسفرت خسائر الجالية عن قرابة ٢٠٠،٠٠٠ هايبربيروي (٢٥) .

تبع هذه الحسائر أن رحل الجنويون عن القسطنطينية خوفاً من نكبات مثيلة قد تحل بهم مستقبلا. وفي عام ١١٦٨ أوفدت الجمهورية الجنوية السفير أميكو من مورتا لمقابلة عمانويل كومنين ومطالبته بتعويضات قدرها

Caffaro de Caschifelone, Annales Januenses, in M.G.H.SS., Vol. XVIII, p. 25. (e $_1$)

Ibid., p. 33. (or)

هذا بأن يقبل أقل من هذا بكثير إلى حد ٢٠,٠٠٠ فقط . وكان على هذا بأن يقبل أقل من هذا بكثير إلى حد ٢٠,٠٠٠ فقط . وكان على آميكو أن يطلب من الإمبراطور مساهمة سنوية فى بناء كاتدرائية سان لورنزو إلى جانب هبة خاصة لرئيس أساقفة جنوة لا تقل عن تلك التي يتلقاها كل عام بطريرك البندقية ؛ أو على الأقل عن تلك الموهوبة لرئيس أساقفة بيزا . كذلك طلبت جنوة امتيازات مثيلة بتلك التي كانت تتلقاها البندقية فى النشاط التجارى وفى المراسى البحرية فى الإمبراطورية البيزنطية . هذا إلى جانب تأكيدات بأن لا ضير سوف يحل بالجالية الجنوية فى القسطنطينية مستقبلا . وفى مقابل هذا تعهدت الجمهورية بإمداد بيزنطة بثلاثين قطعة بحرية حربية للخدمة مع الأسطول البيزنطي بإشراف طاقمهم الجنوى .

ولكن آميكو لم يفلح فى الحصول على كافة المطالب الجنوية فى المعاهدة التى وقعها مع عما نويل كومنين عام ١١٦٩، مما أغضب القناصل الذين رأوا فى شروط عما نويل المنصوص عليها، والحاصة بمساعدة جنوة لبيزنطة فى حالة «عدوان من متوج أو غير متوج» على الإمبراطورية، خطراً داهما يستنفر فردريك بربروسا ضدهم. ولذا فقد طلبوا من آميكو السعى لحذف هذه الفقرة بعينها من المعاهدة.

وبينا كانت المباحثات تجرى بين السفير الجنوى والإمبراطور البيزنطى المر السفراء البيزنطيون الدين كانوا يتفاوضون مع البابا إسكندر الثالث بجمهورية جنوة (يونيو ١١٧٠) ؛ وعرض هؤلاء السفراء مبلغ ٢٠٠٠ هايبربيروى على السلطات الجنوية مقابل تأييد عمانويل ضد بربروسا . ولكن رفض القوميون مناقشة الأمرحتي عودة آميكو من القسطنطينية ومعرفة صيغة الاتفاق النهائي على لسان سفيرهم الحاص . ولما وصل آميكو بعد إنجاز مهمته اكتشف القوميون خلافاً كبيراً بين عروض السفراء وعرض سيدهم ، ولذا فقد رفض القوميون مواصلة المحادثات مع بيزنطة (٥٠)

⁽⁰⁴⁾

أرسل عما نويل كومنين يحتج على موقف جنوة الملتري، وسافر آميكو مرة أخرى إلى القسط:طينية للتفاوض . وتم الاتفاق في هذه الجولة بعد أن غيرت الفقرة التي اعترضت عليها جنوة إلى الآتي : ﴿ تَتَعَهَّدُ جَهُورِيَّةَ جَنُوةً بِأَنَّهَا لن تؤيد أية قوة أجنبية تغير على أراضي الإمبراطور أو تهدد تاجه ، . ويلاحظ كذلك أن المعاهدة خلت من أية ضمانات من جانب عمانويل ف حالة وقوع أذى جديد بالحالية الجنوية ومصالحها فى العاصمة البيزنطية . هذا وبعد فترة قصيرة من توقيع هذه المعاهدة هوجم حي الجالية الجنوية وتم نهبه مرة أخرى . ويروى المؤرخ كناموس أن البنادقة هم الذين أقدموا على هذه الفعلة (٤٠). على أنه بجب ملاحظة أن عمانويل كومنين قام بعد ذلك بمصادرة ثروات عدد كبير من البنادقة والبيزيين من كبار التجار في القسطنطينية بحجة أنهم قد شاركوا في المؤامرة ضد الحي الجنوى . فإذا ما وضعنا في اعتبارنا أن المعاهدة التي أبرمها عمانويل مع آميكو في عام ١١٧٠ قد خلت من أية فقرة أو نص عن ضهانات في حالة وقوع ضرر بالحالية الجنوية، فإنه يحق لنا أن نتساءل : هل كان عمانويل يتوقع وقوع هذا الأذى يالفعل ضدهم ؟ ليس بمستبعد أن يكون عمانويل قد أوعز بحادث نهب الحالية الحنوية في عاصمته ، وليس غريباً أيضاً أن يتخذ من الحادث ذاته ذريعة لمصادرة أملاك وثروات بعض البنادقة والبيزيين؛ لأنه في ذلك الوقت بالذات كانت مشروعاته في غرب أوربا فد منيت بالفشل الذريع بعد أن أثقل الخزانة والرجال بأعباء جسام ، الأمر الذي أدى إلى وجود تذمر شديد بين المواطنين في العاصمة والذين كانوا ينظرون إلى مخططاته الممالئة للاتين بالكثير من الحنق والاستنكار . على أنه من المرجح أن البنادقة قله شاركوا الغوغاء من البيزنطيين اللهين هاجموا فنهبوا الحي الجنوى في العاصمة ـ بإيعاز من السلطات ـ والدليل على ذلك أنه عندما قاد دوق البندقية حملة ضد عمانویل - بسبب ما حل بجالیته فی عسام ۱۱۷۱ - طلب من

الجنويين المقيمين في آلميرو المشاركة معه في حملته ، ولكنهم رفضوا مطلبه فاستولى منهم على بعض سفنهم (٥٥).

وعدت السلطات البيزنطية تعويض الضحايا الجنويين عن خسائرهم ولكنها لم تحقق وعودها. ولذا أرسل القوميون الجنوى السفير جريمالدى فى عام ١١٧٣ ليطلب من عمانويل كومنين تعويض بنى جلدته من الضحايا عن النكبات التى حلت بهم « وأيضاً ليطالب « برد حى كوباريون من جديد للجالية الجنوية » (٢٥) ، وهو الحى الذى كانت تتمتع بالإقامة والتجارة فيه هذه الجالية في مدينة القسطنطينية . وبالفعل وصل السفير الجنوى إلى العاصمة وقابل البازيليوس وعرض مطالب القوميون ، ولكنا لا نعلم شيئاً عما أسفرت عنه هذه المفاوضات.

* * *

اجتازت العلاقات بين البندقية وبيزنطة تغيراً هاماً أثناء حكم عما نويل . فلقد تخلى البنادقة عن بيزنطة أثناء حصار كورفو سنة ١١٤٩ ، ويقال إنهم كانوا ينظمون مظاهرات للسخرية من شخصية عمانويل وذلك بتمثيله زنجياً قبيح المنظر بقصد الاستهزاء به (٥٠) . والواقع أن البندقية كانت تشعر بضيق شديد أمام توسع بيزنطة في دلماشيا (١١٦٦) وتنظر إليه بريبة شديدة . ولكن هجمات فردريك بربروسيا المتتابعة على مدن شهال إيطاليا دعت البندقية إلى أن تخطب التعاون مع عمانويل في تأييد هذه المدن ضد بربروسا (٥٠) . أرسل عمانويل سفيره نقفور كالويفيس إلى البندقية ، وتم اتفاق بين الطرفين تعهدت البندقية بمؤداه بإمداد بيزنطة بأسطرل قوامه وتم اتفاق بين الطرفين تعهدت البندقية بمؤداه بإمداد بيزنطة بأسطرل قوامه

Ibid. (o\)

Choniates, I, i., p, 64, (ov)

Kinnamos, V, ix, p, 230, (oA)

G. Bertolottoi Documenti sulle Relazioni di Genova coll Impero Bizantino, (• •) in Atti della Societa Ligure di Storia Patria, Vol. XXVIII (1897) pp. 371, 397.

٣٠٠ قطعة حربية للمشاركة في حملته الإيطالية (٥٩). وفي العاشر من ديسمبر ١١٦٧ كان هناك ثلاثة سفراء بيزنطيون في البندقية ، ولكنا لا نعرف شيئاً عن طبيعة مهمتهم هناك (٢٠). وفي نفس الوقت نجد سفراء الملك ستيفن عملك الحجر ، الذي كان وقتئذ في حرب ضد بيزنطة ، موجودين في البندقية للتفاوض في مشروع زواج ابنة أخيه ماريا من نيقولاس ابن الدوق ميخائيل فيتالس (٢١). هذا التقارب بين البندقية والحجر يحدد بداية العداوة بين البلاط البيزنطي وجمهورية البندقية . ففي عام ١١٦٨ قامت ست قطع بحرية حربية تابعة للبندقية بالمهجوم والقبض على خمس قطع بحرية تملكها مدينة أنكونا التي كانت بالهجوم والقبض على خمس قطع بحرية إيطاليا ؛ متحدية بهذا سياسة عما نويل الإيطالية .

ثم أخذت العلاقات تتدهور بين بيزنطة والبندقية حتى بلغت ذروتها في عام ١١٧١ . والحق أن موقف عمانويل العدائى لجالية البنادقة في عام ١١٧١ كان نخالفاً لحطوط سياسته الودية تجاه اللاتين، كما أن عنصر المفاجأة فيه قد حير الدارسين. ويقص علينا داندولو أن عمانويل كان قد عرض يد ابنته في الزواج من وليم الثاني ملك صقلية ، ثم غير رأيه ، وعندما طلب من دوق البندقية تأييده ضد ماك صقلية في حالة الحرب المتوقعة إبنهما رفض الدوق = ومن ثم فقد راح البازيليوس يدبر في الخفاء للانتقام من هذا المرقف من جانب الدوق في تقويض مصالح جمهوريته في القسطنطينية (١٢٠). على أن بعض المؤرخين لم يقبلوا برهان داندولو ، موضحين أن القطيعة التامة مع وليم الثاني لم تحدث إلا في عام ١١٧٧ أي بعد عام كامل من ضربة عمانويل ضد جالية البنادقة في بيزنطة (١٣٠). وأوضح فريق آخر من

Ibid,, V, xii, p, 237 (o4)

Annales Venetici Breves, in M.G.H.SS., Vol. XIV, p. 71. (7.)

Ibid. (11)

Dandolo, Chronicon Venetum. in Muratori, R.I.SS., Vol. XII, p. 291. (77)

See W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant, I, p. 216. (77)

المؤريحين بأن هناك قطيعتين وقعتا بين عمانويل ووليم الثانى: الأولى فى عام ١١٦٦ والثانية فى عام ١١٦٦ وربحا أدى فشل المفاوضات بين عمانويل ووليم فى عام ١١٦٧ إلى سعى الأول لكسب حلف جمهورية البندقية ضد الثانى، ولما رفضت البندقية هذا التحالف فكر عمانويل فى الانتقام خاصة وأنه لم ينس للبنادقة تخليهم عنه أثناء صراعه السابق ضد النورمان.

على أن هنالك عرامل أخرى تساعد في تفسير أحداث عام ١١٧١ التي وقعت بين جمهورية سان مارك وبيزنطة . يلاحظ أن أفراد جالية البندقية في القسطنطينية كانوا قد كدسوا ثروات ضخمة مستغلين الامتيازات والحصانات التي منحها لهم الأباطرة السابقون . وكانت عامة الشعب والحاصة في العاصمة تنظر إلى هؤلاء الأجانب الفاحشي الثراء في حقد وغيظ. ولما كانت خزانة عمانويل كومنين في هذا الوقت شبه خاوية فإنه بدأ ينظر إلى تلك الثروات الهائلة في شيء من الطمع . وكان البازيليوس مدركاً أن رعاياه الساخطين على سياسته الفاشلة في الغرب سوف يهللون فرحاً إن هو أقدم على مصادرة أملاك وثروات هؤلاء الأجانب اللاتين. ومن هنا فإن إقدامه على هذا العمل كان سيوفر له مالا كثيراً وأيضاً قد يهدئ الرأى العام الساخط ضد كل ما هو لاتيني . وتشير ال Historia Ducum Veneticorum إلى الحقد الذي كان يعتمل في قلب عمانويل قبالة التجار البنادقة في إمبراطوريته (٢٥٠). أما المؤرخ البيزنطي كناموس فإنه يزعم أن عما نويل قرر إعقاب البنادقة بسبب هجماتهم المتكررة على الجالية الجنوية في القسطنطينية (٦٦). وهنالك ما يؤكد رواية كناموس فى الأوامر التي أصدرها قوميون جنوة إلى السفير جريمالدي بأن يقابل البازيليوس ويكشف له عن العداوة التي يضمرها البنادقة والبيزيون تجاه الجنويين (٦٧) . أما نيكبتاس كونياتيس فإنه يؤكد

See F. Chalandon, Les Comnénes, II, p. 586. (78)

Historia Ducum Veneticorum, p. 78. (70)

Kinnamos, VI, x, p. 282. (77)

G. Bertolotto op. cit., p. 371 Cum inde culpabiles essent." (\(\nabla \nabla \))

أن مسلك البنادقة السيئ واستهتارهم استفر جماهير الشعب في العاصمة البيزنطية ، كما أن البازيليوس ذاته كان منزعجاً لأن البنادقة طالما تجاهلوا أوامره (١٨٠).

وفي عام ١١٧٠ بدأ عمانويل في مصادرة أملاك البنادقة وثرواتهم إ بحجة أنهم قد نهبوا حي الجنويين في القسطنطينية . وكرد فعل أمام هذا التصرف أمر دوق البندقية بمقاطعة بيزنطة ، وبدأ البنادقة يرحلون عن الإمبراطورية عائدين إلى جمهوريهم (٢٩). غير أن الإمبراطور أرسل سفارة إلى البندقية يطلب إعادة العلاقات التجارية بين البلدين واعدا منح امتيازات خاصة بل واحتكاراً للنشاط التجارى للبنادقة دون غيرهم ، مؤمناً إياهم وفق ضهانات خاصة (٧٠) . وجاءت هذه الوعود الطائلة لتهدئ من روع الدوق ، وسرعان ما أعيدت العلاقات التجارية بين الجانبين. وتقول المصادر إن أكثر من ۲۰,۰۰۰ من أهالي البندقية عادوا إلى بيزنطة يحملون معهم كميات ضخمة من السلع والمال والسلاح . كما أرسل الدوق سفيرين مع هذه الجالية هما سباستيانوس زيانى وأوريوس ماستيرو بترو(٧١) . استقبل عمانويل السفيرين بكرم زائد ووعدهما بمعاملة أفراد جالية البندقية معاملة الأبناء(٧٢). وعندما استقر البنادقة مرة أخرى فى العاصمة وغيرها من مداثن الإمبراطورية راح عمانويل يخطط لهدم كيانهم تماماً . وفي العاصمة بوجه خاص ، حيث احتفظت الجالية بمعظم ثرواتها ، اتخذت احتياطات خاصة لإنفاذ المؤامرة في إحكام زائد: فقد استدعت السلطات فرقاً عسكرية من خارج العاصمة ووضعت في حالة طرارئ ليل نهار لحين تنفيذ المخطط . وكان هذا كفيلا لأن يثير شكوك البنادقة ، فأسرع السفيران لمقابلة البازيليوس للاستوثاق من

Choniates, V, ix, p. 233.	(٦٨)
Dandolo, pp. 291-93.	(14)
Historia Ducum Veneticorum, p. 78.	(v·)
Ibid.	(٧١)
Ibid.	(٧٢)

نيته . هدأ الإمبراطور من روعهما وأرسل منادين يعلنون بأن أية جريمة ترتكب ضد البنادقة سوف تردع بقسوة من جانب الإمبراطور ذاته (٧٣) .

ولكن عما نويل كومنين خدع السفيرين بحق : فنى ١٢ مارس ١١٧١ المبراطور ورجاله على البنادقة كما ينقض الأسد على المبادقة كما ينقض الأسد على المحمل وألتى القبض على عشرة آلاف منهم وأودعهم السجون " كما صادر ثرواتهم . ولا ضاقت السجون بهذه الأعداد، استعين ببعض الأديرة لهذا الغرض . ولم يتمكن من الإفلات من القسطنطينية سوى عدد قليل من البنادقة الذين لاذوا بإحدى السفن الراسية في الميناء وأبحروا فيها إلى عكا ، كذلك هربت الجالية المقيمة في أرمير و على خليج قولو على متن عشرين سفينة نقلتهم إلى موطنهم . وهناك راحرا يولولون على ما أصابهم من عنت على يد الإمبراطور « الجاحد » المطالبين بإعداد حملة للانتقام منه (٧٤) .

بدأت جمهورية سانمارك تعد العدة لمقاتلة بيزنطة منمارس إلى سبتمبر ١٢٠، فأعدت ١٢٠ سفينة لهذا الغرض وساهمت زارا وبعص مدائن دلماشيا الأخرى باثنتي عشره سفينة للمشاركة في هذه الحملة (٢٠). انقض الدوق ورجاله على مدن دلماشيا التي كانت تحت النفوذ البيزنطي ، وفتحت تراو أبوابها لهم أما مدينة واجوزا فع أن المسئولين فيها قد أقسموا يمين الولاء والطاعة للدوج إلا أنهم سرعان ما هجموا على البنادقة ، ولكنهم أصيبوا بخسائر فادحة في الرجال . ولذا فقد خرج رئيس أساقفتها ورجال الأكليروس الآخرون إلى معسكر الدوج وألقوا بأنفسهم عند قدميه طالبين العفو والغفران ووافق الدوج على الصلح مع راجوزا بعد أن أقسم له سادتها يمين الطاعة والولاء وتعهدوا بدفع مبلغ كبير من المال إليه الى جانب كميات معينة من المؤن والأنبذة . كذلك أجبر رئيس من المال إليه الله الله جانب كميات معينة من المؤن والأنبذة . كذلك أجبر رئيس

Ibid. (Vr)

M. de Canale, La Cronica dei Veneziandi, (ed. Galvani), Frienze, 1845, (γξ) p. 312.

[·]Historia Ducum Veneticorum, loc. cit. (∨∎)

الأساقةة على الاعتراف بتبعيته لبطريرك البندقية وبالخضوع لسلطان البابا (٢٧١). بعد هذا هجم البنادقة على نجرو يونت ونهبوها. وهناك طلب بعض رجال عماني يل كومنين من الدوج إيفاد سفارة خاصة إلى العاصمة لتسوية النزاع دون إراقة دماء. ووافق الدوج على هذا وأوفد الأسقف باسكال من أقويليا ومناسيس بادوڤار يوس لمقابلة البازيليوس للتفاوض معه (٧٧١). وفي خلال ذلك احتل البنادقة جزيرة خيوس حيث قرروا قضاء فصل الشتاء فيها ومن هنالك انتشرت عدة قطع بحرية من أسطولهم لتنهب خيرات المدن الواقعة على الساحل.

غضب عمانويل كومنين من هذه القرصنة فرفض السماح للسفيرين باسكال ومناسيس بمقابلته ولكنه أرسل من لدنه سفيراً إلى الدوج يطلب منه إرسال بعثة جديدة لفتح باب المناقشات من جديد .

و يحدثنا داندولوف هذا الصدد أن عمانويل إنما أرسل هذا السفير للتجسس على معسكر البنادقة (۱۱۷۷) ومع هذا أوفد الدوق سفارة جديدة إلى القسطنطينية . وفي أثناء ذلك تفشى وباء خطير في معسكر البنادقة (أبريل ۱۱۷۷) وهلاك عدد كبير منهم . وتعلل حوليات البنادقة هذا بأن الإميراطور دس سميًّا في مياه الآبار وفي الأنبذة التي كانت في جزيرة خيوس (۷۹) .

في هذه المرحلة من الصراع أبحر الأسطول البيزنطي لمقاتلة البنادقة عند جزيرة خيوس ، ولكن الدوج ورجاله كانوا قد انتقلوا إلى جزيرة صغيرة هي سانكتا باناتشيا . وهناك عادت السفارة الثانية لتعلم الدوج بفشل مساعيها في القسطنطينية . وكان مع هذه السفارة مبعوث آخر من لدن الإمبراطور يطلب إيفاد سفارة ثالثة لمواصلة المفاوضات . ولما كانت أحوال الجند قد ساءت بسبب الوباء في معسكر البنادقة فقد أوفد الدوج السفيرين هنرى داندولو وفيليب

Ibid.(\nabla \nabla)Ibid.(\nabla \nabla)Dandolo, p. 295.(\nabla \lambda)Historia Ducum Veneticorum, p. 79.(\nabla \nabla)

لحاونة الوصول إلى «حل سلمى » مع البازيليوس (١٠٠). وهنا قرر البنادقة الانتقال إلى جزيرة لممنوس للاحتفال هناك بعيد فصح ١١٧٢، غير أن عاصفة فجائية أجبرتهم على الرسو في جزيرة سكيروس. وبعد احتفالات عيد الفصح ارتفعت صيحات التذمر والسخط بين الجند البنادقة ، كما اشتدت وطأة الوباء عليهم فانجطت معنوياتهم. ولذا قرر الدوج العودة بحملته إلى البندقية.

عاد الدوج ميخائيل ڤيتالس مع من تبقى من أفراد الحملة ليواجه إشاعات تتهمه بالعجز و بخيانة قضية الجمهورية (١٩١) ٥ وبيتما كان ڤيتالس يرأس مجلس الشيوخ هجمت عليهم جماعة مسلحة ، هرب الشيوخ جميعاً من قاعة الاجتماع وتسلل ڤيتالس إلى خارج أبواب القصر الذي كان المجلس منعقداً فيه ولكن أحد أفراد هذه الجماعة المسلحة ويدعى ماركوس كازولوس لحق به عند كنيسة سان زكريا وقتله بسيفه (٨٢).

خلف قيتالس فى منصب الدوج سباستيانو زيانى . وأرسل الدوج الجديد سفارة مكونة من قيتالس داندولو ومنسس بادوقاريوم وقيتالس فاكرتوس إلى القسطنطينية للتفاوض مع عمانويل كومنين ، ولكن جهودهم لم تأت بنتيحة . ولذا فقد قرر زيانى محالفة أعداء بيزنطة ، فتعاون بأسطوله مع بربروسا فى حصاره لمدينة أنكونا — حليفة عمانويل — فى عام ١١٧٣ ، كما عقد معاهدة ود وصداقة مع ولم الثانى ملك صقلية فى عام ١١٧٥ .

هذا و يحدثنا نيكيتاس كونياتس أن عمانويل فتح باب المفاوضات مع البندقية وأن اتفاقاً عقد بين الطرفين أطلق البازيليوس بمؤداه سراح أسرى عام ١١٧١، وأعاد لجمهورية سان مارك امتيازاتها التجارية السابقة (٨٤). أما داندولو

Ibid. (A·)

Ibid. (A1)

Dandolo, p. 296. (AY)

Historia Ducum Veneticorum, p. 81.

Choniates, V, x, p. 225. (At)

فيروى أن هذا الاتفاق لم يتم فى عهد عمانويل وإنما فى زهن حكم أندرونيكوس كومنين (١١٨٣ — ١١٨٥) (٨٠٠ .

على أنه ليس هناك دليل مقنع بأن البندقية قد حصلت على تعويض مرض لما حل بها في عام ١١٧١ لا في عهد عمانويل ولا في زمن حكم أندرونيكوس. وقد جاء هذا الحادث ليشعل نار الكراهية في قلوب البنادقة ضد بيرنطة ، الأمر الذي دفعهم إلى المشاركة في غزو القسطنطينية في صليبية ١٢٠٤.

لم تكن البندقية هي القوة الوحيدة الغاضبة على عمانويل كومنين في غرب أوربا ، وإنما كان هنالك أيضاً برناميج فردريك بربروسا المعادى اكل ماهو بيزنطى . في عام ١٩٧٧أرسل بربروسا الأسقف كونراد من ورمز إلى القسطنطينية ليتكشف طبيعة ذاك الاتفاق الذي كان العاهل الألماني يظن أنه قد أبرم بين عمانويل كومنين وبين هنرى الأسدا دوق سكونيا . والعروف أن هنرى الأسد قد عرج على القسطنطينية في عام ١٩٧٧أثناء رحلته إلى الأرض المقدسة وليس بمستبعد أن يكون عمانويل قد عقد بالفعل حلفاً مع هنرى الأسد ضد بربروسا . وهنالك في بعض المصادر ما يؤكد هذا الفرض . فيحدثنا أرنولد من لوبك أن عمانويل كومنين قد أرسل بعثة ودية لمقابلة دوق سكسونيا في بربروسا (٢٠١٠ . ومصدر آخر يتهم الدوق صراحة بأنه كان يتآمر ضد بربروسا (٢٠٠) . ومصدر آخر يتهم الدوق هنرى سافر إلى القسطنطينية بربروسا (٢٠١) . ويقول بنيدكت من پيتربرو أن الدوق هنرى سافر إلى القسطنطينية بعث بربروسا إلى عمانويل كومنين في عام ١١٧٧ توبيخاً للإمبراطور البيزنطي

Dandolo, p. 309.

Arnold of Lübeck, Chronica Slavorum, in M.G.H.SS., Vol. XXI, p. 117. (A7)

Continuatio Cremifanensis, in M.G.H.SS., Vol. IX, p. 561.

Benedict of Peterborough, Gesta Regis Henrici II, (ed. W. Stubbs), 2 (AA) vols., Rolls Series, London, 1867, Vol. I, p. 249.

« لمحاولته غواية أفصال الإمبراطورية الألمانية » (^^^).

كان الساعد الأيمن لبربروسا في هذا الوقت كرستيان رئيس أساقفة مينز. وكرستيان هذا كان متعصباً للنظم الإمبراطورية والسياسة الألمانية أكثر من الإمبراطور ذاته . ولقد كان هذا المستشار الألماني يحتقر البيزنطيين ، كما كان عازماً على تقليم أظافر السلطات البيزنطية بسبب تحرشها بالمصالح الألمانية في إيطاليا . وفي عام ١١٧١ ظهر كرستيان على رأس حملة في إيطاليا ليخيف مدن العصبة اللومباردية المتمردة على بربروسا وحليفها البابا الشرعي إسكئدر الثالث . وفي أبريل ١١٧٣ حاصر المستشار الألماني بجيشه = بمعونة أسطول البندقية ، مدينة أنكونا التي كانت مركز النشاط البيزنطي في إيطاليا . ولم يرفع المستشار هذا الحصار عن أنكونا إلا بعد أن دفع أهلوها جزية مالية كبيرة جاءتهم من خزانة بيزنطة .

هذا وفي أثناء حصار أنكونا فتح الإمبراطور فردريك بربروسا باب المفاوضات مع ألد أعداء بيزنطة وهو قلج أرسلان سلطان قونية . وحث الإمبراطور الألماني سلطان الروم على مهاجمة الإمبراطورية البييزنطية . ونجد أن سفراء السلطان قد أتوا إلى البلاط الألماني محملين الهدايا لبربروسا في عام ١١٧٣، ليطلبوا يد ابنة بربروسا لابن السلطان . ولاشاك في أن علاقات المودة بين البلاطين الجرماني والتركي آنداك كانت من العوامل التي جعلت قلج أرسلان يثقل من ضرباته التي وجهها ضد بيزنطة في عام ١١٧٤، اسوأ هزيمة منيت بها يونطة ، وذلك في واقعة مير يوكيفالون ، حيث قتل خيرة ضباط الإمبراطورية بيزنطة ، وذلك في واقعة مير يوكيفالون ، حيث قتل خيرة ضباط الإمبراطورية وجندها " وحيث تعرض عمانويل كرمنين ذاته للهلاك ثم للعار . وكانت كارثة وجندها أكثر هولا من واقعة ملاذكرد (١٠٧١) في الخسائر في الرجال والعتاد ،

H. Kap - Herr, Die Abendländische Politik Kaiser Manuels mit Besonderer Rücksicht auf Deutschland, Strassburg, 1881, pp. 156 - 57.

يذاته تاركاً من تبقوا حوله نهباً لسيوف الترك م وما من شك أن أنباء مير يوكيفالون قد أدخلت السرور على نفس بربروسا .

وفي عام ١١٧٧ عقد بربروسا صلحاً مع البابا إسكندر الثالث، وهو المعروف بصلح البندقية الفاتهي بذلك عهد التفاهم بين عمانويل كومنين والبابوية ضد الإمبراطور الألماني. ولسوء حظ عمانويل جاءت كارثة ميريوكيفالون في وقت منيت فيه مشروءاته في غرب أوربا بفشل ذريع ، بعد أن أجهد خزانة الدولة. ولعل خير ما يصور ذلك الضياع الذي مني به البازيليوس تلك الرسالة التي بعث بها بربروسا إلى عمانويل في ذلك الوقت . تخاطب الرسالة عمانويل على أنه «ملك اليونان » فحسب ؛ الذي عليه هو وشعبه إظهار الخضوع والطاعة اللامبراطور الأوحد للرومان - بربروسا - ، وأيضاً للبابا رأس الكنيسة الرومانية. كذلك ألمح بربروسا في رسالته أنه على استعداد لفض النزاع القائم بينه وبين بطريرك القسطنطينية . وفي ختام رسالته كشف بربروسا عن طبيعة الحلف بطريرك القسطنطينية . وفي ختام رسالته كشف بربروسا عن طبيعة الحلف في يوم الدين (١٠٠).



الفصل العاشر بيزنطة والبابوية من ١١٥٦ إلى ١١٨٠

مند اللحظة التي حصل فيها تقارب شديد بين عمانويل كومنين والبابا هادريان الرابع (٤ ديسمبر ١١٥٤ / ١ سبتمبر ١١٥٩)، اتسمت العلاقات بين القسطنطينية و روما بشيء غير عادى من المودة . كان البازيليوس حتى ولكن عندما لجأ إليه البابا يطلب العون صراحة ، واح عمانويل يخطط لما ولكن عندما لجأ إليه البابا يطلب العون صراحة ، واح عمانويل يخطط لما هو أبعد في سياسته في الغرب اللاتيني . ولما وصل الصدام بين البابا وفردريك بر بروسا درجته القصوى تشجع الجالس على عرش قنسطنطين العظيم فأخذ يفكر جديا في استعادة التاج الذي سلبه الملوك الألمان مذ عهد شرامان من الإمبراطور الشرعي على ضفاف البسفور . ونجد صدى هذا الاتجاه فيا كتبه المؤرخ المعاصر كناموس إذ يقول إن السادة الذين حكموا إيطاليا من وقت القوط لا يمكن اعتبارهم أكثر من أمراء ، أما أولئك الذين وضعوا تاج الإمبراطورية على رؤوسهم فهم لا محالة غاصبون (١١) . كذلك يؤكد نفس المصدر أن الشرف الذي ازدانت به البابوية هو من صنع الإمبراطور على على عرش قنسطنطين العظيم . وعلى هذا فإن حق تعيين البابوات يبتى في يد الحالس على عرش قنسطنطين العظيم . وعلى هذا فإن حق تعيين البابوات يبتى في يد الحالس على عرش قنسطنطين العظيم .

Ibid. (Y)

Kinnamos, Epitome, in C.S.H.B., V, vii, p. 218.

البازيليوس كان دبلوماسياً فى مفاوضاته مع البابا هادريان الرابع ، إذ أنه لم يكشف عن نواياه الحقيقية فى بادئ الأمر وإنما اكتفى بإبداء استعداده لمؤازرة هادريان فى صراعه ضد النورمان وأيضاً ضد بربروسا . وكان عمانويل ماهراً عندما راح يؤكد حماسه فى نفس الوقت لتوحيد كنيستى روما وبيزنطة ؛ الأمر الذى كانت الكيوريا ترغب كل الرغبة فى تحقيقه منذ أيام هلدبراند .

وبطبيعة الحال تصور عمانويل كومنين أنه بمقدوره — كأوتوقراط — أن يجبر إكليروس أياصوفيا على موافقته في سياسة توحيد الكنيستين . ولكن الدلائل تشير إلى عكس ذلك تماماً . ففي عام ١١٥٥ كتب البابا هادريان الرابع إلى بازل رئيس أساقفة تسالونيكا يخطب حبه لكنيسة روما — رأس الكنائس — وبرغبه في مشروع الوحدة الكنسية . على أن البابا ذكر في رسالته أن الشقاق الذي وقع بين بيزنطة و روما يرجع إلى عناد وعجرفة البطارقة البيزنطبين الذبن شاءوا لكنيستهم أن تنسلخ عن الجسد الواحد. مثلها في ذلك مئه القطيع الضال » الذي انفصل عن أمير الرعاة بطرس الرسول (٣) .

جاء رد بازل على البابا مليئاً بالمرارة والسخرية ؛ محتجا على انزلاق لسان البابا وعلى الهامه كنيسة بيزنطة المسكونية بالزيخ والضلال فى تشبيه إياها « بالخراف الضالة » . ثم راح صاحب الرسالة يعدد أفضال بطريركية القسطنطينية على العالم المسيحى أجمع شرقيه وغربيه (٤) . لا شك فى أن البابا هادريان الرابع كان يدرك تماماً استحالة الوحدة بين الكنيستين عولكنه برغم ذلك رحب بمبادأة عمانويل كومنين ما دام هذا سيخدم حلفه مع الجيوش البيزنطية فى الانتقام من النورهان الذين سطوا على الممتلكات مع الجيوش البيزنطية فى الانتقام من النورهان الذين سطوا على الممتلكات البابوية فى الجنوب الإيطالى . وجاءت تحديات فردريك بربروسا المتتابعة للبابا لتوثيق العلاقة بين البلاطين البابوى والكومنيني . وبعد وفاة هادريان

Mansi, Vol, XXI, cols. 796 - 99. (Y)

Ibid., cols. 799 - 801. (\(\epsilon \))

الرابع ومجىء البابا إسكندر الثالث (٧ سبتمبر ١١٥٩/ ٣٠ أغسطس١١٨١) واصل عمانويل كومنين جهوده لتوثيق حلفه مع الكرادلة الرومان وسيدهم الحديد .

وكان من حسن حظ عمانويل أن بلغ الصدام بين بربروسا وإسكندر الثالث مرحلة حربجة من التوتر ، خاصة بعد أن عقد العاهل الألماني مجلسة في مدينة بافيا أعلن فيه شرعية البابا المعارض – فكتور الرابع – وذلك نكاية في البابا الشرعي إسكندر الثالث. ولذا نجد إسكندر الثالث يوفد سفارة من أنين. من أخلص كرادلته إلى القسطنطينية لمواصلة المفاوضات مع عمانويل كومنين من أجل. إرساء حلف متين بين الطرفين (٥).

وعندما قدم بربروسا على رأس حملة لتهديد المدن اللومباردية ولاستعادة نفوذه بقوة السيف فى تسكانيا ، سارع إسكندر التالث قى الاستنجاد بالملك الفرنسى لويس السابع ، طالباً منه مخاطبة عمانويل كومنين لتأييده ضد الملك الألماني (١) . وفى نفس الوقت كتب وليم من باڤيا ، المندوب البابوى الدائم فى فرنسا ، رسالة إلى عمانويل كومنين يطلب منه فيها الاعتراف بالبابا إسكندر الثالث بابا شرعيا . ونجد المندوب البابوى يخاطب العاهل البيزنطى على أنه " الأغسطس المعين من قبل الله لحكم الإمبراطورية ، العاهل البيزنطى على أنه " الأغسطس المعين من قبل الله لحكم الإمبراطورية ، خليفة العظماء الذين كانوا حماة الكنيسة ضد طغيان البرابرة والغزاة " . وهذه الفقرة من الرسالة ذات مغزى خطير ، إذ أنها تنطوى على إشارة ومريحة إلى الألمان على أنهم عنصر متبرير ، وأهم من هسدا إشارته إلى أباطرة بيزنطة على أنهم حماة الكرسى البابوى الرسولى فى روما (٧) .

استجاب عمانويل كومنين على الفور لتلك النداءات المتتالية ؛ فكتب. إلى الملك لويس السابع رسالة تفيض مودة واعتزازاً بتلك الصلة التي باتت. تربط بينهما بعد زواج الأولمن ماريا أميرةأنطاكية حفيدة عمة لويس السابع..

Liber Pontificalis, II, p. 403.

R.H.G., Vol. XVI, p. 82. (1)

Ibid., p. 55. (y)

روما و بيزنطة.

وأكد « الأوتوقراط الرومانى صاحب الرداء الأرجوانى » لملك فرنسا أنه ملق بكل تأييده فى صف البابا إسكندر الثالث ضد خصومه (^). وفى يوليو ١١٦٣ ظهر سفراء عمانويل كومنين فى سان جيل فى طريقهم إلى بلاط الملك الفرنسى لمواصلة المفاوضات معه ومع البابا إسكندر الثالث. وهنالك التي السفراء بالمندوب البابوى الدائم فى فرنسا ، فسلموه رسائل سيدهم الموجهة إلى البابا . وفى ٢٠ أغسطس ١١٦٣ كتب البابا اسكندر الثالث إلى ملك فرنسا يعلمه أن سفراء عمانويل كومنين لديهم رساله شفوية ذات أهمية قصوى موجهة إلى البابا والملك مجتمعين فى مدينة بورج . وأوضح البابا أنه لايمانع الاستجابة لطلب عمانويل ، راجيا منه استقبال السفراء البيزنطيين السقراء البيزنطيين

ولكن موقف لويس السابع كان مائعاً بعض الشيء : فنحن نعلم أنه قد حدث في تلك الفترة تقارب ما بينه وبين فردريك بربروسا ، ولذا فإن الاجتماع الذي كان قد اتفق على عقده في مدينة بورج بين البابا والملك الفرنسي لم يتم . ولا نكاد نعلم شيئاً بعد ذلك عما تم في المفاوضات بين لويس السابع وعمانويل كومنين اللهم إلا ذلك الجزء من الرسالة التي كتما البابا إسكندر الثالث إلى الملك الفرنسي في ٢٦ يناير ١١٦٥ والذي يتحدث فيه البابا عن بالغ السرور الذي أدخله كتاب لويس إلى عمانويل، مرفقاً بطيه بعض الرسائل التي بعث بها العاهل البيزنطي إلى لويس مع رئيس أساقفة بنفنتم (١١٠).

إن أسلوب المودة ومنهج التقارب مع القسطنطينية الذى يميز موقف البابا إسكندر الثالث في هذه الفترة بالذات يؤكد أن حلفا ما كان بسبيل الإرساء بين البابوية وفرنسا وبيزنطة ضد فردريك بربروسا . والواقع أن

Mansi, XXI, cols. 974 - 75. (A)

R.H.G., Vol. XV, p. 814. (4)

Ibid. (1.)

حماس إسكندر الثالث لهذا الحلف الغير طبيعى كان يرجع إلى الضربات الشديدة التى كالها بربروسا له فى عناد غريب . فبعد وفاة البابا المناهض لإسكندر الثالث – فكتور الرابع – عقد المستشار الألمانى رينالد من دازل مجلساً فى فينسا أعلن فيه انتخاب خلف لفكتور فى شخص باسكال الثالث .

وفى عام ١١٦٥ عقد الأساقفة الألمان ، بإيعاز من بربروسا ومستشاره ، مجمعاً فى فرزبورج أكدوا فيه من جديد شرعية باسكال الثالث ضد إسكندر الثالث . وليس بمستبعد أن يكون البابا إسكندر الثالث فى هذه اللحظات اليائسة من صراعه ضد بربروسا قد فكر جديا فى التاويح لحصمه الألمانى بمقدرته على نقل التاج من على رأس خليفة شرلمان إلى رأس خليفة قنسطنطين العظيم ، الذى لم يكف عن المطالبة بحقه المسلوب .

وصل جوردان ابن روبرت أمير كاپوا في تلك الموحلة مندوباً عن عمانويل كومنين لمقابلة البابا إسكندر الثالث ومواصلة التفاوض معه بشأن وحدة الكنيسة والتاج . وعرض سفير عمانويل على البابا مبالغ ضخمة من اللهب ، واعداً إياه إخضاع مدينة روما وساثر أجزاء إيطاليا لسلطانه بقرة الكتائب الإمبراطورية التابعة لبيزنطة . وبعد أن ناقش البابا عروض ألعاهل البيزنطي مع كرادلته ، قرر إيفاد اثنين من خلصائه لمواصلة المفاوضات مع القسطنطينية (١١) ، وفي حين أن المصادر اللاتينية لا تذكر شيئاً عن طبيعة مهمة هذين القاصدين الرسوليين ، نجد أن المؤرخ البيزنطي كناموس يروى أنهما أكدا لعمانويل قبول البابا إسكندر الثالث لشروطه على شريطة أن يأتي للإقامة الدائمة في مدينة روما . ويمضي كناموس في روايته فيقول إن العاهل البيزنطي رفض هذا الشرط ، ومن ثم وصات المفاوضات فيقول إن العاهل البيزنطي رفض هذا الشرط ، ومن ثم وصات المفاوضات بين الطرفين إلى مرحلة من الركود (١٢) . وتشير الدلائل الأخرى على أن الخادثات التي جرت بين سفراء البابا وعمانويل قد فشلت بالفعل : فنحن

Liber Pontificalis, II, p. 415.

⁽¹¹⁾

Kinnamos, op, cit., VI, iv, p. 262.

⁽¹¹⁾

نعلم أن جدلا لاهوتيبًا قد اندلع بين أحد السفراء من الكرادلة الرومان وبين عمانويل كومنين ذاته حول عبارة ال Filioque وأيضاً حول مزاعم روما في إمارة الكنيسة العالمية . ونعلم كذلك أن عمانويل قد هاجم الكنيسة الرومانية في هاتين النقطتين هجوماً شديداً ومريراً (١٣).

والواقع أن تحولا قد طرأ على موقف البابا إسكندر الثالث مذ أنشأت العصبة اللومباردية مدينة الساندريا — المشتقة من اسم البابا — وقد وقفت القوميونات اللومباردية وقفة تحد سافر ضد بربروسا وجيوشه القادمة من وراء الألب .

وشهد عام ١١٦٧ النكبات الفادحة التي حلت ببربروسا ورجاله في حملته الفاشلة على لمبارديا . وجاء مرض الطاعون لينزل الهلاك إلى جانب الهزيمة برجال الملك الألماني العنيد .

لم يعد إسكندر الثالث إذن فى حاجة ماسة إلى العون أو التأييد من عمانويل كومنىن بعد أن أذلت العصبة اللومباردية بربروسا فى ممرات جبال الألب ، وبعد أن أوشك ذات مرة على الوقوع فى أيدى اللومبارديين أسراً للحرب .

ولهذا عندما قدم مبعوثو عمانويل كومنين من جديد إلى روما لمواصلة سعيم لتحقيق أطماع سيدهم قوبلوا بفتور. فلقد قال لهم إسكندرالثالث أنه بعد مشاورته للآباء الكرادلة في عروض القسطنطينية تبين له استحالة تحقيق مطالب العاهل البيزنطي ، ولكنه شكر له حسن نواياه تجاه البابوية وقت الشدة (١٤٠). ولكي يخفف البابا من وقع الصدمة على نفس عمانويل أرسل إليه قاصدين رسوليين من قبله يحملان عبارات المودة والمجاملة دون تعرض من قريب أو بعيد لأحلام العاهل البيزنطي . والواقع أن العلاقات بين إسكندر الثالث وعمانويل ظلت طيبة : فني عام ١١٧٠ حضر البابا

Hugh Eterianus, De Hacresibus Graecorum, in P.L., Vol. CCII, cols. 231 seq.

Liber Pontificalis, II, pp. 419 - 420. (15)

حفل زفاف ابنة شقيق عمانويل إلى الأمير أوبو من فرانجيباني في مدينة فيرولي (١٠). كما بارك البابا زواج الكسيوس الثاني ، ابن عمانويل ، من اجنس ابنة الملك لويس السابع في عام ١١٧١ (١٦٠) . وفي [رعام ١١٧٥ بعد أن أعاد عمانويلكومنين بناء مدينة دوريلا يوم كتب إلى البابا يعلمه إ ببعض انتصار حققه على الأتراك ويطلب منه إرسال نجدات من الغرب إليه لعونه على مقاتلة الترك . ونجد البابا يستجيب لنداء الإمراطور البيزنطي فيبعث إلى مندوبه الدائم في فرنسا ليحث الرجال على تلبية رجاء عمانويل كومنين (١٧) . وفي أكتوبر ١١٧٦ أثناء المحادثات التمهيدية لإقرار الصلح من فردريك بربروسا والبابا إسكندر الثالث ، في مدينة آناجني ، نجد البابا يصر على إدراج اسم عمانويل كومنين بين أصدقائه وحلفائه (١٨). ولكن اسم عمانويل أهمل تمامآ في الصيغة النهائية لمعاهدة البندقية (١١٧٧) التي أقرتُ السلام بين الإمراطور الألماني من جانب والبابا إسكندر الثالث وحليفه ملك صقلية من جانب آخر. وبينا كان البابا والإمراطور الغربي يتاقيان الهنئة على هذه المعاهدة كانت القسطنطينية تندب حظها بعد أن فتك الترك بخيرة ضباطها في واقعة مىريوكيفالون (١١٧٦). وليس بمستبعد أن تكون أنباء فاجعة ميريوكيفالون قد دعت البابا إسكندر التالث إلى أن بهمل هذا الجواد البيزنطي الخاسر ويسارع في إقرار السلم مع غريمه بربروسا. ولعل خير ما يوضح تلك المرارة التي مني بها عمانويل كومنين بعد فشل سياسته الردية تجاه الغرب اللاتيني تلك المناقشة الحادة التي حدثت بينه وبين البطريرك ميخائيل الثالث أنشيالوس في عام ١١٧٦ في المجلس الذي كان يناقش موضوع الوحدة بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية .

فقد كان من رأى عمانويل أن الحلافات الطقوسية والعقائدية بين

Annales Caccanenses, in M.G.H.SS., Vol. XIX, p. 286.

(10)

Jaffé, nos.: 11883, 11894.

(17)

R.H.G., XV, p. 952.

(17)

Liber Pontificalis, Vol. II, p. 434; Jaffé, nos. 12737, 12743.

(1A)

الكنيستين ليست بالعمق الذى درج بطارقة القسطنطينية على إبرازه . وهنا تصدى له انشيالوس معلناً إدانة اللاتين بالهرطقة بسبب ال Filioque الدخيلة على قانون الإيمان النيقي ، كما فند مزاعم البابوية في الإمارة على الكنيسة العالمية موضحاً أن أولوية روما قد انتهت مذ نقلت العاصمة مها إلى روما الجديدة على ضفاف البسفور . وعند هذا الحد صفق المؤتمر ون تحية لإنشيالوس « رجل الأرثوذكسية الملتهب إيماناً » موجهين الشكر الله على تثبيت هذا العمد الصالح ليعلى بناء كنيسته المسكونية .

وفى نهاية الأمر اتفق الحاضرون على صيغة مرسوم يدعو إلى فصم العلاقات جميعاً مع اللاتين ، تاركين أمرهم إلى قضاء الله دون حتى إلحاق اللعنة بهم بسبب زيغهم فى العقيدة . ودعا المرسوم بطارقة المشرق إلى عدم مجادلة كنيسة الفرنجة فى أمور سبق إدانتهم بسبها مراراً وتكراراً ، وذلك تمشياً مع قول الكتاب : « فر من الهراطقة بعد تحدير وتحدير ، فإن إثمهم وحده كفيل بإدانتهم »(١٩)

والواقع أن ما أكده ميخائيل انشيالوس قى هذا المجاس يمثل الرأى الذى كان سائداً فى القرن الثانى عشر لدى اللاهرتيين والمشتغلين بالقانون الكنسى من أمثال آرستينوس وزوناراس وبلسامون . فهم جميعاً يلقون بثقل أقلامهم على القانون الثامن والعشرين لمجمع خلقدونية على أنه نقل إمارة الكنيسة من روما إلى القسطنطينية . ونجد زوناراس يقول بأن إمارة البابا قد انتهت مذ راحت البابوية تردد قانوناً للإيمان منحرفاً عن القانون الأرثوذكسى المتفق عليه بين الآباء الباكرين للكنيسة (٢٠) .

See. V. Grumel, Les Registres des Actes de Patriarcat de Constantinople, (19) II, 2, p. 151.

Sec Aristenus, in P.G., Vol. GXXXVII, col. 325; Zonaras, ibid., cols. (7.) 485 - 92; Balsamon, ibid., cols. 1433 - 44.

الفصل الحادى عشر

بيزنطة والصليبية الثالثة

توفى عمانويل كومنين في عام ١١٨٠ وخلفه على العرش ابنه الكسيوس الثانى الذى كان فى الثانية عشرة من عمره ؛ وذلك تحت وصاية أمه ماريا الأميرة الأنطاكية . وبذا صار هناك إمبراطورتان لاتينيتان في البــــلاط البيزنطي : ماريا الإمبراطورة الأم وأجنس زوج الإمبراطور الطفل. ولقد استعانت ماريا في توجيه الحكم بأحد أبناء أشقاء عمانويل الراحل وهو الير وتوسباستوس الكسيوس كومنين الذي كان هو أيضاً محبًّا للعنصر اللاتيبي . وقد كان مرقف ماريا هذا مدعاة إلى ظهور الأحقاد والضغائن في نفوس أفراد آل كومنين ذاتهم لتفضيلها واحداً بعينه على سائر أفراد البيت . وكان الشعب كارهاً لهذه « الأجنبية » وصديقها « المخنث » اللذين أحاطا الحكومة بعدد هائل من المرتزقة اللاتين ، بينا كانت جماهير الشعب تأن. من وطأة الفقر الذي عم بسبب مشروعات عمانويل الباهظة الفاشلة في غرب أوربا . ونظر أهل العاصمة من حولهم ليروا جاليات البنادقة والبيزيين والجنويين تعيش في رفاهية زائدة فزاد حنقهم على ماريا والكسيوس. وهكذا بات أمر هذه الحكومة ومصيرها مقضيًّا عليه لا محالة . وهنا برز من جديد على مسرح السياسة البيزنطية أندرونيكوس كومنين ، حاكم كيليكيا الأسبق ، الذي كان وقتئذ دوقاً على بنطس . وجاءت أحداث البلاط لتمهد الطريق لهذا الطامع المترقب لفرصته في تحقيق أطماعه في العرش. فقد نشب خلاف شدید بین ماریا وماری ابنة عمانویل وزوج رینیه دی مونت فرات . ودبرت ماری وزوجها مؤامرة لقلب نظام الحکم ولكن المؤامرة اكتشفت قبل إنفاذها . ولذا فقد هرب المتآمرون إلى آيا صوفيا طلباً في حماية الكنيسة. وسرعان ما تحولت الكنيسة إلى قلعة حصينة

عاطة بالآلاف من الرجال المسلحين الذين هبوا لمناصرة مارى ضد «المرأة الأجنبية». ومن داخل الكنيسة أرسلت مارى بإنذار شديد اللهجة إلى ماريا تطلب منها فيه اعتزال الوصاية على الحكم هي «وعشيقها الخنث» الكسيوس ولقد وقف رجال الدين والبطريرك علانية في صف المتآمرين ضد الحكومة ولكن الحكومة بعثت بجندها الذين هجموا على آيا صوفيا ودار القتال عنيفا بين الطرفين في قلب البازيليكا ، مما اضطر البطريرك ذاته إلى التدخل لوقف القتال داخل بيت العبادة . وحينا راجت الإشاعات عن قرار الكسيوس بعزل البطريرك اجتاحت المظاهرات شوارع العاصمة عن قرار الكسيوس بعزل البطريرك اجتاحت المظاهرات شوارع العاصمة بيت الله» .

وهنا نشط أندرونيكوس كومنينوس فى بنطس وأرسل يبشر بنى جلدته بأنه قادم إليهم ليخلصهم من نير اللاتين . أرسلت الحكومة حملة بقيادة أندرونيكوس أبيلوس لمجاربة أندرونيكوس كومنين ولكن الحملة باءت بالفشل وانضم قائدها أنجيلوس إلى أندرونيكوس كومنين . وضرب أندرونيكوس معسكره فى خلقدونية ، ومن هناك وجه إنداره الشهير إلى الحكومة مطالباً بعزل الكسيوس وإبعاد ماريا إلى أحد الأديرة . واستغل أندرونيكوس شعور الكراهية الدفين فى قلوب الأهلين تجاه اللاتين الذين كانوا يكونون سدس سكان العاصمة ، فأرسل من يروج إشاعات بأن المرتزقة اللاتين قد دبروا مذبحة للفتك بالأبرياء العزل من المواطنين . وهنا زحف غوغاء القسطنطينية على أحياء الجاليات اللاتينية فى العاصمة وذبحوا النساء والأطفال والشيوخ على أحياء الجاليات اللاتينية فى العاصمة وذبحوا النساء والأطفال والشيوخ كما أشعلوا النيران فى كل ما وقعت عليه أيديهم . ولم ينج من تلك المأساة الرهيبة سوى عدد قليل من اللاتين فروا يولولون قبالة الغرب الللاتيني (١) .

دخل أندرونيكوس العاصمة دخول « المخلص » المنتظر ، وقوبل بحماس منقطع النظير من سكان العاصمة على مختلف طبقاتها . وبدأ برنامجه

G. Dichl, Figures Byzantins, pp. 91 - 92.

«الإصلاحي» بالتخلص من كل منافسيه في العاصمة: وكانت مارى عمانويل وزوجها رينيه أول من اختفيا كلية من على المسرح. كما وجهت تهمة الحيانة العظمى إلى الإمبراطورة الأم وحكم عليها بالإعدام، الذي وقع عليه ولدها الكسيوس الثاني تحت إلحاح أندرونيكوس. بعد هذا تجمهر أشياع أندرونيكوس ووضعوا التاج على رأسه، شريكاً في الحكم للإمبراطور الطفل. وسرعان ما أغتيل الطفل خنقاً بيد عصابة هذا المغتصب للعرش (نوفبر ١١٨٣). ولكى يضفي على نفسه صفة الشرعية في الحكم تزوج أندرونيكوس الذي كان وقتها في الحامسة والستين من العمر من الإمبراطورة الطفلة أجنس التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها، بعد فترة وجيزة من العمل . وجها الطفل.

إن السياسة التي استنها أندرونيكوس لحكم الإمبراطورية عن مثلها مثل مخصيته ، لمدعاة للدهشة بسبب تلك التناقضات الصارخة التي ميزته عن دونه من سائر الأباطرة البيزنطيين . لقد حاول هذا الرجل «الغريب الأطوار» أن يحيي الإمبراطورية وهي إذ رميم : فقد أقدم في عزم من حديد على استئصال الشرور التي استشرت في المجتمع البيزنطي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، والتي كان أبرزها تسلط الطبقة الأرستقراطية من كبار ملاك الأرض على الفلاحين . واستخدم أندرونيكوس السبيل الأوحد الذي كان يعرفه جيدا في حربه الضارية ضد هذه الطبقة «المسعورة» ، ولذا كان يعرفه جيدا في حربه الضارية ضد هذه الطبقة «المسعورة» ، ولذا من حانب الحكومة ، والمؤامرات تلو المؤامرات من جانب هذه الطبقة المؤسرة الفاحشة (۱).

فى ذلك الوقت الذى انصرف فيه أندرونيكوس لإشعال النار فى العفن الذى كان يعمل فى قلب المجتمع البيزنطى ، جاءت سحب الغزو والتهديد تنذر من الغرب. فقد ثار الملك بيلا الثالث المجرى والحان الصرى ستيفن

نيانجا ضد القسطنطينية: فنى عام ١١٨١ استولى بيلا على دلماشيا وبعض من كرواتيا وعلى مقاطعة سرميوم ، فقضى بهذا على الجهود التى كان عمانويل كومنين قد بذلها فى المجر بعد أن أنهك خزانة الدولة. وفي عام ١١٨٣ عقد الهنفار والصرب حلفاً ثنائيا ضد بيزنطة وسقطت فى أيديهم بلغراد وبرانشيقو ونيس وصوفيا (٣).

وفى آسيا تمردت طبقة كبار الملاك ضد أندرونيكوس بقيادة فرع من آل كومنين مما أقلق مضاجع الحاكم . هذا فى حين أن إسحق كومنين ، حاكم جزيرة قبرص ، سرعان ما أعلن استقلال الجزيرة عن الإمبراطورية ولقب نفسه إمبراطوراً كما سك عملة خاصة بإمبراطوريته الصغيرة . ولم يستطع أندرونيكوس مقاومة هذه الحركة الانفصالية الحطيرة ، وكل ما استطاع فعله هو أن قبض على أقرباء إسحق كومنين وأصدقائه القائمين في القسطنطينية وقتلهم أشنع قتل .

أما هذا النفر القليل من االلاتين الذين هربوا من مذبحة ١١٨٧ فقد وصلوا إلى غرب أوربا ليقصوا الأهوال التى لقيها إخوانهم من الضحايا على يد السلطات البيزنطية ؛ مطالبين بالثأر . وكان هذا حافزاً جديداً لاشتداد موجة الكراهية ضد كل ما هو بيزنطى . وليس من قبيل الصدفة أن أعلن بربروسا وقها عزمه على تقليم أظافر الجالس على عرش البسفور = خاصة بعد أن زوج ولده ووريثه هنرى السادس من الأميرة كونستانس وريثة تاج صقلية في عام ١١٨٤ . وبهذا أصبحت القوتان الغربيتان اللتان كانتا أشد القوى عداوة لبيزنطة في يد ألمانية واحدة ، وبات في مقدورها اتخاذ صقلية ونابلي قاعدة للتحرك بغية القضاء على كيان الرجل المريض على ضفاف البسفور . وهذا ما نجده في إحدى الحوليات المعاصرة التي ضفاف البسفور . وهذا ما نجده في إحدى الحوليات المعاصرة التي خطب لولده أميرة صقلية ي أي

Ibid., p. 354. (r)

Annales Colonienses Maxim' in M.G.H.SS., Vol. XVIII, p. 791. ()

وجاء وليم الثانى ملك صقلية على رأس حملة للانتقام من المذبحة التى أحلها أندرونيكوس بالجاليات اللاتينيه فى عام ١١٨٢. وكان فى معيته أحد الأمراء البيزنطيين يطالب بأحقيته فى العرش ؛ ولكن الغرض الحقيقى من وراء تلك الحملة كان خلع أندرونيكوس ثم ضم التاج البيزنطى إلى التاج النورماندى (٥).

أمام كل هذه التحديات في الداخل ومن الحارج اضطر أندرونيكوس إلى البحث عن حلفاء له في كل من الشرق والغرب. فعقد معاهدة مع البندقية في بداية عام ١١٨٥ ، أطلق بمؤداها سراح الأسرى من البنادقة كما وعد بدفع تعويضات لمن أصيبوا بأضرار على أثر أحداث ١١٧١ و ۱۱۸۲ (۱۱). كذلك راح أندرونيكوس يتودد إلى الباباوية مبدياً رغبته في الاستجابة لكافة مطالب البابا بشأن الكنائس اللاتينية في الإمبراطورية البيزنطيه. وهناك رسالة هامة من البابا لوسيوس الثالث (١١٨١ – ١١٨٥) موجهة إلى ليو كبير التراجمة اللاتين في البلاط البيزنطي تلقي بعض الضوء على هذا الأمر الهام . فمع أن الجزء الأكبر من هذه الرسالة يتضمن تعزية لليو في وفاة شقيقه الكردينال هيومن سان أنجيلوس ، إلا أن هنالك فيها ما يفيد بأن البابا قد أرسل قاصداً رسولينًا إلى القسطنطينية للتفاوض مع أندرونيكوس كومنين في مسائل كنسية (٧) . كذلك يحدثنا أحد الكتاب المعاصرين أن اندرونيكوس كومنين قام برغم المعارضة الشديدة التي أبداها بطريرك القسطنطينية ببناء كنيسة على حسابه في العاصمة البيزنطية ومنحها للاتين ليمارسوا فيها طقوسهم في حرية تامة دون تدخل من جانب الساطات الكنسة البيزنطية (٨).

See A. Vasiliev, A History of the Byzantine Empire (trans. B. Blackwell), (o) Oxford, 1952, p. 453.

Dandolo, Chronicon, p. 309. (7)

P. Jaffé, I, p. 444 (14712).

Benedict of Peterborough, op. cit., I, p. 257.

وبرغم هذه الجهود اليائسة بات الحطر محيطاً ببيزنطة من كل صوب وحدب . وجاءت الضربة القاضية على يد وليم الثانى ملك صقلية الذى استولى على دورازو ، ثم زحف على رأس رجاله عبر طريق أجناشيا قبالة تسالونيكا . وفي أغسطس ١١٨٥ سقطت تسالونيكا ، العاصمة الثانية للإمبراطورية ، في يد النوررمان الذين ابتلوا المدينة بدمار بشع وبمذابح قاسية انتقاماً لأحداث ١١٨٧ (٩) . وبعدها زحف النورمان صوب العاصمة ذاتها ، وبات مصير بيزنطة في خطر داهم .

لحأ أندرونيكوس كومنين في تلك المرحلة اليائسة من فترة حكمه إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي وعقد معه حلفاً ضد اللاتين في الشام وضد سلطان قونية . غير أن تلك الأحلاف التي عقدها أندرونيكوس لم تنجه من مصيره المحتوم . وبينا كانت جحافل النورمان تزحف صوب العاصمة البيزنطية ، كان أندرونيكوس يطارح خليلاته الغرام ، ويمضي أمسياته حتى مطلع الفجر يستمع إلى أنغام إحدى العازفات على الناي والتي كانت عبية إلى قلبه (١٠). وكان هذا كفيلا بأن يثير السخط كله من جانب أهل العاصمة على مختلف طبقاتها ضده . فقامت المظاهرات الشعبية تهتف بسقوط الطاغية « المخمور » . وقبض رجال الإمبراطور على المحرضين على الثورة ونكلوا بهم تنكيلا شديداً .

وفى عام ١١٨٥ توجه وزير البوليس (الهاجيوخرستوفوريتوس) للقبض على أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية فى العاصمة واسمه إسحق أنجيلوس، ولكن الأخير ضرب الوزير بسيفه فأرداه ثم مرق بجواده إلى آيا صوفيا حيث طلب الحماية من الكنيسة . ولما انتشرت أنباء هذا الحادث تقاطر الناس حول البازيليكا ووقفوا بسيوفهم مشهورة لحماية البطل اللاجئ . وفى الصباح التالى اختارت جماهير العاصمة هذا الهارب ليكون إمبراطوراً

Nicetas Choniates, Historia, pp. 391 - 92.

C. Diehl, op. cit., p. 125.

⁽¹⁾

عليهم . وتم بعدها القبض على اندرونيكوس كومنين الذى قيد بالأغلال وأقتيد إلى مقام أسحق انجيلوس الذى سلمه إلى سوقة العاصمه ليفعلو به ما يشتهون . وأقتيد الإمبراطور المخلوع على ظهر بعير حقير فى طرقات العاصمة وشوارعها فى موكب مهين ، محفوفا باللطم وأقذع الأهانات ، حتى وصلت الفريسة إلى الهيدروم . وهناك تسابق الجمع بيزنطيين ولاتين فى تعذيب اندرونيكوس بضربات سيوفهم حتى مزقوه إربا .

وعلى هذه الشاكلة أنتهت حياة آخر الآباطرة من آل كومنين ، وبدأت فترة حكم أسرة انجيلى فى عام ١١٨٥. ولم يكن الإمبراطور الجديد اسحق انجيلوس (١١٨٥ ـ ١١٩٥) يملك القدرة الحقيقية على حمل تاج الإمبراطورية . وهو بثورته فى عام ١١٨٥ قد مكن للطبقة الارستقراطية من مواصلة نفوذها والسيطرة على مقدرات الفلاحين من جديد ، بعد أن قضى على عدوها الأول اندرونيكوس كومنين . كذلك كانت سياسة اسحق الحارجية تجاه مملكة البلغار الثانية وتجاه الترك غير محددة المعالم (١١١) .

ولعل أهم حدث وقع فى فترة حكم اسحق انجيلوس هو قيام الحملة الصليبية الثالثة . وهذا يدعونا إلى ذكر بعض الوقائع الأساسية التى سبقت التبشير بهذه الحملة : ففى فبراير ١١٨٣ أبحر الأمير رينولد دى شاتيلليون صاحب الكرك الصليبي على رأس جيشه صوب الحجاز بغية تدمير مكة والمدينة ، ولكنه هزم هزيمة نكراء على يدحسام الدين لؤلؤ وزير صلاح الدين الأيوبى . وفى بداية يوليو ١١٨٧ هجم صلاح الدين ورجاله على الصليبين ومناهم بهزيمة فادحة عند حطين ، بعد أن أسر جاى ملك بيت المقدس وهمفرى من تورون زعيم الداوية ثم رينولد (أرناط فى المصادر العربية) ذاته . ولقد عامل السلطان البطل أسراه باحترام زائد ولكنه قتل بيده رينولد بسبب خرقه للمواثيق والعهود التى كان قد أبرمها من قبل مع صلاح الدين وأمراءه ،

Sce F. Cognasso, Un Impetatore Bizantino della Decadenza, Isacco Angelo, ()) Rome, 1915, p. 44.

وبسبب إغاراته على الحجاز والأماكن المقدسة فيه . وفى ٢ أكتوبر ١١٨٧ دخل السلطان بيت المقدس، وكان فتحه لها فتحاً إنسانياً من الطراز الأول: فقد أبدى من العطف والتسامح مع الصليبيين ما أكسبه إعجاب كافة المؤرخين في الشرق والغرب على السواء . وكان هذا الموقف المتسامح الكريم مخالفاً تماماً للصورة الرهيبة التي دخل بها الفرنجة بيت المقدس في عام ١٠٩٩ .

بعد الهزيمة المنكرة التي حلت بالصليبيين في واقعة حطين سافر وليم الصورى إلى غرب أوربا لينقل الأنباء وليطلب النجدة من أمراء الغرب. هذا وتعزو الحوليات الغربية سقوط أورشليم إلى الفساد والأثام التي كانت قد استشرت بين اللاتين في الأرض المقدسة ، وعلى رأسهم بطريرك أورشليم هرقليوس، وبوهمند الثالث أمير انطاكية (١٢) .

والمعروف أن الفرنجة في سوريا وفلسطين كانوا قد بعثوا الى السلطات الغربية يطلبون النجدة من قبل عندما ضيق صلاح الدين عليهم الخناق. فني أثناء انعقاد المجلس اللاتيراني الثالث سنة ١١٧٩ وفي مجلس فيرونا عام ١١٨٤ وصل أساقفة ومبعوثون من الإمارات اللاتينية في الشرق يحثون المؤتمرين على المسارعة في انقاذ ما تبقى من نفوذ صلبي في الشام. وقد حمل البابا اسكثدر الثالث وخلفه لوسيوس الثالث هؤلاء المبعوثين رسائل إلى أمراء وملوك غرب أوربا ، وعلى رأسهم فيليب أغسطس ملك فرنسا وهنرى الثاني ملك إنجلترا المساعدة هؤلاء السفراء في التبشير بحملة صليبية جديده. ومع أن الملكين الفرنسي والإنجليزي فوضا هؤلاء حق التبشير بحملة صليبية في بلديهما ، إلا أن الرأى العام لم يبد اهتاماً يذكر لهذه النداءات. ولكن أنباء سقوظ أوربا. وارشليم كانت حافزاً كبيراً لإشعال حماس صليبي جديد في غرب أوربا.

Caesarius of Heisterbach, Dialogus Miraculorum (ed. Strange), 2 vols., (17)
Cologne, 1851, Vol. I, p. 187; William of Tyre, XXXI, vii; Ricardi
Londiniensis Itinerario Peregrinorum, in M.G.H.SS., Vol. XXVII,
p. 195.

يحمهم فيه على التطوع في صليبية جديدة لإنقاذ إخوانهم في الشام (١٣) . وجاء خلفه كلمنت الثالث ليواصل الجهد لتحقيق المشروع: فأمر بإقامة صلوات خاصة في سائر الكنائس من أجل استعادة أورشليم ، كما أوفد سفراءه إلى أمراء غرب أو ربا ليحثوهم على حمل الصليب . وأشهر من تولى مهمة التبشير بالحملة الثالثة وليم الصوري والكاردينال هنري من البانو ، وذلك بتفويض من البابا كلمنت الثالث. ولقد قوبلت دعوى الأسقف ولم الصورى بحماس زائد شبيه بذلك الحماس الذي غمر غرب أوربا أيام التبشير بالصليبية الأولى ، حتى أن وليم الثانى ملك صقلية الذي كان حتى ذلك الوقت يعوق أية اتصالات بالأرض المقدسة من خلال مملكنه بادر بإرسال خمسين قطعة بحرية حربية تحمل خمسائة من فرسانه كانوا السبب الرئيسي في انقاذ انطاكية من السقوط (۱۱). ولما توفى وليم الثانى (في ۱۸ نوفمبر ۱۱۸۹) تعهد صهره الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد ، كونت بواتى ، بقيادة حملة صليبية إلى الشرق. وسرعان ما حذا حذوة فليب اغسطس ملك فرنسا . وقد فرض هذان الملكان ضريبة خاصة على شعبيهما تعرف « بعشور صلاح الدين » (١٥) . كذلك قوبل القاصد للبابوي في أَلمَانيا بِحِفَاوة بالغة على يد فردريك بربروسا، الذي عقد مجلساً في مدينه مينز أعلن فيه إعتزامه الرحيل على رأس حملة إلى الشرق (۲۳ ابریل ۱۱۸۹) .

أرسل بربروسيا رسائل إلى ملك المجر وإمبراطور القسطنطينية وسلطان قونية يعلمهم فيها بحملته ويطلب منهم تقديم التسهيلات اللازمة له أثناء عبوره إلى آسيا الصغرى. كذلك بعث بالكونت هنرى من ديز إلى السلطان صلاح الدين يطلب منه إعادة أورشليم وصليب الصلبوت • وإلا فليستعد للحرب (١٦٠). ولقل بربروسا في السبعين من عمره عندما حمل شارة الصليب. ولقل

Mansi, Vol. XXII, cols. 507 - 31. (17)

Ricardi Londiniensis, loc. cit. (15)

Baronius, Annales Ecclesiastici, ad. an. 1188.

Otto of Saint Blaize, Chronica. in M.G.H.SS., Vol. XX, p. 319.

استقبله ملك المجر استقبالا طيباً وقدم له هدايا نفيسة . ومن المجر بعث بربروسا أسقف منستر والكونت روبرت وماركوارد للتفاوض مع اسحق انجيلوس إمبراطور بيزنطة ولكن الأخير احتجز السفراء الألمان في عاصمته كرهائن وسرعان ما بدأت الاشتباكات بين الحملة الألمانية والكتائب البيزنطية التي كانت تراقب تحركاتهم عبر الأراضي البيزنطية . وفي إحدى المناسبات قبض فرسان بربروسا على ثلاثين من جند بيزنطة ونصبوا لهم المشانق وأعدموهم على مشهد من الأهلين (١٧) . ودار القتال عنيفاً بين الطرفين في أثناء اختراق الألمان لأراضي بلغاريا المليئة بالغابات .

كتب بربروسا فى تلك المرحلة إلى السلطان قلج أرسلان يطاب منه مهاجمة حدود بيزنطة فى آسيا الصغرى . ولذا فقد قرر الإمبراطور البيزنطى . إسحق أنجيلوس . عقد حلف مع السلطان صلاح الدين الأيوبى . ويحدثنا بهاء الدين ابن شداد عن حرص العاهل البيزنطى على الحفاظ على علاقات المودة والصدافة بينه وبين صلاح الدين ، وعن جهوده فى إنهاك قوى الحملة الألمانية قبل وصولها إلى أراضى العاهل الأيوبى (١٨) . أما المصادر اللاتينية فتصور العلاقات الودية بين إسحق أنجيلوس وصلاح الدين على أنها دليل جديد على خيانة البيزنطيين وغدرهم . كما وأنهم يؤكدون أن الإمبراطور البيزنطى تلقى أنباء البيزنطيين وغدرهم . كما وأنهم يؤكدون أن الإمبراطور البيزنطى تلقى أنباء المقوط أورشليم فى يد صلاح الدين بسرور بالغ ، وأسرع يرسل له التهنئة والهدايا . وقد حدث أن وقع شقيق إسحق ، الكسيوس أنجيلوس ، فى يد أمير ولكن السلطان أجبرهما على إطلاق سراحه . كذلك توضح هذه المصادر أن السلطان صلاح الدين بعث بمؤذن ليشرف على المسجد القائم فى العاصمة السلطان صلاح الدين بعث بمؤذن ليشرف على المسجد القائم فى العاصمة البيزنطية تلبية لرغبة إسحق أنجيلوس (١٩) .

Ansbert, Historia de Expeditione Friderici Impexatoris, in A. Chroust, (1V)
Quellen., Berlin, 1928, pp. 40 - 43.

Beha ed-Din ibn shaddad, Anecdotes, in R.H.C.Or., III, pp. 172 - 75. (1A)

Chronicon Magni Presbiteri, in M.G.H.SS., Vol. XVIII, p. 511.

ولذا نقد عامل بربروسا ورجاله أهالى الإمبراطورية البيزنطية على أنهم أعداء للصليبيين ، فانقضوا على مدينة فيليبوبولس وبهبوها (٢٤ أغسطس المهرا) من كل نفيس فيها إلى حد جعل أحد المصادر يقول بأن «رجال بربروسا جميعاً قد حصلوا على كميات من الذهب والفضة » وفيرة (٢٠٠). وفي فيليبوبولس تلقى بربروسا رسائل من القسطنطينية «مكتوبة بلغة متعالية وفيها تلويح بالتهديد إلى جانب نبرات النفاق والمخادعة » ، على حد تعبير انسبرت (٢١٠). وفي هذه المرحلة وصلت الأنباء إلى المعسكر الألماني تفيد بأن سفراء بربروسا قد احتجزوا أسرى في يد إسحق أنجيلوس. وكان هذا كافياً لأن يقدم الإمبراطور الألماني وجيشه على تدمير القلاع والقرى والمدائن التي كانوا يعبر ونها انتقاماً من موقف انجيلوس . وأمام هذا اضطر إسحق أنجيلوس يعبر ونها انتقاماً من موقف انجيلوس . وأمام هذا اضطر إسحق أنجيلوس إلى أن يطلق سراح هؤلاء السفراء الذين وصلوا إلى المعسكر الألماني يؤكدون أن الإمبراطور البيزنطي قد سرق أموالهم وأذلهم ذلة بالغة . ونجد تفصيلا لهذا في الرسالة التي بعث بها بربروسا إلى ابنه هنرى السادس من مدينة فيليبو بولس :

« هذا ولعلكم تدركون أن عبورنا من سان جورج أمر صعب بسبب موقف إمبراطور القسطنطينية ، ولذا فإنى أطلب من جلالتكم المبادرة للتفاوض مع جنوة والبندقية وأنكونا وبيزة لإرسال أساطيلهم لمقابلتنا عند القسطنطينية لكى نشن عليها حصاراً من البر والبحر ويحسن بفخامتكم أيضاً الكتابة إلى سيدنا البابا ليبعث بمندوبيه إلى بلدان غرب أوربا لاستنفار المقاتلين ضد أعداء الصايب وضد اليونانيين ؛ ذلك لأن سفراءنا (. . . .) قد سمعو باذانهم بطريرك آياصوفيا يعلن جلمهور المصلين أن البيرنطى الذي يقتل مائة صليبي تغفر له كل آثامه حتى ولو كان قد سفك دماء عشرة من بني جلدته» (٢٢).

Cronica Ymaginis Mundi, p. 82. (Y·)

Ansbert, pp. 42 - 43. (YI)

Ibid. (YY)

روما وبيزنطة

وهكذا فإن بربروسا قد عقد العزم هو وفرسانه على تدمير بيزنطة وقتل أهليها . وقد أنفذ الألمان مخططهم هذا في مدينة برانتس (٢ يوليو ١١٨٩) ثم في صوفيا (١٣ أغسطس١١٨) . وأصبح الأدواق الألمان يتنافسون في قتل البيزنطيين والتنكيل بهم : فنجد الدوق برتولد يربط أربعة وعشرين رجلا في ذيول خيوله حتى وصوله إلى المعسكر ثم يقوم بشنقهم على مشنقة واحدة وهم معلقون؛ أرجلهم إلى أعلى ورؤوسهم إلى أسفل . هذا بينا كان فردريك من برج يثبت ضحاياه في سيقان الأشجار بالحطاطيف . وكان بربروسا يبرر هذه الوحشية بما أسماه « جريمة البيزنطيين في عقد حلف مع صلاح الدين عدو الصليب » (٢٢) . وزاد من إصرار بربروسا على تقليم أظافو أنجيلوس تلك الروايات التي استمع إليها من سفرائه وكيف « احتجزوا في الأسر وبهبت أموالهم وأخضعوا للمهانة والسخرية بأن اغتصبت منهم خيولهم وقدمت هدية لسفراء صلاح الدين في العاصمة البيزنطية (٢٤)» .

وجاءت رسالة أخرى من إسحق أنجيلوس لتزيد النار ضراماً: فقد خوطب بربروسا فيها على أنه «ملك الألمان» لا إمبراطور الرومان . ولذا فقد نهر بربروسا سفراء أنجيلوس وسخر من سيدهم الذى يلقب نفسه بإمبراطور الرومان دون استحقاق . كما أفهمهم أنه سيعبر أراضى بيزنطة دون مشاورة مع السلطات البيزنطية وإنما بحد السيف (٢٠) . وبالفعل قام فردريك دوق سوابيا في الرابع والعشرين من نوفير ١١٨٩ باحتلال ديموتيقا وقتل أكثر من ١٥٠٠ من أهليها (٢٦) .

وفى نفس الوقت عقد بربروسا حلفاً مع الجالية الأرمينية فى مدينة في مدينة في للببوبولس بعد أن قام زعماؤهم بأداء يمين الولاء والطاعة له . ويرى المؤرخ البيزنظى نيكيتاس كونياتس فى هذا التقارب بين الألمان والأرمن نتيجة لتشابه

Ibid., p. 44. (YT)

Ibid., pp. 44 - 45. (Y \xi)

Ibid., p. 50. (Yo)

Ibid., p. 54. (۲٦)

الجانبين في العقيدة والطقوس الدينية : فكلاهما لا يبدى احتراماً كافياً للأيقرنات ، كما وأنهما يستخدمان خبزاً غير مختمر في الأفخارستيا (٢٧).

استمر القتال بين صليبية بربروسا والبيزنطيين : فقد هجم أسقف فرزبورج وكونتا سالم وسبنهايم على أراضي الولاشيين واستولوا على ثلاث مدن، بعد أن قتلرا قرابة خمسين ألفاً من أهليها . كذلك زحف كونت ابنبرج وفردريك من برج صوب الجنوب وسلبا خيرات مدنه . في حين أن أسقف بساو ودوق دلماشيا استوليا على الأراضي المجاورة لتسالونيكا . وعند مدينة جرادتز وجد الألمان كنائسها مليئة بصور للصليبيين على هيئة خيول يمتطيها البيزنطيون وقد ألجموهم ، فجن جنونهم وحرقوا المدينة عن آخرها (٢٨) . كذلك فتح بربروسا باب المفاوضات مع الخان ستيفن نيانجا زعيم الصرب وحضه على التمرد ضد بيزنطة وعلى محالفته في تدمير القسطنطينية (يناير ١١٩٠) (٢٩) . وجاء بطرس زعيم الولاشيين يطلب من بربروسا مساعدته في الحصول على تاج بيزنطة مقابل إمداده بأربعين ألفا من رجاله لمهاجمة القسطنطينية (٣٠).

أمام هذه التحديات المروعة اضطر إسحق أنجيلوس إلى تغيير موقفه من الحملة الألمانية ، فأرسل سفارة ودية فى ٢١ يناير ١١٩٠ إلى بربروسا لتعقد صلحاً معه على الشروط التالية :

١ ــ تنازل إسحق أنجيلوس عن التعويضات التي كان قد طالب بها عن الحسائر التي حلت بالأهلين في مقدونيا وتراقيا .

 ٢ ــ أعلن البازيليوس استعداده لمد بربروسا بالسفن الكافية لنقل «جيش المسيح الموقر » من جاليبولي .

Nicetes Choniates, 322, A, in R.H.C.Gr., Vol. 11, p. 442.	(۲۷)
Ansbert, pp. 59 - 60.	(۲۸)
Ibid., p. 61.	(۲۹)
Ibid., p. 58.	(٣٠)

(W·)

(41)

٣ - تعهد إسحق بأن تبقى سفنه الحربية على الشاطئ أثناء عملية عبور الألمان.

٤ - تبقى الكتائب البيزنطية على منأى من الجيش الصليبى بمسيرة أربعة أيام.

هينة من الدم الملكي أغاني عشرة رهينة من الدم الملكي الخالص.

٦ - إذا لم توف السلطات البيزنطية النزاماتها في مد الألمان بالأسوان الكافية يصبح جيش بربروسا حرًا في تصرفه للحصول على متطلباته .

٧ ــ يصدر إسحق أنجيلوس عفراً شاملا عن هذا النفر من البيزنطيين
 والأرمن الذين أدوا خدمات للسيد الأمجد إمبراطور الرومان .

٨ - يدفع إمبراطور بيزنطة تعويضات كافية عن الحسائر التي حلت بسفراء بربروسا إلى القسطنطينية .

٩ ــ يتعهد إسحق أنجيلوس بإطلاق سراح كافة الأسرى اللاتين الذين وقعوا تحت يده .

بهذه المعاهدة المعروفة بصلح أدريانوبل (٣١) تمكن إسحق أنجيلوس من إنقاذ عاصمته من خطر محقق ، ونجح أيضاً في إغراء بربروسا على العبور من أوربا إلى آسيا . وفي ٢٥ إبريل ١١٩٠ دخل الألمان الأراضي التابعة لسلطنة الأتراك ، حيث وقعت مناوشات بين الطرفين ، وانتهى الأمر بأن عقد صلح بين قطب الدين ملك شاه وبربروسا (٣٢) . وفي ٣٠ مايو وصل الألمان لارائدا ، على حدود كيليكيا حيث قوبلوا بالترحاب من قبل أمرائها الأرمن وعلى رأسهم ليو الثاني . وكانت عملية عبور منظقة طوروس الجبلية مهمة شاقة للغاية ، وصل بعدها الألمان إلى وادى نهر سالف (كاليسادنوس) . وهناك

Ibid., pp. 64 - 66. (Y1)

Ricardi Londinensis Itincrario Peregrinorum, p. 204.

نزل بربروسا إلى النهر ليتخفف من حدة الحرارة ولكنه غرق (١٠ يونية ١١٠). بعد وفاة بربروسا تحولت حملته إلى موكب جنائزى ، وانقسمت إلى ثلاث جماعات : الأولى أبحرت من طرسوس إلى طرابلس ؛ والثانية إلى أنطاكية ؛ والثالثة قررت مواصلة السير برًا حتى سوريا . وفى سوريا وقع الألمان فريسة لوباء الطاعون فهلك منهم جمع كبير من بينهم جودفرى أسقف فرزبورج ومارتن أسقف ميش والمارجريف هرمان من بادن ، والبرجريف بركهارد من مجدبرج والكونت فلورند من هولندة والكونت بوبو من هنبرج والكونت ولاراند من هالموند ثم فردريك من برج . كذلك هلك من هذا الوباء الدوق فردريك ولد بربروسا في عكا في ٢٠ يناير ١٩٩١ ودفن في جبانة جماعة فردريك ولد بربروسا في عكا في ٢٠ يناير ١٩٩١ ودفن في جبانة جماعة ليو بولد دوق النمسا في ربيع ١٩٩١ . ولكن ليو بولد وجيشه قد أذلوا على يد ليو بولد دوق النمسا في ربيع ١٩٩١ . ولكن ليو بولد وجيشه قد أذلوا على يد المطلك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد وقت حصار عكا في ديسمبر ١٩٩١ ، وبهذا فإن عدداً ضئيلا جداً من صليبية بربروسا ظلوا في الشام ليشهدوا وبهذا فإن عدداً ضئيلا جداً من صليبية بربروسا ظلوا في الشام ليشهدوا سقوط عكا في يد الصامييين .

ولعل أهم نتيجة لحملة بربروسا - برغم فشلها الذريع - هى أنها قد أوضحت للسلطات المسئولة فى غرب أوربا إمكانية تحطيم الدولة البيزنطية تماماً وإزالتها كعقبة فى طريق الصليبيين إلى الأرض المقدسة . وهذا ما سيقدم عليه خلف بربروسا : هنرى السادس .

* * *

قاست الإمبراطورية البيزنطية الأهوال على يد صليبية بربروسا . وجاءت صليبية ريتشارد قلب الأسد هي أيضاً لتهديد كيان جزيرة قبرص . ففي ١٠ إبريل ١٩٩١ أبحر ريتشارد على رأس أسطوله من مسينا وتوقف عند كريت ثم عند رودس . وفي أثناء ذلك هبت عاصفة دفعت بالسفينة التي كانت تقل جوانا شقيقة الملك الإنجليزي وبرنجاريا خطيبته إلى شواطيء جزيرة

قبرص . كذلك تحطمت سفينتان أخريتان على نفس الشاطئ . وكانت قبرص تخضع لحكم إسحق دوكاس كومنين الذي كان قد أعلن نفسه إمبراطوراً في عهد أندرونيكوس كومنين . قام إسحق بالقبض على رجال ريتشارد وصادر أمتعتهم وأموالهم ، ثم وجه الدعوة إلى الملكة جوانا لتنزل ضيفة عليه ولكنها رفضت . ولما طلبت الملكة إمداداً من الماء العلب لطاقم سفينتها رفض إسحق مطلبها « في وقاحة زائدة » . وراح إمبراطور الجزيرة يقيم التحصينات لحماية نفسه من أسطول ريتشارد قلب الأسد . وفي الخامس عشر من مايو على يد إسحق كومنين . وتصور الحوليات الإنجليزية إسحق هذا على أنه على يد إسحق كومنين . وتصور الحوليات الإنجليزية إسحق هذا على أنه ويهوذا الأسخريوطي » لأنه كان ينهب ويقتل الصليبيين الذين يصلون إلى شواطئ جزيرته ، ولأنه قد عقد حلفاً مع صلاح الدين الأيوبي (٣٣) .

طلب ريتشارد من إسحق كومنين إطلاق سراح الرجال الذين وقعوا في يده من الحملة هم وأمتعتهم وأموالهم ، ولكن الآخير رفض الاستجابة لهذا المطلب . ولذا فقد هجم هو و رجاله على الجزيرة « كما ينقض الذئب على الحمل » وعملوا فيها نهبا وتقتيلا (٣٤) . فر الأهالى مذعورين من ضربات سيوف الإنجليز واختبأوا في الجبال بعد أن هزم إسحق كومنين وفقد الراية الإمبراطورية ومتاع خيمته . وفي ١١ مايو ١١٩١ وصل إلى قبرص جاى من لوزينيان ملك بيت المقدس وجود فرى شقيقه و رايموند أمير أنطاكية و بوهمند كونت طرابلس . وكان جاى قد أتى ليطلب مساعدة ريتشارد له ضد أطماع كونراد دى مونت فرات في تاج مملكة بيت المقدس خاصة وأن الملك الفرنسي فيليب أغسطس كان يؤيد كونراد في أطماعه (٣٥) . استقبل ريتشارد

Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte, (cd. Gaston Paris), Paris, 1897, (77) cols. 37 - 38.

Anglo - Norman Texts (The Crusade and Death of Richard I, (ed. R. (7)) Johnston), Oxford, 1961, pp. 24 - 25.

Ambroise, col. 39. (70)

ملك بيت المقدس وصحبه استقبالا حسناً ، ثم قام هؤلاء بأداء بمين الولاء والطاعة له (٣٦) . وفي اليوم التالى تم حفل زواج الملك الإنجليزي من خطيبته برنجاريا في مدينة لهاسول .

قرر إسحق كومنين التفاوض مع ريتشارد قلب الأسد، فعرض عليه أن يدفع له مبلغ ٢٠,٠٠٠ مارك من الذهب، وأن يطلق سراح الأسرى الإنجليز؛ وأن يشارك في حملة ريتشارد بفرقة قوامها مائة فارس وألف من المحار بين والمشاة . وقبل ريتشارد عروض إسحق بعد أن أقسم الأخير يمين الولاء والطاعة للأول وتلقى «إمبراطوريته» إقطاعاً من يد الملك الإنجليزي (٣٧) . غير أن إمبراطور قبرص سرعان ما ندم على صلحه مع هذا الغازى وهرب من ليماسول .

أرسل ريتشارد بعد هذا بجزء من أسطوله تحت قيادة روبرت من تيرنهام ليكتسح شواطئ الجزيرة غرباً وليستولى على سفن وموافئ اسحق كومنين . وقاد هو ذاته النصف الثان من الأسطول وأبحر شرقاً قبالة فماجوستا . أما القوات البرية فقد عهد بقيادتها إلى جاى من لوزينيان الذى كان عليه السير ورجاله بمحاذاة أسطول ريتشارد . وعند نيقوسيا توغل جاى داخل البلاد ونهب القرى والمدن والقلاع . ووقعث ابنة إسحق كومنين أسيرة فى يد جاى عندما عثر عليها فى حصن كيرين . أما الإمبراطور فقد اختبا فى أحد الأديرة ولكنه عندما علم بقرب وصول الملك إلى هذه البقعة أسرع ليلتى بنفسه عند قدى ريتشارد يطلب منه الرحمة والغفران متوسلا إليه ألا يقيده بقيد من الحديد . أمر ريتشارد بتقييد إسحق بقيد من فضة ثم أرسله تحت حراسة وزيره رالف فرتز جودفرى إلى طرابلس . وصادر الملك الإنجليزى ثروة الإمبراطور الأسير وسلب نصف ممتلكات ساثر سكان الجزيرة (٢٨) .

Anglo - Norman Texts, p. 25. (71)

Ambroise, col. 49. (TY)

Anglo - Norman Texts, p. 26 : "Puis prist tout son avoir et la moitié (YA) ovelement de touz les biens moebles de toutes gentz de l'ilse de Cypre".

ترك ريتشارد حامية صغيرة تحت قيادة ريتشارد من كامڤيل وروبرت من تيرنهام للإشراف على شئون الجزيرة ، وفي ٥ يونيو ١١٩١ أبحر وأسطوله قبالة عكا . وتميز هذان الضابطان الإنجليزيان بغلظة وشراسة فقد أمرا الأهلين بحلق لحاهم علامة على خضوعهم التام ، كما راحا يبتزان أرزاق وأموال الناس في إرهاب مخيف . ثار الأهلون على هذا الظلم ولكن ثورتهم قمعت في قسوة بالغة .

ولما كان ريتشارد قلب الأسد منشغلا في حربه في عكا وفي مواجهة تحديات حزب فيليب أغسطس وكونراد دى مونت فرات ، ولما علم بموت ريتشارد من كامڤيل فإنه قرر بيع 'لجزيرة لجماعة الداوية (٢٩٩) . واستخدم الداوية وسائل العنف أيضاً في حكم جزيرة قبرص فقو بلوا بثررة الأهلين . ولذا فقد باعوا الجزيرة إلى جاى من لوزينيان ملك بيت المقدس (مايو ١١٩٧) (٢٠٠) . حكم جاى جزيرة قبرص مدة عامين وعند وفاته في عام ١١٩٤ خلفه في حكمها شقيقه عموري .

كان غزو جزيرة قبرصى على يد الصليبيين برهاناً قاطعاً على أطماع اللاتين فى ولايات الإمبراطورية البيزنطية . ولعل أهم دلالة لهذا الغزو هو أنه قد أوضح للسلطات فى غرب أوربا أنه إذا كان فى المقدور ضم إقليم هام من أقاليم الإمبراطورية البيزنطية للتبعية اللاتينية ولكنيسة روما فإنه من اليسير أيضاً على الجماعات الصليبية الزحف على القسطنطينية ذاتها وإسقاطها . وكانت هذه هى الفكرة المسيطرة على هرى السادس خليفة فردريك بربروسا .

* * *

Benedict of Peterborough, Gesta Regis Henrici II, Vol. II, pp. 172-73; (74) Estoire d'Eracles, in R.H.C Occ., II, p. 170.

G. Hill, History of Cyprus, Vol. II, Gambridge, 1948, pp. 67 - 69. (1.)

الفصل الثانى عشر صليبية هنرى السادس ضد بيزنطة

تسلم هنرى السادس زمام حكم الإمبراطورية الألمانية وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بعد غرق والده بربروسا أثناء قيادته للحملة الصليبية الثالثة فى آسيا الصغرى (يونيو ١١٩٠). وكان هنرى يشارك والده الرأى فى مخططاته ضد المصالح البيزنطية ، ويقال إنه ألتى مسئولية وفاة والده على الإمبراطور الشرقى . وأجج من شعور الكراهية هذا تلك الروايات التى نقلها الأفراد العائدون من الصليبية الفاشلة ضد السلطات البيزنطية .

كان هنرى السادس يرى ضرورة غزو بيزنطة لاعتقاده أنها قد وقفت عقبة في سبيل المنجزات الألمانية في إيطاليا وفي الشرق . ولقد أصبح واضحا له بعد الحملة الصليبية الثالثة أن الدولة البيزنطية تعانى من اضطرابات داخلية ، وأن الصرب والبلغار يقفون على أهبة الاستعداد للانقضاض عليها في أية فرصة مناسبة . كذلك بينت الحملة الصليبية الألمانية بقيادة بربروسيا أن سلطنة قونية التركية التي لم يكن في مقدورها محاربة الجيش الألماني المنهالك في آسيا الصغرى، هذه السلطنة على ضعفها كانت قد هزمت وأذلت بيزنطة في عديد من المناسبات . وكان هذا دليلا قاطعا على العفن الذي بيزنطة في عديد من المناسبات . وكان هذا دليلا قاطعا على العفن الذي أصاب الدولة البيزنطية وعلى إمكانية تحطيمها دون عناء كبير . والذي شجع هبرى السادس على المضي في خطته ضد بيزنطة ذلك الشعور المتوقد انتقاما من القسطنطينية والذي كان يضمره النبلاء والأساقفة الألمان الذين أصروا على القسطنطينية والذي كان يضمره النبلاء والأساقفة الألمان الذين أصروا على مشكلتان كان عليه حسمهما قبل الزحف على بيزنطة هما أن يتوج إمبراطورا على مشكلتان كان عليه حسمهما قبل الزحف على بيزنطة هما أن يتوج إمبراطورا على يد البابا ، ثم إخضاع صقلية .

توفى البابا كلمنت الثالث فى مارس ١٩٩١ واختار الكرادلة خلفاً له البابا سلستين الثالث . اختار هنرى السادس هذه الفرصة بالذات للذهاب إلى إيطاليا على رأس جيش ضخم ليتوج على يد البابا الجديد . ولما وصل هنرى من وراء جبال الألب طلبت منه سلطات مدينة تسكولوم حمايتها ضد البابا والسيناتو الرومانى . وفى نفس الوقت أرسل أهل روما إلى هنرى يبلغونه أنهم سيعارضون تتويجه إن لم يخضع تسكولوم لسلطانهم . ووافق هنرى على مطلب الرومان . وفى ١١٩١ ثم تتويج هنرى وزوجه كونستانس الصقلية فى كاتدرائية القديس بطرس . وفى اليوم التالى هجم الألمان على مدينة تسكولوم واستولوا عليها . ثم سلم هنرى المدينة المنهزمة إلى البابا ، الذى سلمها بدوره إلى أهل روما . وانقض الرومان على المدينة نهباً وقتلا حتى شارو على كل من فيها وما فيها حتى صارت كومة من رماد (١٠).

بعد هذا زحف هنرى صوب أبوليا بغية خلع الملك تانكرد الذى كان قد تسلم صقلية إقطاعا من البابوية . ولم يجرؤ البابا على معارضة الإمبراطور الألماني ضد فصله في صقلية . على أن حملة هنرى هذه لم تصادف نجاحا . وفي عام ١٩٩٤ توفي تانكرد فأسرع هنرى بجيشه وغزا صقلية دون مقاومة تذكر . وبعد هذا الانتصار العظيم أعلن هنرى صراحة أنه عازم على إخضاع البابوية تماما لسلطانه = فجدد بهذا خطة والده في إخضاع إيطاليا والقضاء على التعاليم الهلدبراندنية . وقد فكر هنرى جديناً في جعل الملكية في ألمانيا نظاما وراثيناً في آل الهوهنشتاوفن . أما في إيطاليا فقد خلع الوظائف الهامة فيها على أتباعه من النبلاء الألمان : فعين شقيقه فيليب دوقا على تسكانيا وضم إليه أملاك الكونتيسة ماتيلدة ، وأقطع كوذراد من فرسليجن إقليم سبولتو ، في حين أن القائد ماركوارد حصل على رومانا . ولم يجرؤ أحد على رفع صوته ضد سياسة هنرى السادس ، خليفة شرلمان .

Arnold of Lübeck, Chronica Slavorum, in M.G.H.SS., in usum scholarum, (1) 1868, IV, iv.

بعد هذه الانجازات انصرف هنرى إلى مشروعه الصليبي ضد الدولة البيزنطية . فني أسبوع الآلام لعام ١١٩٥ تلقي شارة الصليب من يد يوحنا أسقف سوترى ، وفي يوم العيد عقد مجلس الدياط في مدينة بارى حيث أصدر مرسوما إمبراطوريبًا يدعو فيه إلى صايبيته الجديدة (٢) كذلك طلب من البابا سلستين الثالث أن يحث الأساقفة على الدعوة في أبروشياتهم للحملة الصليبية التي اتفتى على قيامها في أغسطس ١١٩٥ (٣).

كان هنرى السادس يهدف من وراء صليبيته تحقيق حلم الهوهنشتاوفن في الإطاحة بالجالس على عرش القسطنطينية الذي لم يكف عن المطالبة بالتاج الروماني والذي كان شوكة في جنب الإمبراطور الألماني بسبب أطماعه في إيطاليا . وعلى هذا فإن صليبية هنرى لم تكن تستهدف استخلاص أورشليم من يد الأيوبيين فحسب وإنما أيضا الاستيلاء على بيزنطة وذلك تحقيقاً للسياسة السائدة وقتئذ في البلاط الألماني والتي كان شعارها : كقيقاً للسياسة السائدة وقتئذ في البلاط الألماني والتي كان شعارها : كان يبغى إحياء الإمبراطورية الرومانية تحت حكم الهوهنشتاوفن . ولقد كان زواجه من كونستانس ملكة صقاية صفقة سياسية هامة ضمنت له ملك صقلية لتكون قاعدة يتحرك منها لتنفيذ مخططه ضد بيزنطة وفي الشرق ملك صقلية لتكون قاعدة يتحرك منها لتنفيذ مخططه ضد بيزنطة وفي الشرق ملك عموري من لوزينيان ملك قبرص وبيت المقدس ومن ليو الثاني أمير كيليكيا الأرميني يعرضون عليه تبعية سيديهما للتاج الألماني .

وكانت قبرص فى ذلك الوقت تحت سيطرة عمورى من لوزينيان الذى راح يفرض على أهليها النظم الفرنجية فى تعنت بالغ. فلقد أرسل إلى البابوية يطلب المشورة فى أمر الكنيسة فى الجزيرة البيزنطية . وقرر البابا سلستين الثالث إخضاع كنيسة قبرص للكرسى البابوى ، فعين آلان رئيس شامسة

Annales Marbacenses, in M.G.H.SS., Vol. XVII, p. 166.

Annales Colonienses Maximi, in M.G.H.SS., Vol. XVII, p. 804. (7)

اللاذقية رئيسا للأساقفة فى نيقوسيا الذى قام هو ورئيس شمامسة الله بإنشاء أسقفيات لاتينية أخرى فى بافوس وفياجوستا وليماسول . ومع أن رجال الدين اللاتين لم يقدموا مباشرة على طرد الأساقفة البيزنطيين من أسقفياتهم إلا أن الإبروشيات والعشور التى كانت من حصتهم قد ضمت إلى الأسقفيات الجديدة التى أنشأها الغزاة (٤) .

وفى أكتوبر ١١٩٥ أرسل عمورى إلى الإمبراطور هنرى السادس يعبر عن رغبته فى وضع شخصه ومملكته تحت التبعية للتاج الرومانى (الألمانى)، مؤكدا تشوقه لأن يصبح « رجل الإمبراطور» (٥٠). وفى نفس الوقت أرسل ليو الثانى أمير أرمينيا الصغرى يطلب من هنرى السادس الإنعام عليه بلقب ملك مقابل اعترافه يه سيدا إقطاعيا عليه وبذا يصبح لو تابعا للإمبراطورية الرومانية (٢٠).

رأى هنرى السادس فى كل هذا مقدمات لإحياء عبد الإمبراطورية الرومانية . على أنه كان يرى ضرورة صبخ إمبراطوريته الجديدة بالصبغة الجرمانو – إيطالية فحسب ، ذلك لأنه كان بطبعه كارها للفرنجة . ولذا فإنه قد عقد العزم على ضم الشرق اللاتيني إلى إمبراطوريته وتطعيمه بعناصر ألمانية بحتة . وكان يعتقد اعتقادا راسخا أن هذا لن يتم إلا إذا قضي على بيزنطة قضاء تامياً . وبعد هذا يمكن له ضم تاجى بيزنطة وبيت المقدس إلى تاج شرلمان الأوحد. وتتضح نية هنرى تجاه بيزنطة في الرسالة التي بعث بها إلى الإمبراطور إلى وسحق انجيلوس يطلب منه فيها إعادة الأراضي البلقانية من دورازو إلى تسالونيكا إليه لأنه « خليفة وليم الثاني ملك صقلية » . كما طالب بتعويضات عن الجسائر الفادحة التي لحقت بوالده الراحل من جراء الجيانة البيزنطية عن الجسائر الفادحة التي لحقت بوالده الراحل من جراء الجيانة البيزنطية

<sup>L. Mas-Latrie, Historie de l'Isle de Chypre sous le Régne de la Maison de (1)
Lusignan, Vols., Paris, 1852 - 1861, Vol. III, Documents, pp. 599 - 605.
L. Makhaeras, Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus (ed. with trans. Dawkins), 2 Vols., Oxford, 1932, Vol. I, pp. 28 - 29.</sup>

Annales Marbacenses, p. 167.

R.C. Arm; Vol. I, pp. 422 - 23. (7)

وقت الحملة الصليبية الثالثة ، هذا إلى جانب وضع أسطول بيزنطة تحت تصرفه في حلته الصليبية لاسترجاع بيت المقدس (٧) .

لم يكن أمام إسحق انجيلوس من خيار سوى فتح باب المفاوضات الودية مع العاهل الألمانى الجديد الذى كانت شهرته قد ذاعت فى الشرق والغرب على حد سواء . ولكن ما إن بدأت المحادثات بين الطرفين حتى وقع انقلاب فى القسطنطينية على يد الكسيوس الثالث انجيلوس الذى خلع شقيقه إسحق عن العرش ثم سمل عينيه وأودعه السجن . وكانت هذه فرصة نادرة لهنرى السادس ليهدد الإمبراطور الجديد تهديدا مباشرا ؛ مستندا على أحقيته فى التدخل فى شئون بيزنطة . ذلك أنه كان قد زوج شقيقه فيليب دوق سوابيا من إيرينى ابنة إسحق إنجيلوس المخلوع فى ٢٥ مايو ١١٩٧ . وإيرينى هذه كانت أرملة روجر ابن تانكرد آخر ملوك صقلية .

وهكذا أرسل هنرى إلى الكسيوس الثالث ينذره بأنه قادم لتأديبه « لاكإمبراطور للرومان ووريث لمملكة النورمان وقائد صليبي فحسب وإنما قبل كل هذا كصاحب ثأر نيابة عن إسحق انجيلوس المخاوع وعائلته »(^^). واضطر الكسيوس أمام هذا التهديد السافر إلى استرضاء هنرى السادس بالمال ففرض ضريبة أساها « الامانيكون » أى « جباية الألمان » ، وكانت كريهة ثقيلة على كاهل الشعب البيزنطي (٩) .

راح هنرى السادس ومستشاره يعدان للحملة الصليبية فى مجالس الدياط التى عقدت تباعا فى جلنهاوزن (أكتوبر ١١٩٥) وورمز (ديسمبر ١١٩٥) وفرز بورج (مارس ١١٩٦). واتفق على أن تبدأ الصليبية مسيرتها فى عيد ميلاد ١١٩٦. وقد حمل الصليب وراء هنرى عدد وافر من رجال الدين الألمان وعلى رأسهم كونراد من وتلز باخ رئيس أساقفة مينز وهارتفيج رئيس

Nicetas Choniates, Historia (Bonn ed.) pp. 227-28. (y)

W. Norden, Das Parsttum und Byzanz, Berlin, 1903, p. 128.

Nicetas Choniates, op. cit., p. 631. (4)

أساقفة برمن وكونراد من كورفورت أسقف هلدزهايم ثم أساقفة هالبرشتات وفردن ونمبرج وزايتس ومنستر ورجنزبرج وبساو وبراج وتول. ومن بين العلمانيين اللذين تبعوا هنرى اللدوق هنرى من برابانت وهنرى من برنزويك والدوق فردريك من النمسا والدوق برتولد من دلماشيا والدوق ألرخ من كارنثيا واللاندجريف هرمان من ثورنجيا وآخرون عديدون (١٠٠).

تحرك رئيس أساقفة مينز على رأس غالبية رجال الحملة نحو موانى إيطانيا وصقلية للإبحار منها إلى الشرق . ولكن الأهلين قاموا بثورة عارمة ضد رجال هنرى السادس ، فأسرع الإمبراطور وانقض هو وجيشه على الثوار وسحقهم فى وحشية بالغة ، حتى ليقال إن مملكة صقلية المزدهرة قد تحولت على يدى هنرى إلى صحراء قاحلة . كانت هذه الثورة سببا فى حرمان هنرى السادس من قيادة حملته الصليبية بنفسه . ولذا فقد أمر قواده بالتحرك صوب الشرق وقرر هو البقاء فى إيطاليا إلى حين . وبداية من مارس ١١٩٧ فصاعدا بدأت تحركات الصليبيين الألمان نحو الشرق .

وفى أغسطس من نفس العام وصلت إلى مسينا أربع وأربعون سفينة تقل المقاتلين من أراضى الراين وسكسونيا بقيادة هنرى من برنزويك ورئيس أساقفة برمن عبعد أن عرجا على النرويج وإنجلترا والبرتغال . ومن مسينا تحرك الجيش فى سبتمبر مع جزء آخر من الجيش الإمبراطورى تحت قيادة المستشار الألماني كونراد من كورفورت وهنرى من كالمدن . وقد توقف المستشار الألماني والكونت ادولف من هولشتين عند جزيرة قبرص لإتمام حفل تتويج الملك عمورى من لوزينيان وليتلقى كونراد منه ، نيابة عن هنرى السادس عبين الولاء والطاعة (١١) .

ولما وصل الصليبيون الألمان إلى مدينة عكا راحوا يعيثون فيها نهباً وفساداً

Annales Marbacenses, pp. 167-68.

Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier (cd. Mas-Latrie), () Paris, 1871, pp.302-303; Estoire d'Eracles, pp. 209-12.

مما أدى إلى تذمر شديد بين الفرنجة القاطنين هناك الذين ساءهم عجرفة الألمان وسوء سلوكهم تجاه النساء الفرنجيات (١٢). ولذا فإن هنرى من شامبانى ملك بيت المقدس أمر أتباعه وفرسانه بمقابلة عبث الألمان بالضرب على أيديهم بشدة «حيث أن هذه هى اللغة الوحيدة التى بواسطتها قد يتفهمون (١٣٠)». وفي أثناء ذلك نجح هنرى من برابانت ورجاله في احتلال صيدا ومنها زحف قبالة بيروت (١٤٠). وكان الهدف من وراء هذا محاولة فتح طريق يصل بين مملكة أورشليم وإمارة طربلس. وفي العاشر من سبتمبر ١١٩٧ توفي هنرى من شمباني على أثر حادث وقع له في مدينة عكا . وكانت هذه فرصة المستشار الألماني كونراد لكي ينفذ سياسة سيده في الشرق اللاتيني فقدم تاج مملكة بيت المقدس إلى عمورى من لوزينيان ملك قبرص وفصل هنرى السادس. وكان نجاح المستشار الألماني في هذا عنوانا على قوة النفوذ الألماني في الشام .

فى ٢٨ سبتمبر ١١٩٧ توفى فجأة الإمبراطور هنرى السادس بالحمى التي أصابته فى مسينا . ولما وصلت هذه الأنباء إلى عكا سارع النبلاء الألمان فى العودة إلى الوطن لحماية حقوقهم . وقد شجعهم على المبادرة بالعودة أن وقعت بيروت فى يد صاحب بيت المقدس .

وقبل أن يرجع المستشار الألماني إلى وطنه نجح في تحقيق هدفين من حملة هنرى السادس: فلقد تمكن من تنصيب أحد أفصال الإمبراطور الألماني على عرش بيت المقدس ، وبذا وضع الأرض المقدسة في إطار نفوذ الهوهنشتاوفن (١٥٠). كذلك قام المستشار بتتويج الأمير ليو الثاني ملكا على

Estoire d'Eracles, p. 216.

Ibid. (17)

The Letter of Duke Henry of Loyrraine to the Archbishop of Cologne, in

(14)

Bibliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, ff. 132-133.

Roger of Hovden, Chronica (ed - W - Stubbs), Rolls Series, London, (10)
1868-71, P. 439.

أرمينيا الذي أقسم يمين الولاء والطاعة. للإمبراطور الألماني (١٦).

* * *

كان هدف هنرى السادس من وراء صليبيته هذه محاصرة الدولة البيزنطية من الجانبين الأوربى والآسيوى ، ولكنه توفى فحأة وترك المسألة البيزنطية للحلفائه . ولعل أهم نتيجة لسياسة هنرى السادس هى : أن بدأت البابوية توقن أنه إن قدر النجاج لبرنامج الهوهنشتاوفن فى إنشاء إمبراطورية عالمية تضم بيزنطة وصقلية والشرق اللاتينى فإنه لا محالة مقضى عليها بالشلل السياسي . وقد كان حرمان البابوية من النفوذ فى صليبيتى بربروسا وهنرى السادس مظهراً آخر من مظاهر قوة الهوهنشتاوفن وخور الكرسى الرسولى فى روما . ولذا فإن الكيوريا كانوا يتوقون إلى تحين فرصة ليرفعوا على عرش القديس بطرس رجلا من طراز هلدبراند ليقلم أظافر الألمان وليستعيد نفوذ «أمير الرسل» على الحركة الصليبية . ومن هنا جاء اختيار البابا أنوسنت الثالث للقيام بهذة المهمة الصعبة .

See Sirarpie Der Nersesian, The Kingdom of Cilician Armenia, in

(17)

Setton, A History of the Crusades, Vol. II, pp. 647-50.

الفصل الثالث عشر الجوانب الكنسية فى الصليبية الرابعة التي انتهت بغزو القسطنطينية (١٢٠٤)

اهتم المؤرخون بدراسة الصليبية الرابعة وانقسموا في هذا مدارس شيى: ففريق يفسر تحول الحملة عن هدفها الأصيل إلى غزو القسطنطينية وفق نظرية عرفت بنظرية « الصدفة » ؛ بمعنى أن الغزو لم يأت عمداً وانما كان وليد ظروف طارئة (۱). وجماعة أخرى ترى في سياسة جمهورية البندقية وألمانيا مؤامرة مقصودة لتدمير بيزنطية (۲). على أن أحداً لم يحاول تقصى ما كان يكمن وراء الغزو الصليبي لمدينة قنسطنطين من دوافع كنسية . وهذا الفصل يعالج هذه الجوانب .

فى ٨ يناير ١١٩٨ توفى البابا سلستين الثالث ، وكان قد جاوز التسعين من العمر ، وفى نفس اليوم اختار الكرادلة خليفة له . وقد وقع اختيارهم هذه المرة بالذات على أصغرهم سنتًا وأقواهم شخصية : لوثير من ساجي الذي لقب انوسنت الثالث بعد انتخابه للعرش البابوي . ولقد ألتى البابا الجديد بموعظة هامة يوم تتويجه : فهي ترتكز ، وفي ثقل ، على النظرية البطرسية ،

Sce G. Hanotaux; Les Venetiens ont -ils trahi la Chrétienté en 1202 f in

Revue Historique, IV (1887), pp. 74-102; J. Tessier, La Quatrieme

Croisade-La Diversion sur Zara et Costantinople, Paris, 1884, pp. 183 84;

F. Cerone, Il papa ed i Veneziani nella Quarta Crociata, in Archivio

Veneto, XXXVI (1888), pp. 57-70, 237-297

L. Mas-Latrie, L'Histoire de l'Isle de Chypre sous le Règne de la Maison () de Lusignan, Vol. I, Histoire, pp. 162-63; P. Riant, Innocent III, Philippe de Souabe et Boniface de Montferrat', in Revue des Questions Historiques, Vol. XVIII(1875), pp. 5-75; also. Le changement de direction de la Quatrieme Croisade d'aprés quelques travaux recents', ibid., Vol. XXIII (1878), pp. 71-114.

فالبابا هو بطرس ذاته الصخرة التي تقوم عليها الكنيسة ، حامل مفاتيح الجنة وصاحب الحل والربط على الأرض وفى السهاء ، سيد على العالم أجمع لا يعلوه إلا الله . (٣) وكان انوسنت الثالث يؤمن إيماناً قاطعا بما جاء فى « هبة قنسطنطين للبابا سلفستر »، إلى حد أنه راح يقول بأن هذا « الإمبراطوو الورع رغب فى وضع التاج الإمبراطورى على رأس سلفستر ولكن الأخير قد رفض » (٤) ولذا نجده فى إحدى رسائله إلى قوميون تسكانيا يؤكد أن السلطات الزمنية جميعها تستمد شرعيتها وشرفها من الكرسي البابوي المثلما يستمد القمر نوره من الشمس (٥).

وهكذا فإنه منذ البداية أعلن انوسنت على الملأ أنه ليس فقط «كاهن الله» وإنما أيضا – ولأول مرة في تاريخ البابوية – « ممثل الله على الأرض». (٢) ولم يكن هذا كافيا إذا راح البابا يدعى لنفسه السلطان على المسيحيين وغير المسيحيين في المسكونة: «أو ألم يقم السيد المسيح بطرس أميراً على الأرض كلها ؟ » (٧).

كان انوسنت قد جاء إلى العرش البابوى ليعيد لخليفة بطرس سلطانه الذي كان الهوهنشتاوفن قد ابتلعوه. ولذا فقد أعلن البابا أن الإمبراطور تابع للبابا لأنه يتلتى التاج من يديه ، وأنه لا يعترف بشرعيته في الحكم ما لم ينعم عليه «سيد العالم» بهذه الشرعية . وقيل وقتئذ أن حفل تتويج الإمبراطور ما هو إلا مراسيم إقطاعية يصبح بموجبها هذا الذي يتسلم التاج تابعا لمن ينعم به عليه . وكدليل على دونية الإمبراطور بالنسبة للبابا كان تتويجه أمام مذبح متواضع في الركن الجنوبي من كاتدرائية القديس يطرس ، في حين أن السيد البابا كان يزف إلى « بجد الإمارة العالمية » بطرس ، في حين أن السيد البابا كان يزف إلى « بجد الإمارة العالمية »

P.L., Vol. CCXVII, col. 658.	(٣)
Ibid., cols. 481-82.	(1)
P.L., Vol. CCXIV, col. 377.	(•)
Ibid., cols. 203, 272, 481.	(٢)
"Principatus super omnem terram.".	(٧)

أمام المذبح الرئيسي للبازيليكا،الذي كان وقفاً على هذه المناسبة دون سواها . كانت أحوال الإمبراطورية الألمانية وقت جلوس انوسنت الثالث على العرش البابوي عاملا مشجعا له لأن يمضى في سبيل إنفاذ برنامجه الجديد. فلقد مات هنرى السادس ، تاركاً أرملته كونستانس وطفله البالغ من العمر ثلاث سنوات في مدينة بالرمو نهباً لثورة الصقليين وتمردهم . ولذا فقد طلبت كونستانس الحماية لها ولولدها من البابا انوسنت الثالث ، مقابل تنازلها عن الحقوق الكنسية في مملكة صقلية. وفي ٢٨ نوفمبر ١١٩٨٠ توفيت كونستانس، تاركة البابا وصيًّا على ولدها ، فردريك الثانى، ولذا يقال إن انوسنت الثالث كان الوريث الحقيق لهنرى السادس. ظل العرش الألماني شاغرا ، ولما توج فردريك الثانى ملكا على صقلية في بالرمو ضاعت قضيته في التاج الألماني . على أن الشقيق الأصغر لهنرى السادس - فيليب من سوابيا – تزعم حزب الهوهنشتاوفن وراح يطالب بالتاج الألمانى . هذا فى حين أن حزبًا آخر بقيادة رئيس أساقفة كواون كان يطالب بالتاج لأوتو أصغر أبناء هنرى الأسد والذي كان أيضاً حفيداً للملك هنرى الثاني الإنجليزي . ولكن أوتوكان قلد تربي فى قلعة أنجلو— نورماندية ، وكان يتكليم الفرنسية ، وبذا فإنه كان «غريبا» في بلده ألمانيا . راح الحزبان يتملقان انوسنت الثالث كل يطلب تأييده الأميره المرشح للعرش الألماني : فبعث ريتشارد قلب الأسد ، عم أوتو ، إلى البابا يعده بإعادة سائر الحقوق التي كان الأباطرة السابقون قد اغتصبوها من الكرسي البابوي . أما فيليب السوابي فقد أرسل إلى البابا رسالة ودية يطلب منه فها تأييده مقابل بعض التنازلات في إيطاليا .

وفى مايو ١١٩٩ كتب انوسنت الثالث إلى الأمراء الألمان فى اجتماعهم لانتخاب امبراطور لألمانيا يوبخهم ويهددهم لأنهم لم يستأذونه فى عقد هذا المؤتمر ؛ « لأن انتخاب ملك ألمانيا أمر يدخل ضمن اختصاصاتنا » . وراح البابا يقول « ماذا يكون الحال إن أقدمتم على انتخاب عدو للكنيسة

أو متمرد عليها أو طاغية أو أبله أو مهرطق أو زنديق ؟ » أو أيصح المبابا وقتها وضع التاج على رأسهذا الزنديق؟ كلا ثم كلا. هذا وفي نفس العام قدم سفراء أوتو مع ستة من الأساقفة الألمان بقيادة مقدم ديركورنلمونستر وقسيس بيت ريتشارد قلب الأسد إلى مقام البابا انوسنت الثالث يطلبون منه اعتباد انتخاب أوتو ملكاً على ألمانيا . وكان الثمن الذي طلبه البابا من هذا الحزب مقابل اعترافه بأوتو باهظاً للغاية : فقد كان عليه الاعتراف بالبابا سيداً مطلقاً على سائر ممتلكات الكنيسة في رومانا وانكونا وسپولتو وأراضي مطلقاً على سائر ممتلكات الكنيسة في رومانا وانكونا وسپولتو وأراضي الكونتيسة ماتلدا . هذا إلى جانب اعترافه بسلطان الكرسي الرسولي على ملكة صقلية وتلبية أوامر البابا في تسكانيا ومدن العصبة اللومباردية . ومع أن الموافقة على هذه الشروط كان يعني تحول الإمبراطورية الألمانية إلى عرد دولة تابعة للبابا ، فإن سفراء أوتو وافقوا علها .

على أنه يجب ملاحظة أن هذا البابا الجديد الذي كان يبشر بإحقاق العدل والانتصار للمظلوم كان صاحب أطماع دنيوية وأنانية ، كانت حديث الشعب في مدينة روما . فلقد الهم – وبحق – بالمحسوبية لأنه أقطع شقيقه ريتشارد بإمارة في لا تينوم ، وعندما اغتال أقرباؤه ثيوبالد نسيب البابا الراحل سلستين الثالث قام لحمايتهم من القانون برغم جريمتهم في سفك الدماء (^) .

كانت هذه سمات الرجل الذى تربع على عرش روما من ١١٩٨ إلى ١٢١٦ . ولئن كان هذا موقفه تجاه الإمبراطورية الألمانية ، فإن موقفه تجاه الإمبراطورية الألمانية ، العداوة والحقد تجاه الإمبراطورية البيزنطية وبطريركيتها المسكونية كان ينطق بالعداوة والحقد الشديدين . ولتقصى موقف انوسنت بطريقة موضوعية في هذا الصدد ولكى نتفهم دوره في الغزو اللاتيني للعاصمة البيزنطية عام ١٢٠٤ يجب البحث في نشاطه ضد المصالح والكنيسة البيزنطية في شرق أوربا : في صربيا

See F. Gregorovius, History of the City of Rome in the Middle Ages, 8 (A) Vols. (trans. by G. Hamilton), London, 1909, Vol. V, p. 41.

وبلغاريا حيث كان الأثر البيزنطي واضحا وعريقا .

فى نهاية القرن الثانى عشر ظهر زعيم صربى قوى من مونت نجرو هو ستيفن نيانجا الذى أرسى قواعد دولة قوية ضمت صربيا وإقليم نافيبازار ومونت نجرو وجزءاً من هرتزا لجوفنا وبعضا من برتزرند ولقب العاهل الجديد نفسه بالخان الأعظم (قليكى زو پان) واتخد له عاصمة فى كروتشيفاك فى وادى المورافا . كان ستيفن رجلا تقيا وقد كان شديد الإعجاب بكنيسة بيزنطة ،التى ساعدته فى إنشاء الكثير من الأديرة وبيوتات العبادة . ووهب أصغر أبنائه سافا نفسه للحياة الديرانية ويعتبر بحق مؤسس النظم الديرية فى صربيا .

عندما اعتزل سافا فى ١١٩٥ إلى دير على جبل آثوس آل السلطان على صربيا بلقب الحان العظيم إلى شقيقه ستيفن الذى أقطع شقيقه الثالث قولكو أقاليم دلماشيا الصربية ومونت نجرو والهرتزا جوفينا . وسرعان ما دب النزاع بين ستيفن وقولكو ، الأمر الذى أتاح الفرصة للبابا وملك المجر للتدخل فى شئون صربيا . فلقد اعترف قولكو باميرى ملك المجر سيدا له وفتح باب المفاوضات مع البابا انوسنت الثالث طالبا منه معاونته فى تنظيم الكنيسة فى أملاكه وكذا الاعتراف بأسقف مدينة انتيفارى .

رحب الباب انوسنت الثالث بمطلبي قولكو الذي أتاح له الفرصة النادرة لحلع كنيسة صربيا من تبعيتها التقليدية للكنيسة البيزنطية . وفى ٨ يناير ١١٩٩ أرسل انوسنت رسالة إلى قولكو مخاطبا إياه على أنه « الملك المعظم للماشيا وديوقليا » ؟ معلنا أنه موند رساه لإرساء قواعد « الإيمان الحق » في كنيسة صربيا (٩) . ولعل أهم نقرة في هذه الرسالة تلك التي يؤكد البابا في كنيسة رجاله في صربيا تستهدف في المقام الأول تقويم الانحرافات فيها أن مهمة رجاله في كنيسة الصرب . وفي هذا الكلام تعريض غير خي والأغلاط الشائعة في كنيسة الصرب . وفي هذا الكلام تعريض غير خي

بكنيسة القسطنطينية التي كانت الكنيسة الأم للكنيسة الصربية .

على أن علاقة ڤولكو بالكرسي البابوي أقلقت شقيقه الأكبر ستيفن. ولذا فقد أرسل ستيفن إلى البابا انوسنت الثالث يعبر عن رغبته هو أيضا في توثيق علاقات الكنيسة في « مملكته » بكنيسة روما الرسولية . استجاب البابا على الفور لمطلب الملك الشرعي ستيفن وأرسل أسقف ألبانو ليقوم بتتوبيج ستيفن ملكا مقابل خضوعه لاسلطان البابوى . ولكن إميرى ملك المجر الذي كان على خلاف مع ستيفن لم يمهله لجناية حصاد هذا الحلف مع البابوية . والواقع أن الذى شجع ملك المجر فى تحديه لستيفن تلك السمعة الشائنة التي كانت لصيقة بشخص ستيفن ، وبخاصة في علاقته مع زوجه يدوكيا ابنة الإمبراطور الكسيوس الثالث انجيلوس. فقد حدث ذات مرة أن لعبت الحمر برأسه فانقض على زوجه ضربا ثم ألقى بها عريانة كما ولدتها أمها أمام أسوار قصره ؛ الأمر الذي صدم مشاعر الرأى العام في بلاده . وفي عام ١٢٠٢ هجم ملك المجر بجيوشه على ستيفن وهزمه هزيمة نكراء ثم خلعه عن العرش وسلم الحكومة لشقيقه ڤولكو . وأضاف اميرى إلى ألقابه « ملك الصرب » بعد أن أقسم له تابعه ڤولكو يمين الولاء والطاعة . وبعد هذا الانتصار كتب أميري إلى البابا انوسنت الثالث يعلمه بانتصاره هذا على ملك الصرب. فما كان من البابا إلا أنه رد عليه في رسالة ودية يهنئه على انتصاره الباهر «الذي هو أيضا انتصار للكنيسة الرومانية » وللنفوذ البابوي (١٠٠).

كان ملك الحبر على استعداد لإخضاع كنيسة صربيا للسلطان البابوى مقابل اعتراف انوسنت الثالث بحقوقه كملك على الصرب . واتفق الطرفان على هذا ، وسرعان ما أرسل البابا إلى رئيس أساقفة كالوتزا المجرى يفوضه في تلقى يمين الولاء والطاعة من قولكو ومن رجال الكنيسة الصربية جميعا للكرسى البابوى . وطلب البابا من رئيس الأساقفة أن يعلن في وضوح

(1.)

زائد وباسم البابا فصل الكنيسة الصربية تماما عن كنيسة بيزنطية « لأن بطريرك القسطنطينية متمرد ضدنا وهو لا يستحق الاحترام »(١١).

نهج أنوست الثالث نفس السياسة العدائية تجاه كنيسة بيزنطة في بلغاريا. فقد حدث أن كتب يوهانتزا «إمبراطور البلغار والولاشيين » (١٩٩٧–١٩٠٧)، بعد أن وحد بلغاريا و رومانيا وأجزاء من روميليا في مملكة واحدة تحت سلطانه، إلى البابا انوسنت الثالث يطلب منه الاعتراف به « إمبراطوراً » مقابل إخضاعه الكنيسة البلغارية لكنيسة روما . رد البابا على الخان البلغاري يفصل له كيف أن مكتوبه قد شرح صدره و بأنه كان يتطلع إلى حنوه على أمه كنيسة روما « لأن أسلافه من دم روماني ، كما وأن هذا الدم النتي الأصيل هو الذي أنبت فيه هذا الولاء للكرسي الرسولي في روما» (١٦) على أن البابا لم يلب طلب يوهانتزا في أمر اللقب الإمبراطوري وكتب إليه ليفهمه أن أمر اللقب مسألة ثانوية بالنسبة لمستقبل الكنيسة البلغارية ؛ ليفهمه أن أمر اللقب مسألة ثانوية بالنسبة لمستقبل الكنيسة البلغارية ؛ أحد الأمراء البلغار السابقين قد طرد رجال الدين الرومان من ملكه وأحل علهم قسيسين « فاسدين » من أتباع الكنيسة البيزنطية » (١٣) .

وفى عام ١٢٠٣ كتب يوهانتزا من جديد إلى البابا يؤكد له ولاءه لكنيسة روما وللبابا « سيد كنائس الشرق والغرب . . . صاحب الحل والربط وخليفة القديس بطرس » . ولكى يستميل البابا للموافقة على الإنعام عليه بلقب الإمبراطور ذكر يوهانتزا أنه ما إن علم امبراطور وبطريرك بيزنطة بهذا التقارب بينه وبين البابا حتى بعثا إليه يقولان « أقدم إلينا فنحن مستعدون لتتويجك إمبراطوراً ولخلق بطريركية للكك ؛ لأنه لايحسن لامبراطورية أن تخلو من بطريركية » (أكنه (يوهانتزا) يفضل قبول

P.L., Vol. CCXV, col. 29. (11)

P.L., Vol. CCXIV, col. 825. (17)

Ibid., col. 1115. (\rangle\tau)

P.L., Vol. CCXV, cols. 155 - 56. (15)

اللتاج من يدى البابا «لأن ولائى للرسول بطرس وخليفته يفوق كل شيء» (١٥٠.

كان هذا كفيلا لأن يسرع البابا في استدعاء بازل رئيس أساقفة زاجورا في ١٠ سبتمبر ١٢٠٣ ، ليفوضه نيابة عنه في تتويج يوهانتزا وفي إنشاء بطريركية لمملكة البلغار. ولكن رئيس الأساقفة وقع أسيرا في يد السلطات البيزنطية عند دورازو واحتجز هناك ثمانية أيام (١٦).

وفى نفس الوقت أرسل البابا مندوباً خاصاً عنه إلى مدينة درنوفا بالقرب من العاصمة ترنوفا لإنجاز المهمة فى بلغاريا . وبالفعل كرس بازل رئيسا للكنيسة البلغارو ولاشية وتاتى قسم الولاء والطاعة من الإكليروس البلغارى لكنيسة روما . وهناك وثيقة هامة موجهة من بازل هذا إلى البابا انوسنت الثالث تكشف عن حرصه على تسفيه الكنيسة البيزنطية وطقوسها الدى البابا . فقد كتب البطريرك البلغارى إلى البابا يطلب منه كمية من الزيت المقدس الاستخدامه فى مراسم العماد و بعض الطقوس الأخرى، وراح الكاتب يقول «حقيقة أن لدينا كمية من هذا الزيت ولكنها وردت إلينا من كنيسة القسطنطينية ، ولكنا ، مثلنا فى هذا مثاكم ، نبغض البيزنطيين وزيتهم » (١٧) .

رأى إميرى ملك المحرف أنشطة يوهانتزا خطرا يهدد سكانه كسيد على الصرب ، كما أنه رأى في هذا التقارب بين « الإمبراطور » البلغارى والبابا انوسنت الثالث تهديدا مباشرا لنفوذه . ولذا فقد قبض إميرى على المندوب البابوى وهو في رحلته إلى بلغاريا . ولما علم البابا بهذا كتب رسالة غاضبة إلى الملك المجرى جرت على هذا المنوال : « لعله لا يخفي عليكم كم عانى الشعب البلغارى المسكين من جبروت أباطرة بيزنطة وطغيانهم . . وها أنت ذا تقف في طريق ابننا الروحى الحبيب يوهانتزا لتحول دون

Ibid. (10)

See the Archbishop's lettr to Innocent III in 1204, in P.L., Vol. GCXV, (17) col. 288.

Ibid., col. 289. (1Y)

تتويجه على يد مندوبنا ولكأنك تمنع أباه الرحيم من استنقاذه من مخالب الظلم مع أنه شبيه بذاك الابن الضال الذى رجع بعد البؤس إلى بيت أبيه يطلب الصفح والغفران، فذبح له أبوه العجل المسمن أضحية لرجوع الابن العاق عن الضلال ((18)).

* * *

يتضح من هذه الوثاثق المتبادلة بين البابا انوسنت الثالث والسلطات في صربيا وبلغاريا والحجر مدى حرصه على فصل الكنيستين الصربية والبلغارية عن الكنيسة الأم في القسطنطينية. وكانت هذه سياسة مقصودة لتقويض نفوذ بطريركية بيزنطة المسكونية في البلقان ولإحلال النفوذ اللاتيني مكانها. وتنطق الوثاثق التي بين أيدينا ، عن سياسة انوسنت الثالث تجاه الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها ، بإصرار عنيد على إدانة الكنيسة البيزنطية بالضلال والانحراف وبإصرار أزيد على تقويم هذه الانحرافات بالقوة بغية بوصيد الكنيسة العالمية تحت رعاية « راع واحد » هو انوسنت ذاته.

فنى عام ١١٩٨ كتب البابا انوسنت الثالث إلى الإمبراطور الكسيوس الثالث يطلب منه « مخافة الله وعروسه الحبيبة كنيسته روما » . وراح البابا يحدر الإمبراطور من أن الشعب المسيحى والبابا ذاته ، لا ، بل المسيح نفسه ، غاضبون جميعاً على بيزنطية ؛ لأن إمبراطورها لم يفلح في إرجاع كنيسة بيزنطة الضالة إلى الوحدة مع سيدة الكنائس في روما « لأنه لا يمكن بحال الاعتراف بكنيسة البيزنطيين المنشقة كنيسة حقيقية » . واختتم البابا رسالته بتوجيه إندار إلى الكسيوس بأنه إن لم يتدارك المسئولون الأمر فإنه عازم على استخدام القوة لمحاربة الحطأ والاعوجاج في كنيسة بيزنطة المنفصلة ، لأنه لن يسمح لها بالمضى في شقاقها وانفصالها عن البابوية صاحبة الإمارة على جسد الكنيسة العالمية (١٩٠) .

Ibid., cols. 413 - 17.

⁽¹¹⁾

كذلك كتب انوسنت الثالث إلى يوحنا العاشر كما تيروس بطريرك القسطنطينية (١٢٠٨–١٢٠٦) رسالة خالية من التحية المعهودة فى المراسلات بين هايرياركية الكنائس . وجاءت هذه الرسالة لتنفى صفة الكنيسة عن كنيسة بيزنطة «بسبب حماقتها وسحابة الجهل المخيمة عليها وانشقاقها عن كنيسة روما » . ومضى البابا فى تقريعه لبطريركية القسطنطينية معلنا أنه لن يرضى على هذا العار الذى جلبه البيزنطيون على الشعب المسيحى وكنيسته الطاهرة الواحدة الوحيدة الرسولية (٢٠) .

ولكن كماتيروس رد على انوسنت الثالث وفند مزاعمه ضد كنيسة بيزنطة واستنكر عليه مطالبته لروما بالإمارة على كنائس العالم مذكرا إياه بأن السلطة الوحيدة التي تمتلك هذا الحق هي المجامع المسكونية التي حرصت القسطنطينية دواماً على الالتزام بقراراتها في حين أن كنيسة روما قد عصفت بها بالعبث بقانون الإيمان النيقي وإضافة عبارات دخيلة عليه في خصوص انبثاق الروح القدس . ثم تساءل البطريرك في نهاية رسالته عن أصاب جسد الكنيسة بالصدع والشقاق : روما أم بيزنطة ع (٢١) .

هذا وقد كتب الإمبراطور الكسيوس الثالث إلى البابا يخطب وده ويتملقه مبديا استعداده لمناقشة أمر وحدة الكنيسة . على أنه ذكر البابا أن الدولة البيزنطية كثيرا ما قدمت العون للحملات الصليبية ولكن قواد تلك الحملات، وخاصة فردريك بربروسا،قد عاملوا البيزنطيين معاملة قاسية فغزوا أرضهم ونهبوا أقواتهم (٢٢)وفي نفس الوقت طلب الكسيوس من البابا التلخل لإرجاع جزيرة قبرص لبيزنطة من يد مغتصبها عموري الثاني من لوزينيان (٢٢).

هذا وقد فات الكسيوس الثالث أن يعلم أن أنوسنت الثالث ذاته قد بسط حمايته على ملك وملكة قبرص في عام ١١٩٨، متعهداً بصون ملكهما

Ibid., cols.9 327 - 29. (Y.)

Ibid., cols. 756 - 57. (۲۱)

Ibid., cols. 765 - 68. (۲۲)

Gesta Innocentii III, cols. exxiii - exxiv. (۲۳)

ضد أى تدخل خارجى وذلك فى عام ١٩٩٨ (٢٤). ولذا فقد كتب البابا الإمبراطور البيزنطى يقول: «لقد جاء مطلبك ليؤذى آذاننا الرسولية بسبب الشرور المنطوية عليه والنوايا السيئة ضد ولدنا الغالى الحبيب ملك أورشليم وقبرص م. ومضى البابا يحذر الكسيوس من محاولة تهديد قبرص لثلا يضطر الملك عمورى إلى تركيز جهوده للدفاع عن الجزيرة فيفت هذا فى عضد القضية الكبرى وفى صراعه الصليبي فى الأرض المقدسة فى الشام (٢٥). كذلك كتب البابا إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا يخبره بمطلب الكسيوس الثالث = طالبا منه أن يبعث إليه بتهديد إن هو جرؤ على التعرض للملك عمورى وجزيرته قبرص (٢٦).

وفي ما يو ١٢٠٠ كتب البطريرك يوحنا كماتيروس إلى البابا انوسنت الثالث رسالة هاجم فيها مزاعمه في إمارة روما على الكنيسة العالمية ، موضحا أن موت القديس بطرس في روما لا يمكن بحال أن يبرر هذه اللعوى . فإذا كان بطرس قيد بشر في روما فهو أيضا قد بشر في انطاكية . كما أن بطرس ليس أميز من إخوته الرسل الآخرين اللين قاموا مثله بالتبشير في مدائن أخرى . كذلك لا يمكن اعتبار استشهاد بطرس في روما شرفا لها بل عارا عليها . ومضى البطريرك يؤكد أن هناك أميرا واحدا للكنيسة العالمية وهو المسيح ذاته . وهذا الأمير «الضابط للكنيسة» واحدا للكنيسة العالمية وهو المسيح ذاته . وهذا الأمير «الضابط للكنيسة» بسير أمورها عن طريق حواسه الحمس أى البطارقة الخمسة ، الذين هم بعيما متساوون في عين الله . أما الكلام الذي وجههه السيد المسيح (أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي) فهو أيضا موجه بنفس الثقل إلى سائر الرسل من إخوة بطرس . وما قيل لواحد من التلاميذ إنما قيل لجميعهم . وإذا كانت روما تفخر بأنها كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، فلمنذ كر أيضا أن هذه الإمبراطورية كانت وثنية . أما القسطنطينية فهي فلنتذكر أيضا أن هذه الإمبراطورية كانت وثنية . أما القسطنطينية فهي

P.L.. Vol. CCXIV, col. 417. (Y1)

Gesta Innocentii III, loc. cit. (Yo)

P.L., Vol. CCXIV, cols. 809 - 10. (17)

العاصمة الأولى للإمبراطورية الرومانية المسيحية بعد خسران الوثنية وزوالها. كذلك أوضح كماتيروس القيمة التاريخية لأسقفيات أورشليم وأنطاكية وأشار إلى أن لفظة «مسيحي» ظهرت لأول مرة في مدينة أنطاكية . وعليه فإن أنطاكية – وهي أيضا أسقفية القديس بطرس – لها الحق في المناداة بالإمارة على الكنيسة لنفسها . واختم البطريرك البيزنطي رسالته بأن «ما قد أوضحته هنا هو ما تتمسك به الكنيسة البيزنطية في حزم، بأن «ما قد أوضحته هنا هو ما تتمسك به الكنيسة البيزنطية في حزم، وأنه شخصياً لن يتزحزح عن هذه المبادىء حتى ولو قوبل بالتهديد والوعيد من أية جهة مهما كان سلطانها «(٢٧).

وهكذا فإن أطماع أنوسنت الثالث وعداوته لكنيسة بيزنطة قوبلت بالاستنكار الشديد من بجانب اكليروس أيا صوفيا وعلى رأسهم يوحنا كاتيروس. ولكن البابا كان يشعر أنه صاحب السلطة كلها في غرب أوربا، وكان يعلم أن بيزنطة قد شاخت سياسياً. ولذا فقد عقد العزم على إخضاع كنيستها بالقوة لسلطانه. وما من شك أن موقفه العدائى هذا نجاه إمبراطور القسطنطينية وبطريركها قد ساهم مساهمة إيجابية في تحول الصليبية الرابعة عن هدفها الأصيل إلى غزو مدينة القسطنينية في عام ١٢٠٤ كما سنرى.

بدأ انوسنت الثالث الدعوة إلى حملة صليبية مند جلس على عرش كنيسة روما . فني عام ١١٩٨ كتب إلى أسقف سيراكيوز وإلى مقدم دير سامبوكين يطلب منهما استنفار أهالى صقلية لحمل الصليب والرحيل للقتال في الأرض المقدسة (٢٨٠) . وفي نفس العام أرسل إلى رئيس أساقفة ناربون ومقدى أديرتها وأساقفتها يذكرهم بقول داود النبي في مزاميره «إذا نسيتك يا أورشليم فلتنس يميني مكرها » ، طالبا منهم الدعوة إلى حمل الصليب والسير إلى بيت المقدس (٢٩٠) . كذلك كتب البابا إلى أسقف ليدن

V. Grumel, Le Patriarcat Byzantin, Vol. II, 2, p. 122. (YY)

P.L., Vol. CCXIV, col. 265. (YA)

Ibid., cols. 308 - 12. (Y4)

يطلب منه مواصلة الجهد لإثارة حماس أهل صقلية لقضية أورشليم الضائعة من يد الصليبيين. وأشار البابا في رسالته هذه إلى جهوده في محاولة عقد صلح بين ملكي إنجلترا وفرنسا المتنازعين وإلى مفاوضاته مع جمهوريات بيزة وجنوة والبندقية بغية تجنيد أساطيلها لحدمة الحملة الصليبية المزمع تكوينها (٣٠) ي بعد هذا أرسل البابا إلى فرنسا مندو به بطرس كاردينال سانتا ماريا دى قيالاتا ليقنع ملك فرنسا بضرورة عقد صلح بينه وبين ملك إنجلترا لادخار قوة المملكتين للحملة الصليبية . وفي نفس الوقت كان على هذا القاصد الرسولي الإشراف على كبار رجال الدين الفرنسيين في تبشيرهم بالصليبية . وسرعان ما ظهر الحماس في غرب أوربا من جديد للحركة الصليبية . وسرعان ما ظهر الحماس في غرب أوربا من جديد للحركة الصليبية .

ولعل أشهر من بشر بهذه الصليبية رجل يدعى فولك من أبروشية نويل وهى مدينة صغيرة تقع ما بين باريس ولا بجرى سيرمارن . ولم يكن فولك صاحب ثقافة ، إذ كان مجرد رينى ساذج ولكنه كان يملك «هذا القبس القدسى» الذى جعل المعاصرين يشبهونه ببسطاء الصيادين فى بحر الجليل الذين اتخذهم المسيح له تلاميذاً (٣١) . ويظهر فولك بادىء الأمر فى المصادر المعاصرة مجرد رجل علمانى (٣٢) . ولكنه فجاءة يطل علينا وهو فى مسوح الرهبان . بعد هذا انتقل فولك إلى باريس حيث راح يدرس اللاهوت الرهبان . بعد هذا انتقل فولك إلى باريس حيث راح يدرس اللاهوت ولكأنه «كان يلتقط الحجارة اللازمة ليسقط بها الجبار جوليات (٣٣)» . وتتلمذ هناك على يد المعلم بطرس لى شانتر الذى قربه منه وكلفه بالتبشير بالصليبية نيابة عنه . وسرعان ما ذاعت شهرة فولك فى باريس حتى كان القسيسون يتسابقون فى دعوته إلى كنائسهم ليتكلم فى جمهور المصلين هنا وهناك .

Ibid., col. 318. (7.)

J. de Vitry, Historiae Occidentalis (ed. F. Moschi), Dueaci, 1597, (γι) CCCXXIV.

[&]quot;Saeculariter tanquam animalia". (TY)

J. de Vitry, op. cit., loc. cit. ("")

وقد رتب له بطرس لى شافتر تلك المناسبة التى وقف فيها على المنصة فى سانت سيفيرين حيث كان حاضرا جمهور من خيرة أساتذة اللاهوت والفلسفة، وتكلم فولك وابكى الحاضرين، حتى إنهم راحوا يؤكدون أن «الروح القدس كان ينطق من فم فولك ». فى حين أن فريقا آخر راح يقارنه بالقديس بولس ذاته (٣٤). وكان شيئا طبيعيًّا أن نسجت أساطير عديدة حول شخص هذا «القديس » فقيل عنه إنه شفى المرضى وأتى بالمعجزات باسم الروح القدس (٣٥).

ولما وصلت الأنباء عن فولك هذا إلى «المسامع البابوية» كتب إليه انوسنت الثالث فى نوفبر ١١٩٨ يبارك له فى جهوده ويقوضه بالتبشير باسمه للحملة الصليبية متعاونا مع القاصد الرسولى فى فرنسا . كما طلب منه السعى لضم «الرهبان البيض والسود فى غالة» إلى صف الحملة (٣٦).

وبينا راح فولك والقاصد الرسولى يبشران بالصليبية فى فرنسا ، كان مارتينوس مقدم دير پايرس يبشر بها فى ألمانيا بتفويض من البابا أيضا . ووعد مارتينوس هذا من ينخرط فى الحملة بغفران لحطاياه وبنصيب وافر من الأراضى والثروة فى بلاد الشرق (٣٧) . وقد لبى الكثيرون من رجال الدين والعلمانيين دعوة مارتينوس للصليبية . كما وكل قيادة بعض الفرق إلى نفر من الاساقفة الألمان حتى تجمعوا تحت إمرته عند مدينة فيرونا (٣٨) .

وفى أواخر عام ١١٩٩ وجه البابا نداءاً إلى رؤساء الأساقفة فى غرب أوربا يأمرهم فيسه باقتطاع جزء من دخول سائر رجال الدين لتمويل الصليبية (٣٩) . كما أعلن أنه هو وكرادلته فى الكيوريا وإكليروس مدينة

Ibid. (Tt)

Geoffroy de Villehardouin, La Conquête de Constantinople (ed. N. de (7°) Wailly), Paris, 1872, C.1.

P.L., Vol. CCXIV, cols. 375 - 76. (71)

Gunther of Pairis, Historia Captae a Latinis Constantinopoleos, in P.L., (TV) Vol. CCXII, cols. 226 - 28.

Ibid., cols, 229 - 30. (TA)

P.L., Vol. CCXIV, Cols. 828 - 30. (74)

روما قد قرروا دفع «عشور» دخولهم لمدة عام للمساهمة في تمويل الحملة. كذلك خاطب البابا هذا النفر من الكونتات والبارونات الذين كانت لهم سيرة سيئة فى المجتمع الغربى يعرض عايهم الغفران لآثامهم القديمة إذا حملوأ الصليب وشاركوا في الحملة لخدمة كنيسة القديس بطرس . ويتضح هذا الاتجاه الذي نهجه انوسنت الثالث في رسالته إلى كونت فورز إذ كتب إليه يذكره بأن البابوات الذين توالوا على كرسي العرش البطرسي تد أصدروا ضده قرارات اللعنة بسبب جرائمه المتتابعة ، ولكنه في وسعه الآن التكفير عن آثامه بحمل شارة الصليب والمشاركة في الحملة الصليبية التي يبشر بها البابا (٤٠٠). كذلك رحب انوسنت الثالث بقرار التوبة الذي اتخذه بلدوين كونت فلاندرز بعد أن أصدر ضده قرار الحرمان والقطع . وبلدوين هذا هو أبرز شخصية في الحملة الصليبية الرابعة وهو الذي سيحمل التاج البيزنطي فوق رأسه كأول إمبراطور لاتيني للإمبراطورية البيزنطية بعد غزوها على يد هؤلاء الصليبيين . وليس من قبيل الصدفة أن يكون البابا انوسنت الثالث قد رفع قراري الحرمان عن بلدوين وأراضيه وأن يكون البابا قد بسط عليه وزوجه وضياعه حمايته الشخصية وحماية الكرسي الرسولي علامة على تبعية بلدوين وأراضيه للسيد البابا انوسنت الثالث. ولعل أهم فقرة وردت في كتاب البابا هذا تلك التي نص فيها على « حمايتك وعشيرتك وأراضيك التي تملكها الآن والتي سوف تكون من نصيبك في المستقبل » (١١) .

تحمس الكثيرون لتلبية نداءات انوسنت الثالث للمشاركة في الحملة الصليبية الرابعة ، وكان على رأس النبلاء الذين حملوا الصليب ثيبوت كونت شمباني وبرى ، والكونت لويس صاحب بلوا وشارترز ، من أقارب ملكي فرنسا و إنجلترا (۲۲) . و بعد قليل أعلن بلدوين كونت فلاندرز هو وزوجه قرارهما بالمشاركة في الحملة ، كما حذا حذوهما هنرى شقيق بلدوين ،

P.L., Vol. GCXIV, cols. 384 - 85.

Ibid., cols. 582 - 85. (£ 1)

Villehardouin, C. II. (57)

ورينيه من ترت ، وغليوم من بثوين ، وجان من نزلز ، وبرنارد من، سوبرهاين وعديدون آخرون (٢٠) . وسرعان ما تحمس للفكرة أيضا هيو كونت سان بول وابن أخيه بطرس من إميان والعديد من أفصالهما (٤٤) .

وكان من بين كبار رجال الدين الذين انخرطوا في الحملة الصليبية الرابعة جارنيه أسقف تروى ، ونيفيلون أسقف سواسون ، وأسقف أوتون ، وكونراد أسقف البرشتات ، ومقدم دير فو — دى — سرناى ، ومقدم دير لووس ومارتينوس مقدم دير پايرس ، وجان من نويون القسيس الحاص للكونت بلدوين صاحب فلاندرز وعدد لايحصى من رجال الدين من المراتب الصغيرة ، جلهم من جماعة السيسترشيان (٥٠) . وفي المؤتمر الذى انعقد عند مدينة كومبين أعلن قادة الحملة من النبلاء ، وعلى رأسهم ثيبوت ، تفويضهم لستة من فرسان الحملة للسفر إلى أى من الموانى الغربية لعقد تفويضهم لستة كانوا جيوفرى من فلهاردوان مارشال شامبانى (وهو مؤرخنا المرموق للحملة الرابعة)، وميلون لى بريبانت ، وكانون من بثوين، وآلارد ماكورو ، وجان من فريز ، وجوتييه من جودونفيل . قرر هؤلاء السفراء السفر إلى البندقية لفتح باب المفاوضات مع دوجها هنرى داندلو في شأن السفر إلى البندقية لفتح باب المفاوضات مع دوجها هنرى داندلو في شأن استخدام أسطول جمهوريته لنقل رجال الصليبية الرابعة (٢٠٠٠) .

رحب داندولو بهؤلاء السفراء الفرنجة وبعد مناقشات ودية اتفق الطرفان على الآتى : تقدم البندقية السفن اللازمة لنقل ٤٥٠٠ من الخيول و٢٠٠٠ من المشاة. من المقاتلين، وسفنا أخرى لتقل ٤٥٠٠ من الفرسان و٢٠,٠٠٠ من المشاة. وتتعهد الجمهورية أيضا بضمان تموين رجال الحملة وحيولهم لمدة تسعة أشهر . « وحبا في الله تتعهد البندقية بتزويد الحملة بخمسين قطعة حربية

¹bid., G. V - VII. (27)

Ibid. (£ £)

Ibid., passim. (to)

Ibid., C. VIII - X. (£7)

بحرية مسلحة – على حسابها – لتخدم الله وقضية المسيحية ». وفي مقابل هذا كان على الفرنجة دفع خمسة ماركات عن كل خيل وماركين عن كل رأس . هذا إلى جانب تسليم البندقية نصف الغنائم التى قد تحصل علما الحملة سواء في البر أو في البحر (٤٧) .

بعد هذا دعا داندولو شعب جمهوريته لصلاة خاصة في كاتدرائية سان مارك لسماع قداس الروح القدس «وللابتهال لله ليلهمهم الصواب في حلفهم مع سفراء الفرنجة». وقد حضر هذه الصلاة عشرون ألفا من أهل الجمهورية . وعقب الانتهاء من طقوس القداس طلب الدوج من جيوفري قلهاردوان مخاطبة جمهور المصلين وطلب موافقتهم على المعاهدة المبرمة بينهم وبين الجمهوية . ووقف قلهاردوان وتكلم فقال إن السادة من نبلاء فرنسا وهم أعجد وأقوى الخلق شرفا وسلطانا قد بعثوا به وبإخوانه أورشليم التي قد وقعت في الإسار ، وذلك بالمساهمة بقوة أسطولم العظيم أي هذه الحملة إلى ماوراء البحار . وقد فعلت كلمات قلهاردوان فعل في هذه الحملة إلى ماوراء البحار . وقد فعلت كلمات قلهاردوان فعل السحر في قلوب البنادقة فانهمر الدمع من عيونهم مدرارا وصاحوا جميعا «نحن موافقون » نعن موافقون » . و بعد هذا المشهد الرائع تلمس الدوج وشكر شعبه على حماسهم من أجل الدفاع عن قضية المسيح (١٤).

وقعت المعاهدة بين الفرنجة وجمهورية البندقية في أبريل ١٢٠١. وبعدها بقليل أوفد الطرفان رسلا من لدنهما إلى المقام البابوي لاعتماد نصوص هذه المعاهدة وقد وافق البابا على المعاهدة وبارك جهود الطرفين في خدمة الصليبية الرابعة (٤٩).

روما و بيزنطة

Ibid. (tv)

Ibid., C. XVI, C. XVII. (\$A)

Gesta Innocentii III, cols. cxxxi. (& 4.)

توفى الكونت ثيبوت فى ربيع ١٢٠١ ، فانعقد مؤتمر عند مدينة سواسون لاختيار قائد جديد للحملة الرابعة . وكان بين الحاضرين بلدوين كونت فلاندرز ، ولويس كونت بلوا ، وجيوفرى كونت برش ، وهيو كونت سان پول . اتفق المؤتمرون على توجيه الدعوة إلى بونيفاس ماركيز مونت فرات ليتلقى مهمة قيادة الحملة خلفا للكونت ثيبوت الراحل . ووافق الماركيز على هذا المطلب ، وعليه فقد صحبه أسقف سواسون وفولك دى نويل وراهبان آخران إلى كنيسة نوتردام دى سواسون حيث قلدوه علامة الصليب (١٠) في يوم أحد أسبوع الفصح لعام ١٢٠١ بدأ الصليبيون يرحلون عن ولاياتهم المختلفة للسفر إلى البندقية . وهناك تجمعوا فى معسكراتهم على جزيرة سان نيقولا دى ليدو . على أن جمعا وافرا منهم أعلنوا أنهم لا يمكنهم الوفاء بنفقات الرحلة . ولذا فقد تبرع أغنياء الحملة بقدر من المال ، ولكن برغم هذا كان المبلغ المتفق عليه مع جمهورية البندقية ما زال يعجز ، ١٠٠٠ مارك (١٥) .

شرح الدوج الموقف لشعبه وبعد مشاورات مع نبلاء الجمهورية أعلن داندولو أنه إذا وافق الصليبيون على مساعدة البنادقة فى غزو مدينة زارا الهنغارية فإن جمهورية سلن مارك ستمهل الصليبيين دفع المال العاجز «حتى يقيض الله لنا ولهم هذا الغزو بنجاح » (٥٢). وافق قادة الصليبية الرابعة على مشروع داندولو وشعبه ، خاصة بعد أن علموا من الدوج أن مدينة زارا وافرة الرخاء والخيرات (٥٣).

بعد هذا الاتفاق بين البنادقة « والحجاح الفرنجة » لغزو مدينة زارا

Villehardouin, XXVII. (0.)

Ibid., XXXV. (01)

الله الأستاذ الدكت ود (٥٢) ملك الأستاذ الدكت ود (٥٢)

Robert de Clari, La Conquête de Constantinopile (ed. D. Ginner), Paris, (ev)
1924, pp. 12 - 13.

المسيحية والتابعة لملك عضو هو وشعبه في الكنيسة اللاتينية ، تجمع الشعب ودوجهم في كاتدرائية سان مارك لطلب البركات من القديس لمشروعهم الحرفي . وصعد الدوج مرة أخرى إلى منصة الكاتدرائية وأعلن لجمهور المصلين أن شرفاً بالغا قد حل بهم وبجمهوريتهم لتحالفهم مع «خير وأشجع الرجال في العالم» في حملة لم يسبق لها مثيل . ثم راح الدوج يرجو البنادقة من الحاضرين في الكنيسة السماح له بحمل الصايب مع الفرنجة وإنابة ابنه عنه في الحكم أثناء غيبته عن الجمهورية . ووافق البنادقة على هذا المطلب، وهنا ركع الدوج أمام المذبح « وبكي بكاءاً مريرا » . وعلى التو برز أحد خلصائه وعلى شارة الصليب على واجهة قبعته حتى يبصرها الجميع فيحذو حذوه الشجعان من أهل البندقية (سبتمبر ١٢٠٢) (١٥٠) .

بينا كان هذا يجرى في البندقية كانت أحداث أخرى بالغة الأهمية تتابع في غرب أوربا . فلقد ظهر الأمير الصغير الكسيوس الرابع نجل الإمبراطور المخلوع إسحق انجيلوس في الغرب اللاتيني . وهناك من الأدلة القوية مايدعو إلى رفض رواية جيوفرى قلهاردوان عن وصول الكسيوس هذا إلى الغرب في أغسطس عام ١٢٠١ ، وإلى افتراض وصوله في خلال عام ١٢٠١ . فنيكيتاسكونياتس يؤكد أن الإمبراطور المغتصب للعرش ألكسيوس الثالث قد أطلق سراح ابن أخيه ألكسيوس الرابع من السجن في عام ١٢٠١ واصطبحه معه إلى إحدى المعارك ضد أحد الضباط المتمردين والمدعو واصطبحه معه إلى إحدى المعارك ضد أحد الضباط المتمردين والمدعو عمانويل كاميزيس . على أن الأمير الشاب هرب من معسكر عمه واستقل سفينة بيزية كانت راسية في ميناء آثيرا . وقد تمكن الكسيوس من الإفلات من عملاء عمه بأن قص شعره على الطريقة اللاتينية وارتدى ملابس شبهة بالزي من عملاء عمه بأن قص شعره على الطريقة اللاتينية وارتدى ملابس شبهة بالزي الغربي . وبهذا هرب في عام ١٢٠١ إلى ألمانيا ليطلب العون من أخته ايريني وزوجها فيليب دوق سوابيا (٥٠) .

Villehardouin, XXXIX.

⁽⁰¹⁾ (00)

Nicetas Choniates, Historia, De Alexio Angelo III, pp. 711 - 12.

وهناك دليل آخر نجده في ال Gesta Innocentii في قولها بأن المركيز بونيفاس دى مونت فرات _ قائد الحملة الصليبية الرابعة _ بعد أن تدارس هو وفيليب دوق سوابيا خطة لإرجاع الأمير الكسيوس إلى عرش بيزنطية قام بزيارة خاصة للبابا انوسنت الثالث وكان يحمل معه رسالة من فيليب إلى البابا تدور حول هذا الأمر (٢٥) فلما علم الإمبراطور الجالس على عرش بيزنطية _ الكسيوس الثالث _ بالأمر بعث إلى البابا أنوسنت الثالث يعرض عليه موافقته على مناقشة مشروع وحدة كنيستى بيزنطة وروما إن أحجمت البابوية عن تعضيد مخطط فيليب السوابي لصالح ألكسيوس الصغير . ورد البابا على الإمبراطور البيزنطى في فيليب السوابي لصالح ألكسيوس الصغير . ورد البابا على الإمبراطور البيزنطى في قيليب السوابي لصالح ألكسيوس الصغر قد زاره في روما، وفي تحديد الفترة التي انصرمت منذ حدوث هذه الزيارة استخدم البابا في رسالته هذه لفظة سال ؟ ١٢ وهو التاريخ الذي يقدمه لنا قلهاردوان ، وإنما هي يقع في أغسطس ؟ ١٢ وهو التاريخ الذي يقدمه لنا قلهاردوان ، وإنما هي تشير إلى تاريخ أبعد من هذا بكثير يتحتم أن يكون في عام ١٢٠١ (٥٠) . تشير إلى تاريخ أبعد من هذا بكثير يتحتم أن يكون في عام ١٢٠١ (٥٠) .

والواقع أن فيليب السوابي كان على اتصال دائم بالبابا انوسنت الثالث منذ

Gesta Innocentii III, col. Cxxii. "Ipse vero (Bonifiacius Montirferrati (07) marchio dux Christiani exercitus) de Francia per Alamanniam transitum fecit, ubi cum Philippe Duce Sueviae, qui se regem gerebat, dicebatur habuisse tractatum, ut Alexium sororium suum, filium videlicet Isachii quondam Constantinopolitani imperatoris, cujus sororem ipse Philippus duxerat in uxorem, ad se captivitatis ergastulo fugientem reduci feceret Constantinopolim ab exercitu Christiano ad obtiendum Imperium Romaniae. De quo, cum idem marchio ad summum Pontificem accessisset coepit agere a remotis".

P.L., Vol. CCXIV, col. 1124. "Nos autem imperiali prudentiae taliter (ov) duximus respondendum, quod praedictus Alexius olim ad praesentiam nostram accedens.".

۱۱۹۹ يخطب وده من أجل تأييده في الحصول على التاج الألماني بدلا من المرشح الآخر أوتو من برونزويك . وكان فيليب يعقد العزم على أن يتوج إمبراطورا للغرب وبعدها يكمل مشروع شقيقه الراحل هنرى السادس في قيادة حملة صيلبية على الشرق لها نفس الأغراض التي كان قد رسمها لها خلف بربروسا . وهناك مصدر آخريذكر أن فيليب السوابي قد كتب إلى البابا انوسنت الثالث في عام ۱۲۰۳ يؤكد له: « إن من الله عليه أو على نسله بالسيطرة على بيزنطة فإنه سيخضع كنيسة بيزنطة لسلطان كنيسة روما » (٥٨) .

وهناك من الدلائل العرضية ما يؤيد صدق هذه النظرية . فمثلا كان القائد الأعلى للحملة الصيلبية الرابعة ، بونيفاس دى مونت فرات ، متغيبا عندما قام رجاله هم والبنادقة بحصار مدينة زارا الهنغاربة فى ١١ نوفبر ١٢٠٢ ، وهذا يوحى بأن القائد العام للحملة قد تخلف فى مدينة البندقية عن عمد لمباشرة أمر بالغ الأهمية والسرية . كذلك ليس من باب الصدفة أنه بعد وصول سفراء الأمير الشاب الكسيوس الرابع إلى البندقية بوقت وجيز جدا ، ظهر سفراء فيليب السوابى : أسقف هالبرشتات ، الجراف برتولد ڤون كانزلنبوجن ، جارفييه ڤون بورلاند ، ديترس فون لوس ، هنريك ڤرن أولن ، روجر ڤون سوسترن ، الكسندر فون فايرز ، وأورى ڤون دون ، هنالك أيضاً (٥٠) .

سقطت زارا فى يد البنادقة وحلفائهم الصليبيين فى ١٣ نوفبر ١٢٠٢. مثم اقتسم الفريقان الغنائم التى وقعت فى أيديهما بعد قتل الأهلين ونهب أملاكهم . ولم يكتف الدوج داندولو بهذا وإنما — حباً فى الانتقام فرق كل

Odoricus Raynaldus, Annales Eccles'astici, Vols. 13 - 21, Coloniae Agrip- (o A) pinae, 1694 - 1727, ad. an. 1203, no 29: "Si omnipotens Dominus regnum Graecorum mihi vel levico mes subdiderit, Ecclesiam Constantinopolitanam Romanae Ecclesiae bona fide et sine fraude faciam fore subjectam in omnibus per omnia fidelis et devotus, atque filius et desensor semper ero."

شيء ـ فقد عمل على هدم أسوار المدينة ودورها مما حدا بأحد المعاصرين إلى القول بأن «حجراً واحد لم يبق ليساند حجراً آخراً في المدينة » (٦٠).

وبعد سقوط المدينة وصل الماركيز بونيفاس دى مونت فرات إلى معسكر الصليبيين . وبعد وصوله إلى هناك بأسبرعين قدم سفراء فيليب السوابي والأمير الكسيوس الرابع إلى قادة المعسكر الصليبي وسلمرا إليهم رسالة من فيليب يطلب منهم فيها تعهد شقيق زوجه (الكسيوس) بالرعاية ، والعمل على إعادته بالقرة إلى عرش بيزنطة ؛ مقابل وضعه سائر الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها تحت سلطان البابوية ؛ بالإضافة إلى دفع مبلغ ضخم من المال إليهم وكذا إمدادهم بخمسهائة من الفرسان للمشاركة في حملهم على بيت المقدس (٢١) .

عقد القادة الصليبيون مؤتمراً لمدارسة الأمر ، وكان مقدم دير لووس وللماركيز بونيفاس والكونت بلدويين من فلاندرز والكونت لويس من بلوا والكونت هيو من سان بول يرون ضرورة قبول عروض فيايب السوابي والكسيوس الصغير « لأنه عار علينا أن نرفضها . . ولأنه لا مكاسب يرجى تحقيقها في سوريا » (٦٢) .

أما هنرى داندولو ورجاله فقد رحبوا بقرار القادة الصليبين؛ لأنه جمهورية سان مارك كانت تتحرق شوقاً إلى اليوم الذى تساهم فيه في تقويض الإمبراطورية البيزنطية ؛ حيث إن هذا يضمن لها حقوقاً اقتصادية طائلة . كما أن الدوج

Annales Herbipolenses. Devastatio Constantinopolitana', in M.G.H.SS., ('\ +) Vol. XVI, pp. 9 - 12.

Villehardouin, L.I.: "Seignor, fait li roys, Je vos envoierai le frere ma feme, (\ \ \ \ \) si le met en la Dieu main, qui le gart de mort, et en la vostre. Tot premierement, se Diex donc que vos le remetez et son heritage, it metra tot l'empire de Romanie a la obedience de Rome, dont ele ere partie pieça.."

Ibid., The Letter of Count Hugh of Saint Pol, in A. Duchesne's Historiae (77)
Francorum Scriptores (5 Vois., Paris, 1636 - 49), Vol. V, p. 272; Rerum
Gallicarum Scriptores, Vol. XVIII, p. 517.

داندولو كانت لديه أسباب أخرى تدعوه إلى التفكير جديباً في الانتقام من القسطنطنية وأهليها ، فلم ينس الدوج ماحل بجالية البنادقة في العاصمة البزنطية عام ١١٧١ . وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الإمبراطور عما نويل كومنين كان قد أمر بسمل عيني هنرى داندولو هذا ؛ مما غرس شعوراً بالحقد والكراهية دفينين في قلبه تجاه كل ماهو بيزنطى . (٦٣) كذلك كانت جمهورية البندقية آنذاك على علاقة طيبة مع سلطان مصر الملك العادل الأيوبي . ويروى كاتب كاتب عملة على علاقة طيبة مع سلطان مصر الملك العادل بقدوم حملة كاتب عبديدة قبالة الشرق أرسل إلى الدوج هنرى داندولو يطلب منه تحويل صيلبية جديدة قبالة الشرق أرسل إلى الدوج هنرى داندولو يطلب منه تحويل

أنظار الحملة عن مصر؛ واعداً إياه بامتيازات تجارية هائلة في ميناء الإسكندرية وبدفع مبلغ طائل من المال لجمهورية سان مارك . (٢٤) والمعروف أنه في عام ١٢٠٨ عقد سفيرا البندقية مارينو داندواو وبيترو ميشيل معاهدة مع سلطان مصر ، حصل بمؤداها البنادقة على امتيازات تجارية خاصة بالفعل في ميناء الإسكندرية .

* * *

لم تكن فكرة الهجوم اللاتيني على العاصمة البيزنطية شيئاً جديداً في عام ١٢٠٤ ، فلقد حدثت محاولات جدية لهذا الغرض عدة مرات في مناسبات

Joannes Baptista Egnatius, De Exemplis Illustrium Virorum Venetae Civitatis atuqe aliarum Gentium (ed. M. Molmus, Paris, 1554, lib. IX, cap. XII; Marino Sanutus, Vitae Ducum Venetorum Italicae Scriptores ab Origine Urbis sive ab Anno 421 usque ad Annum 1493, in Muratori, R.I.SS., Vol. XXII, col. 532; Marcus Antonius Sabellicus, Dell' Historia Vinitiana, Vinegia, 1558, lib. XXXIII.

Estoire d'Eracles, pp. 251 - 52; Ernoul, Chronique (ed. Mas - Latrie), (\ p. 362 : "Ill alerent en Constantinople. Adonc orent bien fait li Veniciens la requeste que li Sodanz (le Sultan) lor ot faite, que il destornassent les pelerins d'aler en la terre de Surie".

سابقة ذكرناها في مكانها في هذا الكتاب. ولكن الفرصة التي أتاحها الأمير الكسيوس الرابع لقادة الصليبية الرابعة والبنادقة كانت فرصة ذهبية لتحقيق هذا الأمل فاهتبلوها دون تردد. وقد وضح لنا في الصفحات القايلة السابقة كيف أن غالبية أفراد الصيلبية الرابعة لم يكن لديهم من المال ما يستطيعون به سداد أجور انتقالهم على السفن التي أعدتها جمهورية البندقية لهذا الغرض. والآن سال لعابهم . وكان داندولو يعلم هذا الشعور المتحفز لدى الصليبيين فراح يبين لهم أن الإمبراطورية البيزنطية وافرة الثراء والخيرات وأن فيها كل ما للا وطاب مما تشهيه الأنفس (٥٠٠). وهنا أعلن القائد العام للحملة بونيفاس دى مونت فرات قراره بالهجوم على مدينة القسطنطنية مبينا أنه يود الوفاء بعهده للملك مونت فرات قراره بالهجوم على مدينة القسطنطنية مبينا أنه يود الوفاء بعهده للملك الألماني فيليب السواني لنصرة صهره الكسيوس الأصغر (٢١٠) .

ومن الهام جداً أن نلحظ أنه في هذه المرحلة بالذات، عندما قرر الصليبيون الهجوم على العاصمة البيزنطية ، راحت المصادر اللاتينية تكشف الدوافع الحقيقية وراء هذا الغزو المرتقب: فالقسطنطنية وبطريركيتها على ضلال مبين ، وكنيسة بيزنطة مهرطقة ومتمردة ضد سلطان البابا ومنحرفه عن قانون الإيمان هما جلب عليها وعلى أهلها كراهية السيد البابا حامى الكاثوليكية والإيمان القويم (١٧٠).

وقعت أحداث حصار ونهب مدينة زارا ما بين ١٣ و ٢٤ نوفمبر ١٢٠٢ .

Robert de Clari, p. 28: "Seigneur, en Grece a molt rike terr et molt plentive (%) de tous biens; se nous poiemes avoir raisonable acoison d'aler y et de prendre viandes en la tere et autre coses.."

Ibid. (%)

Gunther of Pairis, Historia Captae Latinis Constantinopoleos, col. 324: (NY)

"oderat autem summus pontifex illam urbem tam ipse quam ejus praedecessores a multo tempore, quoniam jam diu Romanae Ecclesiae rebellis exstiterat.

ولما علم البابا بهذا أصدر قرارا بالحرمان ضد الصليبيين. ولكن قادة الحملة أرسلوا سفارة إلى المقام البابوى لتطلب من انوسنت قراراً بالغفران. وكانت هذه السفارة تتألف من نيفلون أسقف سواسون، وجان نويون كاتم سربلدوين من فلاندرز، وجان من فريز و وروبرت من بوفز. وافق البابا على رفع قراو الحرمان وإصدار قرار بالغفران لصالح الصليبيين وحبهم على البقاء متحدين لتم على أيديهم خدمة جليلة لله (٢٦٠). ولكن الرسول البابوى الذى حمل إلى قادة الصليبية هذا القرار بالعفو والغفران كان يحمل رسالة بقرار الحرمان ضد الدوج داندولو ورجاله (٢١٠) على أن بونيفاس دى مونت فرات وأقرانه كتموا أمر هذه الرسالة وبعثوا إلى البابا يشرحون له الأسباب التى دعتهم إلى معاونة البنادقة في غزو مدينة زارا عكما أنهم أكدوا للهابا أنهم على استعداد لتسليم قرار الحرمان للدوج ورجاله إن أصر انوسنت على ذلك (٢٠٠).

كان البابا انوسنت الثالث يدرك تماماً أن للصليبيين نوايا مبيتة ضد القسطنطينية ؛ وهو يشير إلى هذا صراحة فى رسالة له إلى إمبراطور بيزنطة فى نوفمبر ١٢٠٣ (٧١). وفى نوفمبر ١٢٠٣ استولى الصليبيون على مدينة زارا ووضحت بهذا نيتهم على مواصلة الزحف قبالة مدينة قسطنطين . والعجيب فى الأمر أن البابا — وقد تلتى رسالة القادة الخاصة بالدودج داندولو ورجاله — ظل صامتاً لا يتحرك من نوفمبر ١٢٠٣ حتى يونيو ١٢٠٣ ، حين بعث برسالة إلى بونيفاس دى مونت فرات يطلب منه فيها تسليم قرار الحرمان إلى

P.L., Vol. CCXV, col. 260.

Gesta Innocentii III, col. CXL. (74)

P.L., Vol. CCXV, col. 103.

P.L., Vol. CCXIV, col. 1124: "quod idem Philippus nuntios suos ad (VI) principes exercitus Christiani sine qualibet dilatione transmisit, rogans cos et petens ut, quia Pater suus et ipse fuerant jure suo et imperio nequiter spoliati, cum co Constantinopolitanum deberent régnum

[&]quot;...intrare روما و بيزنطة

الدوج داندولو (٧٧). هذا الموقف البابوى الغريب وفشل انوسنت الثالث فى دمغ العدوان ضد زارا فى حيته وصمته « المتعمد» قرابة شهور سبعة يدعونا للقول بأن البابا قد تعمد الصمت ليسمح للصليبية بالمضى فى طريقها الجذيد قبالة بيزنطة . فما أن تلتى الصليبيون قرار الغفران البابوى بعد جرائمهم البشعة ضد مدينة تخضع لملك عضو فى الكنيسة اللاتينية حتى واحوا يعدون العدة فى جرأة بالغة للوثوب على بيزنطة بغية تحقيق نصر صلبى مؤزر على إمبراطورية على جرأة بالغة للوثوب على البابا ذاته . ولذا فإن القول « بانحراف » الصليبية كريهة وكنيسة متمردة على البابا ذاته . ولذا فإن القول « بانحراف » الصليبية ذلك لأن الهجوم على القسطنطينية كان متعمداً ومقصوداً وبتشجيع زائد من نيشيلون أسقف سواسون وجان دى نويون اللذين كانا قد فوضا من قبل البابا نيشيلون أسقف سواسون وجان دى نويون اللذين كانا قد فوضا من قبل البابا بهذه المهمة . إن غزو القسطنطينية عام ١٢٠٤ قد تم نتيجة لحطة محكمة بهذه المهمة . إن غزو القسطنطينية عام ١٢٠٤ قد تم نتيجة لحطة محكمة نسجت خيوطها فى سرية تامة فى أروقة غرب أو ربا ؛ وأطرافها فيليب السواى وبونيفاس دى مونت فرات والبابا انوسنت الثالث ذاته .

وليس بعجيب إذن أن نرى هنرى داندولو يخطب فى الصليبيين فيقول:

« أيها السادة إن لدينا الحق كل الحق فى الهجوم على القسطنطينية » ، فيرد عليه قادة الصليبية ، علمانيين وإكليروس: وما شأننا وبابل أو الإسكندرية ونحن لا نملك خبزا ولا لحما ـ إنه من الخير ألا ندهب هناك فنهلك جوعاً (٧٣). هذا ونجد ال Cronaca dei Veneziani تنص صراحة على أن البابا انوسنت الثالث قد أرسل الأمير الصغير الكسيوس الرابع إلى الدوج هنرى داندولو ؛ طالباً منه معاونته فى الحصول على تاج الإمبراطورية البيزنطية (٧٤).

P.L., Vol. CCXV, col. 106.

⁽ ۷۲)

Robert de Clari, p. 32.

⁽ YY)

Martino da Canale, La Cronaca dei Veneziani, Frienze, 1845, pp. 324. (V\$) seq.

وصل الأمير الكسيوس إلى مدينة زارا في مايو ١٢٠٧ ، حيت رحب به الله وج داندولو ، ثم زوده ببعض القطع البحرية . وأبحرت الحملة الصليبية الرابعة ، وفي معيتها الكسيوس هذا ، إلى مدينة دورازو . ولم تجرؤ المدينة البيزنطية على مقاومة الفرنجة فسلم أهلوها المدينة إليهم وأقسموا يمين الولاء والطاعة لالكديوس . ومن هناك أبحر ألكسيوس إلى جزيرة كورفو نقطة تجمع الصليبيين . ولقيه الماركيز بونيفاس دى مونت فرات هناك بحماس وترحاب بالغين وأمر بإقامة خيمة ألكسيوس بجوار خيمته . ومن كورفو أبحرت الحملة إلى رأس ماليا حيث التي الصليبيون بسفينتين تقلان بعض الفرسان العائدين من سوريا . وقفز أحد هؤلاء الفرسان من على ظهر السفينة التي كانت تقله وصرخ في وجه رفاقه المشدوهين : « إنى لست في حاجة إلى متاعى فإنى ماض مع هؤلاء القوم ، ويقيني أتهم مقلمون على غزو عظيم » (٥٠) . هذا وقد حدث أن أرسل الفرنجة في سوريا رسلا إلى قادة الصليبية الرابعة يطلبون مهم علملرعة لإنقاذهم من الأخطار المحيطة بهم في الشام : ولكن الصليبين قد صموا آذانهم ولم يكترثوا بأمر الشام والأرض المقدسة (٢٠).

بعد هذا دخل الأسطول الصليبي قنال أبيدوس حيث رست الكتائب وأخذت الأهلين على غرة فنهبت المحاصيل كلها . تم استأنف الأسطول إبحاره ورسي عند خلقدونية المواجهة للقسطنطينية على الجانب الأناضولي للمضايق ؛ قبالة قصر يملكه الإمبراطور ألكسيوس الثالث . وانتشر الفرنجة في المناطق المجاورة لحلقدونية ونهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم من غلال . ومن هناك واصلت الحملة الزحف حتى سكوتارى وأقيمت المعسكرات الصليبية على مضايق سان جورج عند سكوتارى .

وحد ألكسيوس الثالث أنه أمام عدو لا يرحم ، فأرسل إليهم أحد اللاتين الذين كانوا في خدمته ويدعى نيقولا روكس ومعه رسالة إلى قادة الصليبية .

Villehardouin, LX.

⁽v₀)

تقول هذه الرسالة إن الإمبراطور يعلم أن الفرنجة هم أفضل الأجناس على وجه البسيطة ، ولذا فهو يعجب من زحفهم على أراضي مبراطوريته بدلا من مواصلة السير إلى الأرض المقدسة : « فأنتم مسيحيون والإمبراطور وشعبه أيضاً مسيحيون » . ثم يعرض الإمبراطور عليهم المال إن كانوا في حاجة إليه (٧٧).

وهنا تصدى للرسول شاعر فرنجي يدعى كونون من بثوين فصاح في وجهه أن ألكسيوس الثالث قد اغتصب التاج البيزنطي دون حق وعليه إعادة التاج إلى ألكسيوس الصغير ووضع نفسه تحت رحمته .

كان هذا تحدياً واضحاً لأ لكسيوس الثالث بل وإعلاناً للحرب ضد الحكومة البيزنطية . ولذا فإن بارونات الحملة نظموا استعراضاً بحريا مكنوا فيه ألكسيوس الأصغر من الظهور على مرأى من أهالى العاصمة وهم يصيحون « هذا هو سيدكم الشرعي » ؛ ولكن الأهالي قابلوا هذه المظاهرة المفتعلة بفتور شدید(۲۸) .

وفى اليوم التالى بعد صلاة القداس أعد القادة العدة لحصار مدينةً قنسطنطين . وكان حماس الأساقفة ومقدمو الأديرة المشاركين في الحملة شديداً ، فراحوا يبشرون الجند والفرسان بالنصر ويحثونهم على الصلاة وكتابة وصاياهم قبل بدء المعركة (٧٩) . وفي السادس من يوليو ١٢٠٣ استولى الصليبيون على قلعة جلاتا الني كانت تتحكم في مداخل ميناء القسطنطينية . وتقرر شن هجوم شامل على المدينة من البر ومن البحر . وبعد أربعة أيام من اتخاذ هذا القرار انخذت كل فرقة موقعها المخطط لها أمام قصر بلا شرناى . وسرعان ما دار القتال بين اللاتين والبيزنظيين . وفي أثناء ذلك نجح أسطول البندقية في الوصول إلى الجزء الواقع تحت أسوار المدينة ، ومن هذا الموقع الفريد انطلقت المجانيق تدك المدينة بتوجيه من الدوج داندولو الذي ، برغم فقدان بصره ، وقف

Villehardouin, LXVI.

2.11 11 11 11 25 SE WAR MARKETT &

Ibid., LXVIII.

(VA)

(NY)

Ibid., LXX.

115 Min 3317 19 (٧٩) شامخاً على ظهر السفينة ممسكاً براية القديس مرقص بيده ، وقد أمر أتباعه بنقله إلى المرسى . وما إن لمح البنادقة راية قديسهم على الشاطئ تسبقهم حتى وثبوا جميعاً على السور (١٧ يرليو ١٣٠٣) . وهنا فزع الجند البيزنطيون من حراس السور وولوا هاربين تاركين السور للبنادقة . وبهذا وقعت خمس وعشرون قلعة في يد البنادقة . ولما شن ألكسيوس الثالث هجوماً على البنادقة أشعل هؤلاء النار في المنطقة الواقعة بينهم وبين جند الإمبراطور واحتموا من ألسنتها داخل الأبراج التي استولوا عليها . ولما استدار ألكسيوس ليهاجم الفرنجة النقض البنادقة عليه من الخلف واضطروه إلى الانسحاب قبالة قصر فيلم ياتريون . ودارت الدائرة على ألكسيوس الثالث .

وفى تلك الليلة بالذات ، بعد أن أيقن ألكسيس الثالث أن اللاتين قد عقدوا العزم على غزو المدينة ، فر من عاصمته تحت ستار الظلام واصطحب معه خلصاءه المقربين (٨٠) . ولما ذاع الحبر في المدينة أسرعت الجماهير إلى السجن الذي كان يحتوى إسحق انجليوس والبسوه الرداء الإمبراطوري وحملره إلى قصر بلا شرناى حيث أجلسوه على العرش وأقسموا له يمين الولاء والطاعة . وبعدها أرسلوا رسلا إلى المعسكر الصليبي خارج أسوار المدينة لنقل الأنباء إلى ألكسيوس الأصغر ابن إسحق (١٨ يوليو – أول أغسطس ١٢٠٣) (٨١).

أرسل قادة الصليبية سفارة من اثنين من الفرنجة واثنين من البنادقة لمقابلة الإمبراطور إسحق انجيلرس وطلب موافقته على العهود التي كان ولده الكسيرس الرابع قد التزم بها أمام الصليبيين . ولما علم إسحق إنجيلوس بطبيعة هذه العهود صعق لما سمع لأن ما تعهد به ولده كان يفوق العقل (٨٢) . ومع هذا فإن الإمبراطور الأعمى الهرم لم ير مفرا من الموافقة على هذه الشروط التي تعهد

Hygh of St. Pol., loc. cit. (A.)

Villehardouin, LXXXIV. (A1)

Ibid., LXXXVII. (AY)

بها ولده « النزق ».(^^^) . و بعد وصول تلك المواثبق إلى المعسكر الفريجي امتطى وعماء البارونات خيولهم وأحضروا ألكسيوس إلى أبيه .

كان شعب القسطنطينية يبغض آل إنجيلي جميعاً ، ولكن سخطهم الزائد كان ضد ألكسيوس الصغير الذي رأوا فيه أنموذجاً للانتهازية والنزق . فهو الذي أتى « بأصدقاءه » الفرنجة إلى مدينتهم حيث واح هؤلاء « المتبربرون القساة » الآن يضربون الطرقات والشوارع في القسطنطينية في تحد سافر لمشاعر الأهلين . وسرعان ما وقع الصدام الذي لا مفر منه بين أهل العاصمة والصليبيين المخمورين . وهنا رجا إسحق وألكسيوس البارونات أن يقيموا معسكرهم على منأي من المدينة عند إستانور » ووافق القادة الصليبيون على معسكرهم على منأي من المدينة عند إستانور » ووافق القادة الصليبيون على هذا المطلب . وفي أول أغسطس ١٢٠٣ توج ألكسيوس الرابع شريكاً في الحكم مع والده إسحق إنجيلوس . وبعدها سلم ألكسيوس إلى الدوج داندولو مع والده إسحق إنجيلوس . وبعدها سلم ألكسيوس إلى الدوج داندولو وكانت هذه المبالغ كافية لأن ترهق خزانة الدولة .

هذا ورغم نقل معسكر الصليبيين إلى استانور إلا أن السلطات سمحت لهم بزيارة العاصمة . وكان ثراء المدينة كافياً لإيقاظ غريزة النهب لدى الفرنجة كما راح الأساقفة ومقدمو الأديرة اللاتين يرنون بأبصارهم حقداً وجشعاً إلى الأيقونات والآثار المسيحية النادرة التي كانت تكتنز بها كنائس العاصمة . ولقد اضطر ألكسيوس الرابع أمام تصاعد حدة التوتر ، إلى زيارة البارونات في معسكرهم ، حيث طلب منهم عدم مبارحة معسكرهم تجنباً لصدام بينهم وبين شعب العاصمة . ولما كانت الخزانة قد أرهقت ولم يعد في إمكان الكسيوس سداد المال الذي وعد به الفرنجة والبنادقة فقد طاب من القادة إمهاله عاماً كاملا . وكان هذا يعني بقاء الحملة عند القسطنطينية عاماً آخر . رحب

Bibliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, pp. 131 - 135. (१४)

Radulphus, Abbot of Coggeshall, Chronicon Terrae Sanctae, Vol. V, (At) ad an. 1203.

البنادقة بهذا القرار وقرر الدوج وضع أسطوله فى خدمتهم طوال العام . بعد هذا اصطحب ألكسيوس الرابع الماركيز بونيفاس والكونت هيو من سان بول وهنرى من فلاندرز وبعض خلصائه من البيزنطيين للقيام بجولة فى أنحاء الإمبراطورية .

فى أثناء غياب ألكسيوس الرابع عن العاصمة وقع صدام بين اللاتيين وأهالى العاصمة . وقد نجم عن هذا الصدام أن نشب حريق كبير الهم كثيراً من المبانى وأتى على بعض الكنائس (نوفبر ١٢٠٣) . وامتدت ألسنة النار إلى الميناء وأصابت أكثر الأحياء ازدحاماً بالسكان وهو الحى الذى كان بجوار آياصوفيا . وقد ظلت النار مشتعلة لمدة أسبوع كامل فأهلكت عدداً ضخماً من الأطفال والنساء (٥٠).

جاءت هذه الأحداث لتؤكد لألكسيوس الرابع أنه يتحتم عليه تغيير موقفه تجاه الصليبيين والبنادقة إرضاءاً للشعب الساخط على علاقات المودة بينه وبينهم . ولذا فقد بدأ الإمبراطور يستعلى على البارونات الفرنجة ، كما أبطل إرسال الهدايا والعطاءات إليهم .

أمام هذا الموقف الجديد عقد الدوج والبارونات مؤتمراً قرروا فيه إيفاد سفارة إلى البلاط البيزنطى لتهديد ألكسيوس ووالده . وذهت السفراء كونون من بثوين وجيوفرى من فلهاردوان وميلون لى برابانت وثلاثة آخرون من رجال الدوج إلى القصر الإمبراطورى حيث طلبوا من إسحق وولده الوفاء بعودهما للحملة التي رفعتهما إلى العرش ، وإلا فالعاقبة جد وخيمة (٨٦٠) . كان هذا التهديد السافر تطاولا لم يسبق له مثيل على التاج البيزنطى داخل القصر الإمبراطورى في مدينة قنسطنطين . وما أن انتهى السفراء من الإدلاء بإنذارهم الفظ » حتى علت أصوات داخل حجرة الاستقبال تطلب عقاب أصحاب هذه الألسنة «الوقحة » . والحق أن السفراء الفرنجة ما أن انتهوا من مهمتهم هذه حتى هربوا على خيولهم قبالة معسكرهم فنجوا بصعوبة من القتل على يد

Villehardouin, CX.

(A 0)

Ibid.

الحرس الإمبراطورى . وأبلغ السفراء قادة الحملة بتفاصيل الأحداث التى وقعت لهم فى القصر . ويروى روبرت دى كلارى أن مقابلة ما تمت بين الدوج وألكسيوس الرابع هدد فيها الأول الثانى بقوله : « نحن قد رفعناك من الرحل ولكنا فى مقدورنا إغراقاك فيه من جديد ، أيها الطفل الأرعن » (٨٧) .

بات واضحاً إذن أن الدوج ونبلاء الحملة قد عقدوا العزم على غزو القسطنطينية في الوقت الذي كان يتربع فيه على العرش البيزنطى ألكسيوس الرابع الذي أعطى الحملة الصليبية الرابعة الفرصة للقدوم إلى المدينة . وقبل أن نتابع الأحداث التي أدت إلى سقوط الدولة البيزنطية في يد الفرنجة ، لابد من إلقاء بعض الضرء على عدة حقائق هامة تساعد على تفهم خلفية هذا الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين :

١ – تعرضت بيزنطة ومصالحها للتهديد من جهة الغرب اللاتيني منذ القرن العاشر . وكانت البابوية هي العامل الأساسي في تمهيد الطريق للأباطرة الألمان لاستئصال شأفة النفوذ البيزنطي في وسط وجنوب إيطاليا . وفي النصف الثاني من القرن العاشر مضى أوتو العظيم وخلفاؤه قدماً لتحقيق سيطرتهم على مواقع النفوذ البيزنطية السابقة والتي صارت تعرف بعد ذلك باسم Regnum Italicum .

٧ - فى القرن الحادى عشر باركت البابوية هجوم النورمان على الممتلكات البيزنطية فى الجنوب الإيطالى ، كما ساهمت مساهمة إيجابية فى حملة روبرت جو يسكارد (١٠٨١) للقضاء على بيزنطة . ونهجت الكيوريا وأميرها نفس المنهج فى صليبية بوهمند ضد بيزنطة (١١٠٧) وفى ذاك الحلف الذى لم يكتب له النجاح بين روجر الثانى ولويس السابع ضد الدولة البيزنطية فى عام ١١٤٧.

٣ - تبنى الهوهنشتاوفن هذه السياسة العدائية تجاه بيزنطة وفكر بربروسا وولده هنرى السادس جديا فى ضم بيزنطة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

٤ — كان الفرنجة يحتقرون البيزنطيين ويتهمونهم بالضعف والنفاق والخنوئة. وكان البيزنطيون يكرهون أهل الغرب اللاتيني « المتبربرين » خاصة بعد أن أيقنوا أن شارة الصليب التي يحملونها إنما هي قناع الأطماع دنيوية. ولعل خير مايدلل على هذه الكراهية ماحدث في عام ١١٨٧ عندما ربط أهل القسطنطينية رأس أحد الكرادلة اللاتين في ذيل كلب في شوارع العاصمة (٨٨).

حاءت تقريرات المسئولين في الإمارات الصليبية في سوريا عن بيزنطة لتؤكد للكيوريا والدوائر الكنسية في الغرب أن السلطات البيزنطية تمثل تهديداً للقضية الصليبية أشد وأنكى من تهديد الرك لها . وقد تحمس لهذه الفكرة كبار الساسة واللاهوتيين في غرب أور با وعلى رأسهم القديس برناردي كليرفوه وبطرس الوقور وشوجير من سانت دينيس ولويس السابع .

7 - كان البابا انوسنت الثالث يرى ضرورة إخضاع الكنيسة البيزنطية بالقوة لسلطان كنيسة روما ، كما وضح فى رسائله السابقة اللكر . كما أن فيليب السوابى ، لعلمه بهذا ، راح يمنى انوسنت بتحقيق هذه الرغبة له وذلك في محاولة كسب وده واسترضائه . كذلك فعل ألكسيوس الرابع فى مقابلته للبابا في روما ، وفي تعهداته لقادة الحملة الرابعة عند مدينة زارا .

ولم تكن سياسة انوسنت الثالث في هذا الصدد أمراً جديداً: فني عام ١٠٧٤ فكرر البابا جريجوري السابع جدينًا في تحقيق هذا الغرض . كما أن هذه السياسة الهلدبراندنية في وحدة الكنائس دعت أقلام الكتاب في الغرب إلى تأييد هذه النظرية التي استندوا فيها إلى كتابات القديس أغسطينوس وتعاليم البابا جريجوري العظيم . وبذا أصبحت وحدة الكنائس تحت إمرة البابوية تمثل قانونا أساسيا من القوانين الكنسية في العصور الوسطى . وأبرز أنسلم من لوكا ضرورة إجبار الهراطقة والانشقاقين على قبول الوحدة . كما نادى بونيز و من سوترى بمقاتلة الهراطقة والانفصاليين قبل التفكير في محاربة الكفار ، وذلك تحت الشعار

المعروف بإسم Schismatic s et hereticos debellare انوسنت الثالث ليترجم هذه الشعارات والاتجاهات إلى واقع فعلى .

٧ - كانت كل الصليبيات فى مظهر من مظاهرها رحلة للحج ، فالصليبى الحق هو قبل كل شيء حاج إلى الأراضى المقدسة وبغيته رفع صليبه عالياً ، وقد وضح القسم الصليبي فى الأنشودة التى كان يتغنى بها الألمان فى حملة بربروسا فى عام ١١٨٩ :

Des tages do ich das Kriuze nam

...... als ein rehter bilgerin. (٩٠)

وكانت القسطنطينية تمثل مكاناً من هذه الأراضي المقدسة بالنسبة للعالم المسيحي ، لأتها كانت تحتوى على أعز ما لدى المسيحية من آثار مقدسة ، وكان وقى مقدمة هذه الآثار صليب الصلبوت الذي هو شارة كل صليبي . وكان رجال الدين اللاتين يؤمنون إيماناً قاطعاً بضرورة تخليص هذا الصليب وبقية الآثار المقدسة من أيدى الهراطقة البيزنطيين . فلقد اهتم البابا أوربان الثانى عندما بشر بالحركة الصليبية لا بالضريح المقدس في أورشليم وإنما بصليب الصلبوت . (٩١) كذلك نجد كاتباً بيزنطيا في القرن الثالث عشر الصلبوت . (٩١) كذلك نجد كاتباً بيزنطيا في القرن الثالث عشر والجلجثة إلا أن أهل العاصمة البيزنطية كانوا يشعرون أن المسيح ذاته في وسطهم وذلك بسبب احتفاظهم فيها بصليب الصلبوت والحربة المقدسة وإكليل الشوك وقطعة الإسفنج التي قدم اليهود فيها الحل إليه والمسامير التي سمرت جسده وقطعة الإسفنج التي قدم التهود فيها الحل إليه والمسامير التي سمرت . ويرجح

Bonizo of Sutri, Liber ad Amicum et Liber de Vita Christiana, in P.L., (A4)

Vol. CL, cols. 803 - 56.

M. Coleville, Les Chansons Allemandes des Croisades en Moyen Haut (4.) Allemand. Paris, 1936, p. 60.

Gesta Dei per Francos, in R.H.C. OCC., Vol. IV, p. 138. (91)

Nicolas Mesarites, Opera, in Λ. Heisenberg, Neue Quellen zur Geschichte (۹γ) des lateinischen Kaisertums, Munich, 1923, p. 27.

أن الرسالة التى قيل أن ألكسيوس الأول كومنين قد بعث بها إلى الكونت روبرت الأول من فلاندرز والتى احتوت قائمة كاملة بتلك الآثار المقدسة قد تليت على جند الصليبية الرابعة عشية غزوهم لمدينة القسطنطينية.

٨ - كان للبندقية حكومة وشعباً ، رغبة جد كبيرة فى تحطيم كيان بيزنطة لغرضين : الانتقام من أحداث ١١٧١ ، ثم الحصول على امتيازات تجارية واسعة بعد إسقاط الحكومة البيزنطية والفوز بنصيب كبير من أراضيها الساحلية . ولذا فإن نيكيتاس كونياتس المؤرخ البيزنطى المعاصر وشاهد العيان قد كتب فأوضح أن داندولو هو ال actor rerum لما حل ببيزنطة من خراب في عام ١٢٠٤ .

٩ - كان أفراد الصليبية الرابعة من علمانيين وأكليروس ينظرون إلى البيزنطيين على أنهم هراطقة إن لم يكونوا (كفاراً » يحل قتالهم وقتلهم بالسيف ، كما تنطق بهذا كتابات المعاصرين .

الكسيوس الرابع الذى أعطى الصليبيين الفرصة للقدوم الحاصمة البيزنطية سرعان ما اكتشف نواياهم ضد كيان إمبراطوريته . وهنا نجد المصادر الغربية تشير إليه على أنه «خائن كسائر أسلافه» .

وإنا إذ نفحص المصادر الغربية للبحث عن المبررات التي قدمها رجال الدين المسئولون في الحملة لغزو القسطنطينية نجدها كالآتي :

- _ إن القسطنطينية تمردت ضد كنيسة روما .
 - إن كنيسة بيزنطة منشقة ومهرطقة .
 - _ إن البيزنطيين أعداء للسيدة العذراء .
- ــ إن بيزنطة قد خانت قضية الحركة الصليبية مذ قيامها .
- الآثار المقدسة في القسطنطية يجب ألا تبقى في أيدى هؤلاء الهراطقة فقد آن الآوان لتخليص صليب الصلبوت من أيديهم .

يضمرون الكراهية والغدر ضد « الحجاج » اللاتين .

ــ إن الهجوم على مدينة قنسطنطين هو تحقيق فعلى « لإرادة الله » التي بشر بها أوربان الثاني وخلفاؤه من البابوات حتى أنوسنت الثالث (٩٣).

كان من بين أعوان ألكسيوس الرابع شخص يدعى مورةز وفلوس. وقد رأى هذا ضرورة مقابلة التحرشات الصليبية بالعاصمة وتهديداتهم المتكررة لحامل التاج بالقوة العسكرية. وعلى هذا فإنه ذات ليلة جهز سبع عشرة سفينة محملة بمواد مشتعلة ووجهها إلى مكان تجمع الأسطول الصليبي . ولكن البنادقة نجحوا في إنقاذ أسطولهم من النار بأن دفعوا بالسفن المشتعلة من الميناء إلى المضايق حيث جرفها التيار .

بعد هذا دبر مورتز وفلوس وأعوانه انقلاباً ضد ألكسيوس الرابع ووالده ، ونجحت المؤامرة بسبب الكراهية الزائدة التي كان الشعب يضمرها لآل إنجيلي. بصفة عامة ولألكسيوس الرابع بصفة خاصة . ولقد عمل قائد الانقلاب على خنق ألكسيوس الرابع ، بينما مات والده رعباً وحزناً . وقد تمت المؤامرة في سرية تامة ، وروج صاحبها أن وفاة ألكسيوس كانت طبيعية ، كما وأنه نظم له جنازة فاخرة وراح ينوح عليه علانية (٩٤) .

وصلت أنباء وفاة الإمبراطورين إلى المعسكر الصليبي . ومع أن الدوج والبارونات كانوا قد هددوا الامبراطورين الراحلين بخلعهما عن العرش ، إلا أنهم راحوا الآن يتباكون عليهما ويهددون بالانتقام لهما من مرتز وفلوس . وواقع الأمر أن اللاتيين في استانور قد ارتاحوا لهذه التطورات في العاصمة البيزنطية والتي أعطتهم التبرير لإقدامهم على مهاجمة القسطنطينية . أما مرتز وفلوس فقد أدى واجبه كمواطن بيزنطي مخلص ، إذ خلص الإمبراطورية من أيدى شاب نزق وعجوز متهالك ؛ ويقال إنه برر فعلته .

Robert de Clari, pp. 71 - 72, Villehardouin, XCVIII; Da Canale, p. 327; (47) Gunther of Pairis, cols. 237 - 38.

Villehardouin, XCVIII; Gunther of Pairis, col. 238. (48)

بقوله: «من الأخير اغتيال إمبراطور أحمق عن التضحية بمصير الإمبراطورية بسبب حماقته» (٩٥). لم يكن مرتزوفلوس جنديا قادراً ولكنه بذل قصارى جهده فى مواجهة التحدى الصليبي . حقيقة أنه فشل فى كفاحه ولكن اللوم لا يقع عليه ؛ فقد كانت الدولة وقبها تعانى من انهاك شديد فى مالها ورجالها بعد أن تعرضت للمحنة تلو الأخرى بسبب الموجات الصليبية المتتابعة وهجمات سلطنة قونية وأرمينيا وأمراء الشرق اللاتينى .

نشب القتال بين الصليبيين والجيش البيزنطى بقياده مرتز وفاوس. وقام الكونت هنرى من فلاندرز بغزو مدينة فيليا وبهبها كما أسر عدداً كبيراً من أهلها . تعقب مرتز وفلوس ورجاله الكونت هنرى ، ولكن بقية أفراد الجيش الصليبي سرعان ما أحاطوا به وأوقعوا به هزيمة ساحقة . هرب مرتز وفلوس من الهلاك في أرض المعركة بعد أن فقد للعدو رايته الإمبراطورية وأيقونة السيدة العذراء التي كانت تحمل أمام رايته وقت الحرب (٩٦) .

بعد هذه الواقعة عقد الفرنجة والبنادقة اتفاقاً للاستيلاء على القسطنطينية وتوزيع غنائمها فيا بينهم . كما عينوا اثنا عشرة ربعلا نصفهم من البنادقة والنصف الآخر من الفرنجة لانتخاب إمبراطور من قادة الحملة يحكم الإمبراطورية البيزنطية «لإعلاء كلمة الله وشرف كنيسة روما» . والفريق الله كلا ينتخب الإمبراطور من بينهم يكون من حقهم تعيين واحد من جماعتهم لكرسي البطريركية في آياصوفيا . وتقوم لجنة من أربعة وعشرين نصفهم من البنادقة والنصف الآخر من الفرنجة لمعاونة الإمبراطور المنتخب في توزيع الوظائف العليا على رجال الصليبية وفي تقسيم الإقطاعات على البارونات . ويصدق السيد البابا على قرارات هذا الاتفاق ، ومن يعبث بها يكون عرضة لقرار الحرمان (١٩٥٠) .

Gunther of Pairis, col. 328. (90)

Villehardouin, XCIX; Choniates, 388, B. (97)

Rerum Gallicarum Scriptores, Vol. XVIII, pp. 549 seq. (9V)

وقع هذا الإتفاق بين الفرنجة والبنادقة في مارس ١٢٠٤ ، وهكذا تحدد بصفة قاطعة سقوط العاصمة البيزنطية على يد الحملة الصليبية الرابعة . ربط الصليبيون قطع أسطولهم اثنتين اثنتين لحمل المعدات اللازمة لمهاجمة القلاع من على أما مرتزوفلوس فقد وقف على رأس جيشه وراء أسوار المدينة لمواجهة اللاتين . وقامت السفينتان الصليبيتان «الحاج» و «الجنة» بهجوم مركز على أحد الأبراج ، وتمكن بهذا أحد البنادقة وأحد الفرسان الفرنجة من تساق السلم الذي كان على ظهر السفينة «الحاج» ودخول هذا البرج . وتبعهما جند صليبيون كثيرون في وثوبهم على الحامية التي كانت تقوم بمهمة الدفاع عن سور المدينة . وهنا تدفق الجند الصليبيون على بوابات المدينة وحطموها فدخلوها شاهرين سيوفهم لمقاتلة مرتزوفلوس وربحاله . وبعد قتال مرير اضطر الحيش البيزنطي إلى التقهقر تحت وطأة الهزيمة ، وهرب مرتزوفلوس في شوارع المدينة إلى قصر بوصوليون (٩٨) .

ولج الغزاة قلب مدينة قنسطنطين وعملوا نهباً ونقتيلا في أهليها . وهلك قوم كثيرون من شعب العاصمة « حتى بات من العسير حصر أعداد القتلى » (١٩٠٠) . وتسلل رب البيت – مرتز وفلوس – خلسة من خلال البوابة الذهبية تازكاً « أحلى المدائن » لمصيرها المحتوم . وبعدها أشعل الصليبيون حريقاً مروعاً في الحي المكتظ بالسكان في قلب المدينة ، بينا انتشرت جماعات منهم تنبش الدور والقصور والكنائس والحوانيت بحثاً عن الغنائم . وكان الحصاد وفيراً للغاية حتى فاق كل تقدير : فمن ذهب إلى زمرد وفضة وكل ما تشتهيه الأنفس من ثمين على وجه المسكونة ، كما يشهد بهذا قلهاردوان ذاته (١٠٠٠).

وكان رجال الدين أشد جند الصليبية ضراوة ونهباً. وفي مسلك مارتينوس

Villehardouin, CVI. (4A)
Gunther of Pairis, col. 244; Villehardouin, CVII. (49)

Villehardouin, loc. cit. (1...)

مقدم ديربايرس الدليل المادى على فظاظة جماعة الإكليروس اللاتين وجشعهم . فقد اندس صاحبنا بين عصابة من اللصوص الفرنجة وهاجموا سويا دير بانتوكراتور . ولكى يحصل مارتينوس على مفتاح الخزانة المودعة فيها الآثار المقدسة للدير ، فقد هدد الراهب البيزنطى الهرم الذى كان يقوم بحراسها بالقتل إن لم يدله على مكان هذا المفتاح . وتم له ما أراد من نهب وسرقة داخل بيت العبادة هذا (۱۱۱)

هذا وتفيض المصادر الغربية بذكر أعمال النهب التي قام بها الصليبيون داخل كنائس بيزنطة ولكأن هذا عمل بطولي كبير حقق ما كانت الحركة الصليبية تصبو إليه في تخايص الآثار المقدسة من أيدى «الهراطقة». استولي المصليبيون على كل شيء جميل احتوته المدينة. ولم يتوقفوا في زحفهم المدمر إلا للقتل أو لهتك الأعراض. ولم يفلت من أيديهم أحد ؛ فقد اغتصبوا الراهبات في عقر أديرتهن. ودخل الجند السكاري كنيسة آبا صوفيا وأجلسوا عاهرة على العرش البطريركي وجعلوها تغني أغان بذيئة وترقص الرقصات الرخيصة أمام المذبح الكبير. وركلت الكتب المقدسة ووقعت تحت الأقدام ، البيا استخدمت الأواني الطاهرة أقداحاً للخمر.

بعد ثلاثة أيام اكتوت بها القسطنطينية على هذا المنوال ، جمع قادة الصليبية الغنائم النفيسة لتوزيعها فيا بينهم . ومع أن أشياء كثيرة قد سرقت وأخفيت ، إلا أنهم أحرزوا غنائم قيمتها تعادل ، ، ، ، ، ، ، جنيه من ذهب وفضة للتوزيع . وقد أضيف إلى هذا آيات الفن النادرة التي كانت في المدينة من عهد قنسنطنطين العظيم وخلفائه . ويعطينا نيكيتاس كونياتس ، وهو شاهد عيان ، قائمة بآيات الفن التي دمرها الصليبيون وصهروها لتحويلها إلى عملات والتي كان من بينها التمثال البرونزي للذئب وروميلوس وريموس ، وتمثال پارس مع التفاحة الذهبية ، وهيلين الطروادية ، والتماثيل النحاسية التي أقامها أغسطس بعد واقعة أكتيوم . وتناول هذا الجرم الصليبي أيضاً

آیات الفن المسیحی ، کما نبشوا قبور الأباطرة ومذابح الکنائس وستائرها لنهب ما فیها من معادن نفیسة . وعلی هذه الشاکلة القمیئة الرذیلة حقق الصلیبیون «أعظم فتح تم ، دونه مجد إسکندر المقدونی وساطان شرلمان » کما تروی المصادر الغربیة ؛ فی حین أن أهل بیزنطة باتوا ینوحون مع نیکیتاس کونیاتس :

«أيتها المدينة . . المدينة ، يا خير المدائن . . يا حديث المسكونة ، يا منار الأرض ، يا حامية الكنائس ، يا سيدة الإيمان ، يا قلعة العلم ، يا ملاذ كل الخير! لقد تجرعت حتى الثالة من كأس غضب الله ، ولقد حل بك أتون أبشع من ذاك اللى انصب لظاه قديماً على المدائن الخمس» (١٠٢). بعد هذا اجتمعت لجنة الاثنى عشر واتخذت قراراً بانتخاب إمبراطور لاتيني للإمبراطورية البيزنطية ، ووقع الاختيار على بلدوين من فلاندرز ، وأذاع أسقف سواسون هذا القرار على الصليبيين وسط هتافات النصر والفرح (١٠٣) . وتم تتويج بلدوين في حفل حافل في كنيسة آياصوفيا ، حيث قام الماركيز بونيفاس من مونتفرات والكونت لويس من بلوا بأداء يمين الولاء والطاعة له . وعليه تم تسليم مدينة قنسطنطين ، وقد أتت النار على نصفها وجردت تماماً من كنوزها ، إلى أول إمبراطور لاتيني لبيزنطة . ولقد هرب من المدينة أربعة أخماس سكانها ، ولم يبق فيها سوى المتسولون والمعدمون والمرضى . وتلقى بلدوين أيضاً إقليم تراقيا والأقاليم الآسيوية ، بيثينيا وميزيا وليديا والتي كان يتحتم عليه إخضاعها فما بعد . أما الماركيز بونیفاس ، الذی تزوج أرملة إسحق إنجلیوس ، ماری ، فقد أصبح ملكاً على تسالونيكا وتلقى إقطاعاً من بلدوين عن مقدونيا وتساليا وإبيروس. أما الكونت لويس فقد أقطع دوقية نيقية، بينما حصل رينيه من ترت على دوقية فيليبو بولس ، وهنرى من فلاندرز على أبيدوس وأعمالها . وعلى هذا المنوال

Nicetas Choniates, Historia (Bonn ed.), p. 763.

Villehardouin, CX. (1.7)

قطعت أوصال الإمبراطورية البيزنطية بين بارونات الصليبية الرابعة .

وما إن وصلت أنباء سقوط بيزنطة فى يد الصليبيين إلى سوريا حتى سارع عدد من باروناتها إلى القسطنطينية بحثاً عن نصيبهم ؛ لأنهم لم يصادفوا حظا فى الشام : محصل ستيفن من پرش على دوقية فيلادلفيا إقطاعاً من بلدوين ، بينا حصل جيوفرى من ڤلهاردوين الأصغر على الإذن من بونيفاس دى مونت فرات لغزو إقليم المورة (١٠٤٠).

أما البنادقة فقد حصلوا على ما يربو على ربع الإمبراطورية نصيباً لهم من الفتح ، فوقع فى أيديهم جزيرة كريت ، وجزر أيونيا ، وأجزاء من الساحل الغربى لليونان وألبانيا ، وجزر بحرايجة والرقعة الواقعة عند مدخل الدردنيل . وهكذا استولى البنادقة على الموانى الممنازة والقلاع البحرية المنيعة ، ولم يهتموا بالأراضى الواقعة فى الداخل وذلك تمشياً مع مصالحهم التجارية قبل كل شيء .

وجنباً إلى جنب مع عملية تقسيم أراضى الإمبراطورية سارت عملية أخرى لا تقل أهمية عنها ألا وهى مهمة خلع الأساقفة البيزنطيين من أسقفياتهم وإحلال أساقفة لاتين مكانهم . فاختير توماس موروسينى من أهالى البندقية ليحتل عرش بطريركية آياصوفيا بدلا من يرحنا العاشر كماتيروس الذى كان قد فر من العاصمة إلى تراقيا ، بعد أن اعتزل منصبه ليترك الباب مفتوحاً للإكليروس البيزنطيين الفارين من العاصمة ليختاروا مكانه واحداً من بينهم وهم لذ في منفاهم . وفي آثينا نصب بيرارد الفرنسي أول رئيس أساقفة لاتيني في المدينة ، فافتتح بهذا فرعاً من الهايريركية اللاتينية ظل مستمرا هناك حتى وقت الغزو التركي .

ومع أن البابا انوسنت الثالث قد عارض فى بادئ الأمر تعيين توماس موروسيني لمنصب البطريركية ، إلا أنه فيا بعد تخلى عن موقفه هذا وبارك

هذا التعيين ، بل ومنح موروسيني امتيازات كنيسة طائلة من بينها حق «مسح » الملوك عند تتوجهم ومضى انوسنت الثالث في سياسته الودية الجديدة قبالة هذا البطريرك من أهالي البندقية فراح يتحدث عن بطريركية بيزنطة على أنها وإن كانت آخر البطريركيات نشوءاً من الناحية الزمنية غير أنها أفضلها مكانة وتاريخاً بعد بطريركية روما (١٠٥).

ولما قدم القاصد الرسولي ، بطرس من سان مرسلاوس ، استدعى الإكليروس البيزنطي وأمرهم باتباع الطقوس اللاتبنية في كنائسهم . وفي إحدى المناسبات عطل موروسيني الصلاة في الكنائس البيزنطية في العاصمة لأن كهنتها رفضوا ذكر اسمه في قداساتهم برغم كونه بطريركاً لآيا صوفيا . وسرعان ما اضطر الأساقفة البيزنطيون إلى الهروب من إبروشياتهم خوفاً من جبروت موروسيني . ولم يكتف الغزاة بإحلال أساقفة لاتين بدلًا من البيزنطيين ، وإنما أقاموا أسقفيات لاتينية جديدة . كذلك وجدت الديرية اللاتينية طريقها إلى الإمبراطورية البيزنطية ، فلقد بدأ إرساء نفوذ السيستيرشيان غداة الفتح . فني ٢٥ مايو ١٢٠٥ أرسل البابا أنوست الثالث رسالة إلى رؤساء أساقفة وأساقفة فرنسا يمتدح فيها جهود الإمبراطور بلدوين الأول ف « توثيق عرى العقيدة المسيحية في الشرق » . وأوضح البابا أن بلدوين قد طاب إليه إيفاد « رجال من أهل التقوى من جماعة السيستيرشيان والكلونيين » إلى الإمبراطورية الحديدة (١١٠١) . كذلك أقطع بونيفاس دى مونت فرات ، ملك تسالونيكا (١٢٠٤ - ١٢٠٧) ، مقدم الدير بطرس من لوسيديو دير كورتايتون على أحد حيال سالونكا الذي كان أهلوه قد فروا منه عند الغزو اللاتبني للمنطقة . وكان هذا يعاية نقطة البداية لنفوذ السيسترشيان في الإمبراطورية البيزنطية . وبعد مضى عشرين عاماً من وقت الغزو صارت هناك ست بيوتات ديرية للسستيرشيان في الإمبراطورية . وفي نفس الوقت وجدت الديرية الفرنسسكانية

P.L., Vol. CCXV, cols. 574 - 75.

^(1.0)

Ibid., cols. 636 - 37.

^(1.7)

* * *

ليس من العدالة في شيء أن يقال أن البابا انوسنت الثالث قد ووجه بالأمر الوقع فأقر الصليبيين على فعلهم في غزو بيرنطة . ذلك لأن البابا كان يعلم علم اليقين أن الحملة الصليبية الرابعة كانت تستهدف الهجرم على القسطنطينية ، كما وأنه قد تواطأ فتباطئ في إدانة «انحرافهم» على زارا ومدينة قسطنطنين العظيم ، وبهذا فقد سمح لقادة الصليبية بالمضى قدماً في مخططهم العدواني ضد الإمبراطورية البيرنطية . ولو فحصنا مكاتبات أنوسنت الثالث بعد سقوط القسطنطينية لوجدنا أنه كان راضياً كل الرضا عن «النجاح المظفر » الذي حققته الحملة لإعلاء شأن كنيسة روما .

فنى عام ١٢٠٤ كتب بلدوين من فلاندرز • أول الأباطرة اللاتين لبيزنطة ، إلى البابا أنوسنت الثالث يزف إليه نبأ سقوط القسطنطينية في أيدى الصليبيين وانتخابه إمبراطوراً في حضرر القاصد الرسولي وبين الهتافات بالنصر والدعاء للسيد البابا وكنيسة القديس بطرس (١٠٨).

رد البابا على بلدوين فعبر له عن الفرحة الغامرة التى ملأت قلبه عند قراءة رسالته وما احتوته من أنباء سارة عن سقرط دولة البيزنطيين وإخضاعها وكنيستها العاقة لسلطان الكرسى الرسزلى الرومانى . وأشاد البابا بهذا الفتح المبين الذى «حول الكنيسة البيزنطية المنشقة المنحرفة إلى طريق السواء على شاكلة سيدتها كنيسة روما » (١٠٩) .

كذلك كتب البابا انوسنت الثالث إلى رجال الدين المشاركين في الصليبية الرابعة في القسطنطينية (١٢٠٤) يذكرهم بقول النبي دانيال عن حكمة الله

See E A.R. Brown, "The Cistercians in the Latin Empire of Constantinople and Greece, 1204 - 1276" in Traditio, Vol. XIV (1958), pp. 78-79.

P.L., Vol. CCXV, cols. 447 - 54. (۱۰۸)

Ibid., cols. 454 - 55. (1.4)

وقدرته فى تبديل الأحوال والأزمان وإذلال من يشاء وإعلاء من يشاء . وعبر البابا عن بهجته الزائدة لأن نبوءة دانيال قد تحققت أثناء اضطلاعه ذاتيا بالبابوية ، فأذن الله بتحطيم دولة البيزنطيين وإنقاذ كنيستهم الضالة من «سحب الجهالة والضلال التي خيمت عليها مثلما كان الحال مع السيناغوغ » ، وإخضاعها لسلطان كنيسة روما . ومضى البابا يشرح لقارئيه أن البيزنطيين لم يكونوا يعون طبيعة المسيح المساوية للآب فى الجوهر ، ومن ثم « فقد أنكروا انبثاق الروح القدس من الابن » ؛ «لأنهم لم يتفقهوا بعد أصاحات الكتاب المقدس » . واختم انوسنت الثالث رسالته طالباً من رجال الدين اللاتين المثابرة على تثبيت المكاسب اللاتينية فى بيزنطة ونشر العقيدة القويمة ورفع ألويتها عالية بعد زوال الدولة الكريهة والكنيسة المهرطقة (١١٠) .

كذلك كتب الإمبراطور بلدوين إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدى الأديرة والبارونات والفرسان فى غرب أوربا يصف لهم كيف أن «يد الله قد أنفلت المعجزة ، فهوت دولة البيزنطيين وارتفع سلطان اللاتين » . وفسر بلدوين الملذابح التى أحلها الصليبيون بسكان مدينة قسطنطين على أنها تمام للنبوءة القائلة : «وإن واحداً منكم ليفتك بمائة منهم » . وصف بلدوين بيزنطة على أنها قد كانت دواماً العدو اللدود للصليب والحليف الأول للكفار ؛ ولذا وقد انصب غضب الله على أهلها بسبب انحطاط خلقهم وعاداتهم » . ومضى الكاتب يعدد سرءات البيزنطيين فى أنهم لم يهتموا بذكر اسم أمير الرسل بطرس فى كنائسهم بسبب تعصبهم الأعمى ضد كنيسة روما ؛ كما وأنهم ما كانوا يشيرون إلى اللاتين إلا بقولهم : «هؤلاء الكلاب » الذين أحلت ما كانوا يشيرون إلى اللاتين إلا بقولهم : «هؤلاء الكلاب » الذين أحلت منيستهم سفك دمائهم . ولذا فإن الله — كما عبر بلدوين ذاته — شاء أن تقلم أظافرهم فتزول دولتهم ويقضى على كنيستهم بواسطة سيفه المنتقم الجبار تقلم أظافرهم فتزول دولتهم ويقضى على كنيستهم بواسطة سيفه المنتقم الجبار ألا وهو الحملة الصليبية ذاتها (١١١) . واختتم بلدوين رسالته هذه بحث

P.L., Vol. CCXV, cols. 456 - 61. (11.)

Bibiliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, ff . 134 - 139: ".. Haec= (\ \ \ \)

الإكليروس في الغرب على ترغيب الناس في الهجرة إلى القسطنطينية حيث تفيض الأرض عسلا ولبنا وحيث يحصلون الغفران من المسيح عن سابق ذلاتهم (١١٢) . ونجد هذه المعانى ذاتها في رسالة للبابا انرسنت الثالث إلى رئيس أساقفة تور . تحدث البابا في هذه الرسالة عن ألقانة من بلدة رامتايم صوفيم ــ والد النبي صموثيل ــ الذي كانت له امرأتان اسم الواحدة حنة واسم الأخرى فننة 🛴 وشبه الكاتب كنيسة روما بالمرأة الأولى وكنيسة بيزنطة بالثانية ؛ لأن حنة كانت تقية تسكب نفسها أمام الرب ، أما فننة فكانت قاسة القلب تغيظ ضها غيظاً شديداً لأن لها أولاداً في حين أن الأخرى كان الرب قد أغلق رحمها . ومضى انوسنت في تسفيه الكنيسة الد زنطية لحماقتها ، التي كانت من قييل حماقة فننة ، ولكايرتها في قانون الإيمان ، ولانفصالها عن جسد الكنسة الرومانية العالمية " ولمخالفتها لها في الطقوس والعقيدة . ثم أوضح كاتب الرسالة أن « الارادة العلم بة شاءت أخبراً أن تدل عجرفة الدنطيين و يقضي على ضلال. كنيستهم » ؛ وذلك بسقوط الدولة البيزنطية في يد الصليبيين . وتحدث البابا عن الكسيوس الرابع فوصمه بالخيانة والغدر بحلفاءه الفرنجة ، مؤكداً أن مسلكه هذا دليار آخر على الحسة اللصيقة بجنسه . واستطرد البابا يزف إلى قارئيه نيأ اختيار بلدوين من فلاندرز امبراطوراً ليهزنطة . وجاءت خاتمة الرسالة لتحث الأساقفة على ترغيب المؤمنين في الذهاب إلى القسطنطينية للحفاظ بسيوفهم على عطية الله باخنده الصليبيين ، واعداً من يلي النداء بالأرض.

est quae Latinos omnes non hominum nomine dignabatur sed canum :

qvorum sanguinem effundere pene inter merita reputabat . . . Hace
et huivsmodi deliramenta, quae epistolaris explicare non valet angustia
impletis iniquitatibus corum quae ipsum Dominum ad nausiam provocabant, divina justitia nostro ministerio digna ultione percussit,
et expulsis hominibus Deum odientibus et amantibus sese terram nobis
dedit omnium bonorum . . "

التي تفيض عسلا ولبناً ، وأيضاً بغفران للخطايا وببركات من بطرس الرسول (١١٣) .

وفى نفس العام (١٢٠٤) كتت البابا انوسنت الثالث إلى رجال الدين اللاتين فى الصليبية الرابعة يأمرهم بضرورة إدخال الطقوس اللاتينية فى سائر كنائس الأمبراطررية البيزنطية ؛ وذلك حتى يكون الإكليروس كله متوافقاً مع العقيدة والطقوس الكنسية الرومانية ، وحتى يكون سائر أعضاء الكنيسة العالمية أهلا لرعاية أمير الكنيسة : البابا ذاته . وأعلن البابا فى ختام رسالته أنه موفد قاصداً رسولياً من لدنه للإشراف على أمور كنيسة بيرنطة (١١٤) .

* * *

على ضوء الرثائق سالفة الذكر يتضح موقف البابا انرسنت الثالث تجاه غزو القسطنطينية دون لبس ولا غموض . وليس من باب الصدفة أن نجد كثيراً من المعانى التى وردت فى هذه الرسائل مطابقة تماماً لما كان البابا ذاته قد كتب إلى السلطات البيزنطية فى عام ١١٩٨ ، حيما كان يهددها باتخاذ إجراءات عنيفة لإخضاع كنيسة القسطنطينية المنشقة . وفى هذا الدليل القاطع على دور انوسنت الثالث فى الصليبية الرابعة التى انتهت بغزو مدينة قنسطنطين . حقيقة أن البابا قد عبر عن استنكاره للمذابح التى وقعت فى العاصمة البيزنطية عند الغزو (١١٥) ، بعد أن وصلته التفاصيل عنها ، ولكن من الإنصاف أن نقول أن غضبة البابا قد البيزنطية دون أخذ رأيه فى هذا الخزيار ترماس موروسيني الكرسي البطريركية البيزنطية دون أخذ رأيه فى هذا

P.L., Vol. CCXV, cols. 471 - 72. (118)

Gesta Innocentii III, col. CXLI. (110)

Bibliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, ff. 139 - 144: "Frate ()) rnitatem vestram monemus et exhortamus in Domino per apostolica scripta mandantes, quatinus tam elericos quam laicos efficaciter inducatis ut ad capescendas spirituales et pariter temporales divitias ad praelatum imperatorem accedant.."

الاختيار (١١٦). والذي ساء البابا كثيراً هو علمه بأن البنادقة كانوا يخططون لاحتكار عرش البطريركية لجمهوريهم دون سواهم ، ولذا نجدهم يدعون موروسيني لأن يقسم بألا يقبل في مجلس آياصوفيا أعضاءاً ليسوا بنادقة . غير أن البابا أجبر موروسيني على استنكار هذا القسم الذي أداه لبني بلدته ، علانية . وبعدها اتسمت العلاقات بين موروسيني والبابا بالانسجام التام : فاعتمد البابا انتخابه وراح يتحدث عن بطريركية القسطنطينية «اللاتينية» على أنها أفضل البطريركيات جميعاً ، بعد بطريركية روما (١١٧) . وفي نفس الوقت نجد انوسنت الثالث بصدر قراراً بالغفران والعفو عن الدوج هنري داندولو ويمنحه بركات القديس بطرس (١١٨).

كذلك كتب البابا انوسنت الثالث إلى الماركيز بونيفاس دى مونت فرات ، ملك تسالونيكا ، يحثه على الثبات على حبه لأمه كنيسة روما . ورد الماركيز فأكد للبابا ولاءه للكنيسة الرومانية والعمل على رفع شأنها ، مدللا على هذا بدوره الكبير في إخضاع امبراطورية بيزنطة وكنيستها للسيد الأوحد « راعى وحامى المسيحية » : البابا ذاته (١١٩) . وكان بونيفاس قد تزوج من مارى أرملة اسحق انجيلوس . ولذا فقد كتب إليها البابا يهنئها على نبذها للطقوس البيزنطية وتحولها إلى الطقوس البيزنطية وتحولها إلى الطقوس اللاتينية القويمة ، وكذا على تلقيها « جسد المسيح » ، في شركة التناول ، من يد المندوب البابوي في القسطنطينية . كما أعلن البابا في نهاية رساته لمارى أنه يرحب بها وزوجها وأملاكهما تحت حمايته وسلطان الكرسي الرسولي للقديس بطرس (١٢٠) .

* * *

	promised and promise program of the course o
P.L., Vol. CCXV, col. 516.	(111)
Ibid., col. 515,	(117)
Ibid., col. 521.	(114)
Ibid., col. 624.	(114)
Ibid., col. 714.	(14.)

401

لم يكن سقوط بيزنطة فى يد اللاتين عام ١٢٠٤ نتيجة لانحراف الحملة الصليبية الرابعة ، وإنما جاء خاتمة لفصل طويل ومرير من العلاقات بين روما الجديدة .

* * *

BIBLIOGRAPHY

I. Original Sources

- Aimé de Monte Cassino, L'Ystoire de li Normant, (ed. O. Delarc), Reuen, 1892.
- Albanés, J., Gallia Christiana Novissima, 7 Vols., Montbéliard, 1895 1902.
- Albert of Aix, Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesia, in R.H.C. Occ., vol. IV.
- Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte, (ed. G. Paris), Paris, 1897.
- Anglo Norman Texts, The Crusade and Dcath of Richard I. (ed. R. Johnston), Oxford, 1961.
- Anna Comnena, Alexiad, (ed. B. Leib), 3 Vols., Paris, 1937 45.
- Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum, (ed.
 L. Bréhier as Histoire de la Première Croisade,) Paris, 1924.
- Ansbert, Gesta Frederici Imperatoris in Expeditione Sacra, in M.G.H.SS., in usum scholarum, 1892.
- Baronius, Annales Ecclesiastici, Lucques, 1746.
- Baudri de Dol, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. IV.
- Benedict of Peterborough, Gesta Regis Henrici II, (ed. Stubbs), 2 Vols., Rolls Series, London, 1867.
- Bernard of Clairvaux, Opera, in J. Mabillon's Opera Omnia, 2
 Vols., Paris, 1839.
- Canale, Martino da, La Cronica dei Veneziandi, (ed. Galvani),
 Frienze, 1845.
- Choniates, Nicetas, Historia, (C.S.H.B.), Bonn, 1835.

- Chronique Rimée de la Petite Arménie. in R.H.C. Arm., Vol. I.
- Chroust, A., Quellen zur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I, Berlin, 1928.
- Duchesne, L., Liber Pontificalis, 2 Vols., Paris, 1884 92, 3 rd ed.
 C. Vogel, Paris, 1955 57.
- Einhard, Vita Karoli Magni, in Scriptores Rerum Germanicarum, in usum scholarum, Neudruck, 1947.
- Ekkehard of Aura, Hierosolymita, in R.H.C. Occ., Vol. V.
- Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, (ed. Mas-Latrie), Paris, 1871.
- Estoire d'Eracles, in R.H.C. Occ., Vols. I and II.
- Foucher of Chartres, Gesta Francorum Hierusalem Peregrinantium, in R.H.C. Occ., Vol. III.
- Gerhoh, De Investigatione Antichristi, in M.G.H.SS., Libelli de Lite, III.
- Gregory the Priest, Chronicle, in R.H.C. Arm., Vol. I.
- Historia Belli Sacri, in R.H.C. Occ., Vol. III.
- Jaffé, P., Monumenta Gregoriana, Bernoldi, 1864. Bibliotheca Rerum Germanicarum, 6 Vols., Berlin, 1864 - 73. Regesta Pontificum Romanorum, Leipzig, 1885 - 88.
- Kinnamos, John, Epitome Historiarum, in C.S.H.B., Bonn, 1836.
- Lambert of Arras, Canons of the Council of Clermont, in Mansi, Concilia, Vol.XX.
- Mlaterra, Geoffroi, Historia Sicula, (ed. Muratori), in Scriptores,
 V.
- Matthew of Edessa, Chronique, (ed. Dalaurieur), Paris, 1858.
- Michael the Syrian, Chronicle, (ed. Chabot), 4 Vols., Paris, 1899-1910.

400

- Odo de Deuil, De Profectione Ludovici VII in Orientem, (cd. V. Berry), New York, 1948.
- Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, (ed. A. Le Prevost and L. Delisle), 5 Vols., Paris, 1838 55.
- Radulph of Caen, Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. III.
- Raymond of Aguilers, Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem, in R.H.C. Occ., Vol. III.
- Robert de Clari, La Conquête de Constantinople, (ed. P. Lauer),
 Paris, 1924.
- Robert the Monk, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. III.
- Villehardouin, Geoffroy de, La Conquête de Constantinople, (ed. N. de Wailly), Paris, 1872; New ed. by E. Faral, 2 vols., Paris, 1938 39; earlier ed. by P. Paris, Paris, 1838; early English trans. by T. Smith, London, 1829; recent paperback ed. by Sir Frank T. Marzials, N.Y. 1958.
- William of Tyre, Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum, in R.H.C. Occ.; Vol. I.
- Zonaras, Joannes, Epitome Historiarum, in C.S.H.B., Bonn, 1897.

II. Modern Works

- Bédier, J., Les Chansons des Croisades, Paris, 1909.
- -- Bréhier, L., Le Schisme Oriental du XIe Siècle, Paris, 1899.
- Bury, J., A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.
- Chalandon, F., Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicilie, 2 Vols Paris, 1907.
 - Les Comnenes, 2 Vols., N.Y., 1960.

- Diehl, C., Figures Byzantins, Paris, 1918.
- Dvornik, F., The Idea of Apostolicity in Byzantium and the Legend of the Apostle Andrew, Cambridge, Massachusetts, 1958.
- Fliche, A., "La Réforme Grégorienne et la Reconquête Chrétienne (10 57 1125), Vol. VIII of Histoire de l'Eglise, ed. Fliche, A. and Martine, E. Paris, 1950.
- Grümel, V., Le Patriarcat Byzantin, Paris, 1947.
- Hagenmeyer, H. Chronologie de la Premiére Croisade, Paris, 1902.
- Hefélc, C.J. and Leclercq, Histoire des Conciles, Paris, 1907 14.
- Hill, G., History of Cyprus, 4 Vols., Cambridge, 1948 52.
- Hussey, J., The Byzantine World, Lond, 1957.
- Lamma, P., Comneni Staufer, 2 Vols., Rome, 1955 57.
- Mas Latrie, L., Histoire de l'Isle de Chypre sous le Régne de la Maison de Lusignan, vol., I, Historie; vols. II and III, Documents, Paris, 1852 - 61.
- Norden, W., Das Papsttum und Byzanz, Berlin, 1903.
- Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, (trans. by J. Hussey, Oxford, 1956).
- Riant, P., Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades, Paris, 1881.
- Runciman, J.C.S., A History of the First Bulgarian Empire, London, 1930.
- Runciman, S. (Sir), A History of the Crusades, 3 Vols., Cambridge,
 1951 54.
 The Eastern Schism, London, 1955.
- Schlumberger, G., L'Epopée Byzantine au XIe Siècle, 3 Vols.,
 Paris, 1896 1905.
 Byzance et Croisades, Paris, 1927.

erted by Till Combine - (no stamps are applied by registered version

401

- Setton, K.M. and Baldwin (eds.), A History of the Crusades, Philadelphia, 1955 62.
- Vacandard, E., Vie de St. Bernard, Abbé de Clairvaux, 2 vols.,
 Paris, 1895.
- Vasiliev, A., History of the Byzantine Empire (324 1453), (trans. by Blackwell, B.; Oxford, 1952).



م إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٣٨٨٦/١٩٧٠

> مطابع دار المعارف بمصر سنة ۱۹۷۰







1 . 1 7 1 2